جليس

مكتبة ياسمين

الناجيات الأخيرات

رايلي ساجر

ترجمة: منى الدواخلي

الناجيات الأخيرات

رايلي ساجر

FINAL GIRLS

RILEY SAGER

جليس

شركة جليس للنشر والتوزيع

(00965)60393900

jalees.publishing@gmail.com

jalees.net

@jalees_net

@jalees_net

اشراف عام : حاتم حمدان

تصميم غلاف وإخراج : داليا العزب

ر.د.م.ك : 978 9921 772 26 5

Copyright © 2017 by Todd Ritter

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook

كوخ الصنوبر

الساعة الواحدة صباحًا

للغابة مخالب وأسنان..

كل تلك الأشواك والصخور والأغصان خدشت وعضت «كوينسي» في ركضها الفزِع، صارخةً في الغابة.. لكنها لم تثنها أو توقفها عن الركض، ولا حتى مع طعنات الصخور في عمق أقدامها الحافية، ولا مع خيط الدم الذي أغرق وجنتها، بعد أن صفعها غصن رفيع كالسوط.

لم يكن التوقف خيارًا متاحًا لها، التوقف يعني الموت. حتى مع تشابك مدادات نبات العليق على أقدامها، لم تتوقف وهي تسحبها، حتى مزقتها قوة ركضها لتتحرر قدماها.

لم تكن تدرك هل آلمها هذا أم لا؟ فكامل جسدها كان يئن من وطأة الألم. غريزتها هي ما أنبأتها بالهرب ركضًا، حدس خفي دفعها للاستمرار دون توقف مهما حدث. لم تعد تعلم لِمَا نسيت كل الأسباب وكل أحداث الخمس، والعشر، والخمسَ عشرةَ دقيقة الماضية وانمحت من عقلها. لو أن حياتها اعتمدت على تذكُّر ما دفعها للهرب عبر الغابة، لتأكدت أنها ستموت هناك على أرضها، لذا فقد ركضت صارخةً، محاولةً ألّا تفكر بالموت.

ومضَ ضوء أبيض من بعيد، واختفى وراء الأفق المفقود خلف سياج الأشجار المتشابكة.

كشافات سيارة!

هل اقتربت من الطريق؟ أملت «كوينسي» في ذلك، فكل إحساسها بالاتجاهات ذهب أدراج الريح مع ذكرياتها. أسرعت في العدو أكثر تجاه الضوء، وهي تعلو بصوت صرخاتها.

صفع فرع آخر وجهها، لكنه كان أكثر سمكًا مما سبقه، كأنه نشابة العجين، وتركتها الصفعة في لحظة من العمى والصدمة.

نبضَ الألم بقوة مفاجئة في رأسها، بينما رأت بعيون مغشية ومضات متقطعة لضوء أزرق. وما إن صفت الرؤية، حتى رأت خيالًا يقف أمام ضوء الكشافات.

رجل..

هو..

لا.. ليس هو.

مكتبة ياسمين

بل شخص آخر.

t.me/yasmeenbook

الأمان.

اتسعت خطوات «كوينسي» بينما تهرول، ومدَّت ذراعين غارقتين في الدماء أمامها، كأنها ستجذب ذلك الغريب لتقرِّبه منها. حركة جعلت كتفها يحترق ألمًا، ومع الألم جاءها الفهم.. لم تسترد ذاكرتها، بل الفهم القبيح المرعب إلى درجة واقعية.

فقط «كوينسي» من تبقَّت!

كل البقية قتلوا، وهي من بقيت على قيد الحياة!

الفصل 1

كانت يداي مغطاتين بكريمة التزيين، عندما اتصل «چيف». على الرغم من أنني بذلت قصارى جهدي، إلا أن كريمة الزبدة الفرنسية سالت على سُلاميات أصابعي بلزوجة، كأنها غراء. فقط إصبعي الأصغر بقي نظيفًا بما يكفي لضغط زر مكبر الصوت.

- مكتب كاربنتر وريتشاردز. محققان خاصان.

- كيف لي أن أساعدك؟

قلتها بصوت مبحوح لاهث، مقلدة صوت موظفات الاستقبال في أفلام الجريمة القديمة. تماهى «چيف» معي بصوت رجولي عميق، يتأرجح في الشبه بين «روبرت ميتشوم» و«دانا آندروز»:

- ضعي الآنسة «كاربنتر» على الهاتف، أريد التحدث معها على وجه السرعة.

- الآنسة كاربنتر مشغولة بقضية هامة الآن. هل لي أن أبلغها بأية رسالة؟

- نعم، أبلغيها أن طائرتي المقلعة من شي تاون - شيكاجو- ستتأخر.

وجمتُ وقد سقط قناع التمثيل عن وجهي:

- أوه «چيف»! حقًّا؟

- آسف يا حبي. هناك مخاطرة جسيمة بالطيران من المدينة العاصفة.

- كم سيطول الإرجاء؟

- ما بين ساعتين إلى «ربما أعود الأسبوع المقبل».

أردف:

- على الأقل أرجو أن يطول الإرجاء حتى تفوتني بداية موسم

الخبز.

- لا تأمل في حظك يا فتى.

- بالمناسبة، كيف تجري الأمور معك؟

أجبته ناظرة إلى أصابعي:

- فوضوية.

«موسم الخبز» هو الاسم الذي يطلقه «چيف» على تلك الفترة المرهقة من أوائل أكتوبر وحتى نهاية ديسمبر، عندما تتوالى كل تلك الإجازات بمواسم الحلوى واحدة تلو الأخرى دون إرجاء. عادة يلفظه كأنه تعبير مشؤوم، رافعًا يدًا وهو يثني أصابعه كأنها أرجل عنكبوت.

والمفارقة هنا، أن عنكبوتًا هو ما أغرق أصابعي بالحلوى الفرنسية، حيث صنعته من كريمة شيكولاتة داكنة، وعلقته متأرجحًا على حافة كعكة قالب «كب كيك»، لتمتد سيقانه على القمة والجوانب.

عندما سأنتهي منه، سيتم تصوير الكعكة وعرضها على موقعي، ضمن قائمة أفكار جديدة لمخبوزات الهالوين. سمة هذا العام انتقام اللذة.

سألته:

- كيف الحال في المطار؟

- مزدحم. أظنني سأزجي الوقت إن قضيته في حانة المطار.

- اتصل بي لو ساءت الأمور وتم الإرجاء لفترة أطول، سأكون هنا مغطاة بكريمة تزيين الحلوى.

- اخبزي بسرعة الريح!

انتهت المكالمة، وعدت إلى عنكبوت الكريمة والكرز والشوكولاتة، الذين يغطون الكعكة جزئيًا. لو تمكنت من إتقانها كما أبغي، فسيتدفق اللون الأحمر من قلبها مع أول قضمة. لكن هذا ما سأتأكد منه لاحقًا، أما الآن لجَلّ اهتمام الخبّاز

هو الشكل الخارجي.

تزيين كعكة الـ «كب كيك» أصعب مما يبدو، خاصة وأن المنتج النهائي سيشاهده الآلاف على الإنترنت. اللطخات والمسحات غير مقبولة في عالم صارت الشاشات فيه عالية الدقة، حيث تبدو العيوب مضخمة عن واقعها.

«التفاصيل هامة»

تلك واحدة من الوصايا العشر على مدوَّنتي، حشرتها بين «معايرة المقادير يحددها أصدقاؤك» و « لا تخشي الفشل».

كنت قد أنهيت الكعكة الأولى وبدأت الثانية، عندما دق جرس هاتفي ثانية، وهذه المرة لم يكن هناك أي إصبع نظيف لأرد به، فاضطررت إلى تجاهل المكالمة وترك الهاتف يطن في وضع الاهتزاز زاحفًا على سطح المطبخ، حتى عمَّ الصمت، ثم أصدر صفير تنبيه خفيف ليعلن عن رسالة. غلبني الفضول، فوضعت كيس كريمة التزيين جانبًا، ومسحت يديَّ لأتفقد الهاتف. كانت رسالة من « كووب»

«نحن بحاجة للحديث.. وجهًا لوجه»

تجمدت أصابعي على شاشة الهاتف، أفكر أن المدة التي سيستغرقها « كووب» للوصول إلى مانهاتن قرابة ثلاث ساعات من القيادة، وهي رحلة طويلة قام بها مرارًا في الحالات الطارئة فقط.

راسلته متسائلة: متى؟

لجاءني الرد خلال ثوان: «الآن. نفس المكان المعتاد»

اعتراني القلق حتى جمَّد ظهري.. « كووب» هنا بالفعل، بما يعني أمرًا واحدًا... هناك أمر جلل قد وقع!

قبل أن أخرج للقائه، قمت بروتيني المعتاد قبل كل لقاءاتنا.. غسلت أسناني، ووضعت ملمع الشفاه، وابتلعت قرصًا من الزاناكس، مضاد الاكتئاب، مع بعضٍ من صودا العنب،

تجرعتها من الزجاجة مباشرة بعد الحبة الزرقاء، لأزيل طعمها من لساني.

وفي المصعد، خطر لي أنه كان يجب عليَّ إبدال ملابسي، لما زلت أرتدي ملابس الخبز: جينز أسود، وأحد قمصان «چيف» القديمة، وصندل أحمر.. كلها ملطخة ببقايا الدقيق وببقع ألوان طعام باهتة، وعلى كفي لاحظت بقايا بقعة مجمدة من كريمة التزيين بلون أزرق مسود، كأنها أثر كدمة على بشرتي، فلعقتها عن يدي.

خرجت من شارع اثنين وثمانين، لأعرّج يمينًا على شارع كولمبوس، الذي كان بالفعل يعج بالمشاة. انكمش جسدي تلقائيًا لمرأى كل هؤلاء الغرباء، فتوقفت ودسست يدي في حقيبتي، لأقبض على رشّاش الفلفل، والذي أحتفظُ به دومًا. الأمان في الزحام، أعلم هذا، لكن هناك المجهول كذلك. لم أبدأ التحركِ إلا بعد أن قبضت على رشاش الفلفل، واعتلى وجهي تعبير مفاده «لا تحاول إزعاجي».

بالرغم من سطوع الشمس، إلا أن هناك لسعة برد خفيفة، جو ملائم لبدايات أكتوبر في نيويورك، حيث يميل الطقس للتأرجح بين الحار والبارد ويأتي الخريف بخطى حثيثة. ما إن لاحَ منتزه «ثيودور روزفلت» لبصري، حتى تباينَ لون الأشجار ما بين الأخضر والذهبي، ومن بين الأغصان متساقطة الأوراق رأيت متحف التاريخ الطبيعي، والذي عجَّ في هذا الوقت من الصباح برحلات أطفال المدارس، لتصدح أصواتهم كالطيور بين الأشجار.

وعندما صرخ أحدهم، صمتَ البقية فجأة لكسر الثانية.. تجمدت على الرصيف في توتر، لا من صوت الصرخة، بل من الصمت الذي عم فجأة. لكن أصوات الأطفال صدحت مرة أخرى، مما هدأ من أعصابي المشدودة، فاستأنفت السير متجهة إلى مقهى يقع على بعد بنايتين جنوب المتحف. كان هذا هو مكاننا المعتاد.

كان «كووب» جالسًا بانتظاري جوار النافذة، بشكله المعتاد، بنفس الوجه حاد القسمات خشن الملامح، والذي يبدو دائمًا غارقًا في ملكوته الخاص، كما الآن. طويل عريض، ذو يدين ضخمتين، حملت إحداهما خاتمًا ذا فص ياقوتي بدلًا من دبلة الزواج. ما زال كما هو، لم يتبدل فيه إلا شعره الذي يبقيه قصيرًا بعناية.. في كل مرة يغلب لون الشيب عليه أكثر من سابقه.

جذب وجوده انتباه كل رواد المقهى من مربيات الأطفال ومدمني الكافيين الذين زحموا المكان، فلا شيء كشرطي في كامل هيئته الرسمية يمكن أن يستحث فضول وقلق الآخرين. وحتى دون زيه الرسمي، «كووب» له تلك الهيئة المقلقة المخيفة للآخرين، فهو رجل ضخم ذو كتلة عضلية مهولة، يوحي قميصه المنشى وسرواله المكوي بعناية بحقيقة حجمه الفعلي.

رفع رأسه ما أن دخلت، فلاحظت الإرهاق البادي في عينيه.. يبدو أنه قاد مباشرة إلى هنا بعد إتمام ثلاث مناوبات عمل.

على الطاولة، استقر بالفعل قدحان: شاي إيرل جراي مع اللبن وسكر زيادة لي، وقهوة سوداء غير محلاة لـ «كووب».

أومأ برأسه قائلًا: «كوينسي»

دائمًا هناك إيماءة مع «كووب»، تلك هي طريقته في التحية وبديل المصافحة. لم نتعانق أبدًا، على الأقل ولا مرة بعد المرة الوحيدة التي عانقته فيها عناقًا يائسًا ليلة مقابلتنا الأولى. مهما قابلته من مرات، تسيطر تلك اللحظة على أفكاري تلقائيًا، مرارًا وتكرارًا، حتى أدفعها بعيدًا.

«لقد ماتوا».. غصَّ حلقي، بينما تشبثت به واختنقت الكلمات في مؤخرة حلقي. «لقد قتلوا جميعًا، وهو مازال حرًا طليقًا».. بعدها بعشر ثوان أنقذ حياتي.

- تلك مفاجأة بالفعل!

قلت وأنا أتخذ مقعدي، محاولة السيطرة على رجفة صوتي. لم أعرف لما اتصل بي «كووب»، لكن لو أنها أخبارٌ سيئة فأريد أن أتقبلها بهدوء عند سماعها.

- تبدين بخير حال.

قال «كووب» وهو يلقي نظرة فاحصة سريعة اعتدتها منه، وأردف:

- لكنكِ فقدت بعض الوزن.

اعترى القلق صوته، فقد كان يفكر بما جرى بعد ستة أشهر من واقعة كوخ الصنوبر، عندما فقدت شهيتي تمامًا، حتى انتهى الحال بي إلى العودة للمشفى، على جهاز تغذية اصطناعية، بأنبوب تم حشره في حلقي. ما زلت أذكر لحظة استيقاظي لأراه يقف محدقًا في الخرطوم المعلق في فتحتي أنفي قائلًا: لا تخيبي ظني بك يا «كوينسي»، فأنت لم تنجي في تلك الليلة كي تموتي هنا بهذه الطريقة. انتزعت نفسي من مجرى الذكريات وأجبته:

- لا يوجد ما يدعو للقلق، فقط لقد تعلمت ألّا آكل كل ما أخبزه.

- وكيف يجري هذا معك؟ أقصد مهنة الخباز.

- عظيمة، حققت 5000 متابع في آخر ثلاثة أشهر، مع حق إعلاني لإحدى الشركات الكبرى.

- هذا رائع. سعيد أن أحوالك بخير. يومًا ما عليك خبز شيء لي.

كان هذا تعبيرًا مكررًا آخر منه، مثله مثل إيماءة التحية، شيئًا يقوله دون أن يعنيه. استطرد:

- كيف حال «جيفرسون»؟

- بخير حال. مكتب المدعي العام كلّفه بالدفاع في قضية ضخمة دسمة.

تجاهلت إخباره أنها قضية تخص رجلًا قتل شرطي مكافحة مخدرات في عملية قبض فاشلة. «كووب» يحتقر مهنة «چيف» بالفعل، لذا لم أرد لعلاقتهما المتأزمة أية هزات إضافية.

رد «كووب» آليًا:

- خيرٌ له.

- إنه غائب منذ يومين، طار إلى شيكاجو ليحصل على إفادة أسرة الجاني، يقول إن هذا سيجعل المحلفين أكثر تعاطفًا

رد «كووب» بذهن شارد:

- همممممم!.. أظنه لم يعرض عليكِ الزواج بعد.

هززت رأسي موافقة. كنتِ قد أخبرت «كووب» بتوقعاتي أن «چيف» قد يعرض عليَّ الزواج في أغسطس السالف، خلال إجازتنا في جزيرة «أوتر بانكس»، لكن خاب ظني ولم أحظ بالخاتم بعد، لهذا بدأت بفقد الوزن، فقد تحولت إلى تلك الفتاة التي تمرن وتعدو يوميًا لتناسب ثوب زفاف افتراضي.

أجبته:

- مازلت بالانتظار.

- سيأخذ الخطوة.

- سألته أريد إغاظته:

- وماذا عنك؟.. هل وجدت فتاة أحلامك بعد؟

- كلا.

رفعت حاجبي متسائلة:

- ولا فتى؟

رد بوجه متجهم دون لمحة ابتسامة عليه:

- هذه الزيارة بخصوصك يا «كوينسي».

- بالطبع. اسأل، وأنا أجيب

هكذا كانت تجري الأمور بيننا، كلما تقابلنا مرة أو اثنتين أو ثلاثة كل عام. في الغالب تشبه زياراته جلسات العلاج النفسي، بلا أدنى فرصة لي كي أوجه له أية أسئلة. أنا على علم تام بالخطوط العريضة لحياته، هو في الحادية والأربعين، قضى مدة في البحرية، وكان حديث العهد بالانضمام لسلك الشرطة، عندما عثر عليّ صارخة بين الأشجار تلك الليلة. ورغم علمي التام بأنه يقوم بدوريات حراسة في تلك البلدة، حيث وقعت تلك الأحداث المشؤومة، إلا أنني لا أدري إن كان سعيدًا أو راضيًا أو وحيدًا في حياته. لم أسمع منه أبدًا في الإجازات، ولم أتلقَّ أبدًا بطاقة معايدة في الكريسماس. في جنازة والدي منذ تسعة أعوام، جلس في الصف الأخير، وغادر قبل حتى أن أشكره على حضوره. أقصى ما رأيت منه من مشاعر هي رسالة عيد ميلادي المتكررة، بنفس النص سنويًا:

«عام آخر كاد ألّا يُكتَب لك. عيشيه»

قال فجأة مغيِّرًا مجرى الحديث:

- «چيف» سيغيِّر رأيه، أراهن أنه سيفعلها ويتقدم لك في الكريسماس، فالرجال يحبون عروض الزواج حينئذ.

ابتلع جرعة من القهوة، بينما احتسيت الشاي مغمضة عيني لوهلة قصيرة، آملة أن الظلام سيجعلني أسمح بتأثير الزاناكس.

عوضًا عن ذلك، وجدتني أكثر توترًا عما دخلت. فتحت عيني، لأرى امرأة أنيقة منسقة الملبس تدخل المقهى مع رضيع ممتلئ مهندم الملبس مثلها، ثنائي ربما يدفع إلى الحسد. أغلب النساء تحت الثلاثين في هذا الحي يدفعن إلى الحسد، في الأيام المشمسة الدافئة يزدحمن على الأرصفة، كوكب من المتشابهات حديثات التخرج، مسلحات بشهاداتهن الجامعية وبقروض الطلبة. السبب الوحيد الذي لفتَ انتباهي لهذه الفتاة هو مدى تشابهنا: وجه نضر خال من العيوب، وشعر أشقر

معقود في ذيل حصان، متوسطة البنيان لا هي بالنحيفة ولا الممتلئة، نتاج مثالي لأبناء مزارع الألبان في ولايات الغرب الأوسط. كنت لأصبح مثلها تمامًا في حياة أخرى، حياة بلا «كوخ الصنوبر»، ولا دماء، ولا ثوب تغيَّر لونه في حلم مفزع.

هذا أمر أتذكره في كل مرة أقابل «كووب». لقد ظن أن ثوبي أحمر اللون ليلتها، هكذا همس في لاسلكي السيارة عندما طلب الدعم،

هكذا تمَّ وصفه في محضر الشرطة الذي قرأته مرارًا، وتسجيل اللاسلكي الذي تمكنت من سماعه مرة.

«هناك شخص يركض بين الأشجار.. فتاة، قوقازية شابة، ترتدي ثوبًا أحمر وتصرخ»

كنت أجري بين الأشجار، فعليًا أركض، أرفس الأوراق ولا أشعر بالألم الذي تخلل كامل جسدي. ورغم أنني لم أسمع سوى ضربات قدمي تدق كالطبل في أذنَي، إلا أنني كنت أصرخ بالفعل. الشيء الوحيد الذي أخطأه «كووب» هو لون ثوبي. لقد كان حتى ساعة ماضية أبيض اللون.. بعض الدماء كانت لي، لكن البقية كانت للأخريات، أغلبه لـ «چينيل»، من جراء اللحظة التي ضممتُها فيها قبل أن أتأذى.

لن أنسى النظرة على وجه «كووب» عندما أدرك خطأه.. اتساع عينيه الطفيف، واستطالة فمه الذي حاول أن يبقيه مغلقًا، زفيره الذاهل، تلاه صدمة وتلته شفقة. تلك من الأشياء القليلة التي أتذكرها من تلك الليلة.

انقسمت تجربتي في «كوخ الصنوبر» إلى قسمين، بداية مفعمة بالخوف والتشوش، حيث خرجت «چينيل» مترنحة من الغابة وهي على شفا الموت. والنهاية حين عثر عليّ «كووب» في ثوبي الأحمر- اللا-أحمر.. ما بين هاتين اللحظتين بات خاويًا تمامًا في ذاكرتي، ساعة وربما أكثر أو أقل قد امحت تمامًا.

«فقدان الذاكرة التفارقي» هذا هو اللفظ العلمي لتشخيص

حالتي، والمعروف تبسيطًا باسم متلازمة الذاكرة المكبوتة. يبدو أن ما شهدته كان أبشع من أن يتحمله عقلي ويحمله في ذاكرته، لذا حجبته عقليًا، في إزالة نفسية ذاتية، استأصلته من مخي.

لكن هذا لم يردع الناس عن التوسل لي أن أتذكر ما جرى. بصفاء نية من الأسرة، الأصدقاء الذين يسيئون قيادة المواقف، أطباء نفسيون تداعب مخيلتهم الآمال عن أبحاث منشورة عن الحالة، كلهم قالوا نفس العبارة المتكررة: «فكّري، فقط فكّري جديًا فيما جرى»، كأن هذا سيصنع فارقًا، كَأن استعادة كَل ذكرى ملطخة بالدماء ستعيد أصدقائي إلى الحياة.

رغم ذلك حاولت.. علاجًا نفسيًا، تنويمًا مغناطيسيًا، حتى ألعاب ذاكرة الإحساس السخيفة جربتها، وجربتُ معالجًا نفسيًا ذا شعر أشعث يمرر أوراقًا معطرة قرابة وجهي المغمى العينين، سائلًا إياي عن شعوري بكل رائحة.. لا شيء من هذا أجدى.

تلك الساعة في عقلي كسبورة ممسوحة تمامًا، لم يبق عليها إلا الغبار.

أتفهَّم تمامًا الحاجة الماسة إلى المزيد من المعلومات، والتَوق إلى التفاصيل. لكن في هذه الحالة أنا بخير دونهما. أنا على علم تام بما وقع في «كوخ الصنوبر»، لكنني لست بحاجة لمعرفة كيف وقع بالضبط، لأن هناك ضررًا دائمًا بشأن التفاصيل، لها أسهل أن تصبح عامل تشتت.. أضف الكثير من التفاصيل، وستضفي الغموض على الحقيقة القاسية للوضع، ستتحول إلى قلادة مبهرجة تخفي ندبة شقٍّ في الرقبة. وأنا لم ولن أحاول إخفاء ندوبي، أنا فقط أتظاهر بعدم وجودها.

وهكذا استمر التظاهر في ذلك المقهى، كأن تعاميّ عن أن «كووب» على وشك إلقاء قنبلة من الأخبار السيئة في حجري سيمنعها من الانفجار. سألته:

- هل أنت هنا في شأن من شؤون العمل؟ لو أنك ستطيل

إقامتك، فـ «چيف» وأنا نود أن ندعوك إلى العشاء، فثلاثتنا أعجبنا بذلك المطعم الإيطالي الذي زرناه في العام الماضي.

نظر إليَّ «كووب» عبر الطاولة، بعينيه الزرقاوين شاحبتي اللون. كان لعينيه أفتح درجات اللون الأزرق التي رأيتها في حياتي، أفتح حتى من تلك الحبة الزرقاء التي تحلل في جهازي العصبي المركزي الآن، لكنه ليس ذلك الأزرق الساكن المريح، هناك حدة في عينيه تجبرني دومًا على الإشاحة بناظري عنه، رغم رغبتي بالغوص في أعماقهما، كأن هذا سيوضح الأفكار المختبئة خلفهما.. لهما زرقة متوحشة.. نوعية العيون التي تريدها فيمن سيحميك.

- أظنك تعرفين سبب وجودي هنا.

- للأمانة، لا.

- لديَّ أخبار سيئة، لم تصل بعد إلى أسماع الصحافة، لكنها ستصل قريبًا.

«هو»

كان هذا أول ما خطر لي. هذا شيء له علاقة بـ «هو». على الرغم من أنني شاهدته يموت، إلا أن خيالي قفز إلى عالم افتراضي مستحيل، حيث نجا «هو» من رصاصات «كووب».. هرب واختبأ لسنين، والآن خرج إلى النور عازمًا على البحث عني، وإنهاء ما بدأه.

إنه حيّ!

تكونت عقدة ثقيلة من القلق، زحفت على بطني. وبدت كأنها ورم بحجم كرة السلة تكتّل في معدتي، وداهمني شعور مفاجئ بالحاجة الماسة لإفراغ مثانتي.

- ليس ذاك..

قاطع «كووب» حبل أفكاري، عالمًا بسهولةٍ ما جال في عقلي.

- لقد مات. كلانا يعلم ذلك.

رغمِ أنٍ سماع ذلك كان لطيفًا، إلا أنه لم يطمئنني. كوَّرت قبضتِي يديًّ ضاغطة عقلات أصابعهما على سطح الطاولة.

- أرجوك. ما الخطب؟

رد «كووب»:

- إنها «ليزا ميلنر»..

- ماذا عنها؟

- لقد ماتت يا «كوينسي».

وقع الخبر عليّ كالصاعقة، كأنه سحب الهواء من صدري. أظنني شهقت، لست متأكدة، فقد تشتَّت ذهني بصدى صوتها القادم كأنه من أعماق الماء في ذاكرتي.

«أود أن أساعدك يا «كوينسي». أريد أن أعلّمك كيف تصبحين ناجية أخيرة». وتركتها تعلمني. على الأقلِ لفترة من الوقت، افترضت أنها تعرف الأصلح، وها هي قد رحلت.

والآن لم يبق إلا اثنتان منا.

الفصل 2

نسخة «ليزا ميلنر» من «كوخ الصنوبر» كانت بيتًا نسائيًا للطالبات في «إنديانا»، في إحدى ليالي فبراير. طرق بابهن شخص يدعى «ستيفين ليبمان»، تاركٌ للكلية، يعيش مع والده، سمين ذو وجه مترهل من الصفراء(اليرقان) كأنه لحم دجاجة.

الفتاة التي أجابت الباب وجدته يحمل سكين صيد، بعدها بدقيقة لقت حتفها، ثم جرَّ «ليبمان» جثتها إلى الداخل، وأحكم غلق كل مداخل ومخارج البيت، وقطع خطوط الهاتف، وفصل الكهرباء. وما تلى ذلك كان مذبحة، استغرقت قرابة الساعة، أودت بحياة تسع فتيات.

«ليزا ميلنر» كادت أن تصبح العاشرة، لكنها وجدت لنفسها ملاذًا في خزانة ملابس في غرفة إحدى البنات أثناء المذبحة. انكمشت داخلها وهي تضم ملابس لا تخصها في رعب، متضرعة ألّا يجدها ذلك المخبول.

لكنه عثر عليها في نهاية الأمر..

أول ما رأته «ليزا» عندما انتزع «ستيفن ليبمان» باب الخزانة من موضعه، كان السكين الذي أشهره، ثم وجهه الذي يقطر بالدماء. وبعد تلقيها طعنة سريعة في كتفها، ضربته بين فخذيه، فوقع على ركبتيه، ثم فرت من الغرفة. كانت قد وصلت إلى الدور الأرضي متجهة إلى باب الخروج، عندما لحق بها «ليبمان» وطعنها بالسكين أربع طعنات نافذة، في البطن والصدر، وأحدثَ ندبة بطول خمس بوصات على ذراعها الذي رفعته تجنبًا لطعناته. طعنة أخرى وكانت لتصبح في عداد الأموات، لكن من بين صرخات الألم وهذيان فقد الدم، وبكيفية ما، تمكنت من جذب كاحل «ليبمان»، ليسقط أرضًا وتسقط منه السكين، لتلتقطها «ليزا» وتطعنه بعمق في أحشائه حتى مقبض السكين.

وهكذا استلقى «ستيفن ليبمان» جوارها غارقًا في دمائه.

التفاصيل تسري بسهولة طالما ليست عنك.

كنت في السابعة من عمري عندما جرت هذه الواقعة. في الواقع، كانت هذه أول مرة أنتبه فيها لما يُعرض في الأخبار. لم يكن بمقدوري تجاهل الأخبار، بينما تقف والدتي أمام التلفاز ويدها على فمها مرددة «يا للمسيح الرحيم، يا للمسيح الرحيم!»

وما رأيته على الشاشة أفزعني وأربكني وأحبطني.. الجموع الباكية، موكب المحفات المغطاة تتسلل أسفل شرائط الشرطة الصفراء على الباب. طرطشة الدم الواضحة على جليد «إنديانا». كانت تلك اللحظة التي عرفت فيها أن هناك حوادث مروعة تحدث، وأن الشر موجود في العالم.

عندما بدأت أنشج بالبكاء، حملني والدي في حضنه إلى المطبخ. وبينما جفت دموعي المالحة، كان قد وضع على سطح المطبخ مجموعة من السلطانيات على شكل حيوانات، وملأها بخليط الدقيق والزبد والسكر والبيض، وناولني ملعقة لأمزجها سويًا.. أول دروسي في الخبز على الإطلاق.

«هناك ما يسمى حلاوة لاذعة يا «كوينسي»».. هكذا أخبرني.. «كل الخبازين العظام يعرفون ذلك. عليك إيجاد ما يقابلها في الطعم لتتوازن. شيء داكن أو مرّ أو لاذع. شوكولاتة غير محلاة، حبهان وقرفة وليمون وحامض. طعم يخترق حلاوة السكر ويروِضها بما يكفي كي تقدِريها وتستطعميها أكثر».

أما الآن، فكان الطعم الوحيد على لساني هو المرارة. أسقطت المزيد من السكر في الشاي حتى فاض الكوب، لم يساعدني هذا، فاندفاع السكر مضادّ للزاناكس، والذي بدأ أثره السحري عليّ، وهكذا تضادَّ أثرهما في داخلي فجأة، مما وتَّرني.

سألت «كووب» بمجرد أن هدأت صدمتي الأولى، وتحولت إلى شعورٍ مضنٍ بعدم التصديق:

- متى جرى ذلك؟.. «كيف حدث؟

- ليلة أمس. دورية الشرطة في «مونسي» وجدت جثتها قرابة منتصف الليل. لقد انتحرت.

- أيها المسيح الرحيم!

هتفت عالياً، حتى إنني اجتذبت انتباه شبيهتي الجالسة على بعد منضدة. رفعت عينيها عن هاتفها وهي تميل برأسها ككلب «كوكر» إسباني.

قلت وأنا أشعر بمرارة الكلمة المتدحرجة على لساني:

- انتحارا.. لقد ظننتها سعيدة. أقصد لقد بدت سعيدة.

رن صوت «ليزا» في رأسي وهي تقول: «ليس بإمكانك تغيير الماضي وما جرى، كل ما بيدك التحكم فيه هو كيفية تعاملك معه». رد «كووب»:

- مازلنا بانتظار تقرير السموم، لمعرفة إن كانت تحت تأثير الكحول أو المخدرات.

- إذن قد يكون حادثاً؟

- ليس حادثًا بالمرة، فعلى كلٍّ من رسغيها جرحٌ قطعي.

للحظة توقف قلبي عن الخفقان، مدركة أن اللحظة التي توقف فيها عن الضخ قد ملأ فيها الحزن جوانبي وفاض، حتى شعرت بدوار مفاجئ.

- أريد معرفة التفاصيل.

- لستِ بحاجة إلى معرفتها. فلن تغير من الواقع شيئًا.

- إنها معلومات. أفضل من لا شيء.

حدق «كووب» ملياً في فنجان قهوته، كأنه يتفحص انعكاس عينيه اللامعتين في السائل الداكن. في النهاية قال:

- إليك ما أعرف: «ليزا» اتصلت بالطوارئ 911 في الساعة الثانية عشرة إلا ربعاً، فيما يبدو كمحاولة لثني نفسها عن القرار.

- وماذا قالت؟

- لا شيء. لقد أغلقت الخط مباشرة. وتم تتبع المكالمة وإرسال شرطيّ الدورية إلى محل إقامتها. لم يكن الباب مغلقًا. لذا دخلا، ووجداها. كانت مستلقية في حوض الاستحمام، وهاتفها غارق في المياه معها، غالبًا انزلق منها في الماء.

أشاح «كووب» بوجهه ناظرًا إلى النافذة. كان مرهقًا كما لاحظت. وبلا أدنى شك يشعر بالقلق من أنني قد أقترف فعلًا مشابهًا يومًا ما. لكن هذه الفكرة لم ترد بخاطري أبدًا، حتى وأنا راقدة في المستشفى مع أنبوب التغذية المُدلى من فمي. ملت عبر الطاولة لأمسك يديه، إلا أنه ابتعد قبل أن أقبض عليهما. سألته:

- متى سمعت بالخبر؟

- منذ بضع ساعات. جاءتني مكالمة من زميلة في شرطة ولاية إنديانا، فنحن على تواصل.

لم أكن بحاجة لسؤاله كيف يعرف أحدًا من دوريات إنديانا، فالناجون من المذابح ليسوا الوحيدين الذين هم بحاجة إلى الدعم.

- لقد ارتأيت أنكِ بحاجة إلى إنذار مبكر، قبل أن يشاع الخبر.

الصحافة طبعًا. أتخيلهم دومًا كمجموعة من الجوارح التي تتدلى الأحشاء الدامية من مناقيرها.

- لن أدلي بأية تصريحات

لفتَ هذا مرة أخرى نظر المربية، والتي رفعت رأسها مضيِّقة عينيها. حدقتُ بها، حتى وضعت هاتفها على الطاولة وركزت -أو تظاهرت بتركيز- اهتمامها على الرضيع الذي في رعايتها. ردَّ «كووب»:

- لست مجبرة على ذلك، لكن على الأقل فكِّري في إصدار بيان عزاء. فكُتَّاب عواميد الفضائح سيطاردونك كالكلاب.

ألقي لهم عظمة يلهون بها، قبل أن تواتيهم الفرصة.

- لمَ عليّ قول أي شيء؟

أجاب «كووب»:

- تعلمين لما

- لمَ لا تقوم «سامنثا» بذلك؟

- لأنها ما زالت بعيدة عن الأنظار، ولا أظنها ستخرج إلى النور بعد كل هذه السنوات.

- فتاة يحالفها الحظ.

- ذاك ما يغيب عنك.. الحظ. لذا جئت بنفسي لأبلغك الأخبار شخصيًا. أعلم أنني لا يمكنني إجبارك على فعل ما لا ترغبين، لكنها ليست فكرة سيئة أن تبني علاقة ودودة مع الصحافة. مع موت «ليزا» وغياب «سامنثا»، فأنت من تبقّت.

سحبت هاتفي من حقيبة يدي وتفحصته، لم يكن هناك جديد، لا مكالمات ولا رسائل، فقط بضع دزِينات من بريد العمل، لم أجد وقتًا لتفحصها صباحًا. أغلقت الهاتف، حل مؤقت، فالصحافة ستتشمم وجودي على أية حال. «كووب» على حق، فهم لن يفوّتوا فرصة تصريح من «الناجية الأخيرة» المتاحة لهم، فنحن - أولاً وأخيرًا- صنيعتهم.

«الناجية الأخيرة».. تعبير يطلقه مَهووسو أفلام الرعب على آخر فتاة تنجو في نهاية الفيلم. على الأقل هذا ما أخبروني به. حتى وقوع أحداث «كوخ الصنوبر»، لم أكن أميل إلى مشاهدة أفلام الرعب، بسبب الدماء الزائفة والسكاكين المطاطية، والشخصيات التي تتخذ قرارات آيةً في الغباء. كنت أفكر بمنتهى الذنب أنهم يستحقون الموت. لكن ما جرى لنا لم يكن فيلمًا، كان واقعًا عشناه.. واقعنا وحياتنا. الدماء لم تكن زائفةَ، والسكاكين كانت من مواد صلبة وحادة كالكوابيس، وكل من قُتلنَ لم يكنَّ يستأهلنَ مصائرهنَّ. لكن بطريقة ما صرخنا أعلى، عَدونا أسرع، وقاتلنا بضراوة أكثر.. لقد نجونا.

لا أذكر كيف بدأت هذه الكنية في وصف «ليزا ميلنر»، ربما في جريدة في الغرب الأوسط، بالقرب من مكان ما عاشت فيه. أحد الصحفيين هناك حاول أن يكون مبدعًا في وصف مذبحة منزل الطالبات، وهذا اللفظ هو أقصى ما أنتجته قريحته، وانتشر، فقط لأنه كئيب بسلاسة كافية للانتشار على الإنترنت. كل تلك المواقع الإخبارية الناشئة المتعطشة للانتشار تلقفت اللفظ وركبت التيار كيلا يفوتها. تبعتهم الجرائد المطبوعة.. الصحف الشعبية أولًا، تلتها الجرائد، ثم المجلات في النهاية.

وخلال أيام اكتمل التحوُّل.. «ليزا ميلنر» كانت أولى شخصيات سلسلة رعب «الناجية الأخيرة». تكرر الأمر بعدها بأربع سنوات مع «سامنثا بويد»، ثم معي بعدها بثماني سنوات. ورغم وجود مذابح وجرائم قتل أخرى جرت خلال تلك الفترة، كنا لسبب ما المحظوظات اللاتي نجين، بينما هلكت الأخريات.. فتياتٍ جميلات تغطيهن الدماء. بهذا الوصف تمت معاملتنا - كلٌّ في دورها- كمخلوقات نادرة مميزة غريبة.. طائر جميل يبسط جناحيه مرة كل عقد من الأعوام، أو تلك الزهرة التي تطلق ريحًا كأنه لحم متعفن كلما أزهرت براعمها.

الاهتمام الذي أغرقوني به في الشهور التالية لما جرى في «كوخ الصنوبر» تراوح ما بين العطف والغرابة، وأحيانًا خليط بينهما. مثل ذينكَ الزوجين اللذين لم ينجبا، وكتبا لي عارضين دفع مصاريف الكلية. أجبت خطابهما رافضة بأدب، ولم أسمع منهما شيئاً فيما بعد.

مراسلات أخرى كانت مزعجة حقًا.. لم أعد أحصي كم مرة سمعت من نزلاء سجون أو شباب قوطيِي النزعة أنهم يودون مواعدتي أو الزواج بي وهدهدتي كطفلة بين أذرعهم الموشومة. أحد ميكانيكيِّي السيارات في نيفادا تبرَّع بتكبيلي في قبو منزله، كي يحميني من أية أخطار. كان هذا مذهلًا في صدق مسعاه، مؤمنًا تمام الإيمان أن أسري هو أسمى معاني الخير والأعمال

الصالحة!

ثم كان هناك ذلك الخطاب غير الموقع، وبلا عنوان للمُرسِل، والذي صرح أنني هربت من قدري، وأنني كان يجب أن أقتل. سلمته لـ «كووب»، فقط تحسبًا لأي مخاطر.

بدأت أشعر بهياج شديد، استشعر «كووب» تغيُّر حالتي فقال مهدئًا:

- أعرف أن هذا كثير على أن تتحمله أعصابك.

أومأت بالإيجاب.

- أتودين لو نخرج من هنا؟

- أومأت إيجابًا مرة أخرى.

- إذن هيا بنا..

بينما كنت أقف، كانت شبيهتي تتظاهر ثانية بالانشغال بالرضيع، متجاهلة النظر إليَّ. ربما تعرفت عليَّ، وهذا جعلها تشعر بعدم الارتياح، لم تكن أول مرة تحدث. قبل أن أصل إلى الباب، عندما مررت بجوارها على بعد خطوتين من «كووب»، خطفت هاتفها بسرعة ودسسته في جيبي دون أن تلاحظ.

مشى معي «كووب» إلى المنزل، وجسده يسبقني بأقل من خطوة، كأنه حارس شخصي من قوات العملاء الخاصة، وجعل كلانا يتفحص المارة على الرصيف بحثًا عن الصحافة. لم يكن هناك أحد.

عندما وصلنا إلى بنايتي، توقف «كووب» على بعد خطوة من المظلة الكستنائية المعلقة فوق الباب الأمامي.. المبنى عمره عقد قبل الحرب، أنيق وواسع. جيراني عبارة عن سيدات مجتمع مسنات.

في كل مرة يراه «كووب»، أثق أنه يفكر كيف تتحمل مُدونة خبازة ومحامٍ عام كلفة السكن في الجانب الغربي الشمالي

لمانهاتن.

الحقيقة هي أننا لا يمكننا تحملها بالمرة. أنا أملك الشقة، الأموال كانت نتاج حزمة من القضايا التي رفعها زوج والدة «چينيل» بعدما جرى في كوخ الصنوبر. الضحايا قاضوا كل من طالته أيديهم.. مستشفى الأمراض العقلية التي أطلقت سراح «هو» أو مكّنته من أن يهرب منها.. أطباءه.. شركات الأدوية التي أنتجت مضادات الاكتئاب ومضادات الذهان التي تضاربت وتضادت في عقله. حتى صانعو باب المستشفى ذي القفل المعطل الذي هرب من خلاله. كلهم قرروا التسوية خارج قاعات المحكمة، كلهم أدركوا أن بضعة ملايين ينفقونها أفضل من دعاية سلبية جرّاء مقاضاة عائلات جُمعت في بناتها. حتى التسوية لم تكفِ ليتجنب بعضهم العواقب، أحد مضادات الذهان تم سحبه من السوق، والمصحة «بلاك ثورن للصحة النفسية» أغلقت أبوابها المهترئة خلال عام. الوحيدان اللذان لم يدفعا مليمًا واحدًا هما والداه، كانا قد أفلسا بسبب علاجه، ولا بأس بهذا معي. لم أكن أنوي أن أعاقب زوجين دامعي الأعين ذاهلين مما اقترفه ولدهما. إضافة إلى ذلك، فقد كان نصيبي من التسويات الأخرى أكثر من كافٍ. ساعدني محاسب صديق لوالدي على استثماره بينما كانت الأسهم رخيصة، واشتريت الشقة بعد تخرجي، عندما كان سوق العقارات ما زال مترنحًا. غرفتا نوم، حمامان، غرفة معيشة، مطبخ مع زاوية للإفطار. وهكذا أصبح لديّ ستوديو خاص بأعمالي، نلته بسعر بخس.

سألت «كووب»:

- أتود أن تصعد معي؟ أنت لم تر المكان أبدًا.

- ربما في وقت آخر.

جملة معتادة أخرى منه، لكن هذه المرة يقولها وهو يعنيها تمامًا. «كووب» كان دومًا على أتم استعداد أن يترك عمله وما

بشغله ويأتيني، منذ صباح اليوم التالي لكوخ الصنوبر. ذلك الصباح الذي كنت أطلق فيه عويل الألم والكمد صارخة: «أين الضابط؟ أرجوكم دعوني أقابله». وهكذا جاءني خلال ساعة.

وبعد عشر سنوات، ها هو ذا.. يعطيني إيماءة لتحية وداعي، وما إن رددتها حتى أخفى عينيه الزرقاوين وراء نظارته السوداء الـ «ريبان» وانصرف، واختفى بين المشاة والمارة.

داخل الشقة، اتجهت مباشرة إلى مطبخي، لأتناول قرصًا آخر من الزاناكس، وتضامن سكر صودا العنب الذي ابتلعته به مع سكر الشاي الذي سبقه، ليجعلا أسناني تصطك ألمًا. رغم ذلك تجرعت جرعات صغيرة، بينما سحبت الهاتف المسروق من جيبي. الفحص السريع المبدئي أعلمني أن صاحبته تدعى «كيم»، وأنها لا تستخدم فيه أية إجراءات أمنية تذكر. يمكنني أن أرى تاريخ مكالماتها، وبحثها على الإنترنت، ورسالة.. حتى آخر رسالة من شخص ذي فك مربع يدعى زاك.

- «أمستعدة لبعض المرح الليلة؟»

- بغرض العبث أجبته «أكيد».

طنَّ الهاتف في يدي برسالة أخرى منه. لقد أرسل صورة لعضوه.

ساحر!

أغلقت الهاتف. إجراء احترازي. «كيم» وأنا ربما نتشابه، لكن رنَّات هاتفينا تختلف. ثم قلبت الهاتف بين أصابعي محدقة في ظهره الفضي اللامع الملطخ ببصماتي. مسحته، حتى رأيت انعكاسي المشوه فيه، كأنه في بيت المرايا في الملاهي. هذا يفي بالغرض.

حللت السلسلة الذهبية التي أعلقها في عنقي دومًا، ومنها يتدلى مفتاح صغير لدرج المطبخ الوحيد الذي أبقيه مغلقًا طوال الوقت. «چيف» يظنه يحتوي أوراقًا خاصة بموقعي الإلكتروني،

وأنا أدعه غارقًا في ظنونه.

داخل الدرج، هناك غابة تهدر من المعدن اللامع.. قلم أحمر شفاه لامع، سوار ذهبي مكتنز، عدة ملاعق، مرآة ذهبية مسروقة من غرفة الممرضات، عندما غادرت المستشفى بعد واقعة «كوخ الصنوبر». ظللت أحدق في انعكاسي بها طوال الطريق الطويل إلى المنزل، لأتأكد أنني ما زلت هنا. والآن، وأنا أنظر إلى انعكاسي المشوَّه وأشعر بنفس الشعور: الاطمئنان أنني ما زلت حية.

دسست الهاتف مع بقية الأغراض، ودفعت الدرج وأغلقته بالمفتاح، ثم أعدت المفتاح حول رقبتي.

ها هو سري يتدلى على عظام صدري.

الفصل 3

قضيت الظهيرة أتجنب كعكات الـ «كب كيك» التي لم أنهها، وأراها تحدق بي من مكانها على سطح المطبخ، كأنها تطلب نفس المعاملة التي تلقتها هاتان الاثنتان المغترتان باكتمالهما، والقابعتان على بعد بضع أقدام منها. أعلم أن عليَّ إنهاءها، ولو حتى لأغراض علاجية، فتلك أول وصية من وصايا موقعي الإلكتروني: «الخبَز أفضل من العلاج النفسي»

أنا - عادةً- مؤمنة بهذه المقولة؛ الخبز أمر منطقي، أما انتحار «ليزا» فلا.

لكن مزاجي كان سوداويًا، إلى درجة أنه حتى الخبز لن يساعد على تدارك الوضع بالمرة. بدلًا من ذلك توجهت إلى غرفة المعيشة وأصابعي تتجاهل نسخًا غير مقروءة من «نيويوركر» ونسخة اليوم من الـ «تايمز».

أحاول خداع نفسي بأنني لا أعرف عما أبحث تحديدًا، لكن انتهى بي الأمر عند رف الكتب بجوار النافذة، وقد استعملت مقعدا لأصل إلى أعلى رف، لأجد الكتاب المستقر هناك.

كتاب «ليزا».

كتبته بعد عام كامل من مواجهتها مع «ستيفن ليمان»، وأطلقت عليه اسما يشي بتداعيات الحزن:

«إرادة الحياة: رحلتي الشخصية من الألم إلى التعافي»

كان محدود النجاح، أنتجته قناة «لايف تايم» في فيلم تليفزيوني. مباشرة بعد نجاتي من «كوخ الصنوبر»، أرسلت لي «ليزا» نسخة من كتابها، وبداخلها كتبت لي إهداءً.

إلى «كوينسي»، أختي المجيدة في الصمود.. أنا موجودة دومًا، إن رغبت دائماً في الحديث» وذيلته برقم هاتفها، بأرقام واضحة بخط سميك.

لم أنوِ الاتصال بها أبدًا، أخبرت نفسي أنني لست بحاجة إلى

مساعدتها. نظرًا لأنني لا أتذكر أي شيء مما جرى، فلِمَ الحاجة للاتصال بها؟

لكنني لم أكن مستعدة لأن أجد كل صحيفة وشبكة تليفزيونية تتعاطى أخبار «مذبحة كوخ الصنوبر»، هكذا أطلقوا عليها: «مذبحة كوخ الصنوبر»، لم يهمهم أنها كانت كابينة خشبية وليست كوخًا، فقد كان لفظ كوخ أنسب للعناوين الساخنة، إضافة إلى أن «كوخ الصنوبر» كان الاسم الرسمي المكتوب بخط محروق على لافتة من خشب الأرز أعلى الباب.

باستثناء الجنازة، لم أظهر لأحد، وكنتُ ساكنة لا أغادر المنزل إلا لمواعيد الأطباء وجلسات العلاج، لأن معسكر الصحافيين أقيم في الحديقة الأمامية، فكنت أخطِر أمي أن تخرجني دومًا من الباب الخلفي عبر حديقة الجيران، لأركب سيارة تنتظرني على بعد مربع سكني.

لم يمنع هذا من نشر صورة كتاب الدفعة على غلاف مجلة «بيبول» مذيلة بعنوان «الناجية الوحيدة» على ذقني المليء بالبثور.

الكل رغبوا في مقابلة حصرية، المراسلون اتصلوا وأرسلوا إيميلات ورسائل نصية، بل إن إحدى أشهر المحاورات - يمنعني الاشمئزاز من ذكر اسمها- جاءت تصفق باب منزلنا، بينما جلست منكمشة في الداخل مستندة على الخشب المهترئ كأنني أمنعه من الانهيار، وقبل أن ترحل، دست ملاحظة من أسفل عقب الباب، عارضة مائة ألف من الدولارات مقابل مقابلة حصرية معها! ألقيت الورقة التي تحمل عطر «شانيل 5» في القمامة.. حتى مع نفسٍ كسيرة، وطعنات لم يندمل جرحها بعد، ولم تزل غرز الحياطة واضحة فيه، عرفت هدفهم الأعلى، الصحافة مصرة على تحويلي إلى «ناجية أخيرة».

ربما كنت لأتمكن من التعامل مع الموقف بصورة أفضل، لو أن وضعي العائلي بحال أفضل وأكثر استقرارًا، لكنه لم

يكن كذلك بالمرة في ذلك الوقت، فالسرطان قد عاد مهاجمًا والدي بضراوة، تاركًا إياه ضعيفًا فاقد الحس من أثر العلاج الكيميائي، مما أعجزه عن مواساة مشاعري المحطمة. رغم ذلك، فقد حاول.. بما أنه كاد أن يفقدني مرة، فقد جعل جل همه سلامتي وصحتي، فكان يتأكد أنني أكلت ونمت ولم أغرق في أحزاني، كل ما أراده أن أكون بخير، رغم أنه هو نفسه لم يكن بخير. وعندما شارف على الرحيل، بدأت أؤمن أنني نجوت من «كوخ الصنوبر» بسبب والدي، أظنه عقد صفقة مع الرب بالتضحية بحياته مقابل حياتي.

أظن أن أمي شعرت بالمثل، لكني كنت مثقلة بالخوف والشعور بالذنب لأسألها، ناهيك عن عدم وجود فرصة للسؤال، ففي ذلك الوقت بدأت بالانسحاب بنفسها، والدخول في حالة الزوجة اليائسة المحافظة على المظاهر مهما جرى، فأقنعت نفسها أن المطبخ بحاجة إلى التجديد، كأن أرضية جديدة من المشمع ستحجب الضربة المزدوجة من السرطان و«كوخ الصنوبر»، وما يتبقى لها من الوقت، بعد إيصالي عابسةً أنا ووالدي إلى جلسات العلاج، كانت تقضيه في مقارنة عينات رخام المطبخ وألوان الجدران.

لا داعيَ لذكر التزامها القاسي بنشاط سيدات الضواحي في نوادي الكتب، وفصول التمارين الرياضية، وكانت تعتبر الابتعاد عن أي التزام اجتماعي بمثابة اعتراف بالهزيمة.

ولأن معالِجتي المتعطرة برائحة الباتشولي نصحتني بإيجاد داعم لحياتي، فقد استندت على «كووب»، الذي قام بكل ما بمقدوره. فليحبه الرب، لقد تحمل بمنتهى الصبر أكثر من مجرد مكالمات ليلية يائسة. ورغم ذلك، كنت بحاجة إلى شخص مثلي.. شخص مرَّ بمأساة مشابهة لـ «كوخ الصنوبر»، وبدا أن «ليزا» هي الأكثر ملاءمة لهذا الغرض.

بدلًا من أن تهرب من مكان صدمتها، بقيت «ليزا» في «إنديانا»، وبعد ستة أشهر من التعافي عادت إلى نفس الكلية،

وتخرجت بدرجة دبلوم في طب الأطفال النفسي. وعندما تسلمت شهادتها، وقف الحضور يصفقون لها. تجلل هذه الحفلة جدار من الصحافة المصطفة في نهاية القاعة، في مئات الومضات من فلاشات الكاميرات، لذا وجدتُ كاتبها، وعثرت على رقمها واتصلت بها.

- أريد أن أساعدك يا «كوينسي».. أريد أن أعلمك كيف تصبحين «ناجية أخيرة»

- وماذا إن لم أرغب في أن أكون «ناجية أخيرة»؟

- هذا ليس خيارًا متاحًا. لقد تقرَّر قدرك بالفعل، ليس بإمكانك تغيير الماضي وما جرى، كل ما بيدك التحكم فيه هو كيفية تعاملك معه

بالنسبة لـ «ليزا»، كان هذا يعني المواجهة المباشرة، دون لف أو دوران. اقترحت أن أقوم ببضع مقابلات مع الصحافة، لكن بشروطي الخاصة. قالت إن التحدث عما جرى علنًا سيساعدني على تخطيه. سمعت نصيحتها، وقمت بإجراء ثلاث مقابلات، واحدة لـ «نيويورك تايمز»، و«نيوزويك»، والأخيرة للسيدة «شانيل 5»، التي دفعت لي المائة ألف، رغم أنني لم أطلبها، ودخلت ضمن مدفوعات ثمن الشقة. إن كنت تظن أنني أشعر بالذنب لهذا، فكِّر في الأمر ثانيةً.

المقابلات كانت فظيعة، شعرت بهول أن أتحدث عن صديقاتي المقتولات، واللواتي لم يعد بمقدورهنّ الحديث عن أنفسهنّ، خاصة وأنني لم أتذكر بالضبط ما جرى لهنّ. كنت أقرب إلى متفرج، رغم تعطش الجماهير لسماع قصتي، كأنها حلوى ما بعد الطعام.

كل مقابلة منها تركتني خاوية النفس، تعجز أي كمية طعام عن ملء فراغي، لذا توقفت عن المحاولة. فيما بعد، رقدت في المستشفى، بعد ستة أشهر من خروجي منها، وحينها خسر والدي معركته مع السرطان وركع في انتظار الضربة الأخيرة.

رغم ذلك ظل بجواري كل يوم، بجسد متهالك على كرسيه ذي العجلات، يطعمني بنفسه الأيس كريم في فمي، ليزيل مرارة مضادات الاكتئاب التي أجبروني على تناولها.

«ملعقة مليئة بالسكر» هكذا كان يقول. «لقد صدقت الأغنية في كلماتها».

وما إن استعدت شهيتي وعافيتي وخرجت من المستشفى، حتى تواصلت معنا «أوبرا وينفري». اتصل بنا أحد المنتجين فجأة، مصرحًا برغبتها في ظهورنا في برنامجها. «ليزا» وأنا، وحتى «سامنثا بويد»، «الناجيات الأخيرات» سويًا أخيرًا. بالطبع وافقت «ليزا»، وكذلك «سامنثا»، مما أدهشنا، لأنها كانت في بداية مرحلة الاختفاء، وعلى عكس «ليزا» لم تحاول الاتصال أو التواصل معي بعد «كوخ الصنوبر».. كانت مبهمة وغامضة كذكرياتي.

حتى أنا وافقت، رغم أن فكرة الجلوس أمام جمهور من ربات البيوت يمصمصن شفاههن شفقةً عليّ كانت تجعلني أغرق في أعماق فقدان الشهية مرة أخرى، لكنني رغبت في مقابلة قريناتي «الناجيات الأخيرات» وجهًا لوجه، خاصة «سامنثا». في ذلك الوقت كنت أهيئ نفسي لرؤية نقيضٍ بديل لانفتاح «ليزا» المرهق.

لكن لم تُتح لي الفرصة.

ففي الصباح المقرر فيه أن أطير مع والدتي إلى «شيكاجو»، وجدتني أقف في مطبخها حديث التجديد، وقد انقلب رأسًا على عقب.. أطباق مهشمة ملأت الأرضية، عصير برتقال منسكب من الثلاجة، على سطح المطبخ قشر بيض وكُتل طحين وبقع زيت مع مستخلص فانيليا، وقد تقوقعت والدتي وسط هذه المعمعة على أرضية المطبخ، تبكي ابنتها الموجودة بجسدها فقط، لكن بكيان ضائع.

- لماذا يا كوينسي. لما فعلت هذا؟!

بالطبع كنت أنا من قلب المطبخ رأسًا على عقب، كلصٍ أحمق. أدركت هذا ما أن وقعت عيناي على الفوضى. كان هناك نوع من المنطق في هذه الفوضى المدمرة، كأنها تنطق بأنني من قمت بها، ورغم ذلك لم أتذكر قيامي بها. تلك اللحظات المجهولة التي قضيتها في تدمير المكان كانت مبهمة وغائبة عن ذاكرتي، مثلها مثل ما جرى في «كوخ الصنوبر».

تظاهرت أمي بتصديقي، ونهضت من مكانها وهي تمسح وجنتيها المبللتين بكفيها، وترتب شعرها بدقة، ولكن خانتها رجفة في عينيها تُظهر حقيقة مشاعرها.

كانت كما أظن خائفة مني. بينما كنت أنظف المطبخ، قامت بالاتصال بفريق عمل أوبرا لتلغي المقابلة، وبما أن الفكرة كانت «كلنا أو لا أحد»، فقد قوَّض هذا القرار الفكرة بأكملها، لن يكون هناك بث تليفزيوني للناجيات الأخيرات.

لاحقًا خلال النهار، أخذتني أمي إلى طبيب، وصف لي الـ «زاناكس» لبقية حياتي. كانت أمي تتوق بشدة إلى وضعي تحت المهدئات، حتى إنها أجبرتني على بلع قرص في جراج الصيدلية، لأبتلع الطعم بالسائل الوحيد المتاح معنا في السيارة وقتها، زجاجة صودا العنب فاترة الحرارة.

وهكذا أعلمتني:

- طفح الكيل.. لا مزيد من الإغماءات ولا نوبات الغضب، ولا دور الضحية. ستتناولين تلك الأقراص، وتتصرفين كفتاة طبيعية يا «كوينسي». هكذا عليك التصرف.

وافقتها. لم أكن أريد كتيبة من الصحافة تعسكر في حفل تخرج، لم أرد أن أكتب كتابًا أو أجري مقابلة، أو أعترف أن ندوبي تخزُني مع كل عاصفة رعدية. لم أرد أن أصبح واحدة من أولئك الفتيات اللاتي يستسلمن للمآسي، وأن أعيش إلى الأبد ملتصقة بأسوأ لحظة في حياتي.

كان الطنين البدائي للزاناكس ما زال في رأسي، عندما

اتصلتُ بـ «ليزا» أخبرها أنني لن أجري أية مقابلات أخرى أبدًا، لقد سئمت وانتهيت من كوني ضحية دائمة. «لست ناجية أخيرة»، هكذا أخبرتها.

نبرة صوت «ليزا» كانت صبورة إلى حد مستفز.

- إذن، ماذا تكونين يا كوينسي؟ فتاة عادية؟ بالنسبة للفتيات أمثالنا أنا وأنت و«سامنثا»، لم يعد هناك شيء يسمى عادي، لكنني أتفهَّم ما تريدين أن تحاولي.

تمنت لي «ليزا» الخير، وأخبرتني أنها ستدعم قراري، وموجودة دائمًا إن احتجتها. ولم نتحدث ثانية.

والآن، أقف أحدق في وجهها على غلاف كتابها.. كانت صورة لطيفة لها، واضح أن عليها الكثير من الرتوش والتعديل، لكن ليست بطريقة مبتذلة.. عيون ودودة، أنف صغير، ذقن عريضة قليلًا وجبهة عالية جدًا. لم تكن تملك ذلك الجمال الكلاسيكي التقليدي، لكنها جميلة. لم تكن تبتسم في الصورة، فليس هذا نوع الكتب الصالح للابتسام على غلافه. شفتاها مطبقتان في زمة خفيفة، لا هي بالمرحة ولا بالمتزمتة.. التوازن المطلوب بين الجاذبية والرضا عن الذات.

تخيلتُ «ليزا» تتدرب على هذا التعبير في المرآة. مجرد الفكرة ألقت الحزن في نفسي. ثم تخيلتها متكومة في حوض استحمامها والسكين في يدها. كانت فكرة أسوأ.

هذا ما لم أفهمه قط. أكثر حتى من فكرة الانتحار ذاتها. المصائب تحدث والحياة بائسة، وأحيانًا لا يمكن للناس تحمُّلها، ويختارون الهروب من هذه الضغوط. رغم بؤس الأمر، لكنه يحدث طوال الوقت، حتى بالنسبة لمن هم مثل «ليزا».

لكنها استخدمت سكينًا، وليس طريقة أخرى.

أما «ليزا»، فقد اختارت أن تنهي حياتها بذات السلاح الذي كاد أن يودي بحياتها منذ عقود!.. لتنهي ما حاول «ستيفن ليبمان» القيام به.

راودني تساؤل ملحٌّ، ماذا كان سيحدث لو أنني بقيت على اتصال بها؟.. ربما كنا لنتقابل وجهًا لوجه، ربما كنا لنصبح أصدقاء...

ربما كان بمقدوري إنقاذها!

عدت إلى المطبخ، وفتحت حاسوبي الذي أستعمله في الغالب لمدونة الطهي. وبعد بحث سريع على محركات البحث عن «ليزا»، وجدت أن أنباء انتحارها لم تخرج إلى النور بعد، وهو الأمر المؤكد حدوثه، لكن أكبر علامة استفهام هي حجم الصدى الذي سيتردد منه في حياتي.

مع بضع نقرات، كنت أتصفح الفيسبوك، هذا المستنقع اللطيف من الإعجابات والروابط والقواعد النحوية المتدهورة. صراحة، أنا غير مهتمة بمواقع التواصل الاجتماعي، لا تويتر ولا إنستجرام، منذ زمن طويل كانت لي صفحة على الفيسبوك، لكني أغلقتها بعد جحافل المتابعين البائسين، وطلبات الصداقة من غرباء ما زال لديهم هوس بـ «الناجية الأخيرة». رغم ذلك، ما زال هناك حساب واحد لإدارة موقعي الإلكتروني؛ شر لابد منه. عبره أمكنني تفقّد حساب «ليزا» على أي حال، كانت من متابعي «حلوى كوينسي».

لقد تحوّل حسابها بالفعل إلى صفحة عزاء طويلة، وامتلأ برسائل التعزية التي لن تقرأها أبدًا. تصفحت بضعَ عشرات منها، أغلبها كلام عام، لكنه يفيض بالشجن.

سنفتقدك يا «ليزا».. «ليزا»! حبي وقبلاتي!.. لن أنسى ابتسامتك الجميلة وروحك الرائعة، فلترقدي في سلام يا «ليزا».

لكن أجمل رسالة جاءت من فتاة ذات عيون واسعة داكنة وشعر بني اسمها «جايد».

«لأنك تغلّبتِ على أسوأ لحظات حياتك، فقد ألهمتني للتغلب على أسوأ لحظاتي. لقد كنتِ ملهمتي دائمًا يا «ليزا». والآن بما أنك انتقلتِ إلى رحمة الله، فأرجو أن تحمينا، نحن من ما زلنا

هنا في الأسفل».

وجدت صورة لـ «جايد» بين أكداس الصور التي رفعتها «ليزا» على حسابها على مر السنين. كانت منذ ثلاثة شهور مضت، وفيها تقفان تضمان بعضهما بعضاً وقد تلاصقت وجنتاهما، فيما بدا حديقة ملاهٍ، ووراءهما دعامات متشابكة لقطار سريع خشبي، ودمية محشوة عملاقة على شكل دب، ضمتها «ليزا» بكلتا ذراعيها.

بدون شك كانت ابتسامتهما حقيقية، فلا يمكن ادعاء هذا المستوى من السعادة. الرب يعلم كم حاولت هذا. رغم ذلك، كانت هناك هالة من الألم والخسارة حولهما، أراها في عمق أعينهما، ذلك الحزن الدفين الخفي الذي يتسلل إلى كل صوري. آخر كريسماس، عندما ذهبت مع «چيف» إلى بنسلفانيا لزيارة والدتي، ووقف ثلاثتنا تحت الشجرة محاولين التظاهر بأننا أسرة حقيقية، وبينما كانت أمي تلقي نظرة على الصور فيما بعد على حاسوبها، أخطأت في تفسير ابتسامتي الممطوطة الجامدة إلى عبوس، وتساءلت ساخطة: أسيقتلك أن تبتسمي يا «كوينسي»؟

ظللت نصف ساعة أتصفح صور «ليزا»، لأرى لمحات خاطفة من حياة بعيدة ومختلفة تمامًا عني. رغم أنها لم تتزوج وتستقر وتنجب أي أبناء، إلا أن حياتها بدت حافلة ومُرضِية، فقد أحاطت «ليزا» نفسها بالناس، أصدقاء وعائلة وفتيات مثل «جايد» التي احتاجت إلى شخص عطوف في حياتها. كان يمكنني أن أكون أحد هؤلاء الناس، لو أنني سمحت بذلك. بدلًا من ذلك قمت بالعكس، ووضعت بيني وبين الآخرين حجابًا، ودفعتهم بعيدًا إن لزم الأمر. التقارب كان رفاهية لم أقوَ على خسارتها مرة أخرى.

بينما أتصفح صور «ليزا»، بدأت أتخيل نفسي فيها معها.. هناك أقف معها على حافة الأخدود الأعظم، وهنا نمسح رذاذ شلالات نياجرا عن وجهينا، وها أنا أقف وسط مجموعة من

النسوة نرفع أقدامنا في أحذية البولينج ذات اللونين في حارة اللعب.

«صديقات البولينجا» كما تعلن التسمية فوق الصورة.

توقفت أمام صورة رفعتها «ليزا» منذ ثلاثة أسابيع.. صورة ذاتية/ سيلفي التقطتها من زاوية واسعة علوية قليلًا، وفيها ترفع «ليزا» زجاجة من النبيذ، فيما يبدو كأنه غرفة معيشة خشبية التصميم، كتبت فوقها: «وقت تناول النبيذ. هاهاها. مضحك جدًا».

وراءها هناك فتاة ما، أغلبها لا يظهر في إطار الصورة، ذكَّرتني بتلك الصور المبهمة لذي القدم الكبيرةِ التي أشاهدها في عروض الماورائيات المبتذلة.. شكلٌ باهتٌ لشعر أسود يشيح صاحبه بوجهه بعيدًا عن الكاميرا.

شعرت أنني قريبة إلى تلك الفتاة، حتى وإن لم أر وجهها، فأنا الأخرى قد أشحت بنظري بعيدًا عن «ليزا»، وتراجعت إلى الخلفية وحدي. تحولت إلى شكل باهت، كأنني لطخة داكنة غير محددة المعالم والتفاصيل.

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook

كوخ الصنوبر

3:37 مساءً

في البدء، أثارت فكرة «كوخ الصنوبر» «كوينسي»، وجعلتها تتخيل قصة خيالية، غالبًا بسبب الاسم المسلِّي: «كوخ الصنوبر»

مجرد سماع الاسم أوحى إليها بصور الأقزام والأميرات ومخلوقات الغابة المتلهفة للغناء في كورَس. لكن بينما ترجرجت شاحنة «كريج» الرياضية على طريق الحصى غير المعبَّد، ولاح الكوخ أمامها، علمت «كوينسي» أن خيالها قد خذلها إلى أقصى درجة، فواقع المكان كان أبعد ما يكون عن القصص الخيالية.

من الخارج، بدا «كوخ الصنوبر» منبعجًا، جامد الهيكل، عمليًا صِرفًا، بالكاد أرقى قليلًا من شيء قد بُنِيَ بعوارضَ دائرية معشّقة. كان مستقرًا بين كتلة متشعبة من أشجار الصنوبر، التي علت عن السقف ذي الألواح الحجرية، مما جعل المكان يبدو أصغر من حقيقته. تجمعت الأغصان وتشابكت سويًا، لتحيط بالكوخ كحائط سميك، ووراءه ظهرت المزيد من الأشجار تمتد في جنح الظلام الساكن.

غابة مظلمة، هذه هي القصة الخيالية التي كانت تبحث عنها «كوينسي». لكنها كانت أميل إلى طابع «الأخوين جريم» عنها لـ «ديزني». وما إن خطت خارج السيارة وتقدمت إلى الغابة المتشابكة، حتى استقبلها من فوقها حفيف غير مرحِب وخائف.

- إذن فهكذا يبدو وسط اللامكان.

أعلنت بصوت عال ثم أردفت:

- إنه مخيف!

- قطيطة خائفة!

قالت «جينيل» وهي تتحرك وراء «كوينسي»، جارةً في يديها

حقيبتين لا واحدة.

صاحت بها «كوينسي»:

- هذا حملٌ زائد.

أخرجت لها «چينيل» لسانها تغيظها، مبقيةً هذا التعبير لبرهة من الوقت، حتى أدركت «كوينسي» أن عليها إخراج الكاميرا وحفظ اللقطة للأجيال المقبلة. وبمنتهى الإحساس بالواجب، أخرجت الكاميرا الـ «نيكون» الجديدة من حقيبتها، واستمرت في التقاط العديد من اللقطات، حتى بعد أن توقفت «چينيل» عن الثبات أمام الكاميرا، وبدأت بمحاولة حمل حقيبتيها الثقيلتين، وذراعاها النحيفتان مشدودتان على آخريهما.

«كوينســــــي» نادتها بذلك الصوت الممطوط المنغم، والذي تعرف «كوينسي» مغزاه جيدًا.

- ساعديني في حملهما. أرجوك يا حلوتي.

لفَّت «كوينسي» الكاميرا حول رقبتها وردت:

- كلا. أنتِ من جلبتِ كل هذا معك. أشك أنك ستستخدمين نصفه أصلًا.

- لكني أستعد لكل شيء، أليس هذا شعار الكشافة؟

«كن مستعدًا» قالها «كريج» وهو يسبقهما، رافعًا صندوق التبريد على كتفيه القويين قائلًا:

- وأتمنى أن تكون مفاتيح هذا الكوخ ضمن ما جلبتِه معك.

تخطت «چينيل» مبرراتنا لتجاهل حقيبتيها، ودست يديها تفتش في جيوب الجينز، حتى عثرت على المفاتيح، ثم مالت على الباب الأمامي وضربت اللافتة المصنوعة من خشب الأرز والتي تحمل اسم الكوخ. ثم قالت مقترحة:

- صورة جماعية؟

أعدَّت «كوينسي» مؤقت الكاميرا، وثبتتها على مقدمة سيارة «كريج»، ثم أسرعت الخطى لتنضم إليهم أمام الكوخ، وتجمَّد

الستة مبتسمين في انتظار تكة الكاميرا تعلن التقاط صورتهم. فريق القاعة الشرقية، كما أسمتهم «چينيل» في عامهم الأول أثناء التنسيق، ما زالوا عصبة كاللصوص، وها قد شارف عامهم الثاني على الانتهاء خلال شهرين.

انتهى وقت التصوير، وفتحت «چينيل» الباب بطريقة احتفالية..

- ما رأيكنّ؟ إنه مريح وحميم، أليس كذلك؟

سألتهنّ بمجرد أن فُتح الباب، قبل أن يتاح لهنّ إلقاء نظرة على ما حولهنّ. وافقتها «كوينسي»، رغم أن مفهومها عن الراحة لم يكن جدرانًا عارية وبساطًا دائريًا ملقى على الأرض. ربما كانت لتستخدم لفظة أخرى يكون لحروفها جناس مع «الصدأ»، كي تصف ما أحاط بمغسلة المطبخ، وصبغ رشاش المياه من المواسير، في الحمام الوحيد، لكنه ضخم، بالنسبة إلى كوخ، فقد كان ضخمًا حقًا، أربع غرف نوم، وشرفة خلفية أزّت أرضيتها في خفوت عندما خطينَ عليها، غرفة معيشة ضخمة، حجمها يكاد يكون بحجم عنبر مبيت تشاركت فيه «چينيل» و«كوينسي»، مع مدفأة حجرية وكمية من أخشاب التدفئة مرصوصة بجوارها.

الكوخ بأكمله كان مستأجرًا، كهدية عيد ميلاد لـ«چينيل» من أمها وزوج أمها، فقد كانا يطمحان إلى تجسيد صورة الأبوين المتفهمين والمتقبلين لأبنائهما، اللذين يعاملونهم كأصدقاء. بالتالي، فقد خمّنا أن ابنتهما التي في سن الجامعة تحتسي الكحول وتنتشي بالمخدرات من حين لآخر، لذا فكّرا في استئجار كوخ في جبال بوكونو، حيث تقبع في أمان نسبي لتفعل ما شاءت. ثمان وأربعون ساعة خالية من التقارير وطعام الحرم الجامعي وبطاقات الهوية التي يجب تمريرها على كل باب ومصعد.

لكن قبل أن نبدأ، طالبت «چينيل» البقية بوضع هواتفهنّ

كلها داخل صندوق خشبي.

- ممنوع المكالمات، الرسائل، والأهم ممنوع الصور والفيديو.

قالتها، ثم حشرت الصندوق داخل صندوق القفازات في السيارة، فتساءلت «كوينسي:

- وماذا عن كاميرتي؟

- سأسمح بها، لكن عليكِ التقاط صورٍ فاتنة لي.

- بالطبع.

حذرتها «چينيل:

- أعني ما قلت.. لو رأيت أي شيء عن هذه الرحلة مرفوعًا على الفيسبوك، فسألغي صداقتك عليه وخارجه.

وبعد إشارتها، انطلق الجميع إلى غرف النوم، وكل واحدة تحاول تصيد أفضل غرفة. «إيمي» و«رودني» أخذتا الغرفة ذات السرير المائي، والذي تحرك بقوة أسفلهما ما أن قفزتا عليه. «بيتز» - والتي لا تملك صديقة - أخذت بمنتهى الإحساس بالواجب الغرفة التي بها السرير ذو الدورين، وانكمشت في الدور السفلي مع نسختها -السميكة كقاموس- من «هاري بوتر ومقدسات الموت»». أما «كوينسي»، فقد جذبت «چينيل» إلى الغرفة ذات الفراشين المتقابلين، مثلها مثل غرفة المهجع، وقالت:

- المنزل، يا لجمال المنزل!.. أو على الأقل هذا أقرب ما يكون إليه.

ردت «چينيل»، وقد بدا صوتها لأذني «كوينسي» خاويًا:

- لطيف.. لكني لا أدري مع ذلك

- يمكننا اختيار غرفة أخرى، إنه عيد ميلادك، من حقك الاختيار أولًا.

- أنت على حق. ولهذا أنا أختار..

ورفعت «كوينسي» عن الفراش الخشبي من كتفيها وأكملت:

- أن أنام وحيدة.

دفعت «كوينسي» عبر الردهة، إلى الغرفة في نهايتها.. أكبر غرفة في الكوخ، ذات نافذة ضخمة، تطل على منظر رائع ممتد للغابة، وعلى الجدران تعلقت بضع ألحفة يدوية الصنع، في تنوع زخرفي للخامات. على حافة الفراش الضخم، جلس «كريج» ناظرًا إلى الأرض، محدقًا في الفراغ بين فردتي حذائه الرياضي، وقد أرخى ذراعيه على حجره، عاقدًا أصابعه، وإبهاماه يدوران حول بعضهما في حركة مكررة. رفع رأسه عندما دخلت «كوينسي»، والتي لاحظت بارقة حماس في ابتسامته الخجلى. قالت «چينيل» بنبرة عابثة:

- أنا واثقة من أن هذه ستكون أكثر راحة.. فلتمرحا أنتما الاثنان

دفعت «كوينسي» بفخذها أكثر إلى الغرفة، ثم خرجت مغلقة الباب خلفها وهي تضحك بصوت عال في الردهة. قال «كريج»:

- لقد كانت فكرتها

- لقد خمنت هذا

- ليس علينا أن....

بترَ كلامه تاركًا لـ «كوينسي» حرية ملء الفراغ. نبيت معًا؟ ننام سويًا كما خططت «چينيل» بوضوح لهما؟ قالت «كوينسي»:

- لا بأس

- كوين، حقًا إن لم تكوني مستعدة بعد..

جلست «كوينسي» جواره، ووضعت يدها على ركبته المرتعشة. «كريج أندرسون»، نجم السلة الناشئ، ذو الشعر البني والعيون الخضراء، الجذاب إلى حد الغواية «كريج»، من بين

كل الفتيات في الحرم الجامعي اختارها.

«لا بأس» كررت مرة أخرى، ضاغطة حروفها، كموافقة ضمنية.

- أنا مسرورة.

الفصل 4

وجدني «چيف» على الأريكة، وكتاب «ليزا» على حجري، وعيناي منتفختان من كل الدموع التي ذرفتها في الظهيرة. وما إن ترك حقيبته وضمني إليه، حتى أسندت رأسي إلى صدره وأجهشت مرة أخرى بالبكاء. بعد عامين من العيش معًا، وعامين آخرين من المواعدة، كان يعرف أن عليه ألّا يسأل مباشرة ما الخطب، بل عليه ببساطة تركي أُخرج ما بداخلي من دموع. فقط بعدما أغرقت ياقة قميصه بالدموع، قلت:

- لقد انتحرت «ليزا ميلنر»!

ضمَّني «چيف» بقوة أكبر وهو يقول:

- «ليزا ميلنر» الشهيرة؟

- هي بذاتها

لم يحتج مني أن أقول أكثر من ذلك، فالباقي مفهوم له.

- أووه، «كورين»، حبيبتي، أنا آسف جدًا. متى؟ ماذا جرى؟

اعتدلنا في جلستنا على الأريكة، وسردت له التفاصيل، واستمع بانتباه تام، بحكم عمله، الذي يتطلب منه استيعاب كل المعلومات قبل تفنيدها.

- كيف تشعرين؟

سألني بعدما انتهيت من الحديث، فأجبته:

- بخير. فقط أشعر بالصدمة والرثاء، وهو أمر سخيف على ما أظن.

- كلا، ليس كذلك. لك كامل الحق في الحزن.

- حقًا؟ ليس الأمر كأنني أنا و«ليزا» تقابلنا من قبل؟

- هذا لا يهم، لقد تحدثتما كثيرًا. وقد ساعدتك، وكنتما أرواحًا طيبة متعاونة.

- لقد كنا ضحايا، هذا هو العامل الوحيد المشترك بيننا.

- ليس عليك تهميش هذا يا «كوين». ليس معي.

هذا «جيفرسون ريتشاردز»، المدعي العام يتحدث، كلما اختلف معي، ينتقل في لحظة إلى طريقة حديث المحامين، وهو أمر نادر الحدوث. في العادة هو «جيف» ببساطة، الصديق الذي لا يمانع في العناق، ويطهو أفضل مني بمراحل، والذي يبدو فاتناً في تلك البزّات التي يرتديها للمحكمة.

- لا يمكنني أن أفهم ما مررت به في تلك الليلة. لا أحد يمكنه ذلك عدا «ليزا» وتلك الفتاة الأخرى، «ساماثا».

ردد «جيف» الاسم بخواء، كأنه كان يعرفه دومًا:

- «ساماثا» أنا واثق أنها تشعر مثلك بالضبط.

- الأمر لا يعقل. لا أفهم لما تقتل «ليزا» نفسها بعد كل ما مرت به، يا لها من خسارة! لقد ظننت «ليزا» أقوى وأفضل من ذلك!

مرة أخرى تردد صوتها في عقلي:

«هناك نبلٌ في أن تكوني صامدة»، هكذا قالت لي ذات مرة.. «ونعمة أيضًا. لأننا عانينا ونجونا. لذا لدينا القدرة على إلهام من يعانون»

هراء.. كل هذا هراء.

- آسفة لكوني فوضوية. انتحار «ليزا»، وردّ فعلي، كل هذا غير طبيعي.

- بل هو طبيعيّ جدًا. كل ما جرى لك كان غير طبيعي بالمرة، لكن أحد الأشياء التي أحبها فيكِ هو أنك لم تدعي هذا يحدد هويتك، لقد تجاوزته.

أخبرني «جيف» بهذا من قبل، لعدة مرات خلت، وفي الواقع بعد تكرار سماعه بدأت بتصديقه بالفعل.

- أعلم.. لقد تجاوزته.

- وهو الأمر الصحي الوحيد الذي بمقدورك فعله. ذلك

هو الماضي، وهذا هو الحاضر. وأود أن أفكر أن هذا الحاضر يسعدك.

ابتسم «چيف».. لديه تلك الابتسامة الشبيهة بنجوم السينما، بعرض السينما سكوب وسطوع الألوان القوية، وهذا ما جذبني إليه عندما تقابلنا في لقاء عمل ممل، حتى رغبت في أن أسكر وأغازل.

- دعني أخمن.. أنت موديل لإعلانات معجون الأسنان.

- بالضبط، صحَّ تخمينك.

- أية علامة تجارية؟ ربما أكون من مستخدميها.

- آكوافريش، لكن عيني على الماركة الأكبر كريست.

ضحكت، رغم أنه لم يكن هناك ما يضحك. كان هناك شيءٌ محببٌ في رغبته بإدخال السرور على نفس غيره. ذكَّرني بكلاب الـ «جولدن ريتريفر»، ناعمة، وفية، آمنة. رغم أنني لم أعرف اسمه آنذاك، إلا أنني شبكت يدي في يده، ولم أتركها منذ ذلك الحين.

في الفترة ما بين «كوخ الصنوبر» و«چيف» كانت حياتي الاجتماعية راكدة إلى حد العدمية. اتخذت قرارًا بالعودة إلى الدراسة، لم أعد إلى كليتي القديمة، حيث أعرف أن ذكريات «چينيل» وباقي المجموعة ستطاردني. بدلًا من ذلك، انتقلت إلى كلية أقرب قليلًا إلى المنزل، وقضيت ثلاث سنوات وحيدة، في غرفة مهجع مصممة لاثنتين.

سمعتي سبقتني بالطبع، علم الجميع تفصيلًا من أنا، وما مررت به. لكنني اتخذت طور السكون، بقيت هادئة، تعاطيت جرعتي اليومية من الزاناكس وصودا العنب. كنت ودودة بلا أصدقاء، سهلة التواصل لكن منعزلة عن قصد. لم أر أي داعٍ للتقرب من أحد.

مرة كل أسبوع، كنت أحضر مجموعة علاجية، حيث يتم التعامل مع ما نفرغه من حمول الآلام. نسبيًا صار الحاضرون

نوعًا من الأصدقاء، لسنا مقربين، لكن أهل ثقة بما يكفي لأن نتصل ببعضنا، عندما يصبح أحدنا أكثر قلقًا من أن يذهب إلى السينما وحيدًا.

حتى أيامها كان من الصعب عليَّ التواصل مع أولئك الفتيات البائسات، اللاتي تعرضن للاغتصاب أو للانتهاك الجسدي أو لتشوهات حوادث السيارات، فصدماتهن الحياتية كانت تختلف تمامًا عن صدمتي. لم تعلم إحداهن معنى أن تفقد كل أصدقائها المقربين في غمضة عين. لم يفهمن مدى قبح ألّا تتذكر أسوأ ليالي حياتك. شعرت أن فقداني الذاكرة يشعرهن بالغيرة، وأنهن أيضًا رغبن في النسيان، كأن النسيان أهون من التذكر.

في الكلية، كنت أجذب عددًا متنوعًا من الفتيان النحيفين رقيقي الحاشية، الذين رغبوا في حل لغز الفتاة المجهول الهادئة، التي أبقت الجميع على مرمى حجر. انغمست معهم إلى حد ما، مواعيد مذاكرة غريبة، ثرثرة في مقاهٍ سلّيت فيها نفسي بمراقبة كيف يحاولون تجنب ذكر «كوخ الصنوبر». ربما قبلة مسائية عابثة، لو شعرت بأنني وحيدة.

سرًا، كنت أفضل المتألقين كأبطال الرياضة، الذين تجدهم في الحفلات الشبابية والتنكرية. ذلك النوع بأذرع ضخمة، وصدر عضلي عريض، ومعدة خفيفة منتفخة من الكحول.

بعد كل مرة من هذه اللقاءات، كنت أتركها شاعرة بالغرابة والغضب، و - يا للدهشة- بإعادة شحن طاقتي ونشاطي. هناك شيء منشط في أن تنال ما شئت، حتى لو كان ما شئت مخجلًا.

لكن «چيف» مختلف، إنه طبيعي جدًا، كأنه قميص بولو من رالف لورين الذي يرتديه الكل. تواعدنا لشهر كامل قبل أن أتجرأ على ذكر «كوخ الصنوبر»، وظل طوال تلك الفترة يظنني «كوينسي كاربنتر» باحثة التسويق التي على وشك البدء بمدونة مخبوزات، لم يكن يعرف أنني «كوينسي كاربنتر» الناجية من

مذبحة.

نقطة لصالحه أنه تقبَّل الأمر أفضل مما توقعت، وردَّ بكل الردود التي في محلها في تلك اللحظة، وأنهاها بجملة:

- لديَّ اعتقاد راسخ بأنه يمكن للناس ألّا يرضخوا لماضيهم بأحداثه المؤلمة. يمكن للبشر التعافي والتقدم إلى الأمام. أنت تفعلين هذا الآن.

وهنا علمت أنه جاء ليبقى.

- كيف كانت شيكاجو؟

من هزة كتفه البسيطة، علمت أن الأمور لم تجرِ كما يجب.

- لم أنل المعلومات التي سعيت وراءها. في الواقع أفضِّل ألّا أتحدث بالأمر.

- وأنا أفضل ألّا أتحدث عن «ليزا».

نهض «چيف» لجأة، وقد خطرت له فكرة خاطفة..

- إذن علينا أن نخرج. علينا التأنق والذهاب إلى مكان أنيق، ونغرق أحزاننا في طعام وشراب كثيرين، ما رأيك؟

هززت رأسي رافضةً، وتمطيت كقطة، فاردة جسدي على الأريكة..

- ليس بي طاقة هذه الليلة. لكن أتعرف فيمَ أرغب حقًا؟

- نبيذ من الصندوق؟

- و...؟

- شعيرية الأرز التايلاندية

استجمعت نفسي لأبتسم قائلة:

- أنت تعرفني حق المعرفة

فيما بعد تعانقنا، بينما نشاهد فيلماً قديمًا لـ «ترنر»، وهو الروتين المعتاد لنا، حتى نغرق في النوم.

لكن الليلة النوم لا يأتيني بسهولة، جزئيًا بسبب مشاهدة الفيلم «السيدة من شانجهاي»، عندما وصلنا إلى النهاية حيث «ريتا هيوارث» و«أورسون ويلز» في قاعة المرايا، وانعكاساتهما تتحطم بطلقات الرصاص. وجزء آخر يرجع إلى «چيف»، الذي يتقلب بلا راحة بجواري تحت الغطاء.

في النهاية سألني:

- أواثقة أنك لا تريدين الحديث عن «ليزا» ميلنر؟

أغمضت عينيَّ متمنية أن يجذبني النوم من حلقي إلى أعماقه..

- لا يوجد شيء محدد أتحدث عنه. أواثق أنت أنك لا تريد الحديث عن مشكلتك؟

- إنها ليست مشكلة، إنها وظيفتي.

- آسفة.

صمتُّ لبرهة بدون أن أنظر إليه، محاولة قياس حجم ضيقه مني..

- هل ترغب بالحديث عن وظيفتك؟

- كلا.

قالها بسرعة قبل أن يغيِّر رأيه، ثم استطرد:

- ربما قليلًا..

التفتُّ إليه، وجلست متكئة على مرفقي الأيسر..

- أخمِّن أن الدفاع لا يجري على خير.

- ليس تمامًا. وهو أقصى ما أستطيع البوح به قانونًا.

القليل جدًا ما يُسمح لـ «چيف» أن يتحدث به عن قضاياه. قواعد سرية العملاء تمتد حتى إلى الأزواج، أو كما في حالتي الرفاق. وهذا سبب آخر يجعلنا ثنائيًا مثاليًا.. ليس بإمكانه الحديث عن عمله، وأنا لا أرغب في الحديث عن ماضيّ، بالتالي ندور بعيدًا عن الوقوع في شِركِ النقاش في الموضوعين

اللذين قد يفشل بسببهما أي ثنائي. رغم ذلك، فلأول مرة منذ شهور أشعر أننا على وشك السقوط في فخ أحدهما، والكفاح الصعب لتجنبه.

- علينا النوم، أليس عليك التواجد في المحكمة مبكرًا؟

- بلى.

قالها من دون النظر إليّ، وركّز بصره على السقف..

- هل فكرتِ دائماً أن هذا هو سبب عجزي عن النوم؟

- لا.

ورقدتُ على ظهري ثانية..

- آسفة

- لا أظنك تدركين حجم هذه القضية

لقد كانت في الأخبار يا «چيف»، أظن لدي فكرة جيدة.

وهنا حان دور «چيف» لينهض ويتكئ على مرفقه ناظراً إليّ..

- لو تمت هذه القضية بسلام، فقد تعني الكثير لي. بل لنا. أتظنين أنني أرغب أن أكون محامياً عاماً للأبد؟

- لا أعلم. هل تود ذلك؟

- بالطبع لا. الفوز بهذه القضية قد يصبح الدرجة التي أتسلقها إلى واحدة من شركات المحاماة الضخمة، حيث أستطيع كسب أموال حقيقية، دون أن أعيش في شقة مدفوع ثمنها من صندوق تعويضات صديقتي الضحية.

آلمني حديثه، إلى درجة أن عجزت عن الرد. أجزم أن «چيف» أدرك فداحة قوله وندم عليه في لحظتها، فقد اتّسعت عيناه للحظة بتعبير جامد، والتوى فمه في انزعاج، قبل أن يقول:

- «كوين»، لم أقصد قول ذلك!

- أعلم.

نهضت من الفراش، ما زلت عارية، شاعرة أنني مكشوفة

ومنتهكة بهذه الحقيقة. جذبت أول قطعة ملابس طالتها يداي- معطف «چيف» المنزلي الرث، وارتديته.

- لا بأس.

- بل هناك بأس.. أنا حقير.

- نل قسطًا من النوم، فغدًا يوم هام.

قلت له، وخرجت إلى غرفة المعيشة، وقد ذهب النوم بلا رجعة. ما زال هاتفي على سطح طاولة القهوة مغلقًا. فتحته، فأضاءت الشاشة بلون أزرق ثلجي في الظلام. لدي ثلاث وعشرون مكالمة فائتة، ثماني عشرة رسالة، وأكثر من ثلاث دزّينات من الإيميلات، كلها من مراسلين صحفيين.

لقد خرجت أخبار انتحار «ليزا» إلى النور، والصحافة بدأت تتصيدني رسميًا. تصفحت بريدي الإلكتروني الذي تجاهلته منذ ليلة أمس. مدفونة أسفل رسائل الصحفيين عدة رسائل لمعجبي صفحتي، وعدد من صانعي أدوات الخبز المتشوقين لأن أجرب أدواتهم على سبيل الدعاية.

عنوان بريد واحد اختلف عن بقية الرسائل، كأنه سمكة فضية طفت على السطح Lmilner75.

انتفضت أصابعي بعيدًا عن الشاشة.. رد فعل لا إرادي.. وحدقت بالعنوان حتى اخترق بصري، وظلت صورته في عيني عندما أرمش. أعرف شخصية واحدة فقط قد يكون هذا الاسم لها، وقد ماتت منذ أكثر من يوم. إدراك هذا خلق عقدة في حلقي. ابتلعت ريقي بصعوبة وأنا أفتح الرسالة.

«»كوينسي»، أحتاج إلى الحديث معك. إنه أمر غاية في الأهمية. أرجوك أرجوك أرجوك ألّا تتجاهلي هذه الرسالة»

تحت الرسالة كتبت اسمها، ونفس رقم الهاتف المكتوب داخل كتابها.

أعدت قراءة الرسالة مرارًا وتكرارًا، وتضخم شعور الدغدغة

في حلقي إلى ما يشبه الرعدة، كأنني ابتلعت نقار الخشب، وقد نشط بضرباته على جدار المري،.

تفقدت ميعاد إرسال الرسالة. الحادية عشرة مساءً. وإن حسبنا الدقائق التي استغرقتها الشرطة في تعقب مكالمتها والوصول إلى منزلها، فهذا يعني أنها أرسلتها قبل انتحارها بأقل من ساعة.

مما يعني أنني قد أكون آخر شخص حاولت الاتصال به!

الفصل 5

بزغ الصبح رماديًا مترنحًا. استيقظت لأجد أن «چيف» قد خرج لملاقاة موكله المتهم بقتل شرطي.

في المطبخ، وجدت هدية مفاجئة تنتظرني.. إناء زهورٍ ممتلئ، لا بالزهور، لكن بأدوات الخبز: ملاعق خشبية ومساكات وخفّاقات للجهد الشاق بمقابض في سمك رسغي. وحول الإناء التفَّ شريط هدايا أحمر، وعليه بطاقة مكتوب فيها:

«أنا أحمق. وآسف. أنتِ دائمًا وأبدًا حلواي المفضلة. مع حبي، «چيف»»

بجوار الإناء كانت كعكات الـ «كب كيك» التي لم أنهها ما تزال محدقة بي. تجاهلتها بينما تعاطيت قرص الزاناكس مع رشفتين من صودا العنب، ثم تحولت إلى القهوة فأعددتها مع الفطور في محاولة للتيقظ.

كان نومي مليئًا بالكوابيس، مرحلة ظننتها انقضت. في الأعوام الأولى بعد «كوخ الصنوبر»، لم تمر عليّ ليلة دون كابوس واحد على الأقل، كانت حديث جلسات العلاج المعتاد.. الركض في الغابة، و«چينيل» تتعثر أمام الأشجار، «هو».

مؤخرًا، صارت تمر عليَّ أسابيع، بل شهور دون كابوس واحد.

بالأمس حلمت بالمراسلين يخدشون نوافذي، ويتركون آثار مخالب دامية على الزجاج، شاحبة ونحيفة.. ناحوا باسمي، كمصاصي دماء ينتظرون دعوتي لهم بالدخول. وبدلًا من الأنياب، فقد كانت أسنانهم على شكل أقلام مسنونة كقطاعات الثلج، مع قواطع لامعة محشورة على الأطراف.

وفي أحد الكوابيسِ ظهرت «ليزا»، بنفس الهيئة التي في صورة كتابها. نفس زمة الشفاه كابتسامة.. لم ترتعش، ولا

حتى عندما انتزعت قلمًا من أحد المراسلين وجزّت به معصميها.

رسالتها كانت أول ما جال بخاطري ما أن استيقظت بالطبع. لقد ظلت كامنة في ذهني، كأنها لولب حلزوني مضغوط ينتظر أصغر إشارة من الوعي حتى يرتد منطلقًا. ظلت مسيطرة على عقلي حتى بعد أن أنهيت كوب القهوة وبدأت بآخر.

تركزت أغلب أفكاري على نقطة ملحة، أنني كنت آخر من حاولت «ليزا» الاتصال به قبل وفاتها، إن تجاهلنا مكالمة 911 المبتسرة. لو أن هذا حقيقي، فلمَ؟ هل اختارتني دونًا عن بقية الناس لأثنيها عن هاوية الخلل النفسي التي وقعت فيها؟ هل تجاهلي لتفقد رسائلي الإلكترونية يجعلني سببًا في موتها؟

أول ما خطر لي هو الاتصال بـ «كووب» وإبلاغه بكل هذا، ولم يخامرني الشك في أنه سيترك كل ما وراءه ليقود سيارته لثاني يوم على التوالي إلى مانهاتن، فقط ليطمئنني أن كل هذا ليس خطئي. لكنني لست واثقة من رغبتي في مقابلة «كووب» ليومين متتاليين، كانت لتصبح أول مرة منذ «كوخ الصنوبر» والصباح الذي تلاه، وهي ليست الذكرى التي أسعى لاستعادتها حاليًا.

بدلًا من ذلك راسلته، محاولة أن تبدو رسالتي كرسالة عابرة..

«اتصل بي عندما تتاح لك الفرصة. لا داعيَ للعجلة، فلا شيء هام».

في دخيلتي، كنت مقتنعة أن الأمر هام، أو على الأقل من الممكن أن يكون هامًا، وإلا لماذا استيقظت مفكرةً فيه؟ لماذا تكون الفكرة التالية في رأسي هي الاتصال بـ «جيف»، فقط ليطمئنني صوته، رغم علمي أنه في المحكمة وهاتفه مغلق ومدفون في أعماق حقيبته؟

حاولت عدم التفكير في الأمر، لكن باءت محاولاتي بالفشل الذريع. طبقًا لهاتفي، فقد فاتتني عشرات المكالمات، وبريدي الصوتي ممتلئ إلى آخره بالرسائل. استمعت إلى واحدة منها فقط،

رسالة مفاجئة من والدتي، التي اتصلت في ساعة تعلم تمامًا أنني سأكون نائمة فيها. آخر محاولاتها المستميتة المتطورة لتجنب محادثة حقيقية معي.

«"كوينسي"، هذه أمك» هكذا بدأت رسالتها، كما لو أنها لا تثق في أنني سأتعرف على صوتها الأخنف وحيد النغمة.

«لقد أيقظني أحد المراسلين ليسألني عن تعليقي على ما جرى لتلك المدعوة "ليزا ميلنر" التي كانت صديقتك. وأخبرته أن عليه الاتصال بك. ظننت أن عليَّ إبلاغك بهذا»

لم أر أي داع لإعادة الاتصال بها، فهذا آخر ما ترغب به والدتي. هكذا صار حالنا منذ أن عدت إلى الكلية بعدما جرى في "كوخ الصنوبر". كسيدة حديثة الترمل، فقد رغبت أن أدرس في المنزل، لكنني رفضت، فاتهمتني بأنني أتخلى عنها.

في النهاية، أُعتبر أنا من تمَّ التخلي عنها، فعندما وصلت إلى مرحلة التخرج كانت قد تزوجت من طبيب أسنان يدعى فريد، له ثلاثة أطفال من زيجة سابقة.. ثلاثة أطفال سعداء، لطفاء في سن التسنين. دون "ناجية أخيرة" في هذه الرابطة. لقد أصبحوا عائلتها، وأنا صرت بقايا صعبة الاحتمال لحياتها الماضية.. علة في حياتها الجديدة المنمقة.

استمعت مرة أخرى إلى رسالتها، باحثة عن أي نبرة قلق أو اهتمام في صوتها. لم أجد بالمرة، فمسحت الرسالة وانتقلت لقراءة نسخة اليوم من مجلة "تايمز".

ولدهشتي، كان هناك مقال عن موت "ليزا" في نهاية الصفحة الأمامية. قرأته مرة واحدة على مضض.

«مونسي- آنديانا— "ليزا ميلنر"، أخصائية نفسية واعدة، والتي كانت الناجية الوحيدة من مذبحة بيت الطالبات، التي هزت أرجاء الحرم الجامعي على مستوى الدولة، لقيت حتفها في منزلها هنا، وأكدت السلطات الخبر بالأمس. كانت تبلغ من العمر 42...»

ركّز المقال على كل الرعب الذي عاشته «ليزا» في تلك الليلة، كأنما باقي لحظات حياتها لم تهم قدر هذه اللحظة. قراءة ذلك المقال أعطتني لمحة عما سيكون عليه نعيي عند وفاتي، مما قبض معدتي بشدة. لكن جملة واحدة أوقفتني عندها.. قرابة النهاية، كأنها ملاحظة نهائية عابرة:

«ما زالت الشرطة تحقق في الأمر».

تحقق في ماذا؟ لقد مزقت «ليزا» معصميها، بما يبدو واضحًا تمامًا لي. ثم تذكرت ما قاله «كووب» عن تحليل السموم، للكشف عما إذا كانت «ليزا» تتعاطى شيئًا حينها.

رميت الجريدة جانبًا، وفتحت حاسوبي. تجاهلت المواقع الإخبارية وفتحت مدونات الجرائم الحقيقية، ومنها عدد مرعب مخصص عن «الناجيات الأخيرات»، الأشخاص الذين يشرفون عليها- وكلهم رجال بالمناسبة، فالنساء لديهن أمور أهم يقمن بها- ما زالوا يتصلون بي من حين إلى آخر عبر موقعي الإلكتروني، محاولين إقناعي بإجراء مقابلة. لم أرد عليهم أبدًا. المرة الوحيدة التي لم أتجاهلهم فيها كانت عندما تلقيت خطاب تهديد، واتصل «كووب» بهم جميعًا سائلًا إن كان أحدهم قد أرسله، وتلقى الإجابة بالنفي.

في العادة، أتجنب مثل هذه المواقع، خشية ما قد أقرؤه مكتوبًا عني. لكن اليوم يستدعي استثناءً خاصًا، وهكذا وجدت نفسي أفتح موقعًا تلو الآخر. كلهم تقريبًا ذكروا انتحار «ليزا»، ومثل مقال الـ «تايمز» لم تكن هناك معلومات تذكر، كلهم ركزوا على مفارقة أن ناجية شهيرة عالميًا سلبت نفسها حياتها، بل إن أحدهم اقترح بوقاحة أن الناجيات الباقيات قد ينتهجن نفس المصير.

أغلقت المتصفح بقرف، وصفقت شاشة الحاسوب بعنف، ثم نهضت محاولة أن أنفض عني أدرينالين الغضب الساري في عروقي. كل هذا الزاناكس والكافيين وإساءة اختيار ما أتصفح

على الإنترنت، تركوني متوترة ومتحفزة أكثر من اللازم، حتى إنني بدلت ملابسي إلى ملابس التدريب، وانتعلت حذاء الجري. عندما أكون في هذه الحالة، فالحل الأمثل هو الركض حتى يمر الأمر.

في المصعد، خطر لي أنني ربما أجد عددًا من المراسلين في الخارج. إن كانوا قد عرفوا رقم هاتفي وبريدي الإلكتروني، ففي الغالب قد عرفوا أين أعيش. هكذا قررت أن أركض ما أن أصل إلى الشارع، لا كما الخطة المعتادة بالتمشيّ إلى سنترال بارك. بدأت بالإحماء وأنا ما زلت في المبنى، مهرولة بخفة خارج المصعد. لكن ما إن خرجت، حتى أدركت أن لا حاجة إلى القلق، فبدلًا من تجمع للمراسلين على البوابة، لم أجد سوى واحد فقط، بدا صغير السن، متعطشًا، وسيمًا كطالب مجتهد، بنظارات سميكة الإطار وبشعر كث، كأنه «كلارك كنت» أكثر منه «جيمي أولسن». أسرع نحوي ما أن هرولت من المبنى، وصفحات دفتره تخفق في يده.

- آنسة كاربنتر!

أخبرني باسمه «چوناه ثومبسون». تذكرت اسمه، فقد كان أحد الذي اتصلوا بي، وراسلوني على بريدي، وراسلوني برسائل قصيرة. المزعجات الثلاث. ثم أخبرني باسم الجريدة التي يعمل فيها، إحدى الجرائد الشعبية اليومية الشهيرة. بالنظر إلى صغر عمره، فهذا يعني إما أنه جيد جدًا في عمله، أو أنه متسلق معدوم الضمير بدرجة فائقة، وأميل إلى الشك أنه يمتلك الصفتين.

- لا تعليق.

قلتها وأنا أنطلق للركض بسرعة كاملة، لحاول أن يجاريني، لكنّ حذاءه ذا النعل الجلدي طرق أرض الرصيف وهو يعدو بجواري.

لديّ بضع أسئلة بخصوص «ليزا ميلنر».

- لا تعليق.

كررتها، ثم أردفت:

- وإن ظللت هنا عند عودتي، سأتصل بالشرطة.

تقهقر «چوناه ثومبسون» عني، بينما استمريت في الركض. شعرت به يراقبني وأنا أبتعد، ونظراته تحرق قفاي. وسعت خطواتي مسرعة عبر التقاطعات المؤدية إلى سنترال بارك، وقبل أن أدخل، ألقيت نظرة سريعة من وراء كتفي، تحسبًا لأن يكون قد تبعني.

غالبًا لا، ليس بذلك الحذاء.

في المتنزه، اتجهت شمالًا تجاه الصهريج، بقعتي المفضلة للتريض، مستوية أكثر من باقي المناطق، ومكشوفة للنظر دون أي ملفات ومنحنيات يعلم الرب ما الذي تخفيه في ثنياتها، دون أشجار كثيفة ولا متشابكة، فقط مساحة ممتدة من الحصى، حيث يمكنني أن أزم فكّي وأفرد ظهري وأركض.

لكن في هذا الصباح القابض، يصعب عليَّ التركيز في الركض، فأفكاري في مكان آخر. أخذت أفكر في «چوناه ثومبسون» المبتدئ وإلحاحه المزعج. وأفكر في المقال عن موت «ليزا»، وعدم الاعتراف بأن ما مرت به خرب حياتها، بما يكفي لأن تغرس سكينًا في معصميها لتنهي حياتها. أكثر من كل هذا، أخذت أفكر في «ليزا» ذاتها، وما الذي دار بخلدها حتى ترسل إليَّ هذا البريد الإلكتروني، هل كانت حزينة؟ يائسة؟ هل قبضت على السكين بالفعل في يديها المرتجفتين؟ فجأة شعرت بثقل كل هذه الأفكار عليّ، وانسحب كل الأدرينالين من أطرافي بنفس السرعة التي سرى بها، ومرَّ بي العديد من المتريضين، وأصوات تدحرج الحصى تحت أقدامهم تنبئني باقترابهم. أخيرًا استسلمت وأبطأت من سرعتي، وانتقلت إلى حافة المسار، وتمشيت باقي المسافة إلى البيت.

عندما وصلت إلى المبنى، ارتحت لأن «چوناه ثومبسون»

قد انصرف. كانت هناك مراسلة أخرى تقف متسكعة على الجانب الآخر من الشارع، ومن النظرة المتفحصة الثانية أقررت بأنها ليست مراسلة تقليدية، هي تبدو أكثر حدة من أن تكون لها علاقة بالإعلام التقليدي، ذكّرتني بفتيات حركة فتيات الشغب النسوية القديمة، واللاتي كن يجبن شوارع «ويليامزبرج» قبل أن يغزوها محبو الجاز. سيدة لا يهمها أنها ترتدي ملابس ملائمة لمن في نصف عمرها، سترة جلدية على ثوب أسود قصير، مع جوارب شبكية وحذاء ذي رقبة عسكري الطراز بالي الشكل، شعرها الحالك مفروق ليغطي كالستار عينيها اللتين خططتهما بالكحل، مع طلاء شفاه أحمر كالدم. مدونة، هكذا خلصت، لكن مع نوعية قراء مختلفة تمامًا عن نوعيتي.

رغم ذلك، كان هناك شيء ما مألوف فيها، ربما أكون قد رأيتها من قبل. شعرت في أحشائي بذلك الشعور الملح بأنني أعرف شخصًا لا أتعرفه.

لكنها من تعرفت عليّ رغم ذلك، عيناها المظللتان كحيوان الراكون اخترقتاني من وراء ستائر شعرها الكث. راقبتها وهي تراقبني دون أن تطرف عيناها. كانت تتسكع على مهل أمام المبنى المقابل، بدون أي محاولة للاندماج مع المحيطين بها، وقد تدلت سيجارة من شفتيها القرمزيتين، والدخان يخرج في حلقات منهما. كنت على وشك الدخول إلى المبنى عندما سمعتها تنادي:

- «كوينسي».

لم تكن تسأل، بل تقر بها.

- هاي، «كوينسي كاربنتر»

توقفت، واستدرت نصف استدارة مواجهة إياها بعبوس:

- لا تعليق

عبست، حتى بدا أن عاصفة غيّمت على وجهها..

- لا أريد أية تعليقات.

- إذن ماذا تريدين؟

قلتها وأنا أواجهها برأس مرفوع محاولة التحديق بها.

- فقط أن نتحدث.

- عن «ليزا ميلنر؟

- نعم، وأمور أخرى.

- بما يجعلك مراسلة. بالتالي لا تعليق

تمتمت «يا إلهي!»، وألقت بسيجارتها على الأرض، ومدت يدها إلى حقيبة ظهر ضخمة بجوارها على الأرض، ثقيلة وممتلئة، أيًا كان ما بها فقد ضغط ذراعيها المرتعشتين وهي تحملها، وبسرعة عبرت الشارع لتقف قبالتي وتسقط الحقيبة أرضًا أمامي، حتى إنها كادت تسقطها على قدمي اليمنى.

- لا حاجة بك لأن تكوني بهذه الوضاعة.

- أستميحك عذرًا!

- اسمعي، كل ما أريده هو الحديث.

من قريب، بدا صوتها مغريًا ذا بحة خفيفة، وقد غلفت أنفاسها رائحتا الويسكي والسجائر.

- بعدما جرى لـ «ليزا»، ظننت هذه فكرة جيدة.

فجأة، عرفت من هي. كانت تبدو مختلفة عما توقعت، بعيدة كل البعد عن صورة كتّاب الدفعة التي طُبعت في كل مكان في صيف بعيد. لم يعد هناك ذلك الشعر المشدود إلى أعلى، والوجنتان الورديتان، والذقن الممتلئ، لقد فقدت الكثير من الوزن منذ حينها، وحلت عنها وداعة الصبا الغض، الزمن حولها إلى نسخة متوترة مرهقة من ذاتها السابقة.

قلت: «سامنثا بويد»!

أومأت إيجابًا:

- أفضِّل أن تناديني «سام».

الفصل 6

«سامنثا بويد»

ثانية الناجيات الأخيرات..

من بيننا نحن الثلاثة، ربما كانت من واجهت الأسوأ.

لم يكن قد مرَّ على تخرجها من المدرسة الثانوية أسبوعان، عندما جرى ما جرى. إنها فقط فتاة فقيرة، تحاول جمع ما يكفي من المال للدراسة في إحدى الكليات المهنية، لذا فقد حظيت بوظيفة تنظيف الغرف في فندق على الطريق خارج «تامبا»، يسمى نُزُل «نايت لايت». ولأنها كانت جديدة في المهنة، كان من نصيبها مناوبة آخر الليل، تضع المناشف لسائقي الشاحنات المرهقين، وتغير الشراشف التي تفوح منها رائحة العرق، في غرفٍ تستخدم لبضع ساعات في الليل.

بعد ساعتين من مناوبتها الرابعة، أتاهم رجل يحمل على كتفه جوالاً من البطاطس، وهنا فتحت أبواب جهنم على مصراعيها. كان عاملًا متجولًا مهووسًا بالجنس، المذكور في مقاطع من الكتاب المقدس، لا أحد يحب الحديث عنها: عاهرات بابليون، معاقبة الخطاة، العين بالعين، والسن بالسن. اسمه كان « كالفين وايتمر»، لكن بعد ذلك الصيف لم يُعرف سوى باسم رجل الجوال.

ناسبه ذلك الاسم.. جوالات مليئة بالمعلبات الفارغة، جوالات مليئة بجلود الحيوانات، جوالات بالرمل، الملح، الحصى. ثم كان هناك جوال الأدوات الذي حمله إلى نزل «نايت لايت»، امتلأ بأسلحة من المناشير والأزاميل والمسامير الصلبة.. عثرت الشرطة على إحدى وعشرين أداة، معظمها غارقة بالدماء.

«سامنثا» وحدها استعمل لقتلها أداتين، إحداهما كانت شفرة مثقاب حادة، اخترقت ظهرها مرتين، والآخر منشار حدادة اخترق أعلى فخذها، قطع عروقها بحدة. طعنتها بشفرة المثقاب

جاءت قبل أن يثبتها رجل الجوال إلى شجرة وراء النزل، بحلقة من الأسلاك الشائكة. أما المنشار الحدادي، فجاء بعدما تمكنت من فك قيدها بطريقة ما.

ستة أشخاص قتلوا في تلك الليلة، أربعة من نزلاء النُزل، وموظف الاستقبال الليلي المدعو «تروي»، و«كالفين ويتمر». مقتله جاء على يد «سام» نفسها. ما إن حررت نفسها وعثرت يداها على نفس الشفرة التي اخترقت ظهرها، حتى قفزت معتلية الرجل الجوال، وغرستها في صدره مرة تلو الأخرى. فيما بعد، عثرت عليها الشرطة، بأن تتبعت شريط الأسلاك الشائكة التي تداخلت على جثة رجل مطعون.

أعرف كل هذه التفاصيل لأنها نُشرت في مجلة تايم، والتي افترضَ والداي أنني لا أتصفحها أبدًا. ذلك العدد قرأته مختبئة تحت أغطيتي، وكشاف النور يرتعش في يدي، وظللت أحلم بكوابيس بعدها لأسبوع.

قضية «سام» كان لها نفس الوقع الإعلامي، مثلها مثل قصة «ليزا»، وفيما بعد قصتي. أخبار المساء، الصفحات الأمامية، أغلفة المجلات. يا إلهي، كيف أتى المراسلون راكضين! ربما يكونون نفس من عسكروا أمام منزل والديّ. قامت «سام» بعدد من المقابلات الصحفية المنشورة، ومقابلة واحدة مع تلك المذيعة الوضيعة ذات الورقة المعطرة بشانيل، غالبًا بسعر مقارب لما عرضته عليّ.

شرطها الوحيد كان ألّا يعرض وجهها على الكاميرا، ولا أن تنشر لها أية صور حديثة. كل ما رآه الناس منها هو تلك الصورة من كتّاب الدفعة: الوجه الذي عُرف لمعاناتها الشخصية. لذا كان هذا أمرًا جللًا أن تسمح لـ «أوبرا وينفري» بإجراء مقابلة معي أنا و«ليزا»، وتقف أمام الكاميرا ليراها العالم أجمع. الأمر الذي جعله أكثر صعوبة، أنني تراجعت في آخر لحظة. بسببي لم يحظ أحد بأن يرى وجه «سامنثا بويد» ثانية.

بعد ذلك بعام، اختفت.

لم يكن اختفاؤها مفاجئًا، بل كان تدريجيًا جدًا، كضباب الصباح الذي ينقشع مع أشعة الشمس. الصحافيون الذين يكتبون عن الذكرى العاشرة لجريمة نُزل «نايت لايت» وجدوا صعوبة بالغة في العثور عليها. والدتها نفسها صرحت بأنها فقدت الاتصال معها. حتى رجال المباحث الفيدرالية الذين يُبقون أعينهم على ضحايا جرائم العنف لم يتمكنوا من العثور عليها. لقد تبخرت. اختفت عن الأنظار كما وصف «كووب» الموقف.

لا أحد يعلم على وجه الدقة ما جرى، لكن هذا لم يحُل دون ابتكار النظريات وانتشارها كأنها جراثيم العفن. إحدى المقالات خرجت بنظرية أنها هاجرت إلى أمريكا الجنوبية بعد أن غيرت اسمها، وأخرى اقترحت أنها تحيا بعزلة في مكان ما في الغرب. أما موقع القتل الإباحي، فقد انتقى وجهة نظر أكثر إظلامًا طبعًا، فقد اقترح نظرية مؤامرة تشمل الانتحار، الاختطاف، والتغطية الحكومية. لكن الآن ها هي هنا، تقف أمامي، بمظهر غير متوقع بالمرة، جعلني أفقد النطق. كل ما أمكنني نطقه هو: «ماذا تفعلين هنا؟»

قلبت «سام» عينيها وقالت:

- أنت فاشلة في التحية فعلًا!

- معذرة، أهلًا..

- هذا أفضل.

- شكرًا، لكن هذا لا ينبئني عما تفعلين هنا.

- ألا يبدو هذا واضحًا؟ أنا هنا لمقابلتك.

كان صوت «سام» يبعث في ذهني شعورًا برائحة التبغ والدخان والكحول. كان له إيقاع مبهم لأمر محرم.

- ظننت أن علينا أن نتقابل أخيرًا

وقفنا نحدق في بعضنا البعض لوهلة، وكل واحدة تقيّم

الضرر في الأخرى. شعرت أن «سام» تمسحني بناظريها، لأنها لاحظت معدتي أولًا، وكذلك كتفي، في حين أنني حدقت في ساقها محاولة أن أتذكر إن كانت تعرج عندما عبرت الطريق.

وانسلت الأفكار عن «ليزا» إلى عقلي: «نحن نوع نادر، علينا أن نساند بعضنا» هكذا قالت لي مرة.

والآن وقد رحلت، لم يعد هناك أحد بمستطاعه أن يفهم ما مررنا به، أنا و«سام» فقط من تبقَّينا. ورغم أنني ما زلت لا أستوعب سبب خروجها من مخبئها فقط لتراني، إلا أنني وجدت نفسي أومئ على مضض. قلت بصوت غلبته المفاجأة:

- وهكذا التقينا.. هل تحبين الصعود إلى منزلي؟

جلسنا في غرفة المعيشة، دون أن نحتسي القهوة التي تركناها أمامنا. كنت قد استبدلتُ ملابسي بجينز أزرق وحذاء مسطح أحمر وكنزة فيروزية. تنوّع لوني مضاد لكل السواد في «سام».

جلستُ منتصبة الظهر، على مقعد مستوي الظهر ذي تجيد من المخمل البنفسجي، صلب وغير مريح، كان مقعدًا للديكور أكثر منه للجلوس. أما «سام» فقد جلست على الأريكة عتيقة الطراز، بدون إحساس بالراحة مثلي.. جلست ملتصقة الساقين، ذراعاها متيبستان بجوارها، تحاول فتح أحاديث هامشية صغيرة، وإن بدا واضحًا أن هذا ليس أفضل مواطن قوتها. كانت كلماتها تخرج مقتضبة حادة سريعة، كل واحدة كأنها خرجت من مسدس أطفال أُطلق بسرعة.

- مكان لطيف.

- شكرًا.

- يبدو واسعًا.

- ليس سيئًا. لديها غرفتا نوم فقط.

انكمشت بينما أقول «فقط» كأنني محرومة. بالنظر إلى الحقيبة التي جلبتها «سام» معها، فلست واثقة أن لديها مكانًا للمبيت.

- لطيف.

تحركت «سام» على الأريكة، وشعرت أنها تقاوم رغبة عارمة في خلع حذائها طويلِ العنق والتمدد على الأريكة. كانت تبدو غير مرتاحة مثلي تماماً. تدفقت الكلمات مني، في محاولة يائسة ألّا أبدو مدللة:

- ليس المكان صغير، أنا متفهمة كم أنا محظوظة، والغرفة الاحتياطية جيدة عندما تأتي عائلة «چيف» لزيارتنا. «چيف» هو صديقي، والداه في «ديلاور»، وأخوه وزوجته وابناهما يعيشون في «ميريلاند»، وهم يحبون زيارتنا كثيراً. من اللطيف أن يأتي الأطفال أحيانًا.

أنا أحب عائلة «چيف»، كلهم يبدون مثاليين كأنهم خرجوا من فهرس مصور، مثله تمامًا. كلهم يعرفون بأمر «كوخ الصنوبر»، أخبرهم «چيف» ما أن بدا أن العلاقة بيننا تنحى منحى جديًا، ولم يهتز لهذا الثنائي البروتستانتي المتدين من الطبقة الوسطى أي جفن، بل إن والدته أرسلت لي سلة فواكه، مع بطاقة مكتوبة بخط يدها أنها تأمل أن تبهج هديتها يومي.

- وماذا عن أسرتك؟

- ماذا عنهم؟

- هل يزورونك كثيرًا؟

هنا تذكرت زيارة أمي الوحيدة، لقد دعت نفسها، متعللة بأنها على خلاف مع فريد وترغب بالابتعاد عنه في عطلة نهاية الأسبوع. «چيف» رأى في ذلك علامة طيبة، وبسذاجة اعتقدت ذلك أيضًا. ظننت أن والدتي ستتأثر بحياتي الجديدة التي أعيشها، لكن بدلًا من ذلك، قضت كامل العطلة تنتقد كل شيء، بداية من الملابس التي أرتديها، إلى كمية النبيذ التي أشربها على العشاء، وحتى الوقت الذي غادرت فيه كنا نتبادل الحديث بالعافية.

- كلا.. لا يفعلون، وماذا عنكِ؟

- نفس الوضع.

مرة واحدة رأيت السيدة «بويد» في مقابلة على 20/20 بعد فترة قصيرة من ملاحظة اختفاء «سام»، كانت فيها كائمًا رث الهيئة، مع لطختين من اللون الأحمر على وجنتيها، ومشابك شعر ضخمة بطول بوصتين على شعرها المصبوغ. خلال المقابلة، كان واضحًا بشكل صارخ عدم تعاطفها مع ابنتها.. الطريقة التي كانت تمد بها ذقنها جعلت صوتها يبدو جافًا وباردًا، كانت تبدو مرهقة، منهكة، مستهلكة. ورغم أن «سام» لها نفس الهيئة الرثة، فأنا متفهمة لِما أرادت أن تهرب من مثل هذه الأم. السيدة «بويد» كانت تمثل بيتًا هزته الأعاصير.

أما والدتي، فقد كانت على النقيض. «شيلا كاربنتر» ترفض أن تدع أي أحد يرى أي هزة نفسية أو تعب. بينما كنت راقدة في المشفى بعد أحداث «كوخ الصنوبر»، كانت تأتي كل صباح بكامل هيئتها وزينتها، دون أن تخرج شعرة واحدة من مكانها. بالطبع فابنتها الوحيدة بالكاد هربت من براثن مخبول ذبح كل صديقاتها، لكن هذا ليس مبررًا كافيًا كي تظهر دون زينة وجهها. لو أن والدة «سام» من الطبقة الحرفية، فأمي من سيدات الضواحي.. منزل فاخر عفن الداخل.

- آخر ما سمعت، أنكِ نوعًا ما اختفيت.

- نوعًا ما.

- أين كنتِ كل هذه السنوات؟

- هنا وهناك. تعرفين، أبتعد عن الأنظار.

كنتُ جالسة عاقدة ذراعيَّ أمام صدري، وكفَّاي مدسوستان تحت إبطي. أخرجتهما وعقدتهما على حجري، وخلال ثوان، رغم أن جسدي ظل على حاله، إلا أنّ كل ذرة فيه تعطشت للزاناكس.

لم تلحظ «سام» ذلك، فقد كانت مشغولة بإزاحة شعرها

خلف أذنيها، لتعطي نظرة سريعة منتقدة للشقة. كنت قد زينت المكان على ذلك النمط الذي يدعي أن الأناقة في أن يبدو الأثاث رثًا، كل شيء متفرد مع نفسه، من الحوائط الزرقاء، حتى المصابيح الرخيصة، والبساط الأبيض السميك، الذي اشتريته على مضض لكنه أعجبني فيما بعد. إنني أدرك أنها شقة شخص يحاول ألا يظهر كم من المال يمتلك، ولا أعرف هل «سام» متأثرة أم متأففة من ذلك.

- هل تعملين؟

- نعم. أنا— آه..

بترت كلامي، وهو الأمر الذي يحدث في كل مرة أتحدث فيها عن مهنتي الوهمية غير المنتظمة، خاصة لشخص مثل «سام»، والتي تحمل هالة من حياة طويلة من الفقر والعوز، يبدو هذا واضحًا في شكل جواربها الشبكية الممزقة وحذائها المهترئ وعينيها المرهقتين، واليأس الذي يتردد صداه منها كموجات مذياع حادة متقطعة. قالت بهدوء:

- ليس عليك إخباري، فأنت لا تعرفينني.

- أنا مدونة؟

خرج الكلام من فمي كأنه سؤال.. كأنني لا أدري عن نفسي أمرًا..

- لدي موقع إلكتروني يسمى «حلوى كوينسي».

ابتسمت «سام» ابتسامة مهذبة..

- اسم لطيف. هل هي عن القطط وتلك الأشياء؟

- المخبوزات.. كعك، بسكويت، مافن، أرفع صورًا ومعلومات عن التزيين، ووصفات، العديد منها. لقد ظهرت في قناة الطهي.

يا إلهي! أتبجح بظهوري في قناة طهو! حتى أنا أردت صفع نفسي. لكن «سام» أومأت برأسها تحية مسترخية وقالت:

- لطيف.

- أحيانًا يكون الأمر لطيفًا.

قلت وأنا أتمكن من تهدئة نبرتي أخيرًا.

- لمَ الكعك؟ لمَ ليس عن الجوع في العالم، أو السياسة أو....

- القطط وتلك الأشياء؟

هنا، ابتسمت «سام» ابتسامة واسعة حقيقية..

- نعم.. إنه كذلك

- دائمًا كنت أحب الخبز. إنه أحد الأشياء القليلة التي أجيدها. يجعلني أسترخي. ويسعدني. بعد....

ترددتُ للحظة، لكن لأسباب مختلفة...

- بعد ما جرى لي.....

- تقصدين مذبحة «كوخ الصنوبر»؟

في البداية، تفاجأتُ من أنها تعرف الاسم، ثم أدركتُ أن من الطبيعي بالنسبة لها أن تعرفه، مثلما أعرف أشياء عن نُزل «نايت لايت».

- نعم، بعد ذلك، عندما عشت في المنزل، قضيت جلّ وقتي أخبز أشياء الأصدقاء والجيران. هدايا شكر في الواقع. الناس كانوا كرماء معي. كسرولة طعام كل يوم لأسابيع عديدة.

- كل هذا الطعام!

رفعت «سام» أصابعها إلى أسنانها لتقضم أطرافها، وانزاح كمّ سترتها الجلدية عن ذراعها، كاشفًا عن حبر أسود على معصمها.. وشم، خفي عن النظر.

- لابد أنها كانت جيرة لطيفة.

- بالفعل.

قضمت «سام» ظفرها ثم بصقته..

- جيراني لم يكونوا كذلك

عمَّ الصمت المكان، بينما تدفقت الأسئلة في عقلي.. أسئلة شخصية، ربما لن ترغب «سام» في الإجابة عنها: كم من الوقت ربطكِ بالسلك الشائك في الشجرة؟ كيف تحررت منه؟ ما شعورك وأنت تطعنين « كالفين ويتمر» في قلبه بتلك الشفرة؟

بدلًا من ذلك قلت:

- هل علينا الحديث عما جرى لـ «ليزا»؟

- تجعلين الأمر يبدو كأنَّ لدينا خيارًا غير ذلك.

- لسنا مجبرين على التحدث عن ذلك.

- لقد انتحرت.. بالطبع علينا الحديث.

- لماذا قامت بذلك في اعتقادك؟

- ربما لم تعد قادرة على التحمل

أعرف ما تعني. إنه الذنب.. الكوابيس، الحزن الطويل الكامد في النفس. وأكثر من أي شيءٍ ذلك الشعور المضني الذي يلتهم الروح بأنِ نجاتي لم تكن مقدَّرة، أنني مجرد حشرة بائسة تملصت، فنسيَ القدر سحقها.

- هل انتحار «ليزا» هو سبب خروجك من عزلتك بعد كل هذا الوقت؟

رفعت «سام» ناظريها إليّ:

- ماذا تظنين؟

- نعم. لأنه أفقدكِ توازنك، مثلما فعل بي.

ظلت «سام» صامتة.

- أنا على حق، أليس كذلك؟

- ربما.

- وأردتِ مقابلتي شخصيًا أخيرًا.. إنه الفضول لتري أثر انتحارها على حالي.

- أوه، أنا أعرف كل شيء عنك بالفعل.

أسندت ظهرها على الأريكة، سامحةً لنفسها أخيرًا بأن تسترخي، وهي ترفع قدمها اليسرى على ركبتها اليمنى بلامبالاة. وتحل عقدة ذراعيها لتفردهما كجناحين على الوسائد. حللت ذراعي بطريقة مماثلة وأسقطتُ ذراعي عن صدري، بينما ملتُ إلى الأمام في مقعدي.

- سأفاجئكِ.

رفعت «سام» أحد حاجبيها المرسومين بقلم أسود، فأظهرت الحركة شعيرات زغبية وسط الصبغة الداكنة.

- التحدي غير المتوقع من الآنسة «كوينسي كاربنتر».

- ليس تحديًا، بل واقع. لديَّ أسراري.

ردت سام:

- كلنا لدينا أسرار. لكن هل أنت شيء أكثر من نسخة مصغرة من «مارثا ستيوارت» التي تتظاهرين بأنكِ مثلها في مدونتك؟ هذا هو السؤال الحقيقي.

- كيف لك أن تعرفي أنني أتظاهر؟

- لأنك «ناجية أخيرة». الحياة تختلف بالنسبة لنا.

- لست «ناجية أخيرة». ولم أكن أبدًا. أنا هو أنا فحسب. والآن لن أكذب وأقول إنني لم أعد أفكر فيما جرى؛ بل أفعل بالطبع، لكن ليس كثيرًا، لقد تجاوزت الأمر.

بدا على «سام» أنها لا تصدقني، فقد ارتفع حاجباها المزيفان وهي تقول:

- إذن فأنت تخبرينني بأنك شفيت بسبب القدرة العلاجية للخَبز؟

- لقد ساعدني هذا.

- إذن فأبقي هذا.

- أثبتُ هذا؟

- نعم.. اخبزي شيئًا.

- الآن؟

نهضت «سام» وفردت قامتها، وجذبتني من مقعدي..

- بالتأكيد.. أظهري لي حقيقتك.

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook

الفصل 7

الخبَز علم، دقيق مثله مثل الكيمياء أو الفيزياء، هناك قواعد ملزمة، الكثرة من مادة والإقلال من أخرى يفسدان النتيجة.. أجد راحة في هذا الفكر. في العالم الخارجي مكان لا تحكمه القواعد، حيث يجوب الرجال بسكاكين مسننة، لكن في الخبز لا يوجد سوى النظام.

ولهذا وجِدت «حلوى كوينسي». عندما تخرجت من الكلية بشهادة في التسويق، وانتقلت إلى نيويورك، كنت ما أزال أفكر في نفسي كضحية، كذلك كل الآخرين. ولكن الخبز كان الطريقة الوحيدة لتغيير ذلك، أردت أن أصب فيه ذاتي المهشمة المطموسة، في قالب علي هيئة إنسان، وأرفع تحته الحرارة ليخرج ناعمًا، نابضًا وجديدًا.

حتى الآن هذا يُجدي.

في المطبخ، فردت صفين متجاورين من الأوعية العميقة على طول السطح، مرتبة حجمًا حسب محتوياتها، أكبرها يحمل الأساس: جبال من الطحين، والسكر، كأنها أكوام الثلوج. والمقاس الأوسط للصمغيات: البيض، الماء، الزبد. وأصغر الأوعية للنكهات، كي يعطي الأصغر أغنى مذاق.. يقطين مهروس، نكهة البرتقال، قرفة، وكرز.

حدقت «سام» في ترتيب المكونات بشك..

- ماذا ستخبزين؟

- سنخبز رغيف برتقال ويقطين

أريد لـ «سام» أن تشهد معادلة البداية وراء الخبز، وتجرِّب سلامته. أريدها أن ترى كيف ساعدني أن أصبح أكثر من مجرد فتاة تركض صارخة في الغابة هاربة من « كوخ الصنوبر». لو أنها صدقت ذلك، ربما يكون هذا حقيقيًا بالفعل!

ظلت «سام» جامدة، ناظرة إليّ أولًا، ثم إلى كل ما يحيط

بنا. أظن أن المطبخ له تصميم حميم، بلونيه الأخضر والأزرق الهادئين، مع مزهرية أقحوان على حافة النافذة، وأواني طهو معلقة على الحائط. الأجهزة كلها قطع فنية مع تصميم قديم. تفحصت «سام» كل شيء برعبٍ صعب عليها إخفاؤه. كانت لها نظرة طفل همجي جروه لجأة إلى الحضارة. سألتها:

- هل تعرفين كيف تخبزين؟

- كلا، أستعمل الميكروويف.

ثم أطلقت ضحكة صاخبة حنجرية، رنَّت في أرجاء المطبخ. راقني الصوت، عندما أقف وحدي لا شيء يعم سوى الصمت.

- إنه سهل، ثقي بي.

أوقفتها أمام أحد صفَّي الأوعية، واتخذتُ مكاني أمام الآخر، وبدأت أريها خطوة بخطوة كيف تخلط الزبد والسكر معًا، وتضيفهما إلى الطحين، الماء، والبيض، مع إضافة طبقات النكهة واحدة تلو الأخرى. جهزت «سام» الخليط بنفس طريقة حديثها، باختصار ضربات عشوائية، وتناثرت خيوط من الدقيق وكُل من اليقطين من إنائها.

امم، هل أقوم بهذا بطريقة صحيحة؟

- بالكاد. أنت بحاجة إلى أن تكوني أكثر اعتدالًا.

- تتحدثين مثل كل أصدقائي السابقين.

قالتها «سام» ساخرة، بينما استمعت إلى نصيحتي وبدأت تخلط المكونات بقوة أضعف، وظهرت النتيجة مباشرة.

- مهلًا، لقد أفلح!

- البطيء المثابر يفوز بالسباق. هذه هي الوصية العاشرة في مدونتي.

- عليك بتأليف كتاب للطهي.. «الخبز للمغفلين».

- فكرت في الأمر، لكن كتاب طهي عادي لحسب.

- وماذا عن كتاب عن «كوخ الصنوبر»؟

تجمدتُ لسماع هاتين الكلمتين سويًا، وهما متفرقتان لا أثر لهما عليّ. كوخ.. صنوبر. ليستا سوى كلمتين غير مؤذيتين بالمرة. لكن إن جمعتهما، فلهما حدة السكين التي غرسها في كتفي ومعدتي. لو طرفتُ بعيني، أعلم أنني سأرى «چينيل» تخرج من بين الأشجارِ، وهي ما زالت حية نظريًا لكنها ميتة تقريبًا. لذا أبقيت عينيّ مفتوحتين، أحدق في الخليط وهو يمتزج ويثقل في الإناء أمامي. قلت لها:

- سيكون كتابًا قصيرًا جدًا.

- أوه. فعلًا!

رنة صوتها كانت مزيفة، كأنها تحاول أن تبدو قد تذكرت للتو فقدان ذاكرتي.

- بالفعل.

حدقت هي الأخرى، لكن فيَّ وليس في إنائها. أشعر بنظراتها تحرق وجنتيّ كأشعة شمس الظهيرة التي تخترق نافذة المطبخ. خالجني شعور مقلق بأنها تختبرني بطريقة ما، وأنني سأرسب لو رفعت رأسي لمواجهة نظراتها، لذا استمررت بالنظر إلى خليط الخبز، سميكًا ومتلألئًا في قاع وعائي. سألتها:

- هل قرأتِ كتاب «ليزا»؟

- كلا.. وأنت؟

- لا

لا أعرف لما كذبت، وهي كذبة في حد ذاتها. فقط أعرف أن هذا لإبقاء «سام» بغير اتزان. أراهن أنها خمنت أنني قرأت كتاب «ليزا» من الغلاف إلى الغلاف، وقد فعلت. لكن لا شيء ممل أكثر من كونك سهل التخمين.

سألتها:

- وأنتما الاثنتان، ألم تتقابلا أبدًا؟

- لم تحظ «ليزا» بهذا الشرف. وأنت؟

- لقد تحادثنا على الهاتف. عن كيفية التعامل مع الصدمة، وما يتوقعه الناس منا، لم يكن هذا مثل لقاء شخصي.

- والمؤكد ليس كأن تخبزا معًا.

لكزتني «سام» بفخذها في فخذي وهي تطلق ضحكة أخرى. أيًا كان الاختبار الذي وضعتني فيه، فقد اجتزته. قلت معلنة:

- حان وقت وضع هذا العجين في الفرن.

مسَّدتُ العجين في صينية خبز، مستخدمة ملعقة مسطحة، في حين مسَّدتْ «سام» خاصتها بأطراف أصابعها، لكنها فشلت وانزلق العجين على سطح المطبخ، فتمتمت:

- اللعنة.. من أين آتي بواحدة من هذه الأشياء المسطحة؟

- تقصدين ملعقة؟ من هناك.

أشرت إلى واحد من أدراج الخزانة وراءها، فحاولت سحب التالي له.. الدرج المغلق.. درجي المغلق.. وداخله اهتز شيء ما.

- ماذا يوجد به؟

- لا تلمسيه!

بدا صوتي فزعًا أكثر مما انتويت، وتلوَّن بقليل من الغضب، وامتدت يدي تلقائيًا إلى عنقي أتحسس المفتاح، كأنما وجد طريقه بطريقة سحرية إلى قفل الدرج.. ما زال هناك بالطبع، راقدًا على صدري. قلت مدعية:

- إنها وصفاتي.. مخزوني السري للغاية.

- آسفة.

قالت «سام» وهي تفلت مقبض الدرج، فأضفت:

- لا يمكن لأحد أن يراها.

- بالتأكيد. أتفهم ذلك.

رفعت «سام» كلتا ذراعيها، لينزلق كم سترتها الجلدية عن معصمها، كاشفًا عن كامل وشمها.. كلمة واحدة فقط، مكتوبة بحروف سوداء «صامدة»

بحروف كبيرة واضحة، وبخط سميك، كأنها تأكيد لإعلان ومواجهة، وكأنها تقول: «استمر، فقط حاول أن تعبث معي»

بعد ساعة، كانت كل كعكات الـ «كب كيك» المتبقية من الأمس قد زينت، وهناك رغيفان من اليقطين فوق الفرن يبردان. تفقدت «سام» النتيجة بفخر واضح، وعلى وجنتها لطخة من الدقيق كندبة حرب، وتساءلت:

- والآن ماذا نفعل؟

بدأت بترتيب الكعكات على أطباق فخارية، أبرزَ لونها الأخضر الباهت كريمة التزيين السوداء على سطح الكعكات.

- الآن نصمم ترتيب الطاولة، لصنفيّ الحلوى، ثم نصورها للمدونة.

قالت سام:

- قصدت بخصوصنا.. لقد التقينا، تحدثنا، خبزنا. كان هذا ساحرًا.. والآن ماذا؟

أجبتها:

- هذا يتوقف على سبب حضورك. هل هو فقط بخصوص ما جرى مع «ليزا»؟

- أليس هذا كافيًا؟

- كان بإمكانك الاتصال أو المراسلة.

- أردت مقابلتك شخصيًا. بعدما سمعت ما فعلته «ليزا»، أردت أن أرى كيف حالك.

- وكيف وجدتني؟

- لا يمكنني سبر أغوارك. ألا يمكنك أن تعطيني تلميحًا؟

شغلت نفسي بالكعكات، وأنا أجرّب ترتيباً آخر، بينما تقف «سام» خلفي.

- «كوينسي»..

قلت وأنا ألتفت لأواجهها:

- أنا حزينة. تمام؟!.. انتحار «ليزا» يحزنني.

- أنا لست حزينة.

تفحصت «سام» يديها بينما تتحدث، وفركت بعض العجين حول أظافرها..

- أنا غاضبة. بعد كل شيء هي قد نجت، وهكذا تموت؟ هذا يستفزني!

رغم أن هذا نفس ما قلته لـ «چيف» البارحة، إلا أن موجة من التوتر اعترتني. التفتُّ لترتيب المخبوزات.

- لا تصبّي غضبك على «ليزا».

- لست كذلك.. أنا غاضبة من نفسي لأنني لم أتواصل معها، ولا معك ..ربما لو فعلت لكنت...

أكملت لها جملتها:

- كنتِ قد منعتها من ذلك. انضمي إلى النادي. فلست وحدك.

رغم أني ما زلت مولية ظهري لـ «سام»، إلا أنني كنت أعرف أنها تحدق بي ثانية. لكن تلك المرة حجبت بقعة باهتة من البرودة حرارةَ نظراتها. الفضول الذي تركته دون أن أرويه.

لم أرغب في شيء قدر إخبارها عن رسالة «ليزا» قبل موتها.. من المريح التحدث عن الأمر، أن تحمل «سام» بعضًا من عبء الذنب الذي أحمله دون قصد، لكن إلى حد ما كان الذنب هو ما جاء بها إلى عتبات بابي، ولن أضيف على كاهلها عبئًا على عبء، خاصة لو أن هذه الزيارة نوع من كفارة الخلاص

الصامتة بالنسبة لها. قالت «سامنثا»:

- ما جرى مع «ليزا» مرعب. أشعر بالبؤس لمعرفة أنني.. نحن.. في الواقع... كان بمقدورنا أن نساعدها. ولا أريد أن يحدث نفس الوضع معك.

- أنا لست انتحارية!

- لكنني لن أعرف إن كنت كذلك. لو احتجتِ يد المساعدة أو أي شيء أخبريني. سأقوم بنفس الشيء معك. علينا أن نساند ونعتني ببعضنا بعضاً. لذا يمكنك الحديث معي بخصوص ما جرى. تعرفين، إذا احتجتِ إلى هذا يومًا ما..

- لا تقلقي، أنا سعيدة.

- جيد.

رنت الكلمة خاوية، كأنها لا تصدقني. أكملت:

- هذا أمر يطيب سماعه.

- إنها الحقيقة، أنا أعني ذلك.. المدونة تسير على ما يرام.. و«چيف» رائع.

- هل أنا مسموح لي بمقابلة «چيف» هذا؟

هذا سؤال يغلف غيره.. يخفي وراءه سؤالًا آخر. لو أجبت على: أيمكنني مقابلة «چيف»؟.. سيأتي وراءه: هل أعجبك؟.. ووراءه سيظهر: هل سنصبح أصدقاء؟.. وهذا سيأتي وراءه أصعب وأهم سؤال، قلب العلاقة: هل نحن متماثلتان؟.. أجبت على كل أسئلتها مرة واحدة:

- بالطبع. عليك البقاء للعشاء.

انتهيت من إعداد الطاولة، وضبط زوايا تصوير الكعكات، بحيث تملأ عناكبها الصورة، واخترت للخلفية سطحًا من القماش ذا طراز خمسيناتي جريء، ويقطينة خزفية قديمة اشتريتها من سوق للأشياء المستعملة.

- لطيف.

قالتها «سام» وقد أظهرت تجعدات أنفها أن هذه ليست مجاملة.

- في سوق مدونات الخبز، اللطيف هو من يبيع.

وقفنا كتفًا إلى كتف نتفحص الديكور. رغم كل هذا الوقت، فالترتيب غير ملائم بعد. شيء ما مفتقد.. شرارة خفية أهملت أن أضيفها.

- إنه رائع الكمال.

- لا، ليس كذلك.

بالطبع، عندما يكون المنظر كله مسطحًا وخاليًا من الحياة، كل شيء يبدو عريقًا مصطنعًا، حتى الكعكات تبدو مزيفة.. مؤكد أنها تبدو كذلك. كريمة تزيين بلاستيكة على قاعدة رغوية. سألتها:

- ماذا كنت ستفعلين، كي تجعليه مختلفًا؟

اقتربت «سام» من الترتيب، وهي تضع سبابتها على ذقنها تائهة في أفكارها، ثم بدأت بالعمل.. تبدو فيه كأنها «جودزيلا» وهي تهرس «طوكيو». بعض الأطباق كانت خاوية من الكعك ومصفوفة على عجالة، واليقطينة الخزفية انقلبت على جانبها، وجعدت إحدى محارم المائدة وألقت بها بإهمال وسط المنظر.. مُزقت القواعد الورقية لثلاثٍ من الكعكات، وألقيت ضمن المزيج العام.

المنظر الأنيق العتيق استحال إلى عشوائي!.. بدا كطاولة بعد حفل عشاء ممتع، فوضوياً ومُرضِياً وحقيقياً. هذا رائع!

تناولت كاميرتي، وبدأت بالتقاط الصور، مع التركيز على الكعكات اللا-مرتبة، وراءها تظهر كومة الأطباق، وبعضها عليه لطخات من الكريمة السوداء، واضحة على اللون الأخضر.

التقطت «سام» إحدى الكعكات، وقضمت منها قضمة ضخمة، بينما الفتات يتناثر منها وحلوى الكرز تقطر خارجها..

- التقطي صورتي.

ترددت لأسباب لا يمكنها فهمها..

- أنا لا أضع صور أشخاص على مدونتي.. فقط طعام. ولا ألتقط صور أشخاص، حتى لغير مدونتي.

ولا صور سيلفي على طريقة «ليزا».. ليس منذ كوخ الصنوبر. قالت «سام» وهي تتظاهر بالعبوس:

- فقط هذه المرة.. لخاطري؟

بتردد، نظرت من عدسة الكاميرا، وأخذت نفسًا عميقًا. شعرت كأنني أنظر في كرة سحرية دون أن أرى مستقبلي، لكن ماضيّ. رأيت «چينيل» أمام كوخ الصنوبر تتخذ وضعية خرقاء مع حقائبها الكثيرة. لم ألحظ التشابه مبكرًا. لكن الآن هو واضح جدًا. فرغم أن «سام» و«چينيل» لا تتشابهان شكلًا، إلا أن لهما نفس الروح.. حية ومنفتحة ونشطة بشكل مذهل.

- أهناك مشكلة؟

- كلا.. لا مشكلة.

ضغطت زر الغالق، والتقطت صورة واحدة. أسرعت «سام» إلى جواري وهي تلكزني كي أريها الصورة، ثم قالت:

- إنها تروقني. عليك أن تضعيها على مدونتك جديًا.

أخبرتها أنني سأفعل، مما سرَّها، رغم نيتي بمسح الصورة ما أن تتاح لي الفرصة.

التالي هو ترتيب وتصوير خبز اليقطين. تركت «سام» تقطع أحد الرغيفين إلى شرائح غير متساوية، مفضوضة كأنها صفحات ممزقة من كتاب. واستبدلت اليقطينة الخزفية بفنجاني شاي عتيقين وجدتهما منذ أسبوع في حي «ويست فيلدج». ملأتها بالقهوة مع تنوع في الكمية في كل واحد، وعندما سقطت دفقة من القهوة على المائدة تركتها كما هي تسري حول قاعدة الفنجان. أنهت «سام» المشهد بأن تناولت أحد الفناجين

وارتشفت منه رشفة ضخمة، ليترك أحمر شفتيها علامة واضحة على الحافة. قبلة ياقوتية اللون، غامضة ومغرية. تراجعتْ إلى الوراء لتتركني ألتقط صوري. ظللت أضغط غالق الكاميرا ملتقطة صورًا أكثر بكثير مما أحتاج، غارقة في الفوضى.

الفصل 8

حان وقت العشاء، في دوامة فَزِعة من التجهيز وتفاصيل اللحظة الأخيرة. طهوت معكرونة بالتوابل مع صوص «بوتانيسكا» علمتني والدة «چيف» صنعه. هناك سلطة وخبز طازج، نبيذ راقٍ في زجاجات. بدا كل شيء مثالياً وهو مرصوص على سطح طاولة غرفة الطعام، التي اشتريناها الصيف الماضي في «ريد هوك». عاد «چيف»، ليجد صوت «روزماري كلوني» يصدح من مذياع غرفة المعيشة، وأنا أرتدي ثوب حفلات خمسيني الطراز، شعرت بالحاجة لارتدائه، ووجهي متورد ولامع. السماء فقط تعلم ما الذي دار بعقله في تلك اللحظة.. مؤكد الارتباك.. ربما القلق من أنني أبالغ قليلًا، وهو أمر صحيح. لكن أتمنى أن يوجد شيء من الفخر في هذا الوضع الغريب أيضًا.. بكل ما أنجزته.. في الحقيقة بعد كل مرات العشاء المزدحمة بأفراد عائلته، فأنا أيضًا قد أتيتُ بضيفة لي.

هنا خرجت «سام» إلى غرفة الطعام، مع وجه خالٍ من الدقيق وطلاء شفاه حديث. أعلم جيدًا ما خطر ببال «چيف» في لحظتها، مزيج من القلق والترقب المشوبين بالمفاجأة.

نوّهت قائلة:

- «چيف»، هذه «سام».

- «سامنثا بويد»؟

سأل «چيف»، موجهًا حديثه لي أكثر مما هو لها. ابتسمت «سام» ومدت يدها بالتحية..

- أفضل أن تناديني «سام».

- بالتأكيد. أهلًا، «سام».

أربكت المفاجأة «چيف»، إلى درجة أنه نسي أن يمد يده لتحية «سام». وعندما أدرك ذلك، كانت تحيته ضعيفة، مجرد

لمسة أكثر منها مصالحة.

- «كوينسي» أيمكنني الحديث معك للحظة؟

دخلنا إلى المطبخ، حيث أطلعته بسرعة على أحداث الظهيرة، وأنهيت حديثي بـ..

- أتمنى ألا يضايقك أنني طلبت منها البقاء على العشاء.

- إنها مفاجأة بالفعل.

- نعم، لقد كان أمرًا مفاجئًا.

- كان عليك الاتصال بي.

- كنت ستحاول ثنيي عن الأمر.

تجاهلَ «چيف» التلميح ،غالبًا لإدراكه التام بحقيقته.

- أنا فقط متعجب من ظهورها المفاجئ. هذا ليس طبيعياً يا «كوين».

- تبدو كثير التشكيك يا سيدي المحامي.

- فقط أُفضل أن أعرف المزيد عن أسباب حضورها إلى هنا.

- ما زلتُ أحاول معرفة هذا أنا أيضًا.

- إذن، لمَ دعوتِها إلى العشاء؟

كنت أود أن أخبره عن الظهيرة، وكيف بدت «سام» قريبة الشبه من «چينيل»، إلى درجة سلبت أنفاسي. لكنه لن يفهم، لا أحد سيفهم. أجبته:

- أشعر بالأسف عليها، فبعد كل شيء.. كل ما مرت به، أظن أنها احتاجت إلى صديق.

- حسنًا. إذا كنتِ راضية بهذه الفكرة، فأنا أتفق معك.

رغم ذلك، فالعبوس الذي عمَّ وجهه ناقضَ أقواله. عدنا إلى غرفة الطعام، حيث جلست «سام» متظاهرة بأدب أننا لم نكن نتحدث عنها. سألتنا بتهذيب:

- هل الأمور على ما يرام؟

ابتسمتُ ابتسامة واسعة، حتى آلمتني وجنتاي..

- رائعة. هيا نأكل!

أثناء تناولنا الطعام، لعبتُ دور المضيفة باقتدار.. أقدم الطعام، وأسكب النبيذ، متجاهلة تمامًا أن «چيف» يحادث «سام» كأنها واحدة من عملائه.. بتهذيب، لكن كمحقق.. شيء يشبه أسئلة أطباء الأسنان، قبل أن ينتزعوا ما يحتاجون إلى إزالته.

- «كوين» أخبرتني أنكِ اختفيت لسنوات.

- أفضِّل أن أعتبرها حالة سبات.

- وكيف كان هذا؟

- أكثر أماناً لي، لا أحد يتعرف عليّ أو يعرفني، ولا أحد يعلم شيئًا عن كل المصائب التي جرت لي.

- قال «چيف»:

- يبدو أكثر كأنك كنت هاربة.

- ردت «سام»:

- أعتقد هذا. لكن مع الفارق أنني لم أقترف أية أخطاء. تذكَّر ذلك.

- إذن لَمَ الاختباء؟

- ولم لا؟

عندما يسقط الأمر في يد «چيف»، يعم الصمت التام الذي يقطعه صوت متقطع لاحتكاك الملاعق بالأطباق، مما يوتِّرني. وقبل أن أدري، كانت زجاجة النبيذ فارغة، وأعدت ملأها قبل أن أعرض المزيد على الآخرين.

- «سام»، أترغبين بالمزيد؟

بدا أنها شعرت بتوتُّري، فابتسمت كي تهدئني. «بالتأكيد».

ردت، وأفرغت في فمها كل النبيذ المتبقي في كأسها، فقط كي تسمح لي بصب المزيد فيه. التفت إلى «چيف»، سائلة إياه:

- مزيد من النبيذ؟

- أنا مكتفٍ

قالها لي، ثم سأل سام:

- وأين عشتِ كل تلك الفترة؟

- هنا وهناك.

نفس الإجابة التي أعطتني إياها.. إجابة لم ترضِ «چيف»، الذي أسقط شوكته لينظر إلى «سام» بنظرة فاحصة.

- أين تحديدًا؟

- ليس مكانًا قد تعرفه.

- لقد سمعت بأماكن كل الخمسين ولاية

وصدَّر ابتسامة مشرقة ودودة لسام:

- حتى أن بإمكاني ذكر كل عواصمها

عبر الطاولة، أومأت لي «سام» برضا. كما قالت إننا سنفعل لبعضنا البعض، في هذه الحالة على الأقل، فأنا فضولية مثلي مثل «چيف».

- أنا واثقة أنها ستخبرنا فيما بعد. أليس كذلك يا «سام»؟

- ربما

لكن الغلظة في صوتها أعلمتنا أنه لن يكون هناك ربما. لكنها حاولت أن تنعِّم صوتها مازحة:

- هذا يتوقف على جودة التحلية.

قال «چيف»:

- لا يهم على أي حال، ما يهم هنا هو أنَّ كلتيكما واتتكما الفرصة للتواصل أخيرًا. أعرف أن هذا يعني الكثير لـ

«كوين». لقد كانت مكسورة النفس بسبب ما جرى مع «ليزا».

ردت «سام»:

- وأنا أيضًا.. ما إن سمعت بما جرى، حتى قررت أن آتي إلى هنا وأتحدث معها أخيرًا.

أمالَ «چيف» رأسه. بكل شعره الكث وعينيه البنيتين الكبيرتين بدا كجروٍ عثرَ على عظمة ضخمة، جائع ومتحفز..

- إذن فقد عرفتِ أن كوين تعيش في نيويورك؟

- على مر السنين، كنت أتابعها هي و«ليزا».

- أمر مشوِّق! لأي سبب؟

- الفضول على ما أظن. أردتُ أن أعرف إن كانتا بخير. أو على الأقل أن أظن ذلك.

أومأ «چيف» برأسه وهو يخفض بصره ناظرًا إلى طبقه، عابثًا في طعامه على الجانبين بشوكته. في النهاية تساءل:

- هل هذه أول زيارة لك لمانهاتن؟

- كلا. لقد جئت مرات قليلة.

- متى كانت زيارتك الأخيرة؟

- منذ عقود. عندما كنت طفلة.

- إذن قبل كل ما جرى معك في ذلك الفندق؟

- نعم.

حدقت «سام» في وجهه عبر الطاولة، وقد ضيقت عينيها بنظرة حادة كالسيف وكررت:

- قبل كل ما جرى.

تظاهر «چيف» بأنه لم يلاحظ سخريتها اللاذعة التي غلَّفت كلمتها الأخيرة..

- إذن فقد مرت فترة كما أظن.

- نعم.

- وسلامة «كوينسي» هي المبرر الوحيد لحضورك إلى هنا؟

مددتُ يدي لأربّتِ على يد «چيف»، كمحاولة لتنبيهه أنه قد تعدَّى حدوده. نفس إشارته لي في كل مرة نذهب لزيارة أمي ونبدأ في الجدل بخصوص وجهات نظرها على.. كل شيء.

ردت:

- هل هناك سبب آخر؟

- أظن أنها قد تكون أسبابًا أخرى

أجاب «چيف»، وما زالت يدي تثقل يده..

- ربما رغبتِ في بعض الشهرة على حساب موت «ليزا». أو ربما أردت بعض المال.

- ليس هذا سبب وجودي هنا.

- أتمنى ذلك. أتمنى أن تكوني قد جئت لتفقد حال «كوين».

- أعتقد أنها كانت دومًا رغبة «ليزا»..

قالت «سام»، ثم أردفت:

- أن نتقابل نحن الثلاث، أتعرف ذلك؟ وأن نساعد بعضنا بعضاً.

تغيَّر المزاج بلا رجعة، وحامَ الشك على الطاولة لزجًا وكريهًا. وبتهور، رفعت كأسي، يكاد يكون فارغًا إلا من حلقة حمراء مترنحة في القاع.

- أظن أنَّ علينا اقتراح نخبٍ.. لأجل «ليزا». رغم أن ثلاثتنا لم تواتنا الفرصة للقاء، أظنّ روحها معنا الآن. وأظن أنها كانت ستسعد على الأقل بلقاء اثنتين منا أخيرًا.

لأجل «ليزا» قالت «سام» متماشية مع محاولتي.

سكبتُ المزيد من النبيذ في كأسي، والمزيد لـ «سام» رغم أن

كأسها ما زال ممتلئًا إلى نصفه. عندما قرعنا كأسينا عبر الطاولة، كانت الصدمة عنيفة وعالية.

ضحكت بتوتر، في حين أطلقت «سام» ضحكة صاخبة من ضحكاتها العالية.

أما «چيف»، فلم ير أي مزحة في الموقف، نظر إليَّ نظرة لاذعة خاصة بالمواقف المريبة أثناء حفلات العمل. نظرة «هل أنت مخمورة»؟ كلا. لست كذلك. على الأقل ليس بعد. لكنني أفهم لماذا يظنني كذلك.

- إذن كيف تكسبين عيشك يا سام؟

سألها مستأنفًا تحقيقه، فهزت كتفيها قائلة:

- هذا وذاك.

- فهمت.

- أنا عاطلة حاليًا.

- فهمت.

كرَّر «چيف»، وارتشفت رشفة أخرى من النبيذ.

- وأنت محام؟

سألته «سام» بلهجة بدت اتهامية.

- بالفعل. أنا محام عام.

- مثير. أراهن أنك ترى كل أنواع البشر في عملك.

- هذا يحدث بالفعل.

تراجعت «سام» في مقعدها، واحدى ذراعيها مسترخية على بطنها، والأخرى ممسكة بكأسها قريبًا من شفتيها، وقالت مبتسمة من فوق الحافة:

- وهل كل عملائك مدانون؟

قلَّد «چيف» جلسة «سام» مضطجعًا في مقعده ممسكًا بكأسه. راقبتُهما يتواجهان وما أكلته من طعام يضطرب في

معدتي.

- الموكلون أبرياء إلى أن يثبت العكس.

- لكنْ أغلبهم مجرمون، أليس كذلك؟ تمت إدانتهم؟

- أظن.. يمكنكِ قول ذلك.

- وكيف يشعركَ هذا؟ أن تعرف أن الشخص الجالس بجوارك في المحكمة مرتديًا بزة مستعارة قد اقترف كل تلك الجرائم المتهم بها؟

- أتسألينني إن كنت أشعر بالذنب لذلك؟

- وهل تشعر بالذنب؟

- كلا البتة.. أشعر بالنبل لأنني من القلة التي تفترض حسن النية في الرجل ذي البزة المستعارة.

- لكن ماذا لو كان قد اقترف جرمًا بشعًا؟

- أي درجة من البشاعة؟ القتل؟

تساءلَ «چيف».

- أسوأ.

كنت أعرف إلى أين ترمي «سام» بأسئلتها، وانقبضت معدتي أكثر فأكثر، فوضعت يدي عليها وفركتها ببطء.

- لا يوجد ما هو أسوأ من القتل.

قال «چيف» عالمًا إلام ترمي «سام» بكلامها، ومستمرًا في الحديث بلا اكتراث. سيتبعها بثقةٍ إلى حافة الجدل، لقد رأيته يفعل ذلك من قبل.

- هل وكِّلتَ للدفاع عن قاتل من قبل؟

- نعم. في الواقع أنا متولٍّ لقضية قتل الآن.

- وهل يعجبك الوضع؟

- لا يهم ما يعجبني. ما يهم ما يجب أن يتم.

- وماذا لو قتلَ ذلك الشخص عدة أشخاص؟

- ما زال من حقه الدفاع.

أجابَ «چيف»، فتصاعدَ غضب «سام» الآن، ولفحت حرارته كل ما يحيط بالطاولة. علت نبرة وسرعة كلماتها وغلّفتها الصلابة والحدة.

- وماذا لو كان ذلك الشخص هو من قتل كل هؤلاء الناس في نُزل «نايت لايت»؟ أو اقترفَ تلك المذبحة في «كوخ الصنوبر»؟ مع علمك بكل هذا، أكنتَ ستظل مستعدًا أن تجلس بجوار ذلك الوغد محاولًا إبقاءه خارج السجن؟

ظلَّ «چيف» ثابتًا على وضعه بجمود، عدا حركة بسيطة لفكّه، بينما ثبّت عينيه على «سام» دون أن يطرف له جفن.

- مؤكد أنَّ هذا ملائم لكِ. أن تجدي ما تُلقين باللوم عليه، لكل ما خابَ وفشل في حياتك.

«جيف» كان حلقي جافًا وصوتي ناعمًا منخفضًا، وسهلٌ تجاهله. «توقف»

- «كوين كان بإمكانها أن تقع في دائرة اللوم. يعلم الرب، لديها كل الحق أن تفعل. لكنها لم تقع فيها. لأنها تمكنت من أن تضع كل هذا وراءها. إنها قوية بطريقتها. إنها ليست.....

- «چيف»، أرجوك!

- ... ضحية مهيضة الجناح، هربت من أهلها وأصدقائها بدلًا من أن تحاول تجاوز ما مرت به منذ أكثر من عقد من الزمن

- كفى!

قفزتُ من مقعدي، وأنا أترك كأسي على الطاولة، فانسكبَ ما به عليها. وضعت أحد المناديل الورقية ليمتصّ النبيذ، وتحوّل اللون الأبيض في لحظة إلى الأحمر.

- «چيف» إلى غرفة النوم. الآن

وقفنا خلف الباب المغلق متواجهين، جسدانا نموذجان

للتناقض، «چيف» مسترخٍ هادئ يدلي ذراعيه على جانبيه، وأنا متيبسة، عاقدة ذراعي على صدري الذي يرتفع وينخفض بأنفاس غاضبة.

- لم تكن بكَ حاجة لهذه الفظاظة!

- بعد كل ما قالته لي!.. أظنه يحق لي يا «كوين».

- عليك أن تعترف أنك مَن بدأت بمضايقتها.

- بكوني فضوليًا؟

- بكونك شكاكًا.. لقد كنتَ تحقق معها هناك، هذه ليست قاعة المحكمة، وهي ليست إحدى موكليك يا «چيف»!

كان صوتي عاليًا جدًا ويرن عبر الجدران. نظرتُ أنا و«چيف» إلى الباب متجمدين، لنعرف إن كانت «سام» قد سمعتنا. أنا واثقة أنها سمعت، حتى لو لم تميز نبرتي المتصاعدة بغضب، فمن الواضح أننا نتحدث عنها مرة أخرى.

قال «چيف» وهو يخفض صوته تعويضًا عن ارتفاع صوتي:

- كنتُ أسألها أسئلة عشوائية عادية. ألم تشعري أنها تراوغ في إجاباتها؟

- إنها لا ترغب في الحديث عن هذه النوعية من الأشياء. ولا يمكنني لومها.

- وهذا لا يعطيها أي حق في أن تتحدث معي بتلك الطريقة، كأنني من هاجمتُها.

- إنها حساسة.

- هراء. لقد كانت تقذفني بكلماتها.

- بل كانت تدافع عن نفسها. هي ليست عدوًا يا «چيف». هي صديقة، أو على الأقل يمكن أن تكون صديقة.

- هل أنتِ أصلًا تريدين مصادقتها؟ حتى البارحة كنتِ سعيدة تمامًا بدون أدنى علاقة مع رابطة «الناجيات

الأخيرات»، ما الذي تغيَّر؟

- بعيدًا عن أن «ليزا» ميلنر انتحرت؟

زفرَ «چيف»..

- أتفهَّم كم كدَّركِ هذا.. أعلم أنك متكدرة ومحبطة مما جرى. لكنِ لمَ هذا الاهتمام المفاجئ بصداقة «سام»؟ أنت لا تعرفينها أصلًا يا «كوين»؟

- بل أعرفها يا «چيف». لقد مرت بنفس ما مررتُ به. أنا أعرف تحديدًا من هي.

- أنا فقط قلق، إن تقاربتُما فستبدئين بالغوص فيما جرى لك، وأنت قد تجاوزتِ كل ذلك.

أعلم أن نوايا «چيف» طيبة، وأعلم أن الحياة معي ليست دائمًا سهلة، لكن هذا لا يمنع أن تعليقه أثار غضبي أكثر فأكثر.

- لقد ذُبحت صديقاتي يا «چيف». هذا ليس ماضيًا يمكنني تجاوزه أو نسيانه أبدًا.

- تعرفين أن هذا ليس مقصدي.

رفعتُ ذقني بغضب أكثر:

- إذن ماذا كان مقصدك؟

رد «چيف»:

- أنكِ أصبحت أكثر من مجرد ضحية.. أن حياتك- حياتنا- لا تحددها تلك الليلة. ولا أريد أن يتغير ذلك.

- أن أكون لطيفة مع «سام» لن يغيِّر من أمورنا شيئًا. ثم إنني لا أملك جيشًا من الأصدقاء يطرقون بابي.

لم يكن هذا اعترافًا معتادًا مني، فوحدتي ليست الشأن الذي أشرك به «چيف». أنا أبتسم بإشراق عندما يعود إلى البيت من عمله ويسألني كيف كان يومي. «طيب»، هذا ما أقوله دومًا. رغم أن أيامي في العادة كلها وحيدة باهتة، ساعات الظهيرة

الطويلة أقضيها أخبز وحيدة في عزلة، وأحيانًا أتحدث مع الفرن لأسمع لي حسًا.

بدلًا من الأصدقاء لدي معارف، زملاء كلية وعمل سابقون. لهم أزواج وأطفال ووظائف مكتبية لا تمكّنهم من الاتصالات العرضية. أشخاص أنا اخترتُ عن عمد أن أبقى على مسافة بعيدة منهم، حتى استحالوا إلى مجرد رسائل عرضية أو إيميلات.

- أنا بحاجة إلى هذه الصداقة يا «چيف».

أمسكَ «چيف» بكتفيَّ، وضغط عليهما ناظرًا في عيني، ليرى شيئاً لا يعرفه.. شيئاً لم يجهر به.

- ما الذي تريدين قوله؟

- لقد وردتني تلك الرسالة الإلكترونية..

- من «سام»؟

- من «ليزا».. لقد أرسلتْها قبل أن...

تُنهي نفسها.. هذا ما أردتُ قوله.. تكمل ما بدأه «ستيفن ليبمان» ولم ينل فرصة إكماله..

- .. ترحل!

- ماذا جاء بها؟

أعدت بدقة على مسامعه كلمات الرسالة التي نُحتت في ذاكرتي.

- لمَ قد تفعل ذلك؟

تساءلَ «چيف»، كأنَّ لدي إجابة على سؤاله.

- لا أدري. ولن أعرف أبدًا. لكن لسبب ما كانت تفكر بي قبل أن تموت. وأنا كل ما أستطيع التفكير به هو لو أنني رأيت تلك الرسالة في وقتها، فربما كان بمقدوري إنقاذها.

سالت دموعي فجأة، ساخنة تحرق عيني. حاولت أن أرمش

لأزيحها، لكني فشلت. جذبني «چيف» إليه وضمني مسندًا رأسي على صدره، وعقد ذراعيه بقوة حول ظهري.

- يا إلهي!.. «كوين»، لم أكن أعرف.

- لم تكن هناك طريقة لتعرف.

- لكن لا يمكنك أن تتركي نفسك لفكرة أنك مسؤولة عن موت «ليزا».

- أنا لا ألوم نفسي. لكني أفكر أنني فقدت فرصة مساعدتها. ولا أريد أن أفوِّت نفس الفرصة مع «سام». أعرف أنها تبدو حادة من الخارج، لكنني أظنها بحاجة إليّ.

زفرَ «چيف» شاعرًا بالهزيمة.

- سأتصرف بلطف، أعدكِ.

قبَّلنا بعضنا وتصالحنا، ومسحت طعم الدموع المالح عن شفتي، بينما أطلق «چيف» سراحي مخففًا ضغط ذراعيه ليحِد من التوتر. ضبطتُ قميصي ونفضت بقع الدموع عنه، ثم خرجنا من الغرفة حتى الردهة بيدين متشابكتين.

في غرفة الطعام، وجدنا الطاولة خاوية، ومقعد «سام» مدفوعًا إلى الوراء عنها. لم تكن في المطبخ أيضًا.. ولا حتى في غرفة المعيشة. وحتى حقيبتها الضخمة لم تكن في المكان الذي تركته في المدخل.

مرة أخرى اختفت «سامنثا بويد»

الفصل 9

رنَّ هاتفي في الثالثة صباحًا، موقظًا إياي من كابوس مروع آخر، أجري فيه عبر الدغل هاربة من «هو». أتعثر وأصرخ، وأفرع الشجر تمتد لتكبّل يدي.. ظللت أركض، حتى بعدما استيقظت وساقاي تجدّفان تحت الأغطية. الهاتف يطن طنيناً طارئًا يقطع صمت الغرفة. لم يتحرك «چيف» بالمرة، ظلَّ يغط في نومه العميق الذي لا يخرج منه إلا على صوت منبهه الخاص. كي لا أقلق نومه، غطيت الشاشة كي أحجب ضوءها عنه بينما أسحب الهاتف، ونظرت إلى هوية المتصل.

غير معروف.

«آلو» همست بينما أخرج من الفراش وأُسرع الخطى نحو الباب.

- « كوينسي»؟

«سام»!.. لم يكن صوتها مسموعًا بسهولة مع الضجة حولها، هناك أحاديث وصرخات وأصوات ضربات لوحة المفاتيح.

«سام».. كنت في الردهة الآن، وعيناي لم تعتادا الظلام بعد، وما زال عقلي مشتتًا.

- أين اختفيتِ؟ لمَ تتصلين متأخرًا؟

- أنا آسفة. أنا حقًا آسفة. لكن هناك أمر ما جرى.

ظننتُها ستقول شيئاً عن «هو».. غالبًا بسبب الكابوس الذي ظلَّ إحساسي به على بشرتي كحبات عرق جافة. أعددت نفسي لأسمعها تقول إنه قد عاد، كما أعرف دومًا أنه سيفعل، لا يهم أنه مات، وأنني رأيته بسرورٍ وهو يقتَل.

بدلًا من ذلك قالت «سام»:

- أنا بحاجة إلى مساعدتكِ.

- ما الخطب؟ ماذا جرى؟

- لقد تمَّ القبض عليّ. نوعًا ما

- ماذا؟

رنَّ صوتي في الردهة موقظًا «چيف» من نومه. سمعت صرير الفراش بينما ينهض مناديًا اسمي.

عبر الهاتف، قالت «سام»:

- أرجوك أن تحضري وتخرجيني.. مركز شرطة سنترال بارك. احضري «چيف».

أغلقت الهاتف، قبل أن تتسنى لي فرصة سؤالها كيف عرفت رقم هاتفي.

استقليتُ أنا و«چيف» سيارة أجرة إلى مركز الشرطة، الذي يقع جنوب الخزان. لقد تريضت قبالته مرات عديدة، مستغربة المزيج الغريب من الحداثة والمعاصرة فيه، حيث هناك مبنيان حجريان قصيران لهما عمر المتنزه، تقطعهما ردهة زجاجية حديثة تتلألأ من داخلها. كل مرة أراه فيها أفكر في كرات الثلج البلورية، قرية إنجليزية خرجت من قصص (ديكنز) محبوسة في زجاج.

في الداخل، سألت عن «سامنثا بويد»، وأجابني ضابط بدين مترهل الجسد أحمر الوجه من أصل أيرلندي، بعد أن طرق أزرار لوحة مفاتيحه:

- ليس لدينا أحد بهذا الاسم.

- لكنها أخبرتني أنها هنا.

- متى؟

- منذ عشرين دقيقة.

أجبته وأنا أعدِّل وضع كنزتي على خصري. أنا و«چيف» ارتدينا ملابسنا على عجالة، فارتديت نفس الملابس التي كنت أرتديها في الظهيرة. في حين ارتدى «چيف» الجينز وتي شيرت طويل الأكمام، وتطاير شعره مشعثًا على رأسه.

عقدَ الضابط المترهل حاجبه ناظراً إلى شاشة جهازه، وردَّ:

- ليس لديَّ أحد.

قال «چيف» دون أن يعلن أفكاره وأمانيه:

- ربما خرجت بالفعل، هل هذا وارد؟

- كانت لتظل مسجلة في النظام. ربما أعطتكم اسم القسم الخطأ. أو ربما أخطأتم عند سماعها.

- بل كان هذا القسم، أنا واثقة.

ألقيتُ نظرة سريعة على المساحة المفتوحة من القسم.. سقف مرتفع ومضيء، تبدو أكثر شبهاً بمحطة قطارات منها بقسم شرطة. هناك سلم رشيق التصميم وإضاءة فنية وضربات متقطعة لأصوات الخطوات على الأرضية اللامعة. سأل «چيف»:

- هل أتت أية امرأة مؤخرًا إلى هنا؟

قال الضابط وهو يتفحص جهازه:

- واحدة.. منذ 35 دقيقة

- ما اسمها؟

- أخشى أن هذا سرِّي.

نظرتُ إلى «چيف» بأمل:

- قد تكون هي!

ثم نظرت إلى الضابط متوسلة:

- أيمكنني مقابلتها؟

- هذا غير مسموح به

أخرج «چيف» محفظته، ساحبًا بطاقة عمله، وشرح بتهذيبه الذي لا يفقده أبدًا، أنه محام عام، وأننا لسنا هنا للتسبب بأية متاعب، وأن صديقة لنا تقول إنها محتجزة في القسم. قلت للضابط:

- أرجوك، أنا قلقة جدًا عليها.

نقلنا إلى ضابط آخر على مضض، أضخم وأقوى وخالٍ من الترهل، فأرشدنا إلى قلب القسم. كان للغرفة انطباع غامض متأثر بكافيين زائد، مع كل هذه الإضاءة البراقة التي تخترق حجاب الليل. وكانت «سام» هناك، مكبلة إلى أحد المكاتب.

- ها هي ذي!

قلت لمرافقنا، الذي جذبَ ذراعي لأتراجع عندما حاولتُ الوصول إليها. ناديت باسمها: «سام»!

سألها الضابط الجالس وراء المكتب سؤالًا، استطعت قراءة شفتيه وهو يقوله: «هل تعرفين هذه السيدة؟» أومأت «سام» إيجابًا، فتركني الضابط المرافق أتحرك باتجاهها ويده كالكماشة على ذراعي، لم يتركني إلا عندنا صرنا على مرمى ذراع من المكتب المكبلة إليه.

- «سام»، ماذا جرى؟

نظر إليها الضابط المنوط بها نظرة أخرى عاقدًا حاجبيه:

- أواثقة أنك تعرفين هذه السيدة؟

- نعم (أجبت نيابة عنها).. اسمها «سامنثا بويد»، وأنا واثقة أن ما جرى هو لبس بسيط.

- هذا ليس الاسم الذي أدلت به للضابط الذي قبضَ عليها.

- ماذا تعني؟

سعلَ الضابط بينما قلب في أوراقه وقال:

- لقد قالت إن اسمها «تينا ستون»

نظرتُ إلى «سام».. السهر الطويل جعل وجنتيها منتفختين وحمراوين، وكحل عينيها قد سال كدوائر سوداء حول عينيها.

- هل هذا صحيح؟

قالت هازةً كتفيها:

- نعم.. لقد غيرت اسمي منذ فترة.

- إذن فاسمك هو «تينا ستون» فعلًا؟

- الآن هو كذلك. قانونًا. تعرفين السبب.

أعرف بالفعل.. لقد فكرت في نفس الأمر بعد عام من «كوخ الصنوبر». لم يكن هناك حاجة لـ «سام» أن توضح.. لأنني كنت قد سئمت من الغرباء الذين يشبِّهون على اسمي حين أقدم لهم نفسي.. لأنني كرهت الطريقة التي كانت تتجمد بها ملامحهم - ولو حتى لثانية- عندما يتذكرون.. لأن ذلك ما جعلني أشعر أن اسمي واسم «هو» دومًا سيرتبطان.

لاحقًا أقنعني «كووب» بعكس ذلك، قائلًا إن عليّ التمسك باسمي بعناد، كنقطة فخر. تغييره لن يفصل اسم «كوينسي كاربنتر» عن رعب مذبحة «كوخ الصنوبر»، لكنَّ إبقاءه هو ما سيفعل لو تجاوزت الأمر، وصنعت من نفسي شيئاً.. شيئًا خارج حدود فكرة أنني مجرد محظوظة نجت بينما هلكت الكثيرات.

- والآن، بما أننا وضَّحنا وضع الاسم، هل يمكن لأحد أن يخبرني بما هي متهمة به؟

قال «چيف»، فسأله الضابط:

- هل أنتَ محاميها؟

قال «چيف» وهو يزفر:

- أظن ذلك

- الآنسة ستون تواجه اتهامات بالاعتداء من الدرجة الثالثة على ضابط شرطة، ومقاومة الاعتقال.

تجمعت الصورة العامة مما أدلت به «سام» وضابط الاحتجاز، وجمعها «چيف» من أسئلته. حاولتُ أن أتابع حديثهم ورأسي تدور بين ثلاثتهم، وعقلي يطن من قلة النوم، وما تمكنت من فهمه أن «سام»، المعروفة حاليًا باسم «تينا ستون»، ذهبت بعد

تركها شقيقي إلى حانة في «أبر ويست سايد»، المنطقة التي على حدود «سنترال بارك». وبعد بضعة كؤوس من الشراب، خرجت لتدخنِ، لتجد زوجين في منتصف العمر يتجادلان والأمر قد حمي بينهما، حتى دفع الرجل زوجته.. وعندها تدخلت.

قالت «سام» موجهة حديثها إلينا:

- لقد كنت أفضُّ شجارًا!

ناقضها الضابط:

- لقد هاجمته.

اتفق الاثنان على أمر واحد.. أن «سام» لكمت الرجل، الذي استدعى الشرطة، بينما كانت «سام» تسأل المرأة إن كانت بخير، وإن كانت الشجارات مثل هذه متكررة، وإن كان الرجل قد ضربها من قبل. عندما وصل اثنان من الضباط، ركضت «سام» عبر سنترال بارك ويست، مختفية في المتنزه نفسه.

لحق بها الضابطان، أمسكا بها وأخرجا الأغلال، وتلك هي اللحظة التي قاومت فيها «سام» الاعتقال.

صاحت سام:

- لقد قبضا عليّ دون سبب وجيه.

رد الضابط:

لقد ضربتِ رجلًا.

كشَّرت قائلة:

- لقد كنت أحاول المساعدة. لقد بدا أنه سيبرح المرأة ضربًا.. وغالبًا كان سيفعل حقًّا إن لم أتدخَّل.

غاضبة ممن ظلم الموقف كله - حسب كلام سام، وليس أنا- أرجحتْ ذراعها تجاه أحد الضابطين، مسقطة قبعته اعتراضًا على القبض عليها. قالت ملخصة النتيجة:

- لقد كانت مجرد قبعته بحق السماء.. لا يبدو الأمر كأنني حاولت ضربهُ أو ما شابه!

رد الضابط:

- بدا له أنكِ أردت ذلك.. بالفعل بدت نيَّتك مبيَّتة على الإيذاء.

هنا تدخَّل «چيف»:

- لنحلل هذا الوضع. هي متهمة فقط بما جرى في المتنزه، صحيح؟

أومأ الضابط إيجابًا وهو يقول:

- لقد تنازل الرجل الذي لكمته عن التهم.

- إذن يمكننا حل الموقف والوصول إلى تسوية.

جذب «چيف» الضابط جانبًا بجوارِ الحائط، وتحدثا بصوت خفيض لكن يصل إلى أسماعي. وقفتُ جوار «سام»، ويدي تضغط كتفها وأصابعي منغرسة في سترتها الجلدية. أما هي، فلم تهتم حتى بمحاولة سماعهما، بل حدقت أمامها وهي تجز على أسنانها. قال «چيف» للضابط:

- هذا يبدو لي كسوء فهم ضخم.

- ليس بالنسبة لي.

- من الواضح أنه ما كان ينبغي عليها فعل ذلك، لكنها كانت تحاول مساعدة تلك المرأة، وأخذَها الحماس الزائد في خضم اللحظة، فانجرفت عن الطبيعي.

- أتقول إن علينا إسقاط التهم؟

قالها ضابط الحجز وهو ينظر تجاهنا، فابتسمتُ له، آملة أن يقتنع بشكل ما، كأن رؤيتي كفتاة أنيقة بريئة بجوار «سام» سيثقِل كفة ميزانها.

- أقول إنه لم يكن يجب توجيه أية تهم من البداية.. لو أنك

تعلم ما مرت به، فستتفهم ما الذي جعلها تتصرف على هذا النحو.

كان وجه الضابط خاويًا من التعبير وهو يقول:

- إذن فأخبرني ما الذي مرت به.

همس «چيف» له بشيء ما لم أتبيَّنه، فقط كلمات متناثرة هي ما وصلت إلى مسامعي، أحدها كانت «نايت لايت» والأخرى جريمة قتل. التفت ضابط الحجز ناظرًا إلى «سام» مرة أخرى، هذه المرة كانت عيناه تحملان مزيجًا قويًا من الفضول والشفقة، رأيتُ هذه النظرة آلاف المرات من قبل، نظرة شخص علم أنه يواجه «ناجية أخيرة»».

همَس بشيء ما لـ «چيف»، والذي رد عليه، وبقيا يتهامسان لبضع ثوان، ثم تصافحا والتفتَ «چيف» ومشى متبخترًا إلينا، وقال لـ «سام»:

- هاتي أشياءكِ.. أنت حرة للذهاب.

في الخارج، تلكَّأ ثلاثتنا في الردهة الخارجية وراء الواجهة الزجاجية للقسم، والضابط الإيرلندي الأصل يراقبنا من وراء مكتبه. مرت رياح باردة اقشعرت لها أذناي وأنفي، كنت على عجالة من أمري عندما غادرت، حتى إنني لم آتِ بسترة، والآن أقف ضامة ذراعَي لأدفئ نفسي.

أغلقت «سام» سحَّاب سترتها حتى العنق، ورفعت ياقتها، وعلقت حقيبتها على ظهرها، فجعلها ثقلها تترنح على الجانبين بينما قالت:

- أشكرك على مساعدتي هنا.. بعد كل الحماقات التي تفوهتُ بها اليوم، لم أكن لألومك لو تركتني أتعفن في زنزانة الحجز.

تمتمَ «چيف»:

- على الرحب والسعة.. لستُ بشخص سيئ الآن، أليس كذلك؟

ابتسمَ لنا ابتسامة مخمورة بذاته، فأشحتُ بعيدًا، رغمِ أنني يجب أن أكون شاكرة له، إلا أن قدرًا من الضيق زحف على صدري. «سام»، رغم ذلك، كانت ممتنة له، وأخرجت يدها من جيوبها وظهر وشم «صامدة» واضحًا من أكمامها. نظر إليّ «چيف» بينما يصالحها شاعرًا بتغيير مزاجي، فأشحت ببصري بعيدًا عنه.

بدلًا من المصالحة، ضمتني «سام» في حضن سريع..

- «كوينسي»، لقد كانت مقابلتك أخيرًا أمرًا طيبًا.

- انتظري... أأنت راحلة؟

- أظنني تسببت بما يكفي من المتاعب.

قالت «سام»، ثم أردفت:

- لقد أردت فقط أن أعرف كيف حالك، والآن قد نلتُ إجابتي: أنت بخير حال. وأنا مسرورة لك يا فتاة.

- لكن أين ستذهبين؟

- هنا وهناك.. اعتني بنفسك. اتفقنا؟

بدأت في السير بعيدًا.. أو ربما تظاهرت بذلك عالمةً أنني سأوقفها. صعب أن أحدد، مع تلك الحقيبة التي تثقل كاهلها فتمشي مترنحة ببطء. مع ذلك، أعرف أنني لا يمكنني تركها تنسل بعيدًا هكذا ثانية.. ليس هكذا. صحتُ بها:

- «سام»، انتظري أعرف أنه ليس لديك مكانٌ للمبيت

أزاحت الريح شعرها عن وجهها وهي تلتفت إليّ..

- لا تتعبي نفسك بالتفكير في شأني. سأكون بخير.

- أعرف ذلك.. لأنك ستأتين معنا إلى المنزل.

الفصل 10

في نفس دقيقة دخولنا المنزل، تواجهنا أنا و«چيف» في غرفة النوم، وراء الباب المغلق، بأصوات مجهدة هامسة، حتى لا تسمعنا «سام» من غرفة المعيشة. قال «چيف»:

- يمكنها المكوث لليلة واحدة فقط.

قلت وأنا ما زلت غاضبة منه، لسبب لا يمكنني صياغته:

- الليلة على وشك الانقضاء.. ليلتان على الأقل.

- هذه ليس مفاوضة!

- لماذا أنت ضد المبدأ؟

- ولماذا أنتِ شديدة الحماس بشأنها هكذا؟.. إنها غريبة يا «كوين» ولم تهتم أصلًا بإبلاغك باسمها الحقيقي.

- أنا أعرف اسمها، إنها «سامنثا بويد»، وهي ليست غريبة، هي إنسانة مرت بنفس ما مررت به، وبحاجة الآن إلى مكان تقطنه.

- نحن في مانهاتن. هناك الآلاف من الأماكن التي يمكن لها أن تقطنها. فنادق.

- أنا متأكدة أنه لا يمكنها تحمُّل كلفة فندق.

زفر «چيف»، وجلس على الفراش وركل حذاءه من قدميه..

- هذا وحده يجب أن يثنيك عن قرارك. من الذي يسافر من مكان لا يعلمه إلا رب السماء إلى نيويورك دون أية أموال؟ ولا حتى خطة، على وجه الخصوص.

- شخص متأزم نفسيًا لما جرى لـ «ليزا ميلنر»، والآن يريد القيام بشيء حيال ذلك.

- هي ليست مسؤوليتنا يا «كوين»!

- لقد أتت لتراني.. وهذا يجعلها مسؤوليتنا.. ((مسؤوليتي))

- وأنا أسقطتُ عنها تلك التهم. أظن هذا معروفًا كافيًا لشخص لا نعرفه.

خلع «چيف» قميصه، وسحب سرواله وانسل داخل الفراش، على أتم استعداد لتجاوز كل أحداث الليلة. أما أنا، فظللتُ واقفة وراء الباب عاقدة ذراعيّ، وجسدي يطلق ذبذبات غاضبة.

- نعم لقد قمتَ بعمل ضخم.

انتفضَ «چيف» ونظر نحوي وهو يغمض ويفتح عينيه غير مصدق..

- مهلًا! أأنت غاضبة مني للقيام بذلك؟!

- أنا غاضبة لأنكَ أسرعت باللعب ببطاقة الضحية. كل ما احتاجه الوضع هو ذكر نُزل «نايت لايت»!

- «سام» لم تكترث لهذا.

- فقط لأنها لم تسمعك. أنا واثقة أن الوضع كان ليختلف لو أنها سمعتك.

- لن أعتذر لإنقاذي لها من السجن!

- وليس عليك الاعتذار. لكن كان عليك على الأقل أن تعرف أنه ربما كانت هناك طريقة أفضل لإخراجها. كان عليك ملاحظة الطريقة التي نظرٍ بها الضابط إلى «سام» كأنها كلب جريح أو ما شابه. لهذا غيرت اسمها يا «چيف»، حتى يتوقف الناس عن رميها بنظرات الشفقة

لكنني كنتُ غاضبة عليه لسبب آخر أبعد من «سام».. بينما كان يتهامس مع الضابط، عرفت لمحة عن «چيفرسون ريتشاردز» في عمله.. المحامي.. الشخص المستعد أن يقول أي شيء لمساعدة موكله، حتى لو عنى ذلك الحط من شأنه إلى مخلوق في موضع شفقة. ولم يرق لي ما رأيت.

قال «چيف» مادًا يده لي:

- اسمعي.. أنا آسف على ما فعلت، لكن في وقتها بدت هذه أسرع وسيلة لحل الأزمة.

عقدت ذراعيّ أكثر على صدري..

- لو تغيرت الأدوار وأنا من تمَّ القبض عليّ، هل كنت لتتصرف بنفس الطريقة؟

- كلا البتة!

لمحتُ شرخًا من الزيف في صوته.. هناكِ وهنٌ في كلماته أعاد لي ذلك الوخز المزعج على جلدي. حككتُ رقبتي محاولة نفض هذا الإحساس عني..

- لكن هذه حقيقتي. صحيح؟.. ضحية؟ مثلي مثل «سام»؟

زفر «چيف» زفرة غاضبة..

- تعرفين تمام المعرفة أنكِ أكثر من هذا بكثير.

- وكذلك «سام».. وبينما تمكث معنا، فعليك معاملتها على نفس هذا النحو.

حاول «چيف» أن ينطِق اعتذارًا آخر، لكنني قاطعته بأن درتُ حول نفسي وفتحتُ باب الغرفة وصفقته خلفي بصوت رجت معه جدران البيت.

غرفة الضيوف صغيرة، ضيقة، مكدسة. المصباح الأحمر للطاولة الجانبية للفراش يلقي بظلال وردية على الجدران. وبسببِ تأخر الوقت، فقد بدا كل شيء متلألئاً وحالمًا. أعرف أن عليَّ محاولة النوم، لكني لم أرغب بذلك. ليس و«سام» متيقظة نابضة بالحرارة والطاقة والحياة. لذا فقد استلقينا على الفراش الضخم، بعد أن خلعنا أحذيتنا واندسسنا تحت الأغطية لمزيد من الدفء.

وفتيل الذكريات يشتغل في عقلي.. أنا و«چينيل» في أول ليلة في غرفة المهجع، جالستان كتفًا بكتف، وهي تحتسي نبيذًا باردًا، أخذته بتدللها على طالب أصغر يقطن آخر الردهة،

وأنا أحتسي «كولا دايت»، ليلتها صرنا صديقتين حميمتين. ما زلت أفكر بها كصديقتي المقربة، لا يهم أنها ماتت منذ عشر سنوات، وأن صداقتنا لم تكن لتستمر لو أنها عاشت.

- سأبقى الليلة فقط، تعرفين ذلك.. سأغادر في الصباح.

- يمكنك البقاء للوقت الذي تحتاجين.

- وأنا لا أحتاج سوى الليلة.

- كان عليك إخباري أنكِ تعانين في الحياة. تسعدني مساعدتك، يمكنني إقراضك المَال أو أيًا يكون.

- أنا متأكدة أن هذا سيمر بشكل طيب مع صديقك.

ارتشفت رشفة كبيرة من الخمر وسعلت بقوة.

- لا تهتمي بشأن «چيف».

- إنه لا يتقبلني.

- إنه لا يعرفك بعد يا «سام».

ترددتُ لحظة، ثم أردفت:

- أم هل يجب أن أدعوك «تينا»؟

- «سام».. اسم «تينا» للأوراق الرسمية فقط.

- كم مرَّ عليك من الوقت منذ غيَّرتِهِ؟

ملأت «سام» فمها بجرعة ضخمة، وأخذت وقتها وهي تبتلعها، ثم أجابت:

- سنوات!

- منذ اختفيتِ؟

- نعم.. سمّتُ كوني «سامنثا بويد»، «الناجية الأخيرة». أردت أن تكون لي هوية جديدة، ولو حتى على الورق فقط.

- هل عائلتكِ على علم بهذا؟

هزت رأسها نفيًا، ومررت لي الزجاجة، وقفزتْ من الفراش

إلى حقيبتها، ومنها أخرجت علبة سجائر واتجهت إلى النافذة، سائلة إياي:

- أيمكنني؟

هززت كتفي موافقة، وفتحت «سام» النافذة. في الخارج، كانت خيوط السحب الخفيفة تخدش ظلام السماء. الليل ينسحب في خمول، لأجل الفجر القادم.

- أنا بحاجة للإقلاع..

قالتها وهي تشعل سيجارتها..

- عن التدخين. فقد صارت عادة مكلفة جدًا.

- ناهيك عن كونها قاتلة.

نفثت دخان سيجارتها عبر النافذة المفتوحة..

- هذا الجزء لا يقلقني. لقد غششتُ الموت مرة، أتذكرين؟

- إذن فقد بدأتِ التدخين بعدما جرى في نُزل «نايت لايت»؟

- احتجت لما يهدئني. أتفهمينني؟

آه، نعم. أفهمك. بجانب الزاناكس، فصمام الأمان بالنسبة لي هو النبيذ. أبيض أو أحمر وما بينهما، لا يهم. أثق أن «چينيل» ستجد هذه المفارقة مدعاة للسخرية.

- أتعجَّب من أنكِ و«ليزا» لم تجربا التدخين، فهو يبدو أمرًا طبيعيًا جدًا بالنسبة لي.

- جرَّبته مرة ولم يعجبني.

رنَّ سؤال في ذهني:

- كيف عرفتِ أن «ليزا» لم تدخن؟

- لقد خمَّنت ذلك. فهي لم تذكره في كتابها أو ما شابه.

تآكلت أول نصف بوصة من سيجارتها متحولة إلى رماد، وقبل أن تسقط على الأرض مدت يدها الخالية إلى حقيبتها

وأخرجت طفاية سجائر محمولة جلدية، تبدو كحقيبة صغيرة للعملات، مع غطاء ممغنط. مظهرة براعة المدخن المحترف، فتحتها «سام» بنقرة إصبع، ونفضت رماد سيجارتها فيها.

- إذن فقد قرأتِ كتابها؟

أخذت «سام» نفسًا عميقًا ثم زفرته وهي تومئ برأسها..

- ظننتُ أن هذا لا بأس به. الأكيد جدًا أنه لم يساعدني بالمرة في تجاوز ما مررت به.

- هل تفكرين به كثيرًا؟

سألتها، واجترعتُ جرعة أخرى من الزجاجة وقد اعتدت حرارتها في حلقي. مدت «سام» ذراعها لتصل إلى الزجاجة، وعندما ناولتُها إياها تجرعت منها جرعتين كبيرتين، مع نفضة سيجارة واحدة تفصل بينهما.

- دائمًا!

مرّرت لي الزجاجة ثانية، رفعتها إلى شفتي، وتردد صدى كلماتي في قاع الزجاجة..

- هل ترغبين في الحديث عما جرى؟

أنهت «سام» سيجارتها بنفَس عميق واحد، وبزفير ضخم، ثم أطفأت بقيّتها في المطفأة وأغلقتها. بعدما أغلقت النافذة، ظل الدخان يعبق في الغرفة عالقًا بها كأنه ذكرى سيئة.

- تظنين أن هذا يحدث فقط في الأفلام، ولا يمكن أن يحدث في الحياة الواقعية، على الأقل ليس بهذه الطريقة، والمؤكد ليس لكِ. لكنه جرى.. في البداية في بيت الطالبات في إنديانا. ثم في فندق في فلوريدا..

خلعت سترتها، ليظهر ثوبها من تحتها كاشفًا عن ذراعيها وكتفيها. بشرة شاحبة على ثوب ضيق، وعلى ظهرها وشم لحاصد الأرواح أسفل كتفها الأيمن، ووجهه العظمي منقسم بسبب حمّالة ثوبها. قالت وهي تتسلق عائدة إلى الفراش:

- «كالفين ويتمر».. «رجل الجوال».

بعثَ الاسم رعشة في جسدي. شعرت كأن طعنة جليدية اخترقت أعضائي.

- أنتِ تنطقين اسمه!

- ولِمَ لا أفعل؟

- لم أجرؤ يومًا على نطق اسمه!

- لا حاجة بي إلى التوضيح، فهي تعلم عمَّن أتحدث.

- ولا مرة واحدة؟

قالت «سام» بينما تأخذ الزجاجة من قبضتي:

- إنه لا يضايقني، أنا أفكر به طوال الوقت. ما زال بإمكاني رؤيته.. لو تعرفين، عندما أغلق عيني أرى فتحتيّ عينين في الجوال.. إضافة إلى شق فوق الأنف تمامًا للتنفس. لن أنسى أبداً الطريقة التي كان يرفرف بها وهو يتنفس، كان يحيط عنقه بأسلاك ليبقي الجوال في موضعه.

شعرتُ بكتلة جليدية أخرى تتكور في أحشائي. أخذت الزجاجة من «سام»، رغم أنها لم تنته منها بعد، وتجرعت جرعتين، آملة أن تهدِئا رجفتي. تساءلت سام:

- تفاصيل أكثر من اللازم؟

هززت رأسي..

- التفاصيل هامة.

- وماذا عنك؟ أتتذكرين أية تفاصيل على الإطلاق؟

- القليل

- لكن ليس الكثير؟

- لا.

- لقد سمعت أنه ليس عرضًا مرضيًا حقيقيًا.. الذاكرة المكبوتة وما إلى ذلك

تجرعتُ جرعة أخرى، محاولة تجاهل الإلحاح المستتر من «سام». رغم كل العوامل المشتركة بيننا، فهي لا يمكنها الغوص في ذلك البئر الأسود في عقلي، حيث تقبع ذكريات «كوخ الصنوبر». هي لا تعرف كم هو مريح - رغم كونه محبطًا- أن تتذكر بداية شيء دون بقيته، كأنك تركت قاعة السينما في بداية الفيلم لتعود مع تتر النهاية.

- ثقي بكلامي.. إنه حقيقي.

- وأنت لا تهتمين بعدم التذكر؟

- أظن أن هكذا أفضل.

- لكن ألا ترغبين في معرفة ما الذي جرى بالفعل؟

- أعرف النتيجة النهائية. وهذا كل ما أحتاج إلى معرفته.

قالت سام:

- سمعت أنه ما زال قائمًا.. «كوخ الصنوبر». لقد قرأتُ هذا في أحد تلك المواقع المبتذلة عن الجرائم الحقيقية.

قرأتُ نفس المعلومة منذ عدة سنوات، ربما على نفس الموقع. ما إن انتهى التحقيق، حتى حاول صاحب الكوخ بيع الأرض، لكن لم يرتضِ أحدٌ شراءها طبعًا. لا شيء يخسف بقيمة الأرض إلى الهاوية مثل الدماء التي تخضِب تربتها. عندما أفلسَ، مرت ملكيته إلى الدائنين. ولم يستطيعوا بيعه هم الآخرون، وهكذا بقيَ «كوخ الصنوبر» كشاهد قبر عملاق في غابات بنسلفانيا. تساءلت «سام»:

- ألم تفكري أبدًا في العودة إلى هناك وإلقاء نظرة؟ ربما يساعدك هذا على التذكر.

مجرد ذكر الفكرة أصابني بالغثيان..

- إطلاقًا

- هل فكرت به دائمًا؟

كانت رغبتها أن أذكر اسمه واضحة وجلية، والترقب ينبض بحرارة من بشرتها. قلت كاذبة:

- كلا.

- لقد خمنت أن هذه ستكون إجابتك.

- إنها الحقيقة.

تجرعتُ جرعة أخرى من الخمر، وحدقت في الزجاجة مندهشة من الكم الذي شربناه.. بما شربته أنا على وجه الدقة، فـ «سام» بالكاد تحصل على الزجاجة في يدها. أشعر بجسدي يترنح على حافة السُكر، وجرعة أخرى ستفي بالغرض. رفعت الزجاجة مرة أخرى وابتلعت رشفتين، شاعرة بحرارتهما الحارقة في حلقي.

ابتعدَ صوت «سام» إلى حد الهمس رغم جلوسها بجواري.

- أنت تتصرفين كأنك تجاوزت الوضع، لكنك لم تتجاوزيه.

- أنتِ مخطئة.

- أثبتي ذلك.. انطقي اسمه!

قلت ناظرة إلى النافذة وإلى السماء التي تلونت بالفجر:

- علينا محاولة النوم، لقد تأخر الوقت.. أو صار مبكرًا.

- ليس هناك داعٍ لخوفك.

- لست خائفة.

- نُطق اسمه لن يعيده إلى الحياة.

- أعرف ذلك.

- إذن لم تجبنين عن نطقه؟

بدت بالضبط مثل «جينيل».. لحوحة، مشجعة، تدفعني للقيام بأشياء لا أريد القيام بها. تفاقم الضيق بداخلي واختلط بالغضب. عندما حاولت تهدئته برشفة خمر أخرى، انتبهت إلى أن «سام» أخذت الزجاجة مني.

- أنت كذلك. جبانة، تعرفين ذلك.

- يكفي هذا يا «سام».

- لو أنك تجاوزتِ كل ما جرى لك، فمجرد ذكر اسم بسيط ليس بالأمر الجلل.

جذبت «سام» ذراعي عندما حاولت المغادرة. انتفضتُ محررة نفسي من قبضتها، وقفزت من الفراش. ومع اصطدامي بالأرض، آلمني فخذاي.

ثملة من الخمر وقلة النوم، احتجتُ الجهد كي أنهض، والويسكي يتموج هادرًا في معدتي. اهتزت الرؤى في عيني، وزادت «سام» الطين بلة بقولها:

- أتمنى أن تنطقيه.

- كلا

- مرة واحدة.. لخاطري!

التفتُّ إليها، بعدم اتزان..

- لمَ كل هذه الضجة حول هذه النقطة؟

- ولمَ أنت ضدها تمامًا؟

- لأنه لا يستحق أن يُنطق اسمه!

صرختُ، ليخترق صوتي حجاب صمت الفجر..

- بعد كل ما اقترفه، لا أحد عليه أن ينطق اسمه اللعين أبدًا!

اتسعت عينا «سام» مدركة أنها دفعتني إلى الحافة..

- لا حاجة بك إلى الفزع والعصبية لأجل هذا.

- على ما يبدو، فأنا بأمس الحاجة إلى هذا. أنا أقدم لكِ معروفًا بالمبيت هنا.

- بالفعل. فلا تظني أنني لستُ على علم تام بهذا.

- وإن كنا سنصبح صديقتين، فأنت بحاجة إلى معرفة أنني لا

أتحدث عن «كوخ الصنوبر».. لقد تجاوزتُ الأمر.

أخفضت «سام» نظرها، ويداها على الزجاجة.

- آسفة.. لم أقصد أن أضغط عليك.

راودتني لحظة من الإفاقة وأنا أقف أمام الباب ويدي على خدي الذي يؤلمني، محاولة ألّا أبدو ثملةً كما أنا بالفعل.

- ربما أنت على حق. ربما من الأفضل أن ترحلي في الصباح الباكر.

بعد أن تحدثت بتماسك، عادت الثمالة تهاجمني بضراوة. ترنحتُ خارجة من الغرفة، مع عدة محاولات لإغلاق الباب خلفي، ثم محاولات عديدة أخرى لفتح باب غرفتي.

كان «جيف» نصف متيقظٍ عندما قفزتُ إلى الفراش، وهمهمَ:

- لقد سمعتُ صياحًا.

- لا شيء.

- أواثقة؟

«نعم». أجبته وأنا أكثر إجهادًا من أن أجيب بأكثر من ذلك. وقبل أن أسقط في هاوية النوم، هاجمت فكرة ما ضباب عقلي.. ذكرى باهتة عابرة غير مرغوبة. «هو».

في اللحظة التي التقينا فيها.. قبل أن تبدأ المذبحة.. قبل أن يصبح هو.

فكرة أخرى تلت الأولى.. واحدة أكثر إزعاجًا من سابقتها..

«سام» تريد دفعي إلى التذكر..

لكن ما لا أفهمه هو: لِمَ؟

كوخ الصنوبر

5:03 مساءً

قررت «چينيل» أنها تريد استكشاف الدغل، عالمة مسبقًا أن باقي أعضاء المجموعة سيوافقون، لالتزامهم بطلبات صاحبة عيد الميلاد. لذا بدؤوا بالحركة ضاربين أقدامهم في الدغل المتشابك وراء شرفة الكوخ.

«كريج»، صبي الكشافة السابق، قاد الطريق بتصميم على قدرٍ من السخافة. كان الوحيد الذي أتى بحذاء ملائم، حذاء تنزه مع زوج من الجوارب الثقيلة الطويلة مشدود على سمانتيّ ساقيه كي يحميهما من الوخز. حمل معه عصا تنزه خفيفة طويلة، والتي طرقت الأرض في دقات منغّمة.

وراءه مشت «كوينسي» و«چينيل». وبدتا أقل جدية، مرتديتين الجينز وكنزات مخططة وأحذية خفيفة غير عملية ماركة كيدز، كانتا تمشيان وهما تركلان الأوراق المتساقطة التي تغطي تربة الغابة، والمزيد من الأوراق تتساقط، وشمس آخر الظهيرة تسطع على الأوراق الهشة بينما تدور متعثرة ملتفة كأنها نجوم متساقطة ملونة بالأحمر والبرتقالي والأصفر.

التقطت «چينيل» ورقةً أثناء رحلة سقوطها، وغرستها في شعرها خلف أذنها، وتوهّج لونها البرتقالي المشتعل على شعرها النحاسي.

- أطالبُ بصورة.

«كوينسي» رضخت، والتقطت لها صورتين، قبل أن تلتفت وتلتقط أخرى لـ «بيتز»، والتي كانت تمشي بتثاقل كأنها كانت تمشي طوال اليوم. بالنسبة لها كانت هذه الرحلة عبئاً أكثر منها للمتعة، إجازة لأسبوع عليها تحمّلها. صاحت بها «كوينسي» آمرة:

- ابتسمي!

عبست «بيتز»..

- سأبتسم ما أن ينتهي التنزه.

التقطت لها «كوينسي» صورتها على أية حال، ثم انتقلت إلى «إيمي» و«رودني» اللذين يتمشيان.

ارتدت «إيمي» أحد قمصان «رودني» الواسعة من قماش الفانيلا، تدلت أكمامه مغطية أطراف أصابعها، وبجوارها «رودني» يبدو كأنه دبٌ أشيب، مع عنقه الغليظ وشعر صدره الظاهر بوضوح من الفتحة المثلثة لكنزته. ما إن رأيا «كوينسي»، حتى التصقا ببعضها بعضاً أكثر بسرعة، وبسرعة قالت «كوينسي»:

- أيمكنكم مواكبتنا يا شباب؟

صاح «كريج» بينما بدؤوا بتسلق منحدر خفيف. الأوراق المتساقطة جعلت الأرض زلقة، وشبكت «چينيل» و«كوينسي» يديهما لتتساندا في تسلق التل. قالت «چينيل» بلهجة وبسلطة قائد الرحلة:

- جديًا، أنتم لا تريدون التخلف عنا، فهذه الغابة مسكونة.

ردَّ «رودني»:

- هراء.

- هذا حقيقي. قبيلة هندية كانت تعيش هنا منذ مئات الأعوام. ثم جاء الرجل الأبيض وأبادهم جميعًا. إن دماءهم على أيدينا يا رفاق.

قال «رودني» وهو يقلّب يديه هازئًا:

- أنا لا أرى أية بقع.

وبَّخته «إيمي»:

- كن لطيفًا!

- ما علينا. يقال إن أرواح تلك القبيلة تسكن هذه الغابة،

مستعدة لقتل أي رجل أبيض يدخل الغابة. لذا خذ الحذر يا «رودني».

- لِمَ أنا؟

قالت «كوينسي»:

- لأن «كريج» قوي جدًا، لن يهزمه شبح، هندي أو غيره.

- وماذا عنكنّ؟

قالت «چينيل»:

- لقد قلتُ الرجل الأبيض قتلهم، نحن نساء، لا ضغينة لديهم تجاهنا.

- لقد ماتَ الناس هنا بالفعل.

كانت «بيتز» من قالت هذه الجملة. بيتز الهادئة قوية الملاحظة، نظرت إلينا بعينيها شديدتي الاتساع، المخيفتين قليلًا..

- هناك فتى في صف الأدب العالمي أخبرني بذلك. زوجٌ من المخيِّمين قد قُتلا هنا في الغابة في العام الماضي، فتى وفتاة، عثرت الشرطة عليهما في خيمتهما مطعونين حتى الموت.

تساءلت «إيمي» وهي تلتصق أكثر بـ «رودني»:

- وهل عثروا على القاتل؟

هزت «بيتز» رأسها وقالت:

- ليس على حد علمي.

لم ينبس أحد ببنت شفة طوال تسلقهم للتل، حتى صوت أقدامهم وهي تسحق الأوراق الجافة بدا كأنه ينخفض حد الهمس، كأنه يدع لهم الفرصة لسماع أية أصوات من أي شخص آخر في الغابة. وفي هذا الصمت الناعم الجديد، شعرت «كوينسي» أنهم ليسوا وحدهم. كانت تعرف أنها حمقاء، وأن هذه تهيؤات ناتجة عن حديث «بيتز»، رغم ذلك لم تستطع نفض ذلك الشعور بأن هناك شخصًا آخر في الغابة معهم، وليس

ببعيد على الإطلاق، يراقبهم.

انكسرَ أحد الأغصان قريبًا منهم، على مسافة أقل من عشر ياردات. انتفضت «كوينسي» لسماع الصوت مطلقة صرخة مبتورة، مما أطلق سلسلة من صرخات ردود الفعل في نفس الوقت من «إيمي»، و«چينيل»، و«بيتز».

وعلى جانب آخر، أطلق «رودني» ضحكة..

- يا إلهي!.. أمتوترات لهذه الدرجة؟

وأشار إلى مصدر الصوت.. سنجابٌ صغيرٍ ذو ذيل أبيض يلوِّحِ به كعلمٍ فوق الأجمة السفلى. وبدأ بقيَّتهم في الضحك واحدًا تلو الآخر، حتى «كوينسي»، التي نسيت بالفعل كيف شعرت بهياج القلق منذ لحظات معدودة.

على قمة التل، وجدوا صخرة ضخمة مسطحة، في حجم سرير من الحجم الكبير، وعليها دزّينات من أسماء من سبقوهم في مثل هذه الرحلة من الصغار، محفورة على بقايا سطحها. التقط «رودني» حجرًا حادًا، وبدأ بإضافة اسمه إلى القائمة. تناثرت عبوات البيرة الفارغة وأعقاب السجائر في محيط الصخرة، مع واقٍ ذكري غير ملفوف، متدلٍّ على غصن صغير لشجيرة قريبة، مستدعياً صيحة تقزز من «چينيل» و«كوينسي».

همست «چينيل»:

- ربما عليك أنت وكريج أن تقوما بها هنا، أقله هناك وسيلة حماية متاحة.

قالت «كوينسي»:

- لو فعلناها، فلن يكون ذلك على صخرة منظرها يبدو كمجموعة أمراض معدية.

- مهلًا.. ألم تقرري بعد؟

- لقد قررتُ ألّا أقرر.

أجابت «كوينسي»، مع أنها في الواقع قد قررت. الموافقة على

النوم في فراش واحد مع كريج يختم تلك النقطة تحديدًا.

- سيحدث، عندما يأتي أوانه.

قالت «چينيل»:

- من الأفضل أن يحدث مبكرًا. «كريج» كقطعة لحم طازجة فرزٍ أول يا «كوين». أعلم أن كثيرات من الفتيات يتمنين تذوقه.

ردت «كوينسي» بجفاف:

- تشبيه مبتكر.

- كل ما أقوله إنك لا تريدين جعله ينتظر إلى أمدٍ يطول حتى يفقد الاهتمام بك.

«نظرت «كوينسي» إلى «كريج» الذي تسلَّق أعلى الصخرة مستكشفًا الأفق. لقد كان مهتمًا بأكثر من الجنسِ، وهذا أكثر ما تيقنت منه «كوينسي». لقد كانا صديقين أولاً.. تقابلا في أول أيامهما في الكلية، وقضيا العام الأول منهمكين في مغازلة بطيئة النمو، أما التواعد فلم يبدأ إلا في أواخر أغسطس، عندما عادا إلى الحرم الجامعي، وقد أدركا كم افتقدا بعضهما بعضاً في الصيف. ولو استشعرت «كوينسي» شيئاً من نفاد الصبر فيما يخص الجنس من جانبه، فقد كانت تعزوه إلى الرغبة، وليس إلى الإحباط المكبوت الذي تشير إليه «چينيل».

والآن، وقد جثم على سطح الصخرة، انتبه «كريج» إلى نظرات «كوينسي»، فرفعت الكاميرا وقالت:

- ابتسم..

لكنه فعل ما هو أكثر من مجرد الابتسام، فقد وقف نافخًا صدره، ويداه على وِركيه كأنه سوبرمان. ضحكت «كوينسي» والتقطت صورته. سألته:

- كيف هي الطلة من مكانك؟

- مبهرة!

اتّجه إلى أسفل الصخرة، وساعدها على تسلقها بجواره. كانا أعلى مما توقعت «كوينسي»، قادرين على رؤية باقي الغابة تنحدر بحدة إلى مسافة ميل آخر، قبل أن تنتهي في وادٍ غطته الظلال. انضمّ إليهما الآخرون، مع «چينيل» وهي تأمر بصورة أخرى:

- صورة جماعية. فيها الجميع حتى أنت يا «كوينسي».

تلاصقَ الستة، ومدت «كوينسي» ذراعها على آخره، حتى ظهر الجميع في إطار الصورة. وما إن التقطت الصورة، حتى تفحصت «كوينسي» تكوينها العشوائي، وعندها لاحظت شيئاً ما وراءهم على مسافة بعيدة.. كان مبنىً ضخمًا يقع وسط الوادي، جدرانه الرمادية تكاد تكون غير واضحة من بين الأشجار. أشارت «كوينسي» إليه متسائلة:

- ما هذا؟

هزت «چينيل» كتفيها بلا اهتمام..

- خارج حدود علمي.

«بيتز»، البومة الحكيمة عرفت على الفور طبعًا..

- مستشفى أمراض عقلية.

ردت «إيمي»:

- يا إلهي!.. هل تتعمدين محاولة إفزاعنا؟

- بل أخبركم أنها مستشفى للمجاذيب.

حدقت «كوينسي» في المستشفى، وقد حركت رياحٌ خفيفة أشجار الوادي من حولها، مما أعطى المكان هيئةً مثيرة للتوترِ غير مريحة، كأنما المبنى نفسه حي. كان هناك حزن واضح مخيم على المبنى، شعرت به «كوينسي» ينبثق من المبنى عبر الوادي، وعلى طول الغابة، صعودًا إلى مكان وقوفهم على الصخرة.. وشعرت بسحابة عاصفة تحلق دومًا فوق المكان، غير مرئية لكن محسوسة بقوة.

كادت أن تلتقط له صورة، لكنها توقفت. شيء ما بخصوص إبقاء صورة له على كاميرتها أرّقها.

وقفَ «كريج» بجوار «كوينسي» يدرس الأفق. كانت الشمس قد بدأت مسيرتها أسفل خط الأشجار، وتوهجٌ لونها بحرارة على الأشجار. قطعت الأشجار درجة السطوع، وألقت ظلالًا شبكية الشكل على أرض الغابة. قال:

- علينا بالتحرك للعودة، يجب ألّا نبقى في الخارج أثناء الظلام.

قالت «چينيل»:

- لأنه - كما تعرف- هناك أشباح هندية.

أضافت «كوينسي»:

- وأشخاص مخابيل

تأخرت رحلة العودة بسبب «رودني»، الذي أصرَّ على استكمال نقوشه على الصخرة، حيث أضاف اسم «إيمي» أسفل اسمه، رابطًا إياه مع اسمه بعلامة جمع، ومحيطًا لهما بقلبٍ نقشه على عجل. ثم انطلقوا، توجهوا إلى نفس الطريق الذي جاؤوا منه، ولم يستغرقوا وقتًا يذكر للوصول إلى المساحة الخاوية المؤدية إلى الكوخ، فالانحدار هو ما جعل رحلة الصعود صعبة عليهم وتبدو أطول مما هي عليه حقًا. وبعد كل هذا، اتّضح أن المسافة بين الصخرة المسطحة و«كوخ الصنوبر» أقل من نصف ميل.

مع ذلك، كانت الشمس قد مالت إلى المغيب عند خروجهم من الغابة، وقد أعطت الكوخ توهجًا ورديًا خريفي الانطباع. سقطت الظلال زاحفة من صف الأشجار خلفه، ولونت قاعدته الحجرية. توقف «كريج» فجأة، حتى إن «كوينسي» اصطدمت به، فدفعها إلى الخلف.

- ما الذي...؟

«هشششش» همسَ بصوت كالفحيح، محدقًا في الظل غير المكتمل المتكوِّم على الشرفة الخلفية.

أخيرًا، انتبهت «كوينسي» لما أثاره.. وكذلك الآخرون. كان هناك شخص ما واقفاً على الشرفة. غريباً يكوِّر يديه على نافذة الباب الخلفي، متلصصًا من خلالها.

«هاي!» صاح «كريج» وهو يتقدم إلى الأمام شاهرًا عصا التنزه كأنها سلاح، فالتفتَ الغريب. كان رجلًا - كما علمت «كوينسي» الآن- وبدا ذاهلًا.

كان من عمرهم تقريبًا، أو ربما أكبر بعامين، من الصعب التخمين بدقة، بسبب نظارتيه اللتين عكستا ضوء المغيب المحتضر وأخفتا عينيه. كان نحيفًا، عصبياً، ذراعاه الطويلتان طواهما بتشنج على جانبي كنزته المغزولة، ذات الثقب بحجم قرش على الكتف، وقد برزَ من تحته التيشيرت الأبيض، ويرتدي سروالًا من المخمل الأخضر باليًا عند الركبتين، ومتسعًا عند خصره إلى حد وضع سبابته على مشبك الحزام كي يمنعه من الانزلاق عنه.

- أنا.. آسف.. إن كنت أخفتكم.. كنت.. أنظر.. إن كان أحد.. هنا.

غلفت الجلجلة كل كلمة من كلماته، كأنه لا يعرف كيف يتحدث. كان يتحدث الإنجليزية كما يفعل الأجانب، بشكل رسمي ومع وقفات كثيرة. ركزت «كوينسي»، لعلها تجد لمحة من لكنة أجنبية، لكنها لم تجد واحدة.

- ها نحن.

قال «كريج» متقدمًا خطوة أخرى إلى الأمام. تأثرت «كوينسي» بشجاعته، والتي ربما كانت مخططًا لها.

- مرحبًا!

قال الغريب، ملوحًا بيده غير الممسكة بخصره.

- هل أنت تائه؟

تساءلت «چينيل»، بفضول أكثر من الخوف.

- نوعًا ما. لقد تعطلت سيارتي على بعد أميال من هنا. لقد كنت أتجول طوال فترة الظهيرة. وأخيرًا رأيت المِدَقّ المؤدي إلى هذا المكان، جئتُ آملًا أن أجد يدَ المساعدة.

ابتعدت «چينيل» فجأة عن المجموعة، خارجة من الغابة، لتصل إلى الشرفة في ثلاث قفزات واسعة سريعة. جفلَ الغريب، وللحظة شكَّت «كوينسي» أنه سيركض كغزال فزِع يهرب إلى الغابة. لكنه بقي على وضعه، ثابتًا في مكانه، بينما تفحصت «چينيل» شعره الأسود المشعث وأنفه المعوج قليلًا، والانحناءات التي على قدر من الغواية لشفتيه. قالت «چينيل»:

- طوال الظهيرة.. هاه؟

- أغلبها.

- رد الغريب.

- مؤكد أنكَ مرهق.

- قليلًا.

- عليك بالدخول والاحتفال معنا.

قالت «چينيل»، بينما تُصافح يده الحرة، في حين التوت سبابة يده الأخرى على مشبك حزامه.

- أنا «چينيل»، وهؤلاء هم أصدقائي. إنه عيد ميلادي.

- عيد ميلاد سعيد.

- ما اسمك؟

- أنا «چو».

أجاب الغريب وهو يومئ برأسه تحية، تلاها بابتسامة حذرة وأردف:

- «چو هانين».

الفصل 11

كانت الساعة قد تعدَّت العاشرة عندما استيقظت، وجانب «چيف» من الفراش خالٍ منذ زمن، حتى شعرت ببرودته تحت أصابعي أسفل الأغطِّية. في الردهة، توقفت هنيهة عند باب غرفة الضيوف. رغم أن الباب مفتوح، إلا أنني أعرف أن «سام» ما زالت موجودة، حقيبتها ما زالت في الركن، وزجاجة الخمر على الطاولة بجوار الفراش، وبها مقدار بوصة فقط من السائل.

انفجرت ضوضاء مفاجئة من المطبخ، أدراج تصفق وأوانٍ تطرق. وجدت «سام» هناك في مريولة بيضاء، فوق تيشيرت مطبوع عليه بوستر فريق «سكس بيستول»، وجينز أسود.

كان رأسي يؤلمني بسبب كل أحداث البارحة السريالية، أكثر من دوار الثمالة. ورغم أن التفاصيل مشوشة، إلا أنني لم أجد أي صعوبة في تذكّر ضغط «سام» الملُح عليّ، كي أذكر اسمه. شعرت بالضيق منها ومن الذكرى.

«سام» تدرك هذا، يمكنني رؤية هذا في الابتسامة المعتذرة التي تعلو وجهها، وكوب القهوة الذي دفعته إلى يدي، ورائحة التوت الدافئة التي فاحت من الفرن.

- أتخبزين؟

أومأت «سام» إيجابًا..

- كعكة «مافن» بالليمون والتوت.. لقد وجدت الوصفة على مدونتك.

- وهل عليّ أن أتأثر؟

- في الغالب لا.. رغم أنني آمل في ذلك.

سرًا، لقد تأثرت بالفعل، لم يخبز لي أحدٌ أي شيء منذ وفاة والدي، ولا حتى «چيف»، لكن ها هي «سام» تراقب مؤقّت الفرن بينما يعدّ تنازليًا إلى الصفر.. أنا متأثرة رغم أنفي.

أخرجت كعكات الـ «مافن» من الفرن، ودون أن تترك فرصة لتبرد قبل قلب المقلاة. تساقط الـ «مافن» على سطح المطبخ، تاركًا لطخات من التوت والفُتات عليه.

- كيف حال أدائي أيتها المدربة؟

تساءلت «سام» وهي تنظر إليّ بنظرة آملة، فأخذتُ قضمة صغيرة لأختبرها. جافّ قليلًا، بما يوحي أنها بخلت بالزبد.. والسكر قليل جدًا، بما كبحَ طعم الفاكهة ولم يظهر أيٌّ من طعمَي التوت أو الليمون، بل طعم معجون أسنان. ارتشفتُ رشفة من القهوة، كانت قوية مركّزة جدًا. واندفعت مرارتها إلى كلماتي وهي تنزلق من فمي..

- نحن بحاجة للحديث عن البارحة.....

- لقد كنتُ وضيعة.. أنتِ كنت لطيفة معي، وأنا...

- أنا لا أتحدث أبدًا عن «كوخ الصنوبر» يا «سام»، تمام؟ هذا خارج حدود المسموح. أنا أركز على المستقبل. وعليك أنتِ أيضًا فعل ذلك.

- فهمت.. أنا أفهم ذلك، وأرغب بأن أعوّضكِ بطريقة ما، إن تركتني أبقى لفترة أطول بالطبع.

أخذَتْ نفسًا عميقًا وحبسته منتظرةً إجابتي. ربما كان هذا تمثيلًا، جزء منها متأكد أنني سأجعلها تبقى، مثلما كانت متأكدة أنني لن أتركها تتعثر بحقيبتها الثقيلة ليلة أمس. فقط أنا لست متأكدة من شيء..

أردفت عندما لم تجد مني ردًا:

- فقط ليوم أو اثنين..

ارتشفتُ رشفة أخرى من القهوة، كافيين مركّز أكثر منه طعم ممتع.

- لمَ أنتِ حقًا هنا؟

- هل الرغبة في مقابلتكِ ليست كافية؟

- يُفترض ذلك، لكنها ليست سببكِ الوحيد.. كل تلك الأسئلة والإلحاح.

التقطت «سام» قطعة «مافن» منبعجة، ثم وضعتها جانبًا وتفحصت الفُتات في أظافرها..

- أترغبين حقًّا بمعرفة السبب؟

- لو أنكِ ستستمرين في المبيت هنا. فأنا بحاجة للمعرفة.

- حسنًا. وقت الاعتراف. بلا أدنى هراء.

أخذت نفسًا عميقًا، كأنها طفل على وشك أن يغطس تحت الماء..

- لقد أتيتُ لأعرف إن كنتِ غاضبة مثلي.

- غاضبة مما اقترفت «ليزا»؟

- كلا. غاضبة لكونكِ «ناجية أخيرة».

- لستُ كذلك.

- لستِ غاضبة، أم لستِ «ناجية أخيرة»؟

أجبتُها:

- كلتاهما.

- ربما عليكِ ذلك؟

- لقد تجاوزتُ هذا الماضي.

- هذا ليس ما أخبرتِ به «جيف» ليلة أمس.

إذن فقد سمعتنا نتجادل البارحة في غرفتنا. ربما سمعت بعض الكلام، محتملٌ سمعت كل شيء، أيًا كان القدر الذي سمعته، فقد كان كافيًا لجعلها تهرب في الليل.

- أنا متأكدة أنكِ لم تتجاوزي الأمر، مثلكِ مثلي تمامًا. ولن نتجاوزه إلا عندما نُخرج شوكة «ليزا» من جانبنا. لقد ألزمتنا الدنيا بصفقة غير عادلة، ابتلعتنا وبصقتنا مهترئات، وتركت الجميع يتوقع منا أن نتجاوز كل هذا ونتظاهر بأنه لم يحدث.

- على الأقل فقد نجونا.

لوَّحت «سام» بيدها كاشفة عن وشمها عليه..

- بالفعل. وحياتكِ مثالية منذ ذلك الوقت، أليس كذلك؟

- أنا بخير.

شعرت بانقباض في أحشائي، لأنني بدوتُ لنفسي بالضبط كوالدتي، التي تستعمل نفس اللفظ كخنجرٍ يُخمد أنفاس كل المشاعر. «أنا بخير»، هكذا أخبرت الجميع في جنازة والدي. «أنا و«كوينسي» بخير حال»، كأن حياتنا لم تتمزق إربًا في غضون عام واحد.

- واضح.. وما الذي يفترض أن يعنيه هذا؟

دسَّت يدها في جيب سروالها الجينز، وأخرجت هاتفًا قذفته على سطح المطبخ أمامي، مما فتحَ شاشته لتظهر صورة أعرفها لعضو رجل.

- سأجازف بالقول إن هذه ليست صورة لـ «جيف»، مثلما هذا ليس هاتفك.

التفتُّ إلى الناحية الأخرى للمطبخ، وشعرتُ بحموضة المافن والقهوة في معدتي فجأة. الدرج المغلق.. درجي الخاص مفتوح، وهناك خربشات داكنة حول ثقب المفتاح.

- لقد كسرتِ قفله؟!

رفعت «سام» ذقنها بإيماءة فخورة..

- واحدة من مهاراتي القليلة.

هرعتُ إلى الدرج لأتأكد من أن محتوياته ما زالت هناك، وسحبت المرآة الفضية ناظرة لانعكاسي فيها، وهالني رؤية التعب عليّ.

- طلبتُ منك أن تبتعدي عنه.

قلتُها وأنا أشعر بالحرج أكثر من الغضب.

- لا تقلقي، لن أخبر أحدًا. بأمانة، هذا يشعرني بالراحة لأنّ هناك شيئاً مظلماً غامضاً تحت صورة ربة المنزل السعيدة الزائفة.

لفحَ العارِ وجنتيَّ، التفتُّ مستندة إلى سطح المطبخ، فاردة راحتيَ يديَّ عليه، وساحبة إياهما خلال فُتات الـ «مافن».

- هذا ليس ما تظنين.

- أنا لا أحاكمكِ. أتظنين أنني لم أسرق أي شيء من قبل؟ اذكري أي شيء، وسأكون قد سرقته.. طعام، ملابس، سجائر.. مذلّة فقري جعلتني أتغلب على الذنب بسرعة كبيرة.

قالتها «سام» وهي تدسّ يدها في الدرج لتخرج أحمر شفاه، وتفتحه لتطلي به شفتيها بلون أحمر كالكرز.

- ما رأيكِ؟ أظنُّ لونه لطيفًا عليّ.

- كل هذا ليس له أدنى علاقة بما جرى في «كوخ الصنوبر».

- تمامًا.. أنتِ طبيعية تمامًا!

- سحقًا لكِ!

ابتسمتْ، ولمعت شفتاها بلون الكرز كمصباح نيون.

- هذا ما أردتُ سماعه! أن تُظهري بعض المشاعر يا «كوين». لهذا أردتك أن تنطقي اسمه. ولهذا كسرتُ درج مسروقاتكِ. أردتُ أن أراك غاضبة. لقد اكتسبتِ الحق في هذا الغضب، فلا تحاولي إخفاءه وراء موقعكِ الإلكتروني، بكل ما فيه من كعك و«مافن» وخبز. أنتِ مبعثرة النفس، كذلك أنا، ولا بأس من الاعتراف بهذا، نحن بضاعة مشوهة يا فتاتي.

نظرتُ إلى الدّرج مرة أخرى، أحدق في كل غرض فيه كأنني أراه للمرة الأولى. حينها، أدركت مدى صدق كلام «سام»، فقط امرأة غير متزنة هي من ستسرق هاتفًا ومرآة مطلية بالفضة، وملاعق معدنية. شعرت بالمذلة تغشى جسدي وتعصره بقبضتها ببطء. تحركتُ مارةً بـ «سام» إلى خزانة

المطبخ، حيث الزاناكس، وأخذت حبة في يدي.

- أمعكِ مخزون يكفي بقية الفصل؟

حدقتُ بها بعيون خاوية وعقل شارد، كل أعصابي مركزة على هدف واحد، هو تناول الحبة الزرقاء.

- الزاناكس، أعطني واحدة!

قالتها «سام»، وأخذتها من يدي لتدسَّها في فمها، وبدلًا من أن تبتلعها، سحقتها بين أسنانها كأنها قرص فيتامين. أما أنا، فتناولت حبتي بطريقتي المعتادة.. مع جرعة من صودا العنب.

- طريقة مثيرة!

قالت «سام» وهي تمرر لسانها على أسنانها لتجمع فُتات القرص. شربتُ جرعة أكبر من صودا العنب وقلت:

- «ملعقة مليئة بالسكر». لم تكذب الأغنية.

- أي شيء يقضي الغرض. على ما أظن.

قالت سام رافعة يديها وأردفت:

- هاتِي واحدة أخرى

وضعت حبة أخرى في يدها، لكنها أبقتها هناك كبيضة صغيرة لعصفور أبي الحناء، ووقفت ترمقني بنظرة فضولية.

- ألن تتناولي حبة أخرى؟

لم يكن هذا سؤالًا..

بل تحديًا!

وفجأة، شعرت بأننا نعيد البارحة، عندما وقفنا في المطبخ، «سام» تراقبني وأنا بدون سبب أرغب في التأثير عليها وإبهارها.

- بالتأكيد.

تناولتُ حبة أخرى من الزاناكس، مع رشفة أخرى من صودا العنب. وبدلًا من أن تمضغ خاصتها، أشارت إلى زجاجة الصودا، وشربت منها جرعتين ضخمتين، تبعتهما بالتجشؤ بصوت

عال سريع.

- أنتِ على حق. هذه تجعلها أسهل في البلع.

ثم مدت يدها مرة أخرى مردفة:

- الثالثة ثابتة!

لم تكن «ليزا» لتوافق. تساءلت «سام»:

- هل تصالحنا إذًا؟

مرَّ ضوء الصباح الناعم من نافذة المطبخ على وجهها. علىِ الرغم من أنها تضع كامل زينتها، إلا أن ضوء الشمس فضح التجاعيد التي بدأت تحت المنطقة حول عينيها وعلى جانبي فمها. جذبت انتباهي كما تجذبني لوحات فان جوخ، دائمًا أبحث عن أي لمحة من قماش اللوحة أسفل ضربات الألوان. هذه هي «سام» الحقيقية التي أرى الآن، المرأة وراء قناع الفتاة القوية.

اللمحة التي أراها الآن مغرية بغموض، أرى شخصًا ما زال يحاول أن يتكيَّف مع ما أصبحت عليه حياته.. أرى إنسانة وحيدة وحزينة ومتشككة في كل شيء.

كنتُ أرى نفسي، وجعل هذا الإدراك كياني يستريح لفكرة أن هناك شخصًا ما مثلي.

- نعم، لقد تصالحنا.

بدأ مفعول الزاناكس يظهر بينما كنت أستحمّ. استرخى جسدي بكل ثناياه، كأن بخار الدش تخلَّلت ذرَّاته إلى داخلي ليملأ حشاياي. ارتديت ملابسي وأنا في حالة نشوة، كأنني أمشي على السحاب.. أطفو وأشعر بالخفة وأنا أمشي إلى الردهة، حيث تقف «سام» قرب الباب بعيون مبتسمة وتشعر بالخفة هي الأخرى.

«هيا بنا». قالت بصوت مكتوم ناعم، كأنه يأتي من مكالمة بعيدة المدى.

«إلى أين؟» سألتها بصوتٍ غريب على أسماعي. صوت إنسانة

أسعد وأقل همًّا.. إنسانة لم تسمع يومًا عن «كوخ الصنوبر».

كررت «سام»:

- هيا بنا

جلبتُ حقيبتي وتبعتها إلى الردهة، ثم المصعد، ثم المدخل، ثم الشارع حيث تلألأت أشعة الشمس علينا لامعة ذهبية متوهجة. «سام» متوهجة أيضًا، مع لون بِرتقالي مشمس في شعرها، ووجنتين ورديتين متوهجتين. حاولتُ التوقف عند كل باب نمر به، متفحصة انعكاسي في الزجاج، لأرى إنْ كنت أتوهج أنا الأخرى، لكن «سام» كانت تجذبني بعيدًا، إلى سيارة أجرة لم ألحظ ظهورها، حملتنا إلى قلب المدينة حيث الزخم، ثم إلى «سنترال بارك»، حيث تسللت نسمات الخريف من نافذة السيارة، عبر شقٍّ قدره بوصة أو اثنتان أغمضتُ عينيَّ، شاعرة بالهواء يمسِّد وجهي، حتى توقفت السيارة و«سام» تدفعني مرة أخرى، وأنا بالكاد أشعر بها. قالت:

- لقد وصلنا.

وصلنا إلى «فيفث آفنيو»، حيث المبنى الخرساني الضخم لمحلات «ساكس»، وها نحن نطوف عبر المدخل والأبواب ونصل إلى تنسيقٍ أنيق من رفوف العطور اللامعة، تمرِّر أريجها بقوةٍ حتى كدتُ أن أراها تمدد في تموجات ورديةٍ وبنفسجية. تتبعت «سام» عبر الهواء المعطر بقوس قزح، صعودًا على السلم الكهربائي، أو ربما نحن لا نصعد بالمرة، ربما هذه أنا فقط، أطوف في قسم السيدات، حيث ظهر لناظري قوس قزح آخر في صفوف من القطن، والحرير، والساتان.

كانت هناك سيدات يتجولن.. وبائعات ملولات، سيدات مجتمع متأنقات، ومراهقات يتسكعن بلا هدف رغم أن مكانهنّ في المدرسة في مثل هذا الوقت، يتنهدن ناظرات إلى هواتفهن. كلهن نظرن إلينا نظرة منتقدة، لو كلَّفن خاطرهن بالنظر أصلًا.

غيورات..

كنَّ يعلمن أننا مميزات.

«أهلًا» قلتُ لواحدة منهن وأنا أقهقه.

«تنورة لطيفة» قالت «سام» لأخرى.

قادتني إلى صفّ من الكنزات، كنزاتٌ ببعضُ تناثرت عليها نفحات من الألوان. وجذبت واحدة من مكانها ورفعتها قائلة:

- ما رأيك؟

- ستبدو رائعة عليك!

- حقًّا؟

- بالطبع، عليكِ أن تُجرّبيها

جذبت «سام» الكنزة وقالت:

- ناوليني حقيبتك.

حقيبتي، لقد نسيتُ أنني جلبتُها معي. ثم بدأ بريق من الفهم يشقّ جدار الوهم فجأة، حتى أشعرني بالدوار.

- أنتِ لن تسرقيها!

وجدتُ وجه «سام» يتجمد، وخبا التألق الذهبي على بشرتها، ليحل محله لون رمادي.

- هذه ليست سرقة، لو استحققتُها. وبعد كل ما مررنا به يا فتاتي، فقد استحققنا ما هو أكثر من ذلك. حقيبة يدكِ لو تكرّمت.

وبيدٍ متخاذلة، بالكاد أشعر بها، مرّرتُ لها الحقيبة، فدسَّتها أسفلَ ذراعها، متجهة إلى غرفة تبديل الملابس.

وبينما هي غائبة، لفتت نظري لمعة ذهبية، جذبتني عبر طابق المعروضات.. نافذة عرض مجموعة الحلي والإكسسوارات.. حزام رفيع، وأساور مكتنزة، وحلقات مرصعة من الدلّايات. لكن ما لفتَ انتباهي أكثر كان زوجاً من الأقراط. شكلهما

البيضاوي المتدلي شُبّه لي بمرآتين متقابلتين تعكسان النور حتى تلألأتا.

متألقان..

مثلي..

مثل «سام»..

لمستُ أحدهما، وتموَّج عليه الضوء.. انعكاسي ظهر على سطحه بوجه طويل شاحب.

- ترغبين فيهما، أليس كذلك؟

كان هذا صوت «سام»، قد عادت من غرفة تغيير الملابس، ووقفت خلفي فجأة تهمس في أذني.

- هيا. تعرفين ما عليك فعله.

قالتها، ودفعت الحقيبة بين يديّ، ودون حتى أن أنظر، كنتُ أعرف أن الكنزة داخلها. كانت تشع حرارة تجعل الحقيبة تنبض تحت يديّ. فتحتُ سحّابها قليلًا، وفيها رأيت الحرير الأبيض بلطخاته الملونة.

- هذا لا يؤذي أحدًا. أنتِ من تأذَّيتِ يا «كوين».. أنا وأنت و«ليزا».

وانسحبت متجهة إلى صف من السترات المعلقة قريبًا، وسحبت بضع سترات بكلتا يديها، مما أسقطها على الأرض، مع صوت ارتطام الشماعات البلاستيكية المتشابكة. جذبَ الصوت انتباه إحدى البائعات، التي قفزت إلى جوار «سام»..

- أنا خرقاء جدًا!

كانت هذه إشارة لي.. انحنت هي والفتاة لتجمعا الألبسة الساقطة، فخطفتُ القِرطين وأسقطتُهما في حقيبتي بسرعة، وهرعتُ خارجة من قسم السيدات. وفي طريقي، جذبت «سام» ذراعي لأمشي ببطء، وهي تهمس في أذني:

- تمهَّلي يا فتاتي. لا حاجة بكِ إلى أن تبدي مثيرة للريبة.

لكننا مثيرتان للريبة، وأنا واثقة أن كل أولئك الفتيات المللولات اللاتي كان يجب أن يكنَّ في المدرسة الآن، وسيدات المجتمع المتأنقات، يعلمنَ ما فعلنا، وأتوقع أنهن يحدِّقن بنا بينما نمشي. لكن لم ينتبه لنا أحد.. كنا متألقات، إلى درجة أننا صرنا خفيّات عن الأعين.

فقط رجل واحد انتبهَ إلينا.. شاب عشريني، يرتدي بنطالَ جينز مهترئًا، وقميصَ «بولو» ماركة «بروكس براذرز»، وينتعل حذاءً رياضيًا لامعًا له خطوط حمراء على جانبيه، كان يتلصص علينا عبر منضدة العطور، ثابتًا بين بخاخات العطر يتابعنا نسري من الباب. لاحظتُه أنا الأخرى، ولاحظتُ أن خلف عينيه شيئًا ما يُصدر تكّات خافتة، مما أثار قلقي. قلت لـ «سام»:

- لقد كُشِف أمرنا!

تقافزَ قلبي أسرع فأسرع بجنون في صدري، كنتُ خائفة ومنفعلة ولاهثة الأنفاس ومرهقة.. كنت أرغب في الركض، لكن «سام» تُمسكني؛ حتى عندما خفضَ ذلك الرجل بخاخة العطر، والتقط صحيفة من فوق سطح الرف، وبدأ يتبعنا، ثم نادى علينا:

- لو سمحتما!

سبَّت «سام» من بين أسنانها، وخفق قلبي بقوة أكثر.

- لو سمحتما!

صاحَ بنا الرجل وهو يهرع أسرع باتجاهنا، مما لفتَ انتباه الآخرين، الذين نظروا إليه وإلينا، لقد أصبحنا محط الأنظار ثانية.

مدت «سام» الخطى، دافعة إياي لفعل المثل. وصلنا إلى الباب، وشرعنا بالخروج منه، لكن الرجل خلفنا كان قد أسرعَ، لحقَ بنا ونقرَ كتفي.

كنا قد خرجنا إلى الشارع، وتجهزت «سام» للركض، فشدَّت

جسدها في تحفز بجواري، مستعدة لركض سريع. شددتُ نفسي أنا الأخرى، غالبًا بسبب الرجل الذي صار خلفي مباشرة، ويده على كتفي جعلتني ألتفت إليه ممسكة بالحقيبة، دافعة إياها باتّجاهه كأنني أعطيه إياها.

لم ينظر الرجل إلى الحقيبة، بل إلينا، وعلى وجهه تكشيرة غبية..

- كنتُ أعلم أنها أنتِ!

قالت سام:

- نحن لا نعرفكَ يا رجل!

- لكنني أعرفكما.. «كوينسي كاربنتر» و«سامنثا بويد»، «الناجيات الأخيرات»

دسَّ الرجل يده في جيبه، وأخرجَ قلمًا صغيرًا معلقًا في سلسلة مفاتيحه، ثم فتحه وناولني إياه قائلًا:

- سيشرفني أن أنال توقيعكِ..

ثم قدَّم صحيفته.. كانت صحيفة شعبية، عندما بسطَ غلافها أمامي، واجهني وجهي يحدق بي! قال الرجل فخورًا بنفسه:

- أترين؟!

ترنَّحت متراجعة، ثم تهاويتِ على الأرض، وشعرت بالرصيف صلبًا صلدًا أسفل قدميَّ.. نظرة أخرى إلى الصحيفة، أكدت ما كنتُ أعرفه بالفعل..

بطريقة ما، أصبحتُ أنا و«سام» من أخبار الصفحة الأولى.

الفصل 12

كانت صورتنا تحتل أغلب الصفحة الأولى، تملؤها كلها حتى العنوان الرئيسي. تُظهرني الصورة أنا و«سام» خلال أول مقابلة لنا، أمام بنايتي، ونحن نتفحص بعضنا بعضاً. التُقطت الصورة لي في أسوأ حال ممكن، متكئة على ساقي اليمنى، وفخذي بارز، عاقدة ذراعي بتشكك، في حين تقف «سام» بعيدًا قليلًا عن الكاميرا، فقط جانب وجهها الشاحب واضح، وحقيبتها ملقاة عند قدميّ، وفمها مفتوح كأنها تتثاءب بينما تتكلم. أذكر تلك اللحظة بدقة، كانت بالضبط قبل أن تقول «سام»: «لا حاجة بك أن تكوني بهذه الوضاعة»

وخُطَّ العنوان أسفل الصورة بلون أحمر سميك. «الناجيات الوحيدات».

أسفل ذلك صورة لـ «ليزا ميلنر»، مشابهة لصورتها على غلاف كتابها، وبجوارها عنوان آخر بحجم أصغر، لكن له نفس الصخب:

«صامدتا الروح تلتقيان، بعد انتحار ناجية المذبحة «ليزا ميلنر»»

نظرتُ إلى العنوان مرة أخرى، كانت نفس الصحيفة التي يعمل بها الصحفي الذي تسكَّع أمام مبناي البارحة. قفزَ اسمه إلى رأسي مباشرة: «چوناه تومبسون».. ذلك المخادع اللعين، مؤكد كان ينتظر هناك، يتلصص علينا منكمشًا في المقعد الأمامي لسيارة مركونة، وكاميرته مصوَّبة نحو المدخل.

خطفتُ الجريدة من يد فتى التوقيع، وبدأت بالمشي بعيدًا، فصاح بي:

- هاي!

ظللتُ أمشي وأنا أتعثر، في «فيفث آفنيو»، رغم أنَّ ساقيَّ كانتا تتهاديان من أثر الزاناكس، وعضلاتي تئن طلبًا لقرص آخر.. يليه قرص آخر وآخر، أيّ كَمٍّ كفيل بأن يدفعني إلى

حالة من النسيان لعدة أيام، والتي لن تكفي لامتصاص غضبي الآن.

بدأت بتصفح الجريدة بينما أمشي، بداخلها صورة أكبر لـ «ليزا»، وعدد من اللقطات توضح اللقاء الأول بيني وبين «سام»، كلهم من نفس الزاوية. أبدو أقل غضباً بقليل في تلك المجموعة، وضعيتي وتعبير وجهي أقل حدة. أما بالنسبة للمقال ذاته، فلم أستطع حتى قراءة أول فقرتين.

- ماذا يقول؟

سألت «سام» بينما تسرع الخطى كي تلحق بي.

- إنَّ كلينا في المدينة، وأنَّ موت «ليزا» المفاجئ هو ما جمعنا.

- حسنًا. هذا - نوعًا ما- حقيقي.

- وهو شأن لا يخص أحدًا البتة سوانا.. وهذا ما سأخبر به «جوناه تومبسون».

تصفحت الجريدة بسرعة، حتى عثرت على عنوانِ غرفة الأخبار.. غرب شارع 47، علىٍ بعد مربعين سكنيَين إلى الجنوب، ومربع إلى الغرب. مددت الخطى يدفعني الغضب.. كنت قد تحركت خطوتين، قبل أن أدرك أن «سام» لم تتحرك. كانت قد توقفت جانبًا تقضم أظافرها، تتابعني بينما أتراجع.

- لنذهب!

هزت «سام» رأسها..

- - لم لا؟

- لأنها ليست فكرة طيبة.

- تقول ذلك المرأة التي شجعتني على سرقة المتجر منذ قليل!

أدارَ المارة رؤوسهم نحوي، لكنني لم أُعرهم أي اهتمام..

- ما زلتُ ذاهبة.

- أيًا كان الأمر، فسيكسر أغلالكِ يا فتاتي.

- أحقًا لستِ غاضبة من هذا؟!

- بلى، أنا غاضبة.

- إذًا علينا فعل شيء بهذا الشأن!

- لن يصنع هذا فارقًا، سنظل على الصفحة الرئيسية.

التفتت رؤوس أكثرِ نحونا.. عبستُ في وجوه من التقت نظراتي بهم، ثم عبستُ في وجه «سام»، غاضبة من عدم غضبها. أردت أن أرى «سام» التي كانت معي منذ ساعة ترجوني أن أحتضن غضبي وسخطي، لكنها تحولت إلى كائنٍ رخوٍ، بنفس الزاناكس الذي يحك جدار أعصابي الآن. قلتُ لها ساخطة:

- سأذهب أنا.

- لا تذهبي..

بدأتُ بالمشي ثانية، والغضب يدفعني إلى الأمام، ومن أعلى كتفي هتفت لها بصوت ممطوط:

- أنـــا.. ذاهـبــــــة.

- «كوين»... انتظري!

لكنها تأخرت في هتافها، فقد وصلتُ إلى نهاية المربع السكني، وبينما أعبر الطريق، أظنني سمعت «سام» تهتف ورائي وصوتها يذوب في صخب المدينة. ظللت أمشي والجريدة في قبضتي، رافضة أن أتوقف حتى أواجه «جوناه لومبسون».

لم تكن هناك إمكانية لتجاهل مكتب الأمن في الردهة.. خطوات قليلة من صف انتظار المصاعد، يمكنني الركض فجأة إلى أحد المصاعد، لكن الحارس الواقف هنا أطول وأعرض مني، سيتمكن من عبور الردهة كلها في خطوة، ليمنعني من الصعود.

لذا فقد اتجهت إليه مباشرة والصحيفة مكوَّرة في يدي، وأعلمته:

- أنا هنا لمقابلة «جوناه تومبسون».

- الاسم؟

- «كوينسي كاربنتر».

- هل ينتظر قدومك؟

- كلا، لكني أعلم أنه سيرغب بمقابلتي.

تفقَّد الحارس الدليل، وأجرى مكالمة، وأخبرني أن أنتظر عند الجدارية الواقعة أمام المصعد، لوحة ضخمة من طراز «آرت ديكو»، ناطحات سحاب مانهاتن ملونة بألوان مكتومة. كنت ما زلتُ أتفحصها، عندما طرقَ الصوت مسامعي.

- «كوينسي»، هل غيرتِ رأيك بشأن إجراء مقابلة؟

درتُ إليه، ومجرد رؤيته جعلت الدم يغلي في عروقي.. كان يرتدي قميصًا ذا مربعات، وربطة عنق نحيلة شائعة الشكل، في أناقة مبتذلة، ومعه ملف ضخم يقبع تحت إبطه، غالبًا قاذورات سيقذف بها ضحاياه المقبلين.

- بل لأسمع اعتذاركَ أيها الحقير.

- لقد رأيتِ الصحيفة.

- والآن كل المدينة تعرف أين أسكن!

قلتها وأنا ألوِح بالجريدة في وجهه، فطرفَ بعينه وراء نظارتيه السميكتين، متسليًا أكثر منه حذرًا.

- لا المقال ولا الصور أوضحت محل سكنكِ، لقد تأكدتُ من هذا بنفسي، لم أذكر حتى اسم الشارع.

- لا، لكنكَ أظهرتنا وبيَّنت وجوهنا، والآن يمكن لكل العالم أن يبحث عن أسمائنا على جوجل، ويرى كيف نبدو «سامنثا بويد» وأنا. بما يعني أن أي مختل يمكن أن يلاحقنا.

أخذهُ هذا الأمر على حين غرة، وشحب وجهه قليلًا، بما دعمَ ظنِّي.

- لم أقصد أن.....

- بالطبع لم تفكر في هذا، كل ما فكرتَ به هو أرقام التوزيع، وأي علاوة ستجنيها، وعدد عروض العمل من مجلة «تايمز»

- هذا ليس سبب....

قاطعتهُ ثانية:

- يمكنني ملاحقتكَ قضائيًا، أنا و«سام» يحق لنا ذلك، لذا عليك أن تصلي ألّا يحدث لنا مكروه.

ابتلعَ «چوناه» ريقه بصعوبة..

- إذًا فقد جئتِ هنا لتبلغيني أنكِ ستقاضين الجريدة؟

- بل لأحذركَ أن أبواب جهنم ستفتح على مصراعيها، لو رأيتُ مقالًا آخر عني وعن «سامنثا بويد». ما جرى لنا كان منذ سنوات مضت، دعه يمضي!

- هناك ما يجب أن تعلميه بخصوص هذا المقال..

- احشرهُ كما اللبوس!

بدأتُ بالتحرك لأبتعد، لكنه جذب ذراعي بقوة أدارتني نحوه.

- لا تلمسني!

«چوناه» كان أقوى مما يبدو عليه، وقبضته شديدة إلى درجة مقلقة. حاولتُ التملص منه، لاوية ذراعي، فآلمني مرفقي.

- فقط أصغي إليّ.. إنه عن «سامنثا بويد»، إنها تكذب عليكِ..

- اتركني!

دفعتهُ عني، دفعةً أقسى مما انتويت، قوية بما يكفي لأجذب انتباه حارس الأمن، الذي صاح بي «آنسة، عليك الرحيل فورًا»، كأنني لا أعرف ذلك.. كأنني لا أعرف أني كلما ظللت في حضرة «چوناه» كلما زاد غضبي.. غضب يتزايد إلى

درجة أنه ما إن تحرك «چوناه» تجاهي ثانية، حتى دفعتهُ ثانية، هذه المرة تعمدت أن أجعلها أقوى من سالفتها.

تراجعَ إلى الوراء بقوة، وسقط منه الملف بغلافين مفتوحين كجناحي طائر، وتساقطت محتوياته أرضًا. دزّينات من قصاصات الصحف افترشت الأرض، وكلها تنويعات لنفس محتوى القصة..

«كوخ الصنوبر»!.. «المذبحة».. «ناجية».. «قاتل»..

مع صور ضعيفة الوضوح صاحبت غالبية المقالات، لشخص آخر.. لم يكن لهذا معنى، نسخ منسوخة من نسخ، باهتة ملطخة كأنها بقع اختبار «رورشاخ». أنا فقط من أراها على حقيقتها، لقطات خارجية لـ «كوخ الصنوبر»، قبل وبعد المذبحة. صورة كتّاب الدفعة لـ «چينيل»، «كريج»، ثم صورة لي.. نفس الصورة التي زينت غلاف مجلة «بيبول»، على غير رغبتي.

و«هو» أيضًا هناك.. صورته في إطار مختلف، بجوار صورتي!

لم أرَ هذا الوجه منذ عشر سنوات.. منذ تلك الليلة. أغلقتُ عينيَّ، لكن متأخرًا جدًا، تلك اللمحة الخاطفة أطلقت داخلي عنان شيء ما.. شيء قريب من مكان طعناته. خرج صوت كالنعيق المختنق من حنجرتي، تبعتهُ قعقعة متعبة، بينما يندفع هذا الشيء من داخلي، أسودُ سميكاً مكبوتاً.

حذَّرته:

- سأتقيأ

وقد كان.. أخرجتُ كل ما بي، حتى أغرقتُ كل مقال غطى الأرضية.

كوخ الصنوبر

6:18 مساءً

وقفت «كوينسي» و«چينيل» في مطبخ الكوخ، يفصلهما عن البقية في غرفة المعيشة ارتفاع سطح المطبخ بمقدار الخصر. كان مقترح «چينيل» أن تعد كل منهما صنفًا للعشاء. مفاجأة، نظرًا لأن أقصى ما رأته منها «كوينسي» في فن الطهو كان شعيرية الراميون سريعة التحضير.

- ربما علينا شواء بعض السجق، نحن ذاهبون للتخييم على أي حال.

كانت «كوينسي» قد اقترحت ذلك عندما كانوا يخططون للرحلة، فصاحت «چينيل» مستنكرة، بصوت ملأته الإهانة.

- سجق؟!.. ليس في عيد ميلادي!

وعليه، ها هما، تقفان تتخبطان مع «إيمي»، و«بيتز» التي أُسنِد إليها الطبق الرئيسي من دجاج مشوي، وأطباق جانبية أخرى. أما «كوينسي» فقد كُلفت بالكعكة، ولهذا حملت حقيبة كاملة مليئة بأدوات الخَبز، للاستخدام لهذه المناسبة: صينية خبز، كل المكونات اللازمة، وكيس كريمة مع أشكال مختلفة لأقماع التزيين. نعم، والدة «چينيل» وزوجها دفعا إيجار الكوخ، لكن «كوينسي» كانت عاقدة العزم على دفع ضيافتها بكعكة ملائمة.

«چينيل» تكفلت بمهمة سهلة: الساقية. وبينما «بيتز» و«إيمي» تعافران الدجاج، و«كوينسي» تزيّن الكعكة، بدأت «چينيل» تُخرج مجموعة من الزجاجات، أنواعًا رخيصة كبيرة الحجم، لتخلط في دوارق بلاستيكية، ومنها توضع في أكواب ورقية للاستخدام الواحد، والتي أحضرت منها «چينيل» كمًا ضخمًا.

همست كوينسي.

- إلى متى تَدعين «چو» يبقى هنا؟

همست «چينيل» مجيبة:

- إلى ما شاء.

- تقصدين.. طوال الليلة؟ أأنتِ جادة؟!

- بالطبع. لقد تأخر الوقت، وهناك العديد من الغرف. ربما يكون هذا مَرِحًا.

امتعضت «كوينسي»، وكذلك بقيتهنّ، بطريقتهنِ الصامتة الخاصة. حتى «چو»، بصوته الممطوط وبنظارتيه المغبرتين لم يبدُ مرتاحًا للفكرة.

- ألم يخطر ببالكِ أن «چو» ربما يرغب في العودة إلى منزله؟

سألتها «كوينسي»، ثم وجهت إليه حديثها:

- أليس كذلك يا «چو»؟

جلسَ ضيفهم غير المتوقع على الأريكة المهترئة، يراقب «كريج» و«ردوني» راكعين يتجادلان حول أفضل طريقة لإشعال المدفأة الضخمة. وما إن أدركَ أن هناك من يحدثه، حتى ردَّ مرتبكًا:

- لا أرغب أن أكون ضيفًا ثقيلًا

أكدت له «چينيل»:

- لست ثقيلًا. ما لم تكن بحاجة لأن تهرع إلى مكان ما الآن.

- لست متعجلًا.

- أنت جائع، أليس كذلك؟

هز «چو» كتفيه..

- أظنني كذلك

- لدينا طعام وفير، ولدينا أريكة للمبيت، بل وفراش إضافي.

تدخلت كوينسي:

- ولدينا أيضًا سيارة، وبها هواتفنا. ويمكن لـ «كريج» أن

يتصل بونش إنقاذ ليأخذ سيارتك أو يقودك حيثما شئت. تعرف.. مثل مكان سيارتك. أو منزلك.

- الأمر الذي سيستغرق ساعات، إضافة إلى أن «چو» ربما يود الانضمام إلى الحفل.

قالتها «چينيل» ناظرة إليه، آملة أن يدعم فكرتها. أضافت:

- بما أن جميعنا أصدقاء هنا الآن.

ردت كوينسي:

- فعليًا، هو ما زال غريبًا.

رمقتها «چينيل» بنظرة ساخطة، نفس النظرة التي ترمقها بها دومًا، في كل مرة تتصرف «كوينسي» بمنطق «الطيبة-اللطيفة». «كوينسي» رأت مثل هذه النظرة قبل أول مرة تحتسي فيها الجعة، وأول نفس سحبته من سيجارة مخدرة، وفي المرتين كانت «چينيل» قد استعملت قوة إرادتها الكاسحة عليها لتقنعها أن تقوم بما لا ترغب. والآن، رغم أن غضبها كان مضخمًا بحكم الموقف، إلا أن كل شيء، من عطلة نهاية الأسبوع: الكوخ، عيد ميلادها، غياب الرقابة من أي نوع، كل هذا جعلها مهووسة قليلًا.

- نحن هنا لنمرح، أليس كذلك؟

قالت وقد حملت نبرتها شيئاً من الاتهام، كأنها تشك أنها الوحيدة التي أتت هنا بنيّة قضاء وقت طيب..

- لذا دعونا نحظى بالمرح.

بدا أن هذا ما تقرَّر عليه الوضع، «چو» سيظل هنا طالما شاء، لقد نالت فتاة عيد الميلاد أمنيتها ثانية.

سألت «چينيل» «چو»، بعد أن أتمَّت إعداد الشراب:

- أي سمٍّ تختار لتشرب؟

طرفَ بعينه نحو الزجاجات مرتبكًا، مستغربًا الأنواع..

- أنا.. أنا حقًا لا أشرب!

قالت «چينيل»:

- حقًا!.. لا تشرب بالمرة؟

ردَّ عابسًا:

- نعم.. أعني لا.

- حسنًا، أيهما؟

- ربما لا يرغب بالشرب.

قالت «كوينسي»، ومرة أخرى صوت العقل، الملاك الرابض على أكتاف «چينيل»:

- ربما هو مثلي.. يفضل «چو» أن يحتفظ بقدرته على التحكم بملكاته العقلية

- أنتِ لا تشربين لأنك شخصية عقيمة، ومامي ودادي سيشعران بالغضب إن علما بذلك.

قالت «چينيل» موجهة إليها حديثها، ثم أردفت:

- لكن جو ليس هكذا، أليس كذلك؟

قال «چو»:

- الأمر هو.. أنني لم أجرب الشراب أبدًا.

- ولا حتى مع أصدقائك؟!

تلعثمَ «چو»، محاولًا أن يأتي بإجابة، لكنه تأخر جدًا، فصاحت «چينيل»:

- ماذا؟ أليس لديك أي أصدقاء أيضًا؟

قال «چو» بنبرة متشككة:

- لدي أصدقاء.

سألته «چينيل» مغيظة إياه:

- صديقة حميمة؟

- ربما.. أنا.. أنا لا أعلم ما هي بالضبط.

وخلفَ «كوينسي» مالت «بيتز» عليها هامسة:

- صديقة خيالية، كما أظن.

رمقتها «چينيل» بنظرة ساخطة، قبل أن تلتفت إلى «چو» قائلة:

- إذًا فستصبح لديك قصة مميزة ترويها لها عندما تقابلها المرة القادمة.

بدأت بصب الشراب، ساكبة الكحول من زجاجات متنوعة في كوب، ثم أكملته بعصير برتقال، واتجهت بالكوب إلى «چو»، مجبرة أصابعه على الإمساك بالبلاستيك الأحمر.

- اشربه..

مالَ «چو» بوجهه على الكوب بدلًا من أن يرفعه إليه، وغطسَ أنفه كمنقار طائر في الرغاوي، فخرج منه السعال داخل الكوب. ارتشفَ أول رشفة له، وعندما رفع رأسه ليستنشق بعض الهواء، بدت عيناه متسعتين بتعبير أحمق..

- لا بأس!

ردت «چينيل»:

- لا بأس!.. لقد أعجبكَ جدًّا!

لعقَ «چو» شفتيه مجيبًا:

- إنَّ سكَّره زائد جدًا.

- يمكنني تعديله.

قالتها «چينيل» وهي تنتزع الكوب من يده بنفس سرعة وضعها إياه في يده، ثم عادت إلى البار لتلتقط ليمونة وتبدأ البحث في ساحة عملها.

- ألدى أحدكم سكين؟

رأت واحدة على سطح المطبخ، سكينًا منحنية مجهزة لتقطيع

الدجاج الذي تعدُّه «بيتز» و«إيمي»، التقطتها ودفعتها في الليمونة مخترقة القشر ومن بعدهما إصبعها.

- اللعنة!

في البداية، ظنت «كوينسي» أنها مبالغة درامية منها أمام «چو»، لتعرض أمامه ما كانوا يسمونه سرًا «مسلسل «چينيل»».

لكنها لاحظت الدماء المتدفقة من إصبع «چينيل»، والتي أغرقت المنديل الورقي الذي لفَّته حوله، وقطرات على سطح المطبخ، قطرات في حجم بتلات الورد.

- أنَّت «چينيل» وامتلأت عيناها بالدموع.. «اوف، أوه، آي!»

هدَّأت «كوينسي» من روعها بهمهمات طيبة، وهي تقوم بدورها كرفيقة سكن، في احتواء الموقف..

- لا بأس، سيكون بخير، ارفعي يدك واضغطي عليه.

حامت في أنحاء المطبخ باحثة عن الإسعافات الأولية، بينما تتقافز «چينيل» من قدم إلى أخرى، جافلةً من مشهد هذا الكم من الدماء، وصاحت تستحثها: «بسرعة»،

أخيرًا عثرت «كوينسي» على علبة معدنية بها بضع ضمادات أسفل المغسلة، نوع قديم مع غطاء مفصلي، قديمة إلى درجة أنها لا تذكر رؤية مثيل لها في منزلها. سحبت منها أكبر ضمادة، ولفّتها حول إصبع «چينيل»، متوسلةً إليها أن تثبت دون حركة.

- تمت المهمة بنجاح.

قالت «كوينسي» وهي تتراجع إلى الوراء رافعةً يدها.

- أنتِ بخير، كأنك جديدة تمامًا.

جذبت هذه الدراما «چو» من مجلسه على الأريكة، وحام حولهم يراقب «چينيل» وهي تفحص إصبعها المضمد، وخفض بصره يرمق السكين الملطخة بالدماء على سطح المطبخ.

- تبدو حادة جدًّا!!

قال وهو يرفع السكين في يده، ويضع أنملة سبابته على سن السكين، ويكمل:

- عليكِ أن تكوني أكثر حذرًا!!

ثم حدَّق في «چينيل» و«كوينسي»، كأنه ينتظر تأكيدًا على أنهما ستقتديان بكلماته. تجمعت خيوط من السائل على شفته السفلى.. بقايا أول شراب احتساه، مسحها بظهر يده القابضة على السكين، ولعقَ شفتيه.

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook

الفصل 13

عاد بي «چيف» بعد نصف ساعة تقريبًا، بعد أن استدعاه «چوناه تومبسون»، وقد أتى برقمه من قائمة هاتفي، الذي ناولته إياه عندما سألني عن اسم جهة الطوارئ الخاصة بي، فور أن تقيأتُ على حذائه. عند وصوله، كنت في حمام السيدات منحنية على المرحاض، رغم أن معدتي منكمشة من الجفاف، وخاوية كزجاجة فارغة. أوعزَ «چوناه» إلى إحدى زميلاته أن تستدعيني من كابينة المرحاض، فتاة صغيرة كالعصفور تدعى «إيميلي»، نادتني بتوتر عبر الباب، كأنني حاملة لعدوى ما.. كأنني شخص تخشاه!

في الشقة، وضعني «چيف» في الفراش، رغم اعتراضاتي بأنني بخير، لكن يبدو أنني كنتِ كاذبة، فقد غرقت في النوم ما أن لمسَ رأسي الوسادة.. نمتُ بلا حراك لبقية الظهيرة، بلا وعي يذكر لوجود «چيف» و«سام»، كانا يظهران في غرفة النوم كل فترة ليتفقداني، حتى استيقظت عند العصر، متيقّظة تمامًا وأتضور جوعًا. دخلَ «چيف» ومعه صينية طعام، تحمل شعيرية دجاج غير صالحة للأكل، شرائح خبز، وجعة الزنجبيل.

- ليست عدوى الإنفلونزا، كما تعلم!

- أنتِ لست متأكدة من ذلك، يبدو أنك كنت مريضة للغاية.

مريضة من قلة النوم، الخمر، وأقراص الزاناكس العديدة. و«هو»، بالطبع.. رؤية صورته.

- مؤكد أنه شيء ما أكلته. أنا بحال أفضل الآن.. حقًا، أنا بخير.

- إذًا فأنا واثق أنكِ ستسعدين بمعرفة أن والدتك قد اتصلت.

زمجرتُ، فأردفَ «چيف»:

- لقد قالت إن الجيران يسألون لماذا صورتكِ منشورة على

الصفحة الأولى من الجرائد.

- جريدة واحدة.

- هي ترغب بتعليق تخبرهم به.

- بالطبع هذا ما ترغب به!

شقَّ «چيف» مثلثًا من شرائح الخبز، وأخذ قضمة، ثم أعادهُ إلى الصينية. وبينما يمضغ قال:

- لن يضرَّك أن تتصلي بها.

- وأدعُها تقلل من شأني بأنني لست مثالية؟... أظنني سأتغاضى عن الاتصال بها.

- إنها قلقة عليكِ يا حبي. الأيام الماضية كانت حافلة بالأحداث، كونكِ على صفحات تلك الجريدة، أنا و«سام» قلقان حول كيفية تعاملكِ مع الأمر ككل.

- أيعني هذا أنكما بالفعل تبادلتما الحديث؟

- لقد فعلنا.

- بتحضُّر؟

- بقدر وفير.

- لقد فاجأتَني.. فيما تحدثتما أنتما الاثنان؟

مدَّ «چيف» يده إلى الخبز ثانية، إلا أنني صفعتها وأنا أُبعده، لكن بدلًا من أن يبتعد، ركلَ فردتيّ حذائه، وتقوقعَ في الفراش متكئًا على جانبه، مقتربًا مني، وجسده يضغط بكامل طوله عليّ.

- عنكِ.. وعن كونها فكرة طيبة أن تبقى «سام» لأسبوع.

- واوا.. من أنتَ، وماذا فعلتَ بـ «چيفرسون ريتشاردز» الحقيقي؟

- أنا جاد، لقد أمضيتُ طوال اليوم أفكر فيما قلتُ ليلة أمس، وأنتِ على حق. لقد جانبني الصواب في الطريقة التي

أسقطتُ بها التهم عن «سام»، كانت تستحق دفاعًا أفضل من ذلك، وأنا آسف.

ناولتُ «چيف» المزيد من الخبز..

- اعتذار مقبول.

قال من بين أسنانه وهو يقضم الخبز:

- إضافة إلى ذلك، تلك القضية عن مقتل الشرطي ستبدأ باستهلاك المزيد من وقتي، ولا تروقني فكرة تركك وحيدة في المنزل أغلب اليوم.. خاصة بعد أن انتشرت تلك الصورة في أنحاء المدينة.

- لذا فأنتَ تقترح أن تكون «سام» جليسة الأطفال الخاصة بي؟

- مُرافقتكِ. وفي الواقع، هي من اقترحت ذلك. لقد ذكرت أنكما قمتُما ببعض الخبز سويًا البارحة. ربما هي فكرة طيبة أن تنالي بعض المساعدة أثناء موسم الخَبز. كنتِ دومًا تقولين إنك ترغبين بوجود مساعد.

سألته بشك:

- أأنتَ واثق من هذا؟ هذا أكثر مما بمقدورك تداوله!

مالَ «چيف» برأسه متمعنًا..

- تبدينَ متشككة!

- بل أظن أنها فكرة عظيمة، فقط لا أريدها أن تؤثر عليك.. أو علينا.

- اسمعي، سأكون واضحًا وصريحًا، وأعترفُ أنني و«سام» غالبًا لن نصبح أصدقاء بالمرة. لكنْ بين كلتيكما رابطٌ، أو ما يمكن أن يكون رابطًا. أعرف أننا لا نتحدث كثيرًا عما جرى لكِ...

قاطعته:

- لأنه لا حاجة بنا لذلك.

- أوافقكِ الرأي. تقولين إنك لن تتجاوزي ما حدث، لكنك تجاوزتِه بالفعل. لم تعودي تلك الفتاة ثانية، أنت «كوينسي كاربنتر»، آلهة الخبز.

- أيًا كان.

قلتُ بلا مبالاة، رغم أن الوصف أسعدني سرًا.

- لكن ربما أنتِ بحاجة إلى نظام دعم، لتتواءمي مع الوضع. شخص آخر غير «كووب». لو أن «سام» هي من أنتِ بحاجة إليه، فلن أقف في طريق صداقتكما.

هنا أدركتُ، وليس لأول مرة، كم أنا محظوظة أن قابلت «چيف». لا يمكنني إلا التفكير بأنه الفارق بيني وبين «سام»، فبدونه كنتُ لأصبح مثلها، جامحة، غاضبة، وحيدة.. عاصفة لا تصل إلى ساحل، بل تهدر دون اتجاه. قلتُ وأنا أزيح الصينية بعيدًا وألقي بنفسي عليه:

- أنت رائع!

اهتزَّ هاتفي على منضدة الفراش، فحاولت تجاهله، مفكرة أنه غالبًا صحفي ما. أو أسوأ، أمي. لكن الهاتف استمرّ بالطنين جوار المصباح، فتفقَّدت اسم المتصل.

- إنه «كووب».

زفرَ «چيف»، وقد خمدت رغبته..

- ألا يمكنه الانتظار؟!

لا يمكن. «كووب» اتصل بي البارحة عصرًا، بعد رسالتي التي تظاهرتُ فيها أنني بخير. وقتها كنت مشغولة جدًا عن أن أجيبه، كنتُ أعدّ العشاء بينما تحوم «سام» من حولي، فلو تجاهلت اتصاله الآن، مؤكد أنه سيقلق.

- ليس وصورتي ما تزال على الصفحة الأولى.

قفزتُ من الفراش وهاتفي يطن في يدي، وهرعتُ إلى الحمام

الرئيسي وأغلقت الباب خلفي.

- لِمَ لم تُبلغيني أن «سامنثا بويد» تواصلت معك؟

قال «كووب» على سبيل التحية!

- كيف علمت؟

- تلقيتُ إشعار جوجل

كانت إجابة غير متوقعة، إلى حد أنه لو قال إنَّ الفضائيين أبلغوه لما تفاجأت.

- رغم أنني كنتُ أفضل أن أسمع بالأمر منكِ.

- كنت على وشك الاتصال بكَ.

وهذا حقيقي، فقد نويتُ ذلك بعد أن أنتهي من مواجهة «چوناه».

- «سام» ظهرت أمام بابي البارحة.. بعد موت «ليزا»، هي فكرت أنها فكرة حسنة إن تقابلنا.

كان بإمكاني إبلاغ «كووب» بما هو أكثر من ذلك بالطبع.. كيف غيرت «سام» اسمها منذ سنوات، وكيف تحدَّتني لجرعة أعلى من الزاناكس، وكيف تهيأته لحظة أن وقع بصري على صورة «هو»!

- أهي ما زالت عندك؟

- نعم. ستقيم معنا.

- إلى متى؟

- لا أعرف. حتى تقرر بعض الأمور.

- أحقًا تظنين أن هذه فكرة جيدة؟

- لِمَ؟ أأنتَ قلق بشأني؟

- أنا دائمًا قلق بشأنك يا «كوينسي»

صمتُّ ساهمة وعاجزة عن الرد.. لم يكن «كووب» بمثل هذه

الصراحة من قبل، ولا أدري إن كان هذا تغيرًا إلى الأفضل أم إلى الأسوأ. في كلتا الحالتين، من اللطيف أن أسمعه يعترف بأنه يهتم، مؤكد أن هذا يحمل مشاعر أكثر دفئًا من إيماءة. أخيرًا تمكنتُ من النطق:

- اعترف.. عندما رأيتَ إشعار جوجل، كدتَ أن تأتي بسيارتك، حتى تتفقَّدني.

- لقد وصلت إلى نهاية ممر الخروج من المدينة، قبل أن أوقف نفسي.

لم أشك فيما قال، فإنَّ فيه ذلك النوع من التفاني الذي أشعرني بالأمان طوال تلك السنوات.

- وما الذي غيَّر رأيك؟

- ثقتي أنك يمكنك العناية بنفسك.

- هذا سمعته مرارًا.

- لكني ما زلت قلقًا من ظهور «سامنثا بويد» من مخبئها. عليكِ الاعتراف أن هذا مرَّ بك.

- الآن أنتَ تتحدث تمامًا كـ «چيف»

- كيف تبدو؟ هل هي...

أول ما خطر ببالي، هو نفس التعبير الذي ذكرهُ «سام» صباحًا: «بضاعة معطوبة» بدلًا من ذلك قلت:

- عادية؟ بالنظر لما مرت به، فهي طبيعية كأي شخص آخر.

- لكن ليست عادية مثلكِ.

استشعرت ابتسامة تغلّف كلماته، تخيلتُ عينيه الزرقاوين تلمعان، الأمر الذي يحدث نادرًا عندما يرخي دفاعاته.

- كلا البتة.. أنا ملكة العادي.

- حسنًا.. «كوينسي كاربنتر»، ما رأيكِ أن آتي إلى المدينة وأقابل «سامنثا»؟ أريد أن أكوّن رأيًا عنها.

- لِمَ؟

- لأني لا أثق بها.

استطردَ مرققًا نبرته، كأنه يعرف أنه يبدو مشدودًا جدًا:

- ليس حتى أقابلها بنفسي، أريد التأكد أنها ليست بصدد ما يضر.

- هي ليست كذلك. «چيف» استنزفَها أسئلةً بالفعل.

- لكني لم أستنزفها بعد.

- أكره أن أسحبكَ إلى موقف كهذا.

- لن تفعلي. اليوم إجازة، والجو لطيف، الأوراق تتساقط في «بوكونوس»، بما يجعلها قيادة ممتعة

- فليكن إذًا، ما رأيك بالظهيرة؟

- تمام.

رغم أننا في محادثة هاتفية، إلا أنني أعلم أن «كووب» أومأ برأسه. يمكنني أن أستشعر ذلك.

- المكان المعتاد؟

- ميعاد مؤكد إذًا.

بدا صوت «كووب» جادًا ثانية، بصوت مبحوح خفيض قال:

- فقط فضلًا الزمي جانب الحذر حتى ذلك الحين. أعلم أنك تعتقدين أنني قلق زيادةً، لكني لست كذلك. هي غريبة يا «كوينسي». فتاة خبرت كمًّا مهولًا من المصائب، ونحن لا نعلم إن كان هذا قد أفسد حياتها، ولا نعلم ما يمكنها اقترافه.

جلستُ على حافة المرحاض وركبتاي مضمومتان سويًا، وأنا أشعر بالقشعريرة لجأة، وصوت «چوناه تومبسون» يرن في أفكاري: «إنه بخصوص «سامنثا بويد»، إنها تكذب عليك».. يا له من حقير وضيع!

- لا تقلق. أظن أنك ستحبها.

تبادلنا تحية الوداع، وأنهى «كووب» المكالمة بدعوته المعتادة أن أتصل أو أراسله إن احتجت أي شيء. وعلى الحوض، نثرتُ بعض الماء على وجهي، وتغرغرت بغسول للفم. وعند خروجي من الحمام، وجدتُ «چيف» قد سئم الانتظار وهو متعب، وغرق في النوم سريعًا.

منتصف الليل، بعقل مرهق وبجسد نشط، فكل هذه القيلولة في الظهيرة جعلتني أفيض بالطاقة، أتقلب تحت الأغطية، أشعر بالحر تحتها وبالبرودة خارجها. لا يشعر «چيف» بنفس المشكلة، حيث يتصاعد شخيره الهادئ بجواري، غارقًا في ملكوته. بدلًا من أن أظل في الفراش، نهضتُ وبدلت ملابسي إلى جينز وقميص وسترة مفتوحة. اليسير من خبزٍ ليلي متأخرٍ هو ما أحتاجه. وصفة لقيمات التفاح التقليدية، الوصفة التاليةَ في قائمة «حلوى كوينسي»، والتي تأخرت ليوم إضافي.

لم أتجاوز غرفة الضيوف، غرفة «سام» الآن، كما يُفترَض. شعاع من النور يتسلل من أسفل الباب، لذا نقرتُ عليه نقرة خفيفة، فجاءني صوت «سام»:

- إنه مفتوح.

وجدتُها متقوقعة في الركن. دست يدها في عمق حقيبتها، وأخرجت الأقراط من ساكس، وقذفتها على الفراش. رؤيتها هزت ذاكرتي، كنت قد نسيت كل شيء بخصوصها.

- لقد أخرجتُ الأشياء من حقيبتكِ عندما وصلتِ المنزل.. في حال إذا ما فكَّر «چيف» في فتحها.

قلتُ محدقة بوجوم في الأقراط:

- شكرًا.. لا أظنني ما زلتُ أريدها.

ردت «سام» وقد التقطتهما وألقتهما ثانية داخل حقيبتها:

- إذًا سآخذهما، ليس بإمكاننا إعادتهما. كيف حالك الآن؟

- أفضل، لكني لا أستطيع النوم الآن.

- النوم ليس أفضل قدراتي أنا الأخرى.

- أخبرني «چيف» عن حديثكما اليوم، وأنا سعيدة... «نحن» سعداء أن نستضيفك معنا. أقصد، يمكنك الصياح إن أردتِ شيئًا، اعتبريه بيتك.

كانت بالفعل تتصرف هكذا، كتابان على المنضدة بجوار الفراش، أحدهما رواية خيالٍ علمي انثنت أطراف أوراقها، والآخر نسخة ذات غلاف مقوًى من «فن الحرب». رغم أن النافذة مفتوحة، إلا أن هواء الليل لم يمحُ رائحة دخان السجائر العالق في الغرفة، ومنفضة سجائرها الجلدية المحمولة على حافة النافذة.

- آسفة أنْ تركتك لبقية اليوم، أتمنى ألا تكوني قد شعرتِ بالملل.

قالت سام وهي تجلس على حافة الفراش، وتربِّت على الحشية حتى جلست على الطرف الآخر:

- لا بأس.. لقد تمشيت في الأنحاء، وتبادلت أطراف الحديث مع «چيف».

- سأعوضكِ عن هذا غدًا. بما يذكرني أننا سنقابل أحدهم غدًا. اسمه «فرانكلين كوبر».

- الشرطي الذي أنقذكِ؟

تفاجأتُ لمعرفتها به، لقد كانت تتابع أخباري بالفعل!

- نعم. يود مقابلتكِ، وتبادل التحية.

- ويرى إن كنتُ مختلة.. لا تقلقي، أنا متفهمة، يريد أن يتأكد إن كنت أهلًا للثقة.

تنحنحتُ قائلة:

- «بما يعني أنه لا يمكنك ذكر الزاناكس».

- بالطبع.

- أو الـ...

- السرقات البسيطة/ تخفيضات خفة اليد التي أحيانًا تستفيدين منها.

أجبتُها شاعرة بالامتنان أن لا حاجة بي إلى التصريح بهذا بوضوح:

- نعم.. وهذا أيضاً.

- سأبذل قصارى جهدي للتصرف الحسن، حتى إنني لن أطلق أي سباب.

- بعد ذلك، سنتقمَّص دور سائحتين.. مبنى «إمباير ستيت»، مركز «روكفيلر»، أي مكان تودين الذهاب إليه

- سنترال بارك؟

لم أعرف إن كانت تمزح بخصوص ما جرى أول أمس، قلت:

- إن شئتِ.

- لِمَ الانتظار؟ لماذا لا نذهب الآن؟

الآن عرفتُ أنها بالفعل تمزح..

- هذه ليست فكرة حسنة.

- والتقيؤ على ذلك الصحافي كانت فكرة حسنة؟

- لم يكن عن قصد.

- هل قال أي شيء؟

مرة أخرى رنَّ صوت «جوناه تومبسون» الملحوح في رأسي، ومرة أخرى تجاهلته. الأمر الوحيد الذي كذَّبت «سام» بشأنه هو تغييرها لاسمها، وأنا أعرف هذا الآن. «جوناه» هو من كان يكذب، يحاول أن يجعلني أُخرج ما بي له، بخصوص تسميتي «ناجية أخيرة». لقد أخرجت ما بي له بالفعل، لكن

ليس بالطريقة التي توقعها.

- لا شيء هام. لم أذهب هناك لأسمعه، بل لأصرخ في وجهه.

- حسنًا فعلتِ.

خطرت في بالي فكرة أخرى، رقَّ صوتي وأنا أتساءل بشأنها..

- لمَ لم تأتي معي؟ ولماذا لم ترغبي بذهابي من الأساس؟

- لأن عليك أن تختاري معاركك. لقد تعلمتُ منذ دهور أن مناطحة الصحافة لا جدوى منها. سيفوزون في كل مرة. ومع وجود أمثال ذلك الحقير المدعو «جوناه تومبسون»، فلن يزيده هذا سوى إصرارٍ، وغالبًا سنكون على صفحات الجرائد ثانية في الغد.

تصلَّب ظهري خوفًا من الفكرة..

- أنا آسفة لو أن هذا حدث!

- لا بأس. أنا سعيدة أنكِ أخيرًا غضبتِ.

قالت وجذوة تشتعل في عينيها:

- كيف شعرتِ حين مواجهته؟

فكرتُ للحظة، محاولة تفسير ذكرياتي المشوشة. أظن الأمر راقَ لي.. لست أظن، بل راقني بالفعل. شعرت أن الحق إلى جانبي، وأنني مفعمة بالطاقة والقوة، إلى حين لحظة الغثيان التي تغلبت عليّ.

- كان شعورًا رائعًا!

- التعبير عن الغضب دائمًا هكذا، أما زلتِ غاضبة؟

- كلا.

دفعتني «سام» بخفة عبر الفراش..

- كاذبة!

- حسنًا. ما زلت غاضبة.

- هنا السؤال الذي يطرح نفسه، ماذا ستفعلين حيال ذلك؟

- لا شيء. أنت قلتِها بنفسك، لا جدوى من مناطحة الصحافة.

- أنا لا أتحدث عن الصحافة الآن، بل عن الحياة.. العالم. إنه مليء بالتعاسة والظلم، ونساء مثلنا يتألمن بسبب رجال كان عليهم التصرف بشكل أفضل. قلة من النساء يهتممنَ، وأقل منهن منا يغضبن ويتخذن موقفًا.

- لكنكِ واحدة منهن.

- حقيقة لعينة. أتودين الانضمام إليّ؟

حدقتُ عبر الفراش في «سام» وذلك اللهب المشتعل في عينيها، وتصاعدت ضربات قلبي بدقة أو اثنتين، بينما رفرف شيء في صدري، كخفقات أجنحة فراشة تخرج من شرنقتها. إنه التوق، أدركتُ هذا الآن. الشوق لأن أشعر كما شعرت مع «سام» هذا الصباح.. التوق أن أصير متوهجة!

- لا أعرف.. ربما!

التقطت «سام» سترتها وارتدتها على عجل، مغلقةً سحابها بقوة.

- إذًا هيا بنا..

الفصل 14

يمكنني التعامل مع هذا.

هذا ما أخبرتُ به نفسي.

نحن ذاهبتان إلى «سنترال بارك»، ليس إلا بحق الرب، وليس إلى غابة في غياهب المجهول. كان معي رذاذ الفلفل، ومعي «سام»، سنكون بخير.

لكن الشك راودني ما أن خطونا خارجًا. هواء الليل بارد حد الصدمة، فركت ذراعي طلبًا للدفء، بينما تشعل «سام» سيجارة أسفل مظلة المبنى، ثم انطلقنا. خفقَ قلبي بعنف بينما نمر بـ «كولمبوس آفنيو»، و«سام» تسبقني يتبعها خيط الدخان.

عندما وصلنا «سنترال بارك ويست»، زاد توتري. الوضع خاطئ بوضوح، أشعر بهذا في أحشائي، كأن وعي عضوٍ قائم بذاته داخلي، قرمزي لحمي القوام، يلهبه عسر غير مفسر. لا يجب أن نكون هنا، ليس في هذه الساعة.

لقد رغبت أن أتوهج ثانيةً، لكن بدلًا من ذلك أشعر أنني منقبضة، مخلخلة، ضئيلة.

- أظننا ابتعدنا بما يكفي.

ضاعَ صوتي في رياح الليل المثلجة. ليس معنى أن «سام» التفتت نحوي أنها تسمعني. كانت عاقدة العزم مصممة، بينما تعبر كل الشوارع وتنحرف يمينًا متجهة إلى مدخل المتنزه، على بعد مربع سكني جنوبًا. بدأتُ بالجري متبعة نفس المسار الذي أتبعه في رياضتي الصباحية، حتى لحقت بها.

- ماذا سنفعل هنا؟

- سترين.

رمت «سام» سيجارتها، وانحرفت جهة المتنزه. ترددت هنيهة عند العتبة، والأضواء الكاشفة أعلى «سنترال بارك ويست» تلحق بي بضوئها، ملقيةً ظلي على الرصيف. رغبتُ في أن

أستدير وأعود أدراجي؛ بل كدت أن أفعل، استعدَّ جسدي للركض لجأة إلى شقتي والاندساس في فراشي والتعلق بـ «جيف».. لكنني لم أعد أرى «سام»، لقد ابتلعها فم المتنزه المظلم.

- «سام؟».. صحت.. «عودي».

لم يكن هناك أي ردا.. انتظرت آملةً أنها ستظهر عابسة وتقول إن هذا مجرد اختبار آخر من اختباراتها، اختبار آخر رسبت فيه. لكن عندما لم تظهر، تصاعد توتري إلى مستوى آخر. «سام» وحيدة في المتنزه، في قلب الليل الحالك. وِرغم ثقتي أنها قادرة على العناية بنفسها، إلا أنني قلقت. كورت أصابعي حول عبوة رذاذ الفلفل في جيبي، ولعنت غبائي في عدم تناول الزاناكس، ثم أخذت نفسًا عميقًا متقطعًا بتوتر، وخطَوت داخل المتنزه.

«سام» كانت واقفة وراء المدخل مباشرة، لم تكن مفقودة، بل متماهية مع الظلال تنتظر أن ألحق بها. بدا عليها نفاد الصبر أو الضيق، لا يمكنني التحديد بدقة. قالت وهي تجذب ذراعي:

- هيا!

أعرف هذا الجزء من المتنزه جيدًا، فقد جئت هنا آلاف المرات. ملعب «ديانا روس» على يسارنا، بواباته مغلقة بأقفال. وعلى اليمين قوس معبر الخروج من شارع تسعةٍ وسبعين. رغم ذلك، فقد أحال الليل المتنزه إلى مكان محرَّم غير مألوف، بالكاد تعرفّت عليه، يغلفه الضباب الكثيف والمثير للرجفة، يهمس على بشرتي ويحيط المصابيح في الممشى بهالةٍ ما، كاتمًا ضوءها.. حلقات مكتومة من النور تزحف على العشب وتتعثر على الأشجار، جاعلةً منظر الأشجار أكثر تشابكًا وبرِّية.

حاولت ألا أفكر في الغابة المحيطة بـ «كوخ الصنوبر»، رغم أنها كل ما جالَ بفكري، تلك الغابة الكثيفة، التي تخفي في طياتها أخطارًا خفية. بدا كأنني عدت هناك ثانية، مستعدة

لأن أدخل سباق حياتي أو موتي بين الأشجار.

توغلت «سام» أكثر فأكثر في المتنزه، وتبعتُها، رغم كل همهمات القلق في أفكاري.. هذا خطر. خطأ.

ومن بين غشاوة الضباب، رأيت الشكل الخارجي لمسرح «ديلاكورتى»، ووراءه قلعة «بيلفيدر»، مع غابة مصغرة ترتفع من نتوء صخرة، خيالها الضبابي المغبّش أعاد إلى ذهني صورة قلاع القصص الخيالية. قد يتوه أحدهم في مكان كهذا، هكذا فكرت، يمكن أن يضلَّ عن المسار ولا يعود ثانية.

مثل «چينيل».. مثلهم جميعًا.

إلى الآن، «سام» وأنا ما زلنا على المسار بينما اتجهنا جنوبًا، باقيتين على مقربة من حدود المتنزه الغربية. رغم تأخر الساعة، لم نكن وحدنا هناك، رأيت لمحاتٍ من أشخاص آخرين.. ظلالاً متحركة على مسافات، زوجين يعبران المتنزه بسرعة، يحنيان رأسيهما من الضباب، متربِّضاً ليلياً وراءنا ثقيل الأنفاس، وسمعتُ صوتاً خافتاً لموسيقى ينبعث من سماعات أذنيه. مرآهم جعل قلبي يصدح مثل الصاجات.

ثم هناك أولئك الرجال، غبَّش الضباب وجوههم، يجثون في ممشى المتنزه ساعين وراء شهوة محظورة، جنس عابر.

كثيرون منهم يرتدون ملابس متشابهة، كأنما هناك زي موحد يعلن عنهم: سروال رياضي، وحذاء ركض غالٍ، سترة رياضية ذات غطاء رأس، مفتوحة ليظهر تحتها قميص ضيق. كانوا يخرجون من الضباب من كل الاتجاهات، يحومون، يحلقون، بحثًا. لم يعطونا أنا أو «سام» نظرة أخرى، فلم نكن من نوعهم المفضل.

- تجدر بنا العودة.

- اهدئي بالًا.

كان لها نفس الحالة القلقة التي لأطياف العدَّائين، هناك شيء ما يقودها.. جوع، حاجة.. سقطت على أحد المقاعد، وساقها

اليمنى ترجف في حركة مستمرة بينما تتفقد الأفق، وحلّت صلابة قاسية في عينيها محل الجذوة السابقة، نظراتها كانت باردة وسوداء كالفحم. جلستُ بجوارها وقلبي يرتجف، حتى تعجبتُ أنه لا يهز المقعد. دسّت «سام» بين شفتيها سيجارة أخرجتها من جيبها وأشعلتها. لفتت شعلة قدّاحتها نظر أحد المتريّضين.. حشرة ذات ملابس جلدية انجذبت إلى النار. تجمّد جسدي بينما اقترب، وجمدت يداي على عبوة رذاذ الفلفل في جيبي.

ما إن وصلَ إلى مقعدنا، حتى وضحت ملامحه، إنه وسيم ذو قوام رشيق، مع لحية مهذبة بعناية على حافة خط ذقنه، له هالة من الجاذبية الغامضة.

«أهلًا». قال محييًا بصوت خافت معتذر، كأن الحديث محظور. «هل لي بسيجارة»

طاوعته «سام»، وأخرجت من جيبها سيجارة أخرى، وضعتها في راحة يده بسلاسة تاجر مخدرات، وأشعلت قدّاحتها، ليميل الرجل عليها بطرف سيجارته، التي توهجت للحظة قبل أن تستحيل إلى دخان كثيف. أومأ برأسه شاكرًا «سام»، ونفث دخانًا اختلط مع الضباب.

- شكرًا.

- على الرحب والسعة، حظ طيب الليلة.

ردّت «سام»، فابتسم الرجل ابتسامة متكاسلة سمجة، وبدأ بالمشي متمهلًا في ملابسه الجلدية، قائلًا من فوق كتفه:

- الحظ لا شأن له بالفعل يا حلوتي.

ثم ابتعد، اختفى في الضباب الذي ظهر منه.

فكرتُ في «هو»، في غابة أخرى وزمن آخر. لو أنه فقط اختفى مثله، انسحب بعيدًا تاركًا إيانا بحالنا.

- «سام»، أريد العودة إلى المنزل.

- حسناً، اذهبي.

- ألن تعودي معي؟

- كلا.

- ماذا تفعلين هنا؟

أسكتتني فجأة بصوت حازم، وبدا عليها التنبُّه. وقفت ناظرة في نفس الاتجاه الذي جئنا منه، بجسد مشدود على أهبة الاستعداد للانقضاض. تبعتُ اتجاه نظرها، لأرى ما لفتَ انتباهها.. من بين غياهب الضباب، ظهرت امرأة، على بعد مائة ياردة تقريباً، تهرع وحيدة في المتنزه ومعها حقيبة قماشية ثقيلة تضمها إلى صدرها، شابة وجائعة غالباً، تمر بالمتنزه لتوفّر ثمن سيارة أجرة، دون أدنى تفكير في مدى حماقة هذه الفكرة.

من خلفها ظهر رجل من جنح الضباب، قريباً جداً حتى تحسبه ظلها، يخفي ملامحه غطاء رأس سترته، حتى إنه بدا كخيال. كان يتحرك بخطى ثابتة، أسرع من الفتاة، مقترباً منها. ما إن أدركت هذا، حتى أسرعت الخطى موشكة على الركض. قلت وقلبي يخفق كطبلٍ أجوف في صدري:

- «سام»!.. أتظنينه سيسرقها؟ أم...؟

«أسوأ»، هذا ما كنتُ أريد قوله: «أم أسوأ»

لم تُسنح لي فرصة استكمال سؤالي، لأن نصف الرجل، نصف الظل هاجم الفتاة بالفعل، يد تقبض على كتفها والأخرى تمتد، إما إلى حقيبتها القماشية، أو إلى صدرها الكامن وراءها.

انطلقت «سام» فجأة راكضة على طول المسار، وصوت ضربات حذائها طويل العنق يطرق الأرض في العتمة. غريزياً عدوت وراءها، رغم معرفتي المشوشة بما على وشك أن يقع.

ما إن رأت الفتاة «سام»، حتى ارتدت إلى الوراء كأن «سام» ستهاجمها، وصارعت للتملص من قبضة الرجل بساقين مرتعشتين، رافعة حقيبتها القماشية كدرع يحميها أمامه.

مرّت «سام» بها كريح عاصفة قاصدة الرجل، وبدون إبطاء اصطدمت به بعنف.

دفعة الاصطدام أوقعته بعيدًا عن الفتاة أرضًا على العشب، وتقهقرت «سام» متعثرة، في حين استغلت الفتاة الفرصة لتركض بعيدًا في رعب، خائفة من أن تنظر إلى الخلف. قفزتُ أمامها رافعة ذراعيّ، والأدرينالين يضرب في عروقي.

«أصدقاء». قلتُ لها. «نحن أصدقاء»

وراءها بدأ المهاجم بالانسحاب زحفًا على العشب محاولًا الهرب. أسرعت «سام» وراءه، قافزة على ظهره، وبسرعة أجلستُ من كادت تصبح ضحية على أقرب مقعد، آمرةً إياها أن تظل هناك، وانطلقتُ حيث «سام».

بطريقة ما، دفعتُ الرجل أرضًا على ركبتيه، كان يميل كلما ثقلَ وزنها فوق ظهره، حتى وقع على وجهه ليدفن في العشب.

برقَ في ذهني قول «كووب» ليملأ ثنايا عقلي: «نحن لا نعرف ما هي قادرة على فعله»

- «سام»، لا تؤذيه!

ملأ صوتي المتنزّه، محوِّلًا انتباه «سام» لتنظر إليَّ لجزء من ثانية فقط، لكنها كانت كافية للرجل ليبعدها عنه. ركلها بعنف في معدتها، دافعًا إياها لتتدحرج على العشب.

بعدها نهض مندفعًا، مباعدًا بين ساقيه وثانيًا ركبتيه، كأنه عداء عند خط البداية. وفي لحظة، انطلقَ، حذاءاه ينزلقان خفيفين على العشب الطري، و«سام» ما زالت ملقاة على ظهرها، محاولة أن تتقلب على جانبها، وهي تشهق لتسكِّن الألم المضني في معدتها. ليست مسجاة كمهزوم في حلبة الملاكمة، لكن أقرب إلى ذلك.

لجأة، انطلقتُ في عدوٍ عجيبٍ، ويدي في جيبي تبحث عن عبوة رذاذ الفلفل. كان قد وصل إلى أعلى التل، وما زال يركض. لكني كنت أسرع، كل تلك الأميال التي كنت

أتريَّضها أتت ثمارها الآن، أمسكتُ به من سترته ساحبة غطاء الرأس عنه، وتحتهُ كان يضع قبعة بيسبول منحرفة قليلًا على رأسه، وتحتها رأيت جمَّة من شعر أسود حالك، وبشرة حنطية لمؤخرة عنقه. جذبة واحدة لغطاء رأسه كانت كفيلة بإبطائه، قدماه تتزلقان وهو يلوِّح بذراعيه.

عندما التفتَ مترنحًا، توقعتُ أن أرى وجهه، بدلًا من ذلك كل ما رأيت هو يده التي نزلت كالبرق عليّ، ثم هبطت كصفعة قاسية بظهر كفّه على وجهي، آلمتْ خدي بقسوة، حتى دار كل رأسي وعنقي إلى الجانب الأيمن.

تشوشت الرؤية بسحابة حمراء من الألم غشيتْ كل ما عداها، لم أشعر بألم كهذا منذ سنين.. عشر سنوات تحديدًا، هاربة من «كوخ الصنوبر»، صارخة في الغابة، وذلك الفرع السميك يصفعني حد الدوار.

فجأة، بدا كأنني عدتُ إلى تلك اللحظة البعيدة ثانية، شاعرةً بصفعة ذلك الفرع تحرق وجنتي.. فجأة تقلَّص الوقت، كأنه ثقب زمني وأنا على وشك السقوط فيه، ولن أصل إلا عند تلك الغابة اللعينة، حيث وقعت كل تلك المصائب.

لكنني لم أسقط، بل عدتُ إلى الحاضر، والصدمة تشل جسدي.. أفلتُّ غطاء رأسه، ويدي تُفتح رغمًا عن إرادتي، وأنا أرى الرجل من بين الغشاوة الحمراء على عيني وقد تحرر، وبدأ بالركض جنوبًا، مبتعدًا أكثر فأكثر، وبسرعة اختفى.

حلَّ محله اثنان آخران، انقضا عليَّ من اتجاهين مختلفين، أحدهما كانت «سام»، التي أسرعت ورائي هاتفة باسمي، والآخر كان الفتاة التي أنقذناها، تركت مقعدها وجاءت ورائي ويدها تغوص في حقيبتها.

- أنتِ تنزفين!

قالت لي، فضغطتُ بيدي على أنفي، وشعرت بالسائل اللزج الساخن يتدفق من فتحتي أنفي. نظرت إلى يدي، لأرى الدماء

تلمع على أصابعي. ناولتني الفتاة منديل ورقي، وبينما أضغط أنفي، ضمَّتني «سام» من ظهري لتحتويني في حضنها، وهي تقول لي:

- اللعنة يا فتاة، لدينا مقاتلة معنا!

تنفَّست من خلال أنفي، مستطعمة الهواء البارد الذي يحمل نكهة خفيفة للعشب، وجسدي كله ينبض بمزيج من الأدرينالين والخوف، والفخر بفكرة أن «سام» ربما تكون على حق، أنا «مقاتلة» تتألق بإشعاع.

الفتاة التي أنقذناها - لم تقل لنا اسمها- بدا عليها أيضًا الذهول. تحدثت إلينا بصوت مكتوم ذاهل، بينما نتخبط في الضباب في طريقنا للخروج من المتنزه، سائلة إيانا إن كنّا «حارسات عدالة».

- « كلا البتة». أجبتُ بحسم.

- «نعم». أجابت «سام».

ما إن خرجنا من «سنترال بارك ويست»، حتى أوقفتُ سيارة أجرة، وتأكدتُ من ركوب الفتاة فيها. وقبل أن أغلق الباب عليها، دسستُ في يدها ورقة نقدية بقيمة عشرين دولاراً، وأغلقت أصابعها عليها قائلة:

- أجرة السيارة، وإياكِ أن تسيري في المتنزه وحيدة في هذه الساعة المتأخرة مرة أخرى.

الفصل 15

كان وجهي ما زال يؤلمني عندما استيقظت.. ألم كامن، كالخيط بين عظام وجنتي وأنفي. وأنا أستحم، ضبطتُ الماء على أقصى درجات السخونة التي بإمكاني تحملها، وقضيت خمس دقائق أتنشّق البخار من أنفي، وأزفره بقوة لأتمخط بقايا الدم الجافة العالقة داخل فتحتَي أنفي، ثم أرفع وجهي إلى رشاش الماء الساخن ليلسع بشرتي.

عندما فكرتُ بليلة البارحة، ارتجفت ساقاي بقوة حتى مِلت على حائط الحمام طالبةً الاستناد. صعبٌ أن أصدق مقدار حماقتي، والسرعة التي قفزت بها في وجه الخطر. ذلك الرجل في المتنزّه ربما كان مسلحًا، ربما كنتُ لأُطعن أو يطلق علي الرصاص وأُردى قتيلة. كل شيء وارد، وبالنظر بعين الاعتبار لكل هذه الاحتمالات، فأنا محظوظة جدًا أن نلت صفعةً بظهر كفِه فحسب.

بعد أن خرجت من تحت الدُش، مسحت المرآة المغبشة بالبخار، كاشفة جزءًا منها لأرى انعكاسي يحدق بي، مع كدمة خفيفة جدًا تكاد لا تُرى، رغم ذلك تؤلم عند لمسها، ضغطة خفيفة من أناملي جعلتني أجفل ألمًا.

الألم في وجنتي أيقظ جراحًا قديمة. رغم أن الطعنات التي تلقيتها في «كوخ الصنوبر» لم تترك عاهات مستديمة، إلا أنها تركت ندوبًا واضحة. اليوم أشعر بها تخفق.. لأول مرة منذ سنوات. قوست ظهري قليلًا، حتى ظهرت الندبة على معدتي في المرآة، خط أبيض كالحليب على بشرتي المحمرة من أثر البخار. ملت إلى الأمام لأنظر بوضوح إلى الندبتين اللتين بينهما بوصة أسفل كتفي، واحدة في خط طولي والأخرى مائلة قليلًا، لو أنّ نصل السكين كان أعرض لتقاطعتا.

عندما انتهيت من تجفيف جسدي وارتداء ملابسي، كل هذه الأفكار ذهبت أدراج الريح.. مؤلمة ومثيرة للضيق؟ نعم. لكن

ليس بمقدوري فعل شيء حيالها.

في المطبخ، تناولت قرص زاناكس استعدادًا لمقابلة «كووب»، ومعه صودا العنب، منتظرة خروج «سام» من غرفتها. بعد بضع دقائق خرجتِ كأنها شخص مختلف تمامًا، شعرها معقود خلف أذنيها مظهرًا وجهًا ذا مكياج ناعم، كحل عينيها وُضع بدقة كخط رقيق، وبدلًا من أحمر الشفاه القرمزي وضعت ملمِع شفاه زهري بلون الخوخ، وتخلت عن اللون الأسود المعتاد منها، لترتدي بدلًا منه جينز داكن مع حذاء أزرق بلا كعب، ونفس الكنزة التي أخذتها بالأمس من متجر ساكس، وقد تدلت الأقراط الذهبية التي سرقتها متأرجحة من أذنيها.

«واوا» قلتُ مندهشة.

- لا بأس بالنسبة لفتاة في عمري، أليس كذلك؟

- لقد تأثرت!

- رغبتُ بترك انطباع جيد.

بينما نتمشى إلى المقهى، تلقَّينا بضع نظرات فضولية من العابرين، يستحيل تحديد إن كان هذا بسبب مقال «جوناه لومبسون» أم بسبب مظهر «سام» الجديد، غالبًا للسبب الأخير، فبعض النظرات كانت تلمحني، وأشعر أنها تقارنني بـ «سام».

حتى «كووب» فعل ذلك، وهو جالس في مكاننا المعتاد عند النافذة، ونحن نمر به في الشارع.. عبر الزجاج رأيت إيماءته الخفيفة لِي، ونظرة تقييم لـ «سام». ولسبب مجهول شعرت بالضيق يَخزني في مؤخرة عنقي.

نهضَ «كووب» من مقعده عندما دخلنا.. على عكس آخر مقابلة لنا، كان يرتدي ملابس مدنية كي يندمج مع الجو العام للمقهى الراقي، يرتدي اليوم سروالًا خاكي اللون، مع قميص بولو أسود، فبدا أنيقًا، وذراعاه المفتولتان ظاهرتان أسفل أكمامه القصيرة، وعروقهما نافرة على بشرته. قال مرحِّبًا:

- مؤكد أنك «سامنثا».

أبطأ في مدّ يده.. مستغربًا.. متشككًا. على «سام» أن تكمل المبادرة، لذا فقد مدت يدها عبر المائدة لتمسك براحة يده الممدودة.

- وأنت الضابط «كوبر».

- «كووب» (قال مصححًا بسرعة).. الكل ينادونني «كووب».

- والكل ينادونني «سام».

قلتُ مصطنعة ابتسامة بينما نتّخذ مقاعدنا:

- عظيم.. لقد صرنا معارف.

استقرَّ أمام «كووب» كوبان، قهوة له وشاي لي. نظر إليهما قائلًا:

- أردتُ أن أطلب لك يا «سام»، لكني لا أعرف ماذا تفضلين.

- قهوة..

قالت «سام»، وأردفت:

- ويمكنني أن آتي بها. أنتما الاثنان يمكنكما تبادل الحديث.

دارت حول الطاولات وصولًا إلى نضَد البيع في آخر المقهى، أحدها جلس عليه شاب ملتحٍ يرتدي قبعة بيسبول مقلوبة، كاتبٍ، بالنظر إلى حاسوبه الشخصي القابع أمامه. على جانب الطاولة هناك حقيبة جلدية وهاتف، وقلم «مونتبلانك» لامع، فوق مستند قانوني أصفر لامع. نظر إلى «سام» بينما تمر به، منبهرًا بها. فابتسمت «سام» له، ورفعت أصابع وجلة في تحية غزل.

- إذًا فهذه هي «سامنثا بويد»!

نظرتُ إليه عبر الطاولة وهو يراقب «سام» في آخر المقهى..

- بلحمها ودمها.. أهناك خطب ما؟

- أنا مصدوم ليس إلا، لم أتوقع منها أن تأتي هكذا. أشعر كأنني أرى شبحًا.

- لقد استغربتُ أنا أيضًا.

- ليست كما توقعت.

- وماذا توقعت؟

- شخصًا أكثر حدة وخشونة على ما أظن. هي تبدو مختلفة تمامًا عن صورة كتّاب الدفعة، ألا تظنين ذلك؟

كان بإمكاني إخبار «كووب» أن «سام» مختلفة تمامًا، وأنها هذبت من هيئتها الحادة لتترك انطباعًا حسنًا لديه، لأجل خاطري. لكنني بقيت صامتة. قال «كووب»:

- لقد قرأت عن مذبحة فندق «نايت لايت» البارحة. لا يمكنني تخيل ما مرت به.

- كان نصيبها في حياة قاسية.

- هل تنسجمان؟

- جدًا. هي و«چيف» لا يطيقان بعضهما فعليًا.

ابتسم «كووب» ابتسامة خفيفة..

- لا أستطيع القول إن هذا يدهشني.

- «چيف» هو من عليك التعرف به عن كثب، مقابلة «سام» مؤقتة. لكن سواء أعجبك أم لا، فالأمر مع «چيف» دائم.

لا أعرف لما قلتُ هذا، تفوهتُ به دون تفكير أو تخطيط، ومعه تبخرت ابتسامة «كووب» الخفيفة. قلت والذنب يغلّف صوتي بنبرة رقيقة:

- لكن شكرًا على حضورك.. كان لطيفًا منك أن تقترح ذلك، رغم أنني بدأت أشعر أنني عب٠.

- أنتِ لست عبثًا يا «كوينسي»، لم تكوني أبدًا، ولن تصبحي عبثًا.

حدَّق «كووب» بي، بعينيه المميزتين، فمررتُ بأصابعي على كدمة وجهي، متسائلة إن كان بطريقة ما قد لاحظ ذلك الخط الوردي الدقيق على وجنتي. جزء مني أكّد أنه سيسألني عنها، مما يعطيني الفرصة كي أسرد الكذبة التي نسجتها لأبررها: «آه، تلك؟ لقد اصطدمت بالباب خطأً». لكن خاب أملي عندما نظر من فوق كتفي مراقبًا «سام» في عودتها إلينا ومعها كوب القهوة في يدها، عندما مرت ثانية بذلك الكاتب، واصطدمت خطأً بطاولته، فمالَ كوب القهوة غير المستقر.

صاحت «سام»:

- آسفة جدًا!

رفع الرجل عينيه مبتسمًا..

- لا بأس.

- حاسوب لطيف.

عادت إلى طاولتنا سريعًا، وجلست بجواري، متفحصة «كووب» بنظرة سريعة قبل أن تقول:

- ظننتك ستبدو مختلفًا.

- اختلاف جيد أم سيء؟

- اختلاف قبيح. ومن الواضح أنك لستَ قبيحًا.

- إذن فقد عرفتِ من أنا قبل اليوم؟

- بالطبع، مثلما عرفتَ أنت من أنا. تلك هي قوة البحث على الشبكة العنكبوتية، لم يعد يخفي سرًا لأحد أبدًا.

- ألهذا السبب كنتِ كل هذه السنين؟

- أغلب السبب.. لكنني الآن قد عدت بين الأحياء.

- هكذا أنتِ بالضبط.

قال «كووب» وفي صوته رنة شك، كأنه لا يصدق صورة الفتاة الوديعة التي ترسمها «سام» لنفسها أمامه باجتهاد. سألها:

- لم قررتِ العودة؟

- بعدما سمعت بما جرى لـ «ليزا»، فكرت أنه قد يكون بمقدوري مساعدة «كوينسي».. لو أنها بحاجة إلى المساعدة.

- «كوينسي» ليست بحاجة إلى المساعدة.

ردَّ «كووب» بحسم، كأنني لستُ جالسة هنا أمامه مباشرة، كأنني خفية!

- إنها قوية بما يكفي.

- لكنني لم أعرف ذلك. ولذا أنا هنا.

- هل ستمكثين لمدة أطول؟

هزت «سام» كتفيها بحركة عابثة، وقالت:

- ربما.. من المبكر جدًا أن أقرر.

ارتشفتُ من الشاي.. كان ساخنًا جدًا، أحرقَ لساني، لكنني ظللت أرتشف منه، آملة أن يمحو الألم ذلك الوخز من الضيق الذي عاد إلى مؤخرة عنقي، هذه المرة بحجم إصبع ضخم يضغط على بشرتي.

- لقد غيَّرت «سام» اسمها، لذا لم يستطع أحد العثور عليها.

- حقًا؟!

بدت المفاجأة على ملامح «كووب»، توقعتُ منه محاضرة مثيلة لتلك التي ألقاها عليّ عندما اقترحت نفس الفكرة سابقًا. بدلًا من ذلك قال:

- لن أسألكِ أين كنتِ، أو أي اسم عشتِ به طوال تلك الفترة. أتمنى مع الوقت أن تثقي بي بما يكفي، لتخبريني عن كل ذلك بملء إرادتك. كل ما أرجوه منك أن تتواصلي مع ذويك وأهلك وتُعلميهم بشأنك.

ردت «سام» بهدوء:

- أهلي هم أحد أسباب اختفائي. لم تكن أفضل بيئة تربوية، حتى قبل فندق «نايت لايت»، بل لقد ساء الوضع بعدها. أنا أحبهم وما إلى ذلك، لكن بعض العائلات تفككها هو أفضل حال.

اقترحَ «كووب»:

- يمكنني التواصل معهم لأجلك. فقط أبلغهم أنك بخير حال.

- لا يمكنني سؤالك أمرًا كهذا.

هز «كووب» كتفيه قائلًا:

- أنتِ لم تسأليني، بل أنا من عرضت.

- تتحدث كموظف خدمة مدنية حقيقي. هل كنتَ دائمًا شرطياً؟

- ليس دائمًا. قبل ذلك كنت عسكريًا، سلاح البحرية.

- أحضرتَ أية اشتباكات؟

- بعضها..

ردَّ «كووب» وأشاح بوجهه إلى النافذة، مثبتًا حدقتيه بلونهما الأزرق الباهت على العالم خارجها، ليتجنب التقاء أعينهما. أكمل:

- أفغانستان.

- سحقًا! مؤكد أنك شهدت بعض الأحداث الدامية.

- بالفعل. لكنني لا أرغب بالحديث عنها.

- حسنًا.. أنت و«كوينسي» تشتركان في هذه الخصلة.

أزاحَ «كووب» بصره عن النافذة، لا ليواجه «سام»، بل ليواجهني. مرة أخرى كان هناك ما أعجز عن قراءته في تعبير وجهه، بدا أنه حزين حد الكمد. ردَّ قائلًا:

- الناس يتعاملون مع الصدمات بطرق مختلفة.

تساءلت «سام»:

- وكيف تعاملتَ مع صدمتك؟

- أصطادُ السمك.. والطرائد. وأتنزَّه في البرية. تعرفين، تلك النشاطات المعتادة لشباب بنسلفانيا.

- أيساعدك هذا؟

- أغلب الوقت.

- ربما عليّ تجربة ذلك.

- سيسعدني أن آخذكِ أنت و«كوينسي» لصيد السمك في وقت ما، إن شئتِ ذلك.

- «كوينسي» على حق، أنت الأفضل بلا منازع.

مالت «سام»، ومدت يدها عبر الطاولة لتضغط راحة يد «كووب». لم يسحب يده من يدها، فزادَ ضيقي، وزحف التوتر إلى كتفيَّ ليخز طبقة الهدوء الناعمة للزاناكس. رغبت فجأة بتناول قرص آخر، خشيت فجأة أن أصبح من نوعية السيدات اللاتي «يحتجن» إلى قرص آخر. قلت وأنا أجذب حقيبتي عن المائدة:

- أنا بحاجة للذهاب إلى المرحاض، «سام»، أتودِّين أن تأتي معي؟

- طبعًا.

أكملت «سام» وهي تغمز لـ «كووب»:

- الفتيات.. سهلٌ توقع تصرفاتنا، أليس كذلك؟

في طريقنا إلى نهاية المقهى، لوَّحت مرة أخرى للكاتب على طاولته، فبادلها التحية. حشرتُ أنا و«سام» نفسينا في مرحاض يتسع لفرد واحد، ووقفنا أمام مرآة مغبرة بأكتاف متلاصقة. سألت «سام» وهي تتفقد زينتها:

- كيف أبلي؟

- السؤال هو: ماذا تفعلين؟

- أتصرف بود، أليس هذا ما كنتِ تريدين؟

- نعم..

- إذًا ما الخطب؟

- فقط هدِّئي من محاولتك قليلًا، لو حاولتِ أكثر من ذلك، سيعرف كووب أنه تمثيل.

- وهل معرفته مشكلة؟

- ربما تجعل الأمور غريبة.

- أنا لا أمانع في الغرابة.

بدأت بالبحث في حقيبتي عن أية أقراص من الزاناكس قد أكون تركتها فيها..

- «كووب» يمانع.

«آه». قالتها بنبرة حملت العديد من التلميحات..

- بدأت الأمور تصبح غريبة بينكما أنتما الاثنان.

قلتُ مقتضبة:

- إنه صديق.

- فعلًا.. صديق.

- إنه كذلك بالفعل.

في قاع حقيبتي، وجدت بضعة عيدان متناثرة من العلكة، وحبة نعناع مزغبة، لا زاناكس بالمرة. جذبتُ السحاب مغلقة الحقيبة. قالت «سام»:

- أنا لا أجادلكِ.

- كلا. أنت تقترحين.

قالت مصطنعة الإحساس بالإهانة:

- أنا؟!.. أنا لا أقترح بالمرة أنكِ ترغبين في علاقة مع هذا الشرطي الجذاب.

- أظنكِ قد اقترحت هذا للتو.

- كل ما أقوله هو أنه جذاب.

- لم ألحظ هذا أبدًا.

سحبت «سام» ملمِّع الشفاه، ومرت به بسرعة على شفتيها..

- هذا ما أسميه هراءً يا فتاتي، من المستحيل عدم ملاحظة ذلك.

- جديًا، لم ألحظ ذلك أبدًا.. لقد أنقذ حياتي، عندما يفعل أحدهم ذلك، تنزعين إلى عدم التفكير بهم بهذه الطريقة.

- الرجال يفكرون هكذا. يدَّعون ويتظاهرون بالعكس، لكنهم يفكرون به جدًا.

اتخذت «سام» نبرة حكيمة خبيرة بباطن الأمور.. نبرة الأخت الأكبر، التي تعطي نصائح متعلقة بالجنس الآخر. أتساءل عن نوعية الرجال الذين واعدتهم: أكبرُ سنًا على الأغلب، راكبو دراجات بخارية كثيفو شعر الصدر، وبلحية تتخللها شعيرات بيضاء. أو ربما تفضِّلهم أصغرَ عمرًا، شاحبي البشرة، طريي العود، بلا خبرة، شاكرين لأبسط مداعبة بلا شغف.

- لو كان قد فكَّر.. فـ «كووب» رجل مهذب إلى درجة أنه لن يجعل من هذا مسألة تستحق الاهتمام.

- مهذب؟.. إنه شرطي. ومن خبرتي، فهم يتعاملون في علاقاتهم كمثقاب دقاق.

لم أردّ عليها، عالمة أنها لا ترغب سوى في مناهدتي، ساعية لخلق فرصة لتوبيخي على تحفظي تجاه الفكرة. «جينيل» كانت كذلك أيضًا. عادت تقول:

- أنا أمزح. ابتهجي.

كانت هذه لمحة أخرى من طريقة «چينيل»، التقهقر ما أن تشعر أنها تمادت كثيرًا، ومحاولة إظهار كل شيء كأنه مزحة. اليوم تعيد «سام» نفس الطريقة، بأسلوب أكثر تطورًا.

- آسفة يا «كوين»، سأقلل من حجم تظاهري. حقًا..

دفعت يديها داخل جيوبها..

- بالمناسبة، ظننت أن هذا قد يروقكِ.. شيء لدرج مقتنياتك..

أخرجت من جيبها قلمَ «مونتبلانك» رشيقًا ولامعًا كرصاصة فضية، ودفعته إلى يدي. «منذ برهة كان ملكًا لذلك الكاتب في المقهى، والآن هو ملك لنا، سرٌ آخر نتشاركه نحن الاثنتان».

كوخ الصنوبر

6:58 مساءً

أُجبِروا على التأنق للعشاء.. قاعدة أخرى مِن قواعد «چينيل». قبلٍ أن يغادروا، تأكدت من أنهم جميعًا حزموا معهم زيًا لائقًا.

- المهلهلون سيعودون إلى منازلهم.

هكذا أطلقت تحذيرها.

حزمت «كوينسي» ثوبين.. كانا الثوبين الوحيدين اللذين حملتهما معها إلى الكلية، أما هي من اختارت كليهما وهي تتمنى في قرارة نفسها أن ترتديهما «كوينسي» في التجمعات ونذور الأخويات النسوية، كما فعلت هي قبلها.

أحد الثوبين كان أسود، وهو الذي ظنَّته «كوينسي» ملائمًا للمناسبة؛ لكن في ضوء الكوخ الشاحب بدا كرداء أرملة في عزاء زوجها، عنِ أن يكون لـ «أودري هيبورن» في إفطارٍ في تيفاني. هذا حصرَ الخيار في الثوب الأزرق، والذي بدا رثًا أكثر مما أرادت، فقالت:

- إنه مهلهل.

علمت أنها على حق من نظرة الفزع في عيني «چينيل»، والتي كانت أقوى من نظرتها عندما جرحت إصبعها منذ نصف ساعة مضت. وبنفس الأصبع المجعد أسفل الضمادة أشارت لـ «كوينسي»..

- أسوأ. تبدين كعذراء.

- هذا ليس بالأمر السيئ، كما تعلمين.

- بل هو كذلك، إن كنتِ تحاولين الفوز بأحدهم.

- «كريج» يعلم أنها مرَّتي الأولى.

قالت «چينيل» وهي تمحصها من رأسها حتى أخمص قدميها:

- وهذا الثوب يصرح بهذا صارخًا بوضوح. لديَّ فكرة.

فتحت إحدى حقيبتيها، ودفعت منها شيئاً إلى «كوينسي»، ثوبًا حريريًا أبيض، باردًا ولامعًا كحوض سباحة. سألتها «كوينسي»:

- أليس الأبيض هو اللون الأكثر عذرية على الإطلاق؟

- لون الثوب يقول عذراء، لكن تفصيلته تقول: مغرية. لقد جمع الحُسنيين. سيحبه «كريج».

رمشتْ «كوينسي» عينيها، «چينيل» كما يجب أن تكون، مهووسة بعقدة «مادونا-العاهرة» منذ أن درسوها في صف علم النفس 101.

- ماذا سترتدين أنتِ؟

التفتت «چينيل» إلى حقيبتها قائلة:

- لقد جلبتُ عدة ثياب احتياطاً بالطبع.

- بالطبع.

رفعت «كوينسي» الثوب على جسدها، متفحصة إياه في مرآة الغرفة الباهتة المربعة. فتحة العنق العميقة، والتنورة غير المتماثلة بدتا مغريتين أكثر مما تختاره ذائقتها الشخصية.

حتى وظهرُها مقابل لـ «چينيل»، بدا أنها شعرت بترددها..

- فقط جرِّبيه يا «كوين»!

خلعت «كوينسي» الثوب الأزرق، مما جعل «چينيل» تنظر بعين عدم الرضا إلى ملابسها الداخلية غير المتماثلة، الاهتراء نقيض الغواية.

- يا إلهي يا «كوين»!.. أحقًا؟ ألم تضعي أية خطط لهذه العطلة؟

ردَّت «كوينسي» وهي تضم الثوب الأزرق الذي خلعته للتو إلى صدرها محاولة الاختباء وراءه.

- لا. لأن التخطيط يضغط، وأنا لا أريد أن أشعر بالضغط. أيًا كان ما سنفعله أنا و«كريج» هذه العطلة، أريده أن يتم بسلاسة طبيعية.

ابتسمت لها «چينيل» ابتسامة أخوية ودودة، وأزاحت خصلة من الشعر الأشقر عن وجه «كوينسي»..

- لا بأس بأن تشعري ببعض التوتر.

- لست متوترة.

قالت متجهمة للرجفة التي غلَّفت صوتها.

- أنا فقط عديمة الخبرة. ماذا لو أنني..

- كنتِ خائبة المستوى في العلاقة؟

- هذه طريقة وصف مميزة التعبير.

- لن تعرفي حتى تجرِّبي.

- وماذا إن لم أرُقْ لـ «كريج»؟

فكرت «كوينسي» فيما قالته «چينيل» سابقًا عن كون «كريج» لديه العديد من الخيارات غيرها. تعرف حق المعرفة كيف كانت المشجعات يتزلَّفن له بعد مبارياته، وكيف تصيح المعجبات باسمه في مدرجات الملاعب مرتديات ألوان الكلية. كلهنَّ على أتم الاستعداد أن يحللن محل «كوينسي»، إن خابت توقعات «كريج» فيها. قالت لها «چينيل» مطمئنة:

- سيعجبه. هو رجل بعد كل شيء.

- وماذا إن لم يعجبني أنا؟

- بل سيعجبك. فقط ستستغرقين بعض الوقت لتعتادي عليه.

شعرت «كوينسي» برفرفة في أحشائها، ليس كرفرفة الفراشة، بل كطائر يخفق بجناحيه.

- كم من الوقت يلزم لأعتاد عليه؟

قالت «چينيل» مؤكدة لها:

- ستكونين بخير.. والآن أريني كيف يبدو الثوب عليك.

انزلقت «كوينسي» داخل الثوب، والحرير الأبيض يدغدغ ساقيها. وبعد أن أدخلته وضبطت أكمامه عليها، قالت «چينيل»:

- ما رأيكِ في «چو»؟ إنه جذاب إلى حد ما، أليس كذلك؟

- بل مخيف هو الوصف الأدق.

- إنه غامض.

- وهي عمليًا نفس معنى مخيف.

أضافت «كوينسي»:

- ومرتبط. أنتِ تنسين فتاته.

وهنا جاء دور «چينيل» لترمش عينيها..

- لا يهم أيًا كان الأمر.

- أريد فقط تسجيل نقطة.. أنَّ بقيَّتنا لا يرغبون بوجوده، ونقبل به لأنه عيد ميلادكِ.

- تمت الملاحظة على النحو الواجب. ولا تقلقي بخصوصه، فأنا أنوي تسليته.

انتهت من المعافرة مع الثوب. التفتت «كوينسي» إلى «چينيل»، التي أغلقت لها السحَّاب، وتفقدت كلتاهما انعكاسها في المرآة. رغم أن الثوب كان أضيق مما تفضل «كوينسي»، إلا أن «چينيل» على حق، فقد بدت مغرية.

- واوا

قالت «كوينسي»، فأطلقت «چينيل» صافرة إعجاب قائلة:

- تبدين جميلة جدًا.

- شكرًا. على ما أظن.

أتمَّت «جينيل» بضعة تعديلات صغيرة، مثل ضم الحواشي قبل فرد بعض القماش المتكوم على كتفي «كوينسي»..

- رائع.

- أتظنين هذا؟

سألتها «كوينسي» رغم علمها التام أنه بالفعل رائع. رغم ذلك، كان هناك أمر ما زال يشغل بالها. سألتها «چينيل»:

- ما الأمر؟

- إنه مؤلم. أليس كذلك؟

- نعم.

قالت «چينيل» وهي تزفر الكلمة بحرارة.

- إنه بالفعل مؤلم، لكنه ممتع في ذات الوقت.

- وبأيهما سأشعر أكثر؟ الجيد أم السيئ؟

- هذا هو الجزء الغريب في الموضوع.. كلاهما بنفس الدرجة تمامًا.

نظرت «كوينسي» إلى المرآة، مركزة بصرها على انعكاس عينيها، قلقة من الخوف الذي رأته كامنًا فيهما.

- أأنتِ واثقة؟

- ثقي بي.

قالت «چينيل» وهي تلفّ ذراعيها حول «كوينسي» لتضمها إليها من ظهرها.

- هل ضلّلتكِ مرةً؟

الفصل 16

أصرَّ «كووب» على السير معنا إلى منزلي، رغم أننا -«سام» وأنا- قادرتان تمامًا على حماية نفسينا، ليلة البارحة هي الدليل القاطع على ذلك. سارت «سام» بجواره، تضاهي خطاه الواسعة بخطوات حذرة منمقة.

تأخرتُ في السير عنهما، ووجهي مرفوع إلى الشمس.. كانت ساطعة، لها دفء الظهيرة.. آخر قبلات الصيف الهندي، قبل زحف الشتاء وسيطرته. نبضت الكدمة في وجهي قليلًا، متدفئة بأشعة الشمس. تخيَّلتها تتلون بالأحمر وتظهر واضحة على بشرتي، فرغبت أن يلتفت «كووب» ويلاحظها أخيرًا، لتتسع عيناه في قلق. لكنه ظل متقدمًا بخطوتين مع «سام»، خطواتهما متماهية بينما يتخذان المنحنى إلى شارع اثنين وثمانين.

فجأة توقفا..

وكذلك أنا..

شيء ما يجري أمام مبناي، هناك قطيع من المراسلين معسكرٌ أمامه!.. كمٌّ ضخم جامح، ظاهر للعيان من مسافة مربعين سكنيين. قلت بضعف كأنه صدى لنبرتي العادية:

- «كووب»!.. هناك خطب ما!

- بالفعل.

قالت «سام»:

- احتفظي بهدئكِ

قال «كووب»:

- نحن لا نعرف بالضبط لماذا هم متجمِّعون هنا.

لكنني كنت أعرف.. إنهم هنا لأجلنا.

دسستُ يدي في حقيبتي، مخرجة هاتفي الذي أغلقته عندما خرجت أنا و«سام» من الشقة. أعدت تشغيله، لينفجر بكم

ضخم من التنبيهات، مكالمات فائتة، رسائل إلكترونية فائتة، ورسائل نصية فائتة. شلَّ القلق يديَّ بينما أمررهما بينها.. العديد من الأرقام المجهولة بالنسبة لي، بما يعني أنها مكالمات من المراسلين. فقط «جوناه تومبسون» هو المألوف لديّ، لقد اتصل ثلاث مرات.

- علينا الابتعاد.

قلت، عالمةً أنها مسألة دقيقة على الأكثر قبل أن يلاحظونا، وأردفت.

- أو نوقف سيارة أجرة.

- ونذهب إلى أين؟

تساءلت «سام»..

- لا أعرف.. مكتب «چيف»، سنترال بارك، أي مكان إلا هنا.

قال كووب:

- هذه ليست فكرة سيئة، وستمنحنا بعض الوقت لمعرفة ماذا يجري.

قلت وأنا أحوِّل بصري تجاه الحشد في أول الشارع، والذي يبدو أنه زاد في آخر ثلاثين ثانية:

- ولن يبقوا هنا إلى الأبد، أليس كذلك؟

- لن أنتظر كل هذا الوقت.

تمتمت «سام» متبرمة، واتجهت إلى الشارع، في خطى واسعة مباشرة إلى حشد المراسلين. تمكنتُ من الإمساك بظهر كنزتها، لتلتفَّ على جسدها، محاولة إيقافها في مكانها، لكن بلا فائدة، انسلَّ الحرير من بين أصابعي. توسلتُ إلى « كووب»:

- افعل شيئًا!

نظرَ إليها وهي تتقدم إليهم مضيِّقًا عينيه. لم أستطع تمييز أهو

قلقِ أم منبهر بها، ربما مزيج من الشعورين. كل ما أحسست به رغم ذلك هو القلق، لذا هرعتُ وراء «سام»، ولحقت بها ما أن وصلت إلى مربعي السكني.

رآنا المراسلون بالطبع. التفَّت رؤوسهم نحونا تقريبًا في ذات اللحظة.. سرب من الصقور لاحظ طريدة جديدة. مراسلو التلفاز معهم مصوروهم، الذين تزاحموا لأجل أفضل إطلالة، وبينهم انحشر المصورون الفوتوجرافيون، وصوت التقاط الكاميرات يطقطق في الأرجاء.

«چوناه تومبسون» كان بينهم، ليست مفاجأة. كباقي المراسلين، نبح عاليًا بأسمائنا بينما نتقدم إليهم، كأنه يعرفنا، كأنه يهتم بنا.

- «كوينسي»! «سامنثا»!

تراجعنا بضع خطوات، وقد دنا منا من كل الاتجاهات تيار من الكاميرات والميكروفونات، وعلى كتفي نزلت يد ثقيلة وقوية، لم أكن بحاجة للالتفات لأعرف أنها يد «كووب»، أخيرًا قد انضم إلينا. قال للمراسلين:

- ابتعدوا يا شباب، تنحَّوا جانبًا، ودعوهما تمران.

شقَّت «سام» طريقها إلى الأمام، ملوحة بذراعيها في كافة الاتجاهات، لتفسح طريقًا، غير مبالية بمن تصيبه بضربتها. قالت وهي تدرك تمامًا أن كل هذا السباب سيحول دون إذاعة هذه اللقطات:

- سحقًا لكم، (غوروا) من طريقنا اللعين، لا يوجد شيء لعين نخبركم به..

قال أحد المراسلين.. مراسل تليفزيوني، والكاميرا من خلفه تستدير نحو «سام» كعين سايكلوب غاضب.

- أنعتبر هذا (لا تعليق)؟.. يبدو لي كتصريح لعين.

التفتت بعيدًا عنه، ناظرة إليَّ بدلًا منه. ومضات الفلاشات

على وجهها جعلته يتألق ساطعًا، انعكاس الضوء سطّح ملامحها، جاعلًا تعبيراتها باهتة شاحبة، كأنها قمر مكتمل.

بطرف عيني لمحت «چوناه تومبسون» يشق طريقه باتجاهي..

- أحقاً لن تدلي بأي تصريح بخصوص «ليزا ميلنر»؟

هاج الفضول بداخلي دافعًا إياي إلى الأمام. انتحار «ليزا» وقع منذ بضعة أيام، وفي هدير عجلة أخبار الأربع وعشرين ساعة، تبدو هذه المدة كأبد الآبدين. هناك شيء مختلف، شيء جديد. قلت وأنا أقترب مدفوعة إليه، والكاميرات تملأ الفراغ الذي تركته خلفي، محيطة بي:

- ماذا عن «ليزا»؟

- هي لم تقتل نفسها. لقد تمَّ الإعلان أن موتها كان جريمة قتل. «ليزا ميلنر» قد قتلت.

تلك هي التفاصيل:

في ليلة موتها، «ليزا ميلنر» شربت زجاجتين، لكنها لم تشربهما وحدها، بل كان هناك شخص آخر معها يحتسي الخمر. هذا الشخص دس في كأس «ليزا» جرعة عالية من الآنيتروفيلين، مضاد اكتئاب قوي المفعول، يستخدم أحيانًا كمنوِّم لمن تعرضوا لصدمة قاسية. الكم الذي وُجد في دم «ليزا» كان يكفي لوضع ذكر بحجم الغوريلا في غيبوبة.

الخمر والآنيتروفلين وُجدا أثناء تحليل السموم بعد موتها، لولاهما، لظل الجميع معتقدين أنها قتلت نفسها. وحتى معهما، لظل الجميع على هذا الظن، لكن الضابط المسؤول عن القضية وجد المزيد من الآنيتروفلين على سطح المطبخ. ما لم يستطيعوا إيجاده هو الزجاجة ووصفة الدواء من طبيب «ليزا»، لكن هذا لا يعني شيئًا في زمن الصيدليات على الإنترنت، والتي تكلف ثلاثة أضعاف لشحن الأدوية من كندا، أي دواء يشتهيه قلبك المحروم دوائيًا، على بعد شحنة من الحدود.

بعد ظهور تقرير السموم لامعًا كلافتات نوادي قمار فيجاس،

تم استدعاء وحدة الطب الشرعي ثانية إلى منزل «ليزا»، وأعادوا الفحص بدقة، كان يفترض بهم توخيها في المرة الأولى، لكنهم لم يهتموا لأن الكل ظنوا أنها من سلبت حياتها بنفسها. وجدوا قنينة شراب «ليزا»، وفي قاعها تكلست رقائق الآنيتروفلين.. وجدوا حلقتين من الميرلوت الجاف على سطح مائدة الطعام، صنعتهما قاعدتا كأسين. إحدى الحلقتين احتوت على الآنيتروفين والأخرى لا. ما لم يعثروا عليه كان الكأس الثاني، أو أي علامة على المقاومة أو الاقتحام.. لقد وثقت «ليزا» فيمن قتلها!

الفحص الطبي لاحظ أمرًا غريبًا على رسغيّ «ليزا».. كانا أعمق من غالبية جروح السكين التي يجرحها الشخص لنفسه. خاصة لو أن ذلك الشخص قد تعاطى أدوية مخدرة لحواسه، ناهيكَ عن اتجاه كل قطع- من اليمين إلى اليسار على رسغ «ليزا» الأيسر، ومن اليسار إلى اليمين على رسغها الأيمن. في أغلب الحالات، ما يحدث هو الشائع. وحتى رغم أن «ليزا» ربما تكون قادرة على قطع رسغيها بتلك الطريقة اللامعتادة، إلا أن زاوية القطع أثبتت العكس، فلا مجال لأن تكون هي من قامت بتلك الجروح، شخص ما فعلها بها، نفس الشخص الذي دسَّ مسحوق الأقراص في شرابها، ثم أخذ الكأس معه.

أكبر علامة استفهام- غير مَن فعلها ولماذا، بالطبع- هي متى قامت «ليزا» بإجراء مكالمة الطوارئ 911 من هاتفها. المسؤولون في مونسي يشكُّون أنها كانت بعد التخدير لكن قبل القطع. نظريتهم أن «ليزا» أدركت أنها تمَّ تخديرها، وتمكنت من الاتصال ب 911. لكن قاتلها أخذ هاتفها منها قبل أن تتمكن من الحديث، وأغلق الخط، عالمًا أن الشرطة سوف تأتي لتتفقد المكان على أي حال. ذلك الشخص هو من التقط السكين، وجرَّ «ليزا» المترنحة تحت تأثير المخدر إلى حوض الاستحمام، وجزَّ رسغيها. هذا أيضًا يفسر لما قد تمَّ جزُّهما بينما الآنيتروفلين كافٍ تمامًا لقتلها وحده.

ما لم تعرفه الشرطة، إلى حين تفحص وحدة التخزين في حاسوب «ليزا»، هو أنها قد أرسلت لي رسالة إلكترونية قبل ساعة تقريبًا من وقوع كل هذا لها.

قفزَ كل هذا إلى ذهني، بينما اجتمعنا حول هاتف «كووب» مشغّلين مكبر الصوت، حتى يسمع جميعنا التفاصيل.

(أحتاج إلى الحديث معكِ. إنه أمر غاية في الأهمية. أرجوك، أرجوك، أرجوك، ألّا تتجاهلي هذه الرسالة يا «كوينسي»)

نحن في غرفة الطعام، وأنا أقف على رأس الطاولة، قلقة مليئة بالغضب وكسيرة النفس بما يصعِب من الجلوس. «ليزا» ما تزال ميتة، هذا الكشف الجديد لم يغيّر من هذه الحقيقة، لكنه أصابني بالحزن بطريقة جديدة، نسبياً أكثر حدة.

القتل وحش أغرب من الانتحار، رغم أن النتيجة واحدة لكليهما، حتى الكلمتان تختلفان، «الانتحار» كلمة لها وقع لحيح الأفاعي.. سقم يزحف إلى العقل والروح. أما «القتل»، فرغم ذلك يجعلني أفكر تلقائيًا في مستنقع، مظلم، ثقيل، لزج يمتلئ بالألم. موت «ليزا» كان تقبله أسهل على النفس عندما ظننته انتحارا، بما يعني أن إنهاءها لحياتها كان قرارها الشخصي، وهذا سواء أكانَ خطأً أم صواباً، كان خيارها.

لكن لا خيار في القتل.

بدا كلٌّ من «كووب» و«سام» ذاهلين بنفس القدر. جلسا على طرفي الطاولة، صامتين وجامدين. ولأن «كووب» لم يدخل الشقة أبدًا من قبل، فقد أضافَ حضوره ثقلًا على غرابة هذا الوضع السريالي بالفعل. رؤيته في زيِّه المدني جالسا بلا راحة على مقعد صغير لا تتسق مع المكان. كأنه ليس «كووب» الحقيقي، بل منتحلًا لشخصه، يتسكع في مكان لا ينتمي إليه. أما «سام» المزيفة المرحة، فقد غابت في المقهى ولم تعد، وحلّت محلها الآن «سام» الحقيقية، التي تقضم أظافرها بسرعة بينما تحدق في هاتف «كووب»، كأنها ترى المتحدث

من خلاله، وليس مجرد الخيال الذي يملأ الشاشة الآن.

كانت المتحدثة إحدى معارف «كووب» في شرطة إنديانا، تدعى «نانسي»، وكانت أول المستجيبين لمنزل الأخوية، بعدما أنهى «ستيفن ليبمان» هجومه الدامي. كذلك، كانت نسخة «كووب» بالنسبة لـ «ليزا».

قالت بصوت خفيض هزّه الحزن والإجهاد:

- لن أكذب عليكم.. لديهم القليل من الدلائل ليعملوا عليها هنا.

كنتُ أسمعها نصف مصغية، لأن إيميل «ليزا» كان يطن متكررًا في أذني بصوت «ليزا»:

- «كوينسي. أنا بحاجة للحديث معكِ»

- ربما كانت الأمور لتختلف، لو أن أولئك الحمقى فتشوا منزلها لحظة أن عثروا على جثتها.. لو أنني أخبرتهم أن يفعلوا ذلك. لكنهم لم يفعلوا، والله يعلم كَمّ المتسكعين هناك قبل أن يكتشفوا الأمر. كل موقع الجريمة ملوث يا «فرانك»، البصمات في كل مكان. الأمر في غاية الأهمية.

تساءلَ «كووب»:

- إذن، أيمكن ألّا يعرفوا من القاتل أبدًا؟

- أنا لم أقل أبدًا على الإطلاق، لكن الوضع حتى الآن غير مبشر.

حلَّ صمت قصير، وأربعتُنا نفكّر في واقع إمكانية عدم الحصول على أجوبة أكثر مما نعرفه بالفعل. لم يمثل قاتل أمام العدالة، لا يوجد دافع، ولا سبب محدد وراء رسالة «ليزا» الإلكترونية قبل قليل من احتسائها ـــ عن جهل ـــ لأول رشفة من ذلك الشراب الملعون.

«أرجوكِ أرجوكِ ألّا تتجاهلي هذه الرسالة»

قطعت فكرة أخرى ثنايا عقلي، خطرة معوّجة..

- أعليَّ أنا و«سام» أن نقلق؟

عقدَ «كووب» حاجبيه متظاهرًا أن الفكرة لم تخطر بباله، بينما بالطبع قد جالت بخاطره، فتساءلتُ مترقبة.

- إذن؟

قال «كووب»:

- لا أظن أن هناك ما يدعو إلى القلق. أليس كذلك يا «نانسي»؟

خرجَ صوت «نانسي» السقيم من الهاتف مطمئنًا.

- لا أظن أن هناك ما يشير إلى أن ما جرى له علاقة بما وقع لكنّ جميعًا.

سألتُ:

- ولكن ماذا إن كان كذلك؟

- «كوينسي»؟!

حدَّق بي «كووب» بنظرة لم أرها منه من قبل، اختلطت فيها الصرامة مع خيبة الأمل، لأنني ربما أخفي عنه شيئًا..

- ماذا تُخفين عني؟

كان عليّ إخباره بشيء منذ أيام مضت، أمر بدا كأنه محاولة بائسة من «ليزا» أن يثنيها أحد عن محاولة الانتحار، والآن أعرف أنها لم تكن كذلك.. الآن أشك أن «ليزا» كانت تحاول تحذيري.. مم؟ ليس لديَّ أدنى فكرة. قلتُ معلنة:

- لقد جاءتني رسالة إلكترونية من «ليزا».

أخيرًا رفعت «سام» رأسها عن الهاتف، ويدها ما زالت على فمها، وظفر بنصرها عالق بين أسنانها، وصاحت:

- ماذا؟

- متى؟

سأل «كووب» والقلق وجذوة القلق تشتعلان في عينيه..

- ليلة موتها.. قبلها بساعة تحديدًا.

- أخبريني بكل ما جاء فيها. كل كلمة.

أخبرتهم كل شيء... محتوى الرسالة، متى تلقَّيتها، متى قرأتها.. حتى إنني حاولت شرح لماذا تأخرت في إبلاغ الجميع عنها عدا «چيف». «كووب» لم يهتم بالسبب، جلّ تركيزه كان على أنه لم يعرف عنها مبكرًا.

- كان عليكِ إبلاغي لحظة أن تلقَّيتِها يا «كوينسي».

- أعلم ذلك.

- كان هذا ليغيِّر الكثير.

- أعرف هذا يا «كووب».

كانت لتصبح سببًا في أن تتفحص الشرطة منزل «ليزا» أسرع، ليقودهم البحث إلى نتيجة أنها قتلت في وقت أبكر. ربما كانت لتثمر عن دليل هام يشير إلى الجاني. أعرف كل هذا، والذنب الذي خلَّفته تلك المعرفة أشعلَ غضبي.. على نفسي.. على قاتل «ليزا».. على «ليزا» نفسها، لوضعها إياي في هذا الموقف. الغضب تملَّك مني إلى حد الغليان، حتى تغلَّب على كسر نفسي وشعوري بالمفاجأة. قالت نانسي:

- يظل هذا لا يعني أنكِ و«سامنثا» في خطر.

أكملَ «كووب»:

- ربما لا يعني شيء على الإطلاق.

رددت عليهما:

- أو ربما يعني أنها ظنت أنَّ شخصًا ما يستهدفنا.

سألَ كووب:

- ومن الذي يرغب بذلك؟

- العديد من الناس.. المجانين. أنتَ تصفحت مواقع الجرائم تلك، ورأيت عدد المخابيل عليها، المهووسين بنا.

- هذا لأنهم معجبون بكنّ. هم مبهورون بما مررتنَّ به.. ما تمكنتنَّ من النجاة منه. ليس بمقدور الكثيرين فعل ذلك يا «كوينسي»، لكنكنَّ فعلتنّ.

- إذن فسِّر ذلك الخطاب.

لم يكن هناك حاجة إلى التوضيح، فـ «كووب» يعرف تمام المعرفة أي خطاب أقصد، خطاب التهديد، ذلك الخطاب المخيف الذي أثار قلقه كما أقلقني.

يجب ألا تكوني على قيد الحياة.

كان عليكِ أن تلقي حتفكِ في ذلك الكوخ.

لقد كان مقدَّرًا لكِ أن تتمَّ التضحية بكِ.

أيًا كان من كتبَ هذا الكلام، فقد استخدم آلة كاتبة، وضرب مفاتيحها بقوة مفرطة على الصفحة، حتى بدت الحروف كأنها علامات محترقة على الجلد.. كل حرف «O» كتب «0» / كل حرف «و» مكتوب «،» / بما يعني أن مفتاح الحرف تالف. «كووب» أشارَ إلى أن هذه الملاحظة قد تكون دلالة للسلطات لمعرفة مَن كتبه، حدث هذا منذ عامين. لم أحبس أنفاسي قلقًا، خاصة أن أي محاولة لمعرفة كاتبه كانت مرهقة بالفعل، الورقة والمظروف كانا خاليين من البصمات، والمظروف لم يغلق بلعاب بل بإسفنجة مبتلة، ونفس الشيء مع طابع البريد. أما خاتم البريد، فقد تم تتبعه حتى بلدة «كوينسي» في ولاية إلينوي.

تلك لم تكن مصادفة.

عندما وصلَ، كنت أنا و«جيف» قد بدأنا بالعيش معًا منذ شهر فقط، كان هذا أول اختبار يمر به معنى حياتنا معًا.. أنا كنت هيستيرية بما يكفي أن أطالب بالانتقال من الشقة في الحال، ويفضَّل إلى خارج البلاد، لكن «جيف» أقنعني بترك الفكرة، قائلًا إن الخطاب رغم لهجته السامة، ليس أكثر من مزحة غير مضرة.

أما «كووب»، فقد تعامل معه بجدية أكبر، لأنه.. حسنًا، هو «كووب»، وهكذا يفكر. وقتها كانت علاقتنا قد انكمشت إلى رسالة أو اثنتين كل بضعة أشهر، ولم نتقابل منذ سنة، لكن ذلك الخطاب غيَّر كل شيء. عندما أخبرته عنه، قاد سيارته إلى المدينة، فقط ليهدِّئ من روعي. مع قهوةٍ وشاي في مقهانا المعتاد، أقسمَ أنه لن يدع شيئًا يضرني، وأصرَّ على لقائنا، على الأقل كل ستة أشهر.. والباقي تاريخ معروف.

- ذلك الخطاب مُرسل من رجل موتور.. رجل مخبول. لكن هذا كان منذ زمن بعيد يا «كوينسي»، لم يكن هناك خطر جدي.

- بالضبط. لا شيء على الإطلاق حدث لذلك المختل نفسيًا المريب الذي أرسله. ما زال طليقًا يا «كووب»، وربما راسلَ «ليزا» أو «سام». ربما قرر أخيرًا أن يتخذ خطوة فعلية.

نظرتُ إلى «سام»، والتي عادت إلى ذاتها القديمة لحظة دخولنا المنزل. كان شعرها قد انسلَّ من وراء أذنيها مسدلًا على وجهها كستار يحميها.

- هل تلقيتِ أية خطابات تهديد؟

هزت رأسها نفيًا هزة بسيطة وقالت:

- لم أتلقَّ أية خطابات منذ زمن بعيد. إحدى المزايا القليلة لئلَّا يعرف مكانكَ أحد.

- حسنًا، إنهم يعرفونه الآن، لقد كان على الصفحة الرئيسية.

اجتاحتني نوبة من الغضب وأنا أتذكر «جوناه تومبسون» وما فعله. تكورت قبضتا يديّ رغمًا عني، وصرت أطبقهما وأفتحهما، توقًا ورغبة في الشعور بهما يهشِّمان ذقنه.

مالَ «كووب» على هاتفه مخاطبًا «نانسي»:

- هل تلقت «ليزا» أية تهديدات؟

- القليل.

أجابته «نانسي»، وأردفت:

- بعضهم أكثر إقلاقًا من الآخر، لقد تعاملنا معها كلها بجدية تامة. بل تمكنًّا من تتبع بعض كُتَّابها، مجردُ مجعجعين يشعرون بالوحدة، لا أكثر من ذلك، ومؤكد أنهم ليسوا قتلة.

- إذن أنتِ لا تظنين أنني و«سام» معرضتان لأي خطر؟

- لا أعرف بما عليّ إخبارك بهِ يا عزيزتي، لا يوجد ما يدل على هذا هنا، لكن الأسلم أن تلزما جانب الحذر في الوقت الراهن.

لم يكن هذا ما رغبت بسماعه، مما زاد من جذوة غضبي. كنت أتوق إلى سماع إجابة واضحة، سواء طيبة أو سيئة، شيء محدد وواضح المعالم يمكنني أن أتّخذه قاعدة أتبعها. لكن بدونها، كل شيء مبهم وغامض، كما الضباب الذي غلَّف سنترال بارك تلك الليلة. قلت متسائلة:

- ألا يستفز الوضع أحدًا آخر؟

أجابني «كووب»:

- بالطبع، نحن مستفزون، ولو كانت لدينا إجابات، لأجبناكِ.

أُلتفت، غير قادرة على النظر في عينيه الزرقاوين اللتين حاولتا إظهار المساندة، لكن عجزتا إلا عن إظهار الشك. حتى اليوم، كان «كووب» دائمًا حجر الزاوية الذي أستند إليه، حتى عندما مادت الأرض بعالمي نحو النسيان. والآن، حتى هوَ غير قادر على فهم أو تفسير الوضع.

- أنتِ غاضبة.

- بالفعل.

- هذا مفهوم، لكن يجب ألا تقلقي أن يتكرر مصير «ليزا» معك.

- ولمَ لا؟

- لأن الاحتمال لو كان قائمًا، لأخبرتنا «نانسي» بذلك. ولو كان لدي أدنى شك أن هناك ما يتهددك، لكنَّا في طريقنا بالفعل خارج المدينة الآن.. لكنتُ أخذتكِ بعيدًا جدًا إلى درجة أن «چيف» نفسه سيعجز عن العثور عليك.

كان ليقوم بذلك بالفعل، وهذا مما لا أشك فيه بالمرة. أخيرًا ها هي الإجابة التي كنت أسعى إليها. ولبرهة، بدت كافية لدحض كل الغضب المشتعل في أعماقي. لكن «كووب» نظر عبر المائدة مثبتًا «سام» بنظرة عينيه الزرقاوين.

- وأنتِ أيضًا يا «سام». أريدك أن تدركي ذلك.

اومأت «سام» برأسها، وبدأت بالبكاء. أو ربما أنها كانت تبكي منذ فترة ولم نلحظها أنا و«كووب». والآن، هي تأكدت أننا نلاحظ ذلك، وعندما أزاحت شعرها عن وجهها صعب عدم ملاحظة الدموع التي أغرقت وجنتيها.

- آسفة.. هذا- كل هذا الموقف- يضغط عليّ حقًا.

ظللت في مكاني محاولة استشفاف إن كانت دموعها حقيقية أم لا، مما أشعرني بالذنب أنني فكرت أصلًا في زيف دموعها. «كووب» - من ناحية أخرى- نهض من مكانه ليدور حول الطاولة ويميل نحوها.

- لا بأس بأن تشعري بالضيق، هذا وضع سيئ من كل النواحِي.

أومأت «سام» ومسحت دموعها، ثم نهضت وفتحت ذراعيها طالبة العزاء في صورة عناق.

استجابَ لها «كووب»، وشاهدتُه يلف ذراعيه المفتولتين حول «سام»، ضامًا إياها إلى صدره، مانحًا إياها العناق الذي حُرِمت منه طوال عشر السنوات الماضية!

أشحتُ بوجهي، واتجهت إلى المطبخ، لتناول قرص آخر من الزاناكس.. وبدأت بالخَبز.

الفصل 17

كنت قد بدأت بخبز عجينة لفطائر التفاح، عندما خطا «كووب» إلى المطبخ. اصطفت على سطح المطبخ العديد من أوعية المكونات.. دقيق، ملح، صودا الخبز، الزبدة، وقليل من اللبن لخلطهم. أسندَ «كووب» كتفه على إطار الباب مراقباً إياي أخلط المكونات الجافة، ثم الزبدة، ثم اللبن. أخيرًا تكوّنت كرة ضخمة من العجين على سطح المطبخ، لينة ولامعة. كوّرتُ قبضتي ولكمت العجين بقبضتي عدة لكمات عنيفة، فاردة إياها إلى كومة غير منتظمة.

- أُخرج منها الهواء.

- أرى ذلك؟

واصلت اللكم بشدة، والعجين ينتفخ تحت سُلامياتي. فقط عندما شعرتِ بصلابة سطح المطبخ تطرق أصابعي، توقفتُ ومسحت يدي.

- أين «سام»؟

- لقد ذهبت لتستلقي على ما أظن. أأنتِ بخير؟

افتعلتُ ابتسامة مشدودة كشريط مطاطي رفيع على وشك الإفلات وقلت:

- أنا بخير.

- لا تبدين بخير.

- حقًا أنا بخير.

- أنا آسف لأننا لا نعرف شيئاً عمّن قتل «ليزا» حتى الآن. أعلم تمام العلم أن هذا أمر يصعب التعامل معه.

- بالفعل. لكنني سأكون بخير حال.

تهدّل كتفا «كووب» العريضين فجأة، وانكمشا كأنني لكمت الهواء من داخله هو الآخر. تناولتُ ملء قبضتي من الدقيق،

ونثرته على سطح المطبخ، ثم صفقت العجين عليه، مثيرة عاصفة صغيرة من الغبار الأبيض، ثم أمسكت بالنشّابة وبدأت بفرد العجين بضربات طويلة قوية، وأنّت عضلات ذراعيّ مع كل دَفعة.

- هلّا وضعتِ هذا جانبًا وتحدثتِ معي يا «كوينسي»؟

- لا يوجد ما نتحدث عنه. آمل - بكيفية ما- أن يُقبض على أي كان من قتل «ليزا»، وحينها سيعود كل شيء إلى سابق عهده. حتى ذلك الحين، أثق أنك ستبذل قصارى جهدك لحمايتي وإبقائي بأمان.

- تلك هي خطتي.

داعبَ «كووب» ذقني مداعبة سريعة، كتلك التي كان والدي يداعبني بها. كانت إيماءة بيننا، كلما خبزنا سويًا، ودومًا ما أخطئ بشيء، كأن أنثر حفنة من الدقيق على حافة الوعاء، أو أكسر قشرة بيضة بطريقة لا احترافية، فيسقط فُتات القشرة في البياض. كنت أشعر بالضيق عندما يعتصر ذقني بين سبابته وإبهامه، رافعًا إياه، بالتالي مثبتًا إياي. والآن، رغم أن «كووب» هو من يقوم بنفس المداعبة، فما زال لها نفس الأثر.

- شكرًا. حقًا. أنا أعلم أن بإمكاني أن أكون مفيدة، حتى في يوم كهذا.

فتح «كووب» فمه لينطق شيئاً ما. سمعتُ طقطقة لسانه على أسنانه، عندما حرك شفتيه فاتحًا فمه، تكوّنت الكلمة على أطراف لسانه، لكن قاطعه صوت فتح الباب الأمامي، وصوت «جيف» يملأ الشقة..

- «كوين»؟ أأنتِ هنا؟

- في المطبخ.

رغم أن «جيف» تفاجأ بوجود «كووب»، إلا أنه أخفى ذلك بمهارة، لاحظت فقط لمحة سريعة على وجهه، استمرت لجزء من ثانية، قبل أن يتقبّل الموقف ويدرك أن «كووب» هنا

لنفس السبب الذي أتى به في منتصف الظهيرة، مع صندوق من الخمر وحقيبتين من الطعام من مطعمي التايلاندي المفضل.

- غادرتُ العمل ما أن سمعت بالأخبار.

قال وهو يضع مشترياته في البرَّاد، وأردف.

- حاولت الاتصال بك، لكن هاتفك أحالني إلى البريد الصوتي.

ذلك لأن هاتفي مغلق طوال الوقت الذي كنته في المنزل حتى الآن، فغالبًا تكدست الرسائل، والرسائل الإلكترونية، والمكالمات الفائتة، إلى الحد الذي لن يمكنني معه مراجعة أي منها.

وما إن تحررت يداه، حتى ضمني معانقًا وهو يقول:

- كيف حالك؟

- إنها على خير ما يرام.

جاءت تلك الإجابة بصوت جاف من «كووب». أوماً «چيف» له، أول إشارة معلنة منه أنه يراه أصلًا في المكان، ثم التفتَ إليَّ متسائلًا:

- أحقًا؟

- بالطبع لا، مصدومة وحزينة وغاضبة.

- مسكينة «ليزا». لقد عرفوا الجاني، أليس كذلك؟

هززتُ رأسي نفيًا وأجبته:

- لا يعرفون الجاني ولا الدافع. كل ما يعرفونه هو الكيفية التي قُتلت بها.

دون أن يدعني أو يغيِّر وضعه، التفتَ «چيف» إلى «كووب» مرة أخرى، وما زالت رأسي مسندة على صدره، فالتفتُّ أنا الأخرى طوعًا مع حركته.

- أنا سعيد أنكَ هنا معهما يا «فرانكلين»، أنا على ثقة تامة أنَّ

في وجودك راحة وسندًا لـ «كوين» و«سام».

- أتمنى لو أن في يدي القيام بالمزيد.

- لقد قمتَ بالكثير بالفعل، «كوين» محظوظة بوجودكَ في حياتها.

- وأنت..

قلتُها موجهة حديثي لـ «چيف»..

- أنا محظوظة بوجودكَ.

قلتُ هذا وأنا أضغط نفسي أكثر على صدره، واحتكت رابطة عنقه بوجنتي، فيما فسره خطأً بعلامة على الضيق، والذي أظنه كذلك بالفعل، فضمني نحوه أكثر. تركت نفسي لهذا العناق، والتفتُّ نحوه، بحيث صار جسد «چيف» يملأ مجال رؤيتي، حاجبًا جزئيًا مشهد «كووب» وهو يحدق بي عبر المطبخ.

فيما بعد، شاهدتُ مع «چيف» فيلم نوار آخر في الفراش، «اتركها لحساب السماء» بطولة «جين تيرناي» في دور عروس مهووسة قاتلة. كم هي جميلة.. كم هي مدمِّرة. عندما انتهى الفيلم، شاهدنا أخبار الحادية عشرة، حتى ظهرت فقرة عن قضية «چيف»، إذ عقدت نقابة الشرطة مؤتمرًا صحفيًا مع أرملة الشرطي القتيل، مطالبين بتشديد العقوبة على المدانين بجرائمَ ضد الضباط. قبل أن يلتقط «چيف» الريموت ويغلق التلفاز، لحظتُ في جزء ثانية وجه الأرملة، شاحبًا، عليه خطوط التجاعيد العميقة، وملطخًا بالأسى. قلت له:

- أريد أن أشاهد هذا.

- ظننتكِ ترغبين في هدنة مع الأخبار السيئة.

- أنا بخير حال.

- مثل خير حال «سام»، وخير حال «كووب».

غادرَ «كووب» الشقة بعد دقائق من وصول «چيف»،

متمتمًا بحفنة من الأعذار عن طول الطريق والقيادة حتى بنسلفانيا، في حين قضت «سام» المكتومة بشكل سافر أغلب وقت العشاء محاولة تجنب أية حاجة للحديث. أما أنا، فقد بقيت ساخطة، رغم الزاناكس والخَبز، وغالبًا نصف صندوق الخمر. ما زلت كذلك حتى الآن، رغم مرور عدة ساعات. إنها حالة من الغضب اللاعقلاني العارم.. أنا غاضبة من كل شيء ومن لاشيء... أنا غاضبة من الحياة.

- أعرف أن هذا صعب عليكِ.

- ليس لديكَ أدنى فكرة.

قلت له بلا مواربة. هذا أكثر من مجرد حديث غاضب، هذه حقيقة مجردة باردة، «چيف» لا يدرك بالمرة معنى أن يكون واحدًا من اثنين مثلك قد قضى نحبه على هذا النحو. إنه لا يفهم معنى الكمد والخوف والارتباك الذي سبَّبه هذا الموقف.

- أنا آسف. أنتِ على حق. أنا لا أملك أية فكرة بالمرة، ولن أعرف أبدًا. لكني أتفهم تمامًا أنك غاضبة.

- لست كذلك.

قلتها كاذبة..

- بل أنا كذلك.

قال «چيف» ثم صمتَ لبرهة.. تحفزتُ، عالمة أنه بصدد قول شيء لن يروقني سماعه بالمرة.

- وبما أنكِ غاضبة بالفعل، فأنا مضطر أن أبلغكِ باضطراري للعودة إلى شيكاجو ثانية.

- متى؟

- السبت.

- لكنكَ كنت هناك بالفعل.

- التوقيت غير ملائم، أنا أعلم ذلك، لكن هناك شاهد حُسن سير تقدم للشهادة.

حدقتُ في شاشة التلفاز المغلقة. ما زلت أرى وجه أرملة الشرطي في خيالي.

- آه.

- ابن عم موكِّلي.

أكملَ «چيف» حديثه، رغم أنني لم أكن بمزاج رائق لأسمع أي شيء عن صفات موكِّله.

- إنه راعي كنيسة. الاثنان نشأا وترعرعا سويًا، وتمَّ تعميدهما سويًا. قد يساعد هذا جديًا في الدفاع عنه.

تقلَّبتُ على جانبي ناظرة إلى الجدار. وقلت.

- لقد قتلَ ضابطاً.

- زعمًا.

فكرتُ في «كووب».. ماذا لو كان هو من سقط برصاص ذلك الرجل؟ أو ماذا لو كان موكِّل «چيف» هو قاتل «ليزا»؟ أكنتُ سأظل أتظاهر بسعادتي بأن بعض امتداح السمعة من ابن عم واعظ كنسي ستقلص من مدة عقوبته؟ كلا، لن أفعل. رغم ذلك، فيبدو أن «چيف» يتوقع ذلك تمامًا.

- أنتَ تعلم أنه من بين كل الاحتمالات فالأرجح أنه مذنب، أليس كذلك؟ إنه قد أردى ذلك المحقق، كما يقول الجميع، إنه قام بذلك.

- هذا ليس قراري في الحكم.

- أليس كذلك؟

- بالطبع لا.

قال «چيف» مقلدًا إياي في ضيق المزاج، وأردف:

- لا يهم ما هو متهم به. إنه يستحق دفاعًا جيدًا، مثله مثل أي متهم آخر.

- لكن، أتظنه اقترفَ الجريمة المتهم بها؟

سألته وأنا أعتدلُ في مرقدي، وأميل من فوق كتفي لأختلس النظر إلى «چيف»، الذي لم يزل مستلقيًا على ظهره، ويداه تسندان رأسه، مثبتًا ناظريه على السقف. طرفت عيناه مرة واحدة بسرعة، وفيها رأيتِ الحقيقة تحلق من بين حركة أجفانه السريعة، إنه يعرف جيدًا أن موكله مذنب.

- ليس الأمر كأنني محامي دفاع قدير باهظ التكاليف.

صرَّح بهذا كأنه مبرر لتحسين الصورة قليلًا.

- لن أُثري من الدفاع عمَّن مؤكد أنهم قتلة، أنا فقط أرفع من أسس نظام العدالة الأمريكية، الجميع يحق لهم محاكمة عادلة.

- وماذا لو أوكلَ إليك الدفاع عن شخص آية في الشر؟

سألته وأنا أرتمي ثانية على جانبي، عاجزةً عن النظر إليه.

- إذن فلا أملك خيارًا في ذلك.

لكنَّ لديه خيارًا بالفعل. لو أن موكِّله كان «ستيفن ليبمان»، «هو» ذا السكين الطائشة، أو رجل الجوال « كالفين ويتمر».. سيصير لديه الخيار للرفض بالفعل، أمثال هؤلاء لا يستحقون أي دفاع.

لكن في قرارة نفسي، أعلم تمام العلم أن «چيف» لن يقوم بذلك الخيار أبدًا، بل سيختار أن يكون إلى جانبهم، أن يدافع عنهم ويساعدهم..

حتى «هو»!

- هناك دائمًا خيار.

لم يبس «چيف» ببنت شفة، بل ظل يحدق بالسقف حتى ثقل جفناه وأغلق عينيه في النهاية، ليغرق في النوم بعدها بدقائق.

بالنسبة لي، فالنوم كان ضربًا من ضروب المستحيل، ما زلت أشتعل غضبًا، لذا تقلبت وانتفضت بين الأغطية بحثًا عن

أكثر الأوضاع راحة. ولو كنت أكثر صراحة مع نفسي، لجزئيًا كنت أفعل ذلك لأقلق راحة «چيف» وأوقظه، لأجعله ساهرًا مثلي. لكنه لم يستيقظ بالمرة، ما بين الحادية عشرة ومنتصف الليل، ولا بين منتصف الليل والواحدة صباحًا.

في الواحدة والربع، انزلقتُ من الفراش، وارتديت بعض الملابس القديمة، وسحبتُ خارجة إلى الردهة. كان النور ما زال مضاءً في غرفة «سام»، لذا طرقتُ الباب ليأتيني صوتها.

- ادخلي يا «كوين».

وجدتها تجلس عاقدة الساقين على الفراش، تقرأ نسخة ورقية لكتاب لـ «آزيموف» منثنية الوسط. كانت قد بدلت ملابسها، وعادت إلى الجينز الأسود والقميص المطبوع بصورة «سكس بيستول» من البارحة، وسترتها الجلدية كانت إضافة على زيّها. عندما رفعتْ عينيها إليّ، شعرت أن بإمكانها قراءة غضبي. هي تعرف بالفعل سبب وجودي هنا.

دونما كلمة، نهضت من الفراش، وانحنت مادةً يدها في حقيبتها، لتخرج حقيبة يد من بين كل الأشياء داخلها. كانت من الجلد المجعد، مع يد قصيرة للحمل على المعصم فقط. بعدها، أخرجت مجموعة طبعات ورقية، لعدد من الكتب التي كدَّستها في حقيبة اليد، ثم قذفتها إليّ ككرة قدم قائلة:

- خذي.

- التقطتُها، وفاجأني ثقلها..

- لمَ هذا؟

- طُعم.

لم أنبس ببنت شفة، وتبعتُ «سام» خارج الغرفة، ويدا الحقيبة تثقلان راحة يدي المتعرقة، بينما نخرج في جنح الظلام.

الفصل 18

خارجًا، كان دفء في غير موعده يغلف هواء الليل النقي، بدا نقيًا وثقيلًا، كأن حرارة الصباح تسللت إلى الليل. مع وقت وصولنا إلى المتنزه، كنت أتعرَّق ووجهي لامع زلق.

داخل المتنزَّه، كان الجو حارًا، حتى أن أغلب العدائين الذي رأيناهم أزاحوا أغطية رؤوسهم، مكتفين بالعدو في المتنزه بقمصان ضيقة. أومأنا بالتحية لبعضهم بينما نمر بهم، كأننا منهم، نجول الليل سعيًا إلى لحمٍ لدِن.

بطريقة ما، بالفعل نحن كذلك.

لم يكن هناك أي ضباب يغلف المتنزَّه هذه المرة، كأنَّ الليل شفافٌ كالزجاج الهش. الحشائش المدببة تلمع في ضوء القمر، بلون أبيض كأنها أسنان حادة، وعلى الأشجار تدلت الأوراق على فروعها كرجال مشنوقين.

اخترنا مقعدًا ليس ببعيد عن الذي جلسنا عليه بالأمس، يمكنني أن أراه عبر الممشى، وفوقه مثلث من مصابيح الشارع تلقي ضوءها على سطحه. تخيلت نفسي جالسة عليه منذ أربع وعشرين ساعة مضت، فزعة ولا أرغب بشيء سوى العودة إلى المنزل. الآن أجلس متفحصة الأركان المظلمة من المتنزه، وكل ظل يبدو مرتعشًا بخطر خفي، وأنا مستعدة لمواجهته، بتُّ متعطشة.

- أترين أي شيء؟

مكتبة ياسمين

سألت «سام».

- كلا

t.me/yasmeenbook

سحبتِ علبة سجائر من جيبها، ودست واحدة بين شفتيها. مددتُ إليها يدًا مبسوطة وقلت:

- هاتي واحدة.

- جديًا؟

- لقد اعتدت التدخين.

في الواقع، كان ذلك لمرة واحدة فقط، حثّتني عليها «چينيل». نفَسٌ واحد جعلني أسعل بعنف، مما جعلها تسحبها من يدي، خشية أن يلحق بي ضرر أكبر. اليوم أنا بحال أفضل، أسحب نفَسين قصيرين، قبل أن تبدأ نوبة السعال. قالت «سام» وهي تسحب نفسًا عميقًا وتطلقه في صورة حلقات دخان:

- هاوية.

- متباهية.

رددتُ عليها. لم أفعل سوى الإمساك بسيجارتي، بينما تسحب آخر أنفاس سيجارتها، وعيوننا تدور باحثة، لم نرفعها بالمرة عن الأفق المظلم للمنتزه. سألتني «سام»:

- كيف تشعرين؟.. بخصوص «ليزا».

- غاضبة.

- جيد.

- ما جرى لها كان شريرًا. لقد ظننت أنه أسهل..

لم أستطع إكمال ما أفكر فيه.. وهو أنه كان من الأسهل تفهُّم فكرة أن «ليزا» انتحرت. فهذه ليست بالفكرة التي ترغب في توضيحها وشرحها، حتى لو كانت حقيقة.

- أتظنين أن هناك من يستهدفنا؟

- تلك احتمالية قائمة. نحن شهيرات، بطريقتنا الخاصة.

للدقة، نحن سيئتا السيرة. ملفتتان لكوننا خضنا أهوالًا لا تخطر في البال ونجونا سالمتيْن، وبعض الناس- مثل ذلك المخبول الذي قاد كل ذلك الطريق إلى «كوينسي» في إلينوي ليرسل ذلك الخطاب- قد يرونَ هذا كنوع من التحدي، أن ينهوا ما عجز مَن قبلهم عن إنهائه.

سحبت «سام» آخر أنفاس السيجارة حتى عقبها، وأطفأتها بينما تقول:

- أكنتِ ستُبلغينني يوماً بخصوص تلك الرسالة الإلكترونية من «ليزا»؟

- لا أدري. رغبتُ في ذلك.

- إذن لِمَ لم تبلغيني؟

- لأنني لم أفهم معناها.

- الآن هي تعني أننا ربما نكون في خطر.

ورغم ذلك، ها نحن جالستان في «سنترال بارك»، في ساعة غفلَ عنها القدر، نسعى إلى المشاكل.. نأمل بها على وجه الدقة. لكني لم أرَ شيئاً في هذه الليلة الصافية، فقط ظلالنا الطويلة بفعل المصباح القائم فوقنا تفترش الممشى أمامنا، وقد تبقَّعت برماد وأعقاب سجائرنا.

- ماذا سيحدث إن لم نرَ أحدًا؟

قلتُ متسائلة، فالتفتت «سام» مشيرة برأسها إلى الحقيبة المعلقة بمعصمي قائلة.

- لهذا جلبنا هذه.

- ومتى نستخدمها؟

رفعتْ حاجبًا مرسومًا بالقلم، وابتسمت رغمًا عنها وأجابت.

- الآن إن شئتِ.

بسرعة رسمنا خطتنا. لأنني أكثر ضآلة وبالتالي هدف أسهل، سأمشي وحيدة في المتنزَّه، والحقيبة متدلية كطعم من ذراعي. في حين ستتبعني «سام» على مسافة قليلة في الخفاء، بعيدةً عن الممشى كيلا يلاحظها أحد. ومتى هاجم أحد، فسنكون مستعدتين لرد الهجوم.

خطة محكمة.. فقط متهورة إلى حد ما.

- أنا مستعدة.

أخبرتُها، فأشارت إلى الطريق باتجاه الممشى المظلل بالأشجار قائلة:

- هيا لتنالي منهم أيتها النمرة.

في البداية، مشيتُ بسرعة والحقيبة تتأرجح على معصمي، بينما أقطع الممشى في خطوات واسعة، ستجعل من أكثر اللصوص خبرة يعيد النظر في مهاجمتي. كنت أتحرك بسرعة جعلت «سام» تعجز عن اللحاق بي، نظرتُ من فوقِ كتفي، فلمحتها على مسافة بعيدة تمشي محاذيةً الأشجار، مسرعةً على العشب.

عندئذ أبطأتُ المسير، مذكرةً نفسي بأن الهدف أن أبدو كفريسةً سهلة، وكذلك لا أريد أن تكون «سام» بعيدة إلى درجة أن تعجز عن إنقاذي إن لزمَ الأمر. فيما بعد، ضبطت إيقاعي على خطوات هادئة متساوية متجهة إلى الجنوب، مع الممشى الموازي لشاطئ بحيرة «سنترال بارك». لم أرَ أحداً. لم أسمع شيئاً إلا السيارة العابرة في «سنترال بارك ويست» واحتكاك نعليَّ بالأرض. على يميني مساحة صغيرة من منتزه خال، تحيطه جدران صخرية عالية، وعلى يساري البحيرة، التي يعكس سطحها الساكن أضواءً خافتة، من المباني القريبة من أعلى «ويست سايد».

فقدتُ اتصالي بـ «سام»، والتي كانت في مكان ما ورائي، تتسلل في جنح الظلام. كنت وحيدة، الأمر الذي لم يوتِرني كما ينبغي أن يحدث. كنت وحيدة في الغابة من قبل، في موقف أكثر خطراً من هذا بكثير.

استغرقتُ خمسَ عشرةَ دقيقة، حتى درتُ في مساري إلى نقطة البداية، ووقفت حيثما بدأت، وجلدي زلقٌ إثر تعرقي، وثمَّة بقعتان رطبتان أسفل إبطيَّ. والآن حان وقت التعقل وإيجاد «سام»، لنعود إلى الشقة، وإلى الفراش، وإلى «جيف». لكنني لم أشعر بالحاجة إلى التعقل، ليس بعد يوم كهذا. ألمْ

غائر نخرَ بداخلي، كالجوع في أحشائي، ولم يكفِ مروري مرة واحدة في المتنزه لدرئه، لذا بدأت بالمسير ثانية، مرة أخرى بمحاذاة البحيرة. هذه المرة انعكست أضواء أقل على سطح البحيرة، المدينة من حولي تغمض نوافذها لتغفو، واحدة تلو الأخرى. عندما وصلتُ إلى الجسر المقوّس على الحافة الجنوبية للبحيرة، كل ما يحيطني كان مظلماً تماماً. لقد جرفني الظلام إلى أحضانه، ليضمني بين الظلال.

مع هذا الظلام الدامس، أتى شيء آخر.. رجل.. يندفع عبر المتنزه من ممشى آخر، على بعد خمسين ياردة على يميني. أدركت على الفور أنه ليس واحداً من أولئك الباحثين عن الجنس، خطوته تختلف، أقل ثقة، رأس خفيض ويدان تختبئان في جيبي سترته السوداء، خطواته أقرب إلى الهُوينى منها إلى المشي، إنه يبذل قصارى جهده كي يبدو غير مثير للشبهات وغير خطر.

رغم ذلك، فهو يراقبني، فقد لاحظت أن حافة قبعة فريق اليانكيز تنحرف تجاهي كل وهلة.

أبطأتُ السير، متخذة خطوات متقاربة، لأتأكد أننا سنتواجه عندما تتقاطع سبلنا على بعد عشرين ياردة تقريباً. تُقتُ إلى أن ألتفت إلى الخلف كي أتأكد أن «سام» قد لحقت بي، لكن لا يمكنني ذلك، فقد ينبئه هذا بما ننوي، مخاطرة لا أنوي فعلها.

أطلقَ الرجل صفيراً منغَّماً بينما يمشي. قطعَ لحنه غير المميز الصمت في المتنزه، كانَ عالي النغمات متقطع الأنفاس. خالجني شعور أنه يحاول طمأنتي. محاولة بريئة، أم لجعلي أتخلى عن حذري!

قبل نقطة تقاطع مسارينا، توقفتُ متظاهرة بالبحث داخل الحقيبة عن شيء ما، مجتهدة أن أجعله يلحظ الحقيبة. عليه أن يلاحظها، فالحقيبة ضخمة بما يكفي لأن يراها. رغم ذلك، ظلَّ على تظاهره أنه لا يلاحظها، مستمراً في سيره المبالغ فيه،

حتى وصل إلى نفس الممشى الذي أسير عليه.. أمامي مباشرة.. استمر بالصفير، محاولًا ألّا يخيفني، محاولًا جعلي أستمر في المسير. إنه صائد فئران.

استمريتُ بالمشي.. خطوةً، اثنتين، ثلاث خطوات.

وتوقف الصفير..

وكذلك هو.

فجأة، استدارَ لمواجهتي.. بعينين تدوران في محجريهما، مجنونتين وداكنتين.. عيني مدمن بحاجة إلى جرعته. رغم كل شيء، فعلى السطح يبدو عديم الخطر، بوجنتين غائرتين، وبجسد نحيف كعصا مكنسة، لا يزيد عني في الطول بل ربما أقصر، تمنحه سترته حجمًا أضخم، لكنه منظر على فراغ، إنه في خف الريشة.

بدا وجهه أكثر قسوة مع العرق المتصبب على جبهته وعظمتي وجنتيه الحادتين. بشرته مشدودة كجلد الطبل، كل ما به كان ينطق بالجوع واليأس.

عندما تحدَّث، كان صوته عبارة عن غمغمة خاملة..

- أنا لا أريد إزعاجكِ. حسنًا؟ لكني بحاجة إلى بعض المال.. للطعام، كما تعرفين؟

لم أتفوَّه بأية كلمة، محاولة كسب المزيد من الوقت، لأعطي «سام» الفرصة لتقترب أكثر.. لو كانت أصلًا هنا.

- أسمعتِ ما قلت يا فتاة؟

استمررتُ على صمتي، تاركة له زمام الأمور. يمكنه الرحيل.. يمكنه البقاء. لو أنه قرر أن يتسبب بالمشاكل، فمؤكد ستبادره «سام» بالهجوم.

- ربما..

- أنا جائع.

كرَّر حديثه وهو يثبت ناظريه على حقيبتي مردفًا:

- ألديكِ أي طعام هنا؟ أية أموال يمكنك أن تعطيني إياها؟

أخيرًا، نظرتُ خلفي باحثة عن الظل المقترب لـ «سام».. لم تكن هناك.

لم يكن هناك أحد.

لم يكن هناك سواي والرجل، والحقيبة التي ستثير غضبه إن ألقى نظرة بداخلها، ورأى أن كل ما بها هو مجموعة كتب ذات أغلفة ورقية. أظن أنه كان عليّ أن أرتعب كل هذا الوقت، لكني لم أفعل، على العكس، شعرت بنقيض الخوف..

شعرت أنني متوهجة.

- كلا، ليس لديَّ شيء.

أجبته بحسم، محدقة في وجهه، مستشفةً حركاته، في انتظار رؤية حركة ذراع أو يد منقبضة، أي شيء يدل على أنه يفكر في إيذائي.

- أواثقة أنه ليس لديك أي شيء هنا؟

- أتهددني؟

تراجعَ الرجل خطوة إلى الوراء، رافعًا ذراعيه وصاح:

- على مهلكِ يا فتاة، أنا لم أفعل شيئًا!

- أنتَ تضايقني، وهذا شيء.

أشحتُ بوجهي، وبدأت بالابتعاد عنه، والحقيبة تتدلى بضعف على معصمي. تركني الرجل أبتعد. كان أضعف من أن يبدأ قتالًا. كل ما قدرَ عليه أن يطلق سِباباً كتحية فراق..

- يا لكِ من عاهرة باردة.

- ماذا قلت؟

التفتُّ، وعدتُ أدراجي إليه بخطى واسعة. وقفتُ قريبًا بما يكفي كي أشم أنفاسه، كان لها عطن الخمر الرخيص، مختلطًا مع الدخان وعلكة منتهية الاستعمال.

- تظنّ أنكَ حثالة قوية، أليس كذلك؟ أظنكَ خلتَ أنني سأفزع لمرآكَ وأناولك أيًا ما تبغي.

أنهيتُ جملتي ودفعته، فتقهقر إلى الوراء، وتأرجحَ ذراعاه محاولًا إبقاء توازنه، ولمستْ إحدى يديه وجهي لمسة خفيفة تكاد لا تُحس.

- أصفعتَني للتو؟

امتقعَ وجه الرجل في صدمة وغمغمَ:

- أنا لم أقصد..

قاطعته دافعة إياه مرة ثانية.. ثم ثالثة. وعندما عقدَ ذراعيه ليتفادى المرة الرابعة، أسقطتْ الحقيبة، وبدأتُ بقرع ذراعيه وأكتافه.

- أنتِ! توقفي!

تراجعَ تحت وطأة ضرباتي، ليسقط على ركبتيه، وعندها وقع شيء من جيب سترته ليطرق أرض الممشى. كانت مطواة، مطوية مغلقة. قفزَ قلبي لمرآها.

مدَّ الرجل يده ليلتقطها، فصفعتُ يده، ونخلذِ بمحاذاة كتفه، فوكزته به مبعدة إياه عنها. عندما وقفَ، بدأتُ بصفعه ثانية، مؤرجحةً ذراعيَّ بجنون، لأطرق صدره وأكتافه وذقنه.

عند ذلك، مالَ الرجل إلى الأمام، وبدأ بدفعي. أخذتُ أقاومه وأنا ما أزال أضرب وأرفس قصبة ساقه.

- توقفي!

صاحَ الرجل بصوت كالعويل.

- أنا لم أفعل لكِ شيئًا!

وقبضَ بملء قبضته على خصلة من شعري في يده، وجذبها بعنف. لوهلة شلّني الألم، فأغلقت عينيّ رغمًا عني، مسدلة أجفاني. ولمعَ شيء ما في ظلمات عقلي.. ليس ألمًا بالتحديد، بل ذكرى له.. مشابهة، لكنها غريبة عن الذي أشعر به الآن بينما

يجذبني الرجل إلى الوراء.

انفجرت ذكرى الألم كألعاب نارية خلف جفنيَّ، لامعة ومحرقة. أنا في الخارج.. بالقرب من الأشجار.. و«كوخ الصنوبر» يبدو مشوشًا لناظريّ.. شخص آخر يجذب شعري، ويجذبني إلى الوراء، بينما يصرخ الناس.

قبضت أصابعي على ياقة سترة الرجل، جاذبة إياه أرضًا معي. اصطدمنا بالأرض بعنف، أنا على ظهري وهو على صدره، وكلانا يلهث من الصدمة. عندما مدّ يده ليجذب شعري ثانية، كنت مستعدة. فدحرجت رأسي على الأرض بعيدًا عن متناول قبضته، ثم ملتُ إلى الأمام، لأنطحهُ برأسي في رأسه، لتطيح جبهتي بأنفه لاوية غضروفه.

صرخَ الرجل ألمًا، وتلوَّى بعيدًا عني، ويده على أنفه المتدفق دمًا. ثم نهض على ركبتيه، وأصابعه مصبوغة باللون الأحمر.

اشتعلَ ألم الواقع وألم الذكرى داخلي كأسلاك بطارية سيارة تسخّن لتعطي دفعة لعضلاتي، كاسرةً الطبقة الهشة حول ذاكرتي، ليبدأ فُتاتها بالتساقط، ووراءها لمحات خاطفة من الماضي.

«هو»..

في الحناءة مماثلة على أرضية «كوخ الصنوبر»..

وسكين دامية في قبضته.

رغم أنني كنت مدركة نسبيًا أنني في مكان وزمن آخرين، فلم أرَ إلا «هو».. لذا فقد بركت فوقه، بقبضات مضمومة تهبط محطمة وجهه. لكمتهُ مرة واثنتين وثلاثًا.

أعماني الغضب والثورة، كأنهما مستنقع أسود يفيض في أحشائي، ويخرج من مسامي ليغشي عيني. لم أعد أبصر، أو أسمع، أو أشم.. الحاسة الوحيدة الباقية الآن هي اللمس، وكل ما أحسسته هو الألم المضني في قبضتي يديَّ، بينما أحطم وجهه. عندما فاقَ الألم قدرتي على التحمل، رفعتُ قدمي

موجهة ركلة إلى رأسه..

ثم ثانية..

ثم ثالثة.

كل ضربة خرجت لها اسم، يتدفق من فمي رغمًا عني. أنطقه كأني أبصق سُمًّا، أقذفه عليه.. «هو».. ليغطيه «هو».

- «چينيل»، «كريج»، «إيمي»، «رودني»، «بيتر»

- «كوينسي»!

لم يكن هذا صوتي. بل صوت «سام».. فجأة وجدتُها تقف جواري، لتكبلني بذراعيها بقوة، وتجرَّني بعيدًا عنه.

- توقفي. بحق الإله، توقفي.

قضيتُ بضع ثوان أصارع قبضتها، أضربها مزمجرة، كأنني كلب بري يصارع قيده. لم أهدأ إلا عندما لاحظت الدماء ملطخة يد «سام»، بقعة داكنة، ملاحظتها جعلتني أظن أنني آذيتُها، الفكرة في ذاتها صفَّت الغضب من نفسي.

- «سام»!

قلت بأنفاس لاهثة.

- أنتِ تنزفين.

كنت مخطئة، علمت هذا عندما لمحتُ يديَّ، ورأيتهما غارقتين في الدماء. نفسِ الدماء على يدي «سام».. نفس الدماء التي تقطر على ذراعي، وتلطخ ثيابي، وزخَّاتها تلوث وجهي وعنقي في قطرات ساخنة.

بعضهُ لي..

أغلبه لا.

- «سام»؟ ماذا جرى؟ أين كنتِ؟

بدلًا من أن تجيبني، أطلقت سراحي، عالمة أنني لن أذهب إلى أي مكان. وفي لمح البصر، كانت على العشب بجوار الرجل

المستلقي على جانبه، وإحدى ذراعيه ملتوية وراء ظهره، والأخرى مختفية أسفله.

لا يمكنني النظر إلى وجهه.. لا يسعني سوى النظر إلى وجهه.. أو ما تبقى منه! عيناه مغلقتان ومنتفختا الأجفان، أنفه المكسور تتدفق منه دماء أقل وأدكن من باقي دمائه، لم يكن يتحرك. دفعت «سام» إصبعيها على خيط الدماء في عنقه، متحسسة نبضه. واعتلى القلق وجهها.

- «سام»؟

قلتُ والدوار والخوف والصدمة كلُّها تتقاذفني..

- هو مازال حيًا، أليس كذلك؟

غشى الضباب بصري، «سام»، والرجل الذي قد يكون ميتًا، يتأرجحان في مجال رؤيتي.

- أليس كذلك؟

لم تنبس «سام» ببنت شفة، لا عندما مرّرت كم سترتها على النقطة التي لمستها من عنق الرجل، ماسحة أية بصمات تركتها أصابعها عليه، ولا عندما التقطت المطواة الملقاة على العشب ودسّتها في جيبها، ولا حتى عندما جرّتني بعيدًا عن المكان، عاجزةً عن النظر إليّ بينما أندب.

- ماذا فعلت يا «سام»؟ ما الذي فعلته؟

الفصل 19

تحركنا بسرعة، إننا هاربتان تندفعان في الظلام، وقد ألقت «سام» سترتها على كتفي، ومضت تضغط ظهري بخفة تدفعني إلى الأمام. استمريت بالجري مجبرة، لأن «سام» لا تريد أن تدعني أتوقف، رغم أن كل ما أريده هو أن أنهار على الأرض وأبقى هناك. صار التنفس مسألة شاقة، كل شهيق تقطعه رجفة توتر، وكل زفير مصحوب بعَبرة، وتمدد صدري مع نقص الأكسجين، ورئتاي البائستان تدفعان بنفسيهما خارج ضلوعي، حتى صحت لاهثة:

- توقفي.. دعيني أتوقف

زادت «سام» من ضغطها على ظهري، تدفعني إلى الأمام لأعبر الأشجار.. أعبر التماثيل.. أعبر المشردين الممددين على المقاعد. عندما خرجنا إلى مكان أكثر ازدحامًا بالناس، رجل على دراجته، وثلاثة شباب مخمورين يسيرون متشابكي الأذرع، دارت بي «سام» عائدة إلى الداخل، تخفي الدم الذي يغرق ملابسي عن الأنظار، ولم تتوقف إلا عند بركة المستنبت، تلك البركة الأنيقة التي تبحر مراكب الأطفال الورقية في مياهها الضحلة نهارًا. أخذتني إلى الحافة، وأجلستني على ركبتي، وغمرت يديَّ في الماء. صارت «سام» تغسل الدم عن ذراعي ووجهي ورقبتي قدر الإمكان، وعلى الجانب الآخر كان هناك متشرد يفعل ذات الشيء لنفسه، وعندما رأته «سام» يحدق بنا، عبر صوتها الماء صائحة به:

- إلامَ تنظر بحق الجحيم؟

فتراجعَ الرجل إلى الخلف، وحمل ملء قبضته من أكياس القمامة، مختفيًا في الظلام.

غرفت «سام» من الماء، ورشّت به جبهتي، وقالت:

- أنصتي إليّ، أعتقد أنه لم يزل حيًّا.

أريد أن أصدقها، ولكنني لا أدع نفسي تقتنع بذلك، وأهمهم:

- لا.. لقد قتلته.

- لقد تحسست نبضه.

- أأنتِ متأكدة؟

- نعم، أنا متأكدة.

تدفق الفرَجُ يغسلني، أكثر مما يفعل الماء الذي استمرت هي في سكبه على جلدي الملطخ بالدم، فصار تنفسي أيسر، وانفتح حلقي للهواء وأطلق عبرةً أخرى، ولكنها هذه المرة عبرة حمد.

- نحتاج إلى طلب المساعدة

غمرت «سام» يديَّ في الماء ثانيةً، وفركتهما بين يديها، تمحو أثر جريرتي من فوقهما، بينما تقول:

- لا يمكننا ذلك يا «كوين».

- لكنه يحتاج للذهاب إلى مستشفى.

حاولتُ جذب يديَّ من تحت الماء، لكن «سام» استبقتهما، وقالت:

- الاتصال بـ 911 سيتضمن بلاغًا للشرطة.

- وعليه؟.. سأخبرهم أنني كنت في حالة دفاع عن النفس.

- وهل كنتِ؟

- لقد كانت معه مطواة!

- أكان سيستخدمها؟

لا أستطيع الإجابة عن ذلك، ربما كان سيفعل في نهاية الأمر، أو أنه كان سيرحل، لن أعرف أبدًا.

- كانت معه على أي حال.

قلتُها، لا أدري أيُّنا أريد أن أقنع، «سام» أم أنا نفسي..

- لن تُدينني الشرطة إذا ما عرفت ذلك.

أخرجت «سام» يديَّ من الماء أخيرًا، ورفعتهما لترى إذا ما تبقى أي أثر للدم. لقد زال كله، وكفَّاي شاحبتان تلمعان.

سيفعلون، إذا ما علموا أسبابنا للوجود هنا.. إذا ما علموا أننا كنا نحاول إغواء شخص ما.. خاصة إذا وجدوا أنه كان بإمكانك الابتعاد

كانت الطريقة الوحيدة لكي تعرف كل ذلك أن تكون موجودة، مختبئة تشاهدني طوال الوقت، وتشاهد كذلك مطواة الرجل تسقط من جيبه.. هذه الحقيقة فاقت كل ما عداها!

- أرأيتِني؟!

- نعم.

- أكنتِ هناك؟

بدأت أنفاسي تتسارع مجددًا، وجسدي يتمزق مع شهقات تخمش رئتيَّ كأنها الاحتضار. نقص الأكسجين المفاجئ جعلني أشعر بالدوار، أو ربما هي الصدمة، أيا كان منهما، كان علي أن أثبِت نفسي على حافة البركة، كيلا أسقط في الماء. عندما تكلمت، خرج الكلام في انفجارات غاضبة حادة:

- لماذا.. لم تتدخلي.. لمساعدتي؟!

- لم تكوني في حاجة لمساعدة.

- كان معه مطواة!

تصاعدت غصة الغضب في حلقي، وأحسست كأنني ابتلعت خمرًا ثقيلًا ينتفض في حلقي متحركًا - عكسيًا - إلى الأعلى ببطء.

- فقط جلستِ في الخلفية تتفرجين، يا للسخف!

- أردت أن أرى كيف تتصرفين.

- وتقريبًا قتلتُ رجلًا، أمسرورة؟.. هل هذا هو رد الفعل

الذي كنتِ تبحثين عنه؟..

- السؤال الذي كان ينبغي أن تطرحيه هو: لِمَ لم تحاولي كبح جماح نفسك؟

تمكنتُ من الوقوف، وهززت يديَّ أنثر عنهما الماء، ثم خطوت مبتعدة عن البركة.. وعن «سام»، التي صرخت ورائي:

- «كوين»، لا تذهبي.

- بل ذاهبة.

- أين؟

- إلى الشرطة.

- سوف يعتقلونك.

ما أوقفني هو الطريقة التي قالتها بها. كانت نبرتها حيادية، كأنما فقط تقرر حقيقة واقعة. هي محقة، وأنا أعرف ذلك. الهلع يغلي في عمق معدتي، إنني كالفراش المهمِل الذي ينجذب إلى اللهب، وها قد ابتلعني.

- معطواة أو لا، لن تكترث لذلك الشرطة، وسيرونك مجرد عاهرة تشتهي الانتقام، وقد أتت باحثة عن المشاكل.. سيُقبض عليكِ بتهمة الاعتداء الجسيم وربما أسوأ، نوعية من التهم لن يستطيع فتاكِ «چيف» التحدث للضابط بشأن إسقاطها.

أفكر في «چيف».. على بعد بضع بنايات يغرق في سباته.. هذا يمكن أن يدمره، لا علاقة له بالأمر، ولكن لا أحد يعنيه ذلك، ذنبي كفيل بتدمير كلينا.

عاودني الدوار ومعه رعشة قاسية تشل ساقيَّ. كنت أترنح، لا أدري إلى متى سيمكنني أن أظل واقفة. استمرت «سام» في الحديث، ليسوء الأمر أكثر.

- ستكونين على صفحات الجرائد مجددًا يا «كوين»، ليست واحدة فقط، بل جميعها.

أنا متأكدة من ذلك، أتخيل العناوين الرئيسية: ناجية أخيرة تعود إلى الأضواء بجريمة عنف.. «جوناه تومبسون» سينتشي بذلك. تكمل «سام»:

- لا مجال للتعافي عندئذ، إن ذهبتِ إلى الشرطة، فتلك الحياة التي تعرفينها ستنتهي.

الكلمات قميئة في فمها، رغم أنها لا تقول إلا الحقيقة. كرهتُها في كل الأحوال.. كرهت ظهورها مقتحمةً حياتي.. إحضاري إلى ذلك المتنزه.. يمتزج مع الكراهية شعور آخر أشد سطوة.. اليأس.. إنه يغلي بداخلي، يجعلني أتعرق وأصرخ وأشعر بالعجز الشديد، أريد أن أغوص في البركة ولا أطفو ثانية. سألتُها وانعدام الأمل يشرخ صوتي:

- وماذا علينا أن نفعل؟

- لا شيء.

- إذن نخرج من المتنزَّه متظاهرتين بأن لا شيء هناك؟

- جيد جدًا.

التقطت سترتها التي كوَّمتُها أنا على حافة المياه، وضعتْها على كتفيَّ ثانية، ودفعتني إلى الأمام. هذه المرة كنا متباطئتين، وكلانا تترقب أي أثر للشرطة، حتى خرجنا من منفذ مختلف عن المرة السابقة.

قلة من الناس من رأونا في طريقنا من «سنترال بارك ويست» حتى بنايتي، أولئك الذين يعتبروننا فتاتين في حالة سكر بيِّن تتعثران في طريق عودتهما، وترنُّحي مع الدوار ساعدَ في تصدير هذا الانطباع.

بمجرد دخولنا البيت، دخلت إلى حمام الضيوف، وملأت حوض الاستحمام، وخلعت ملابسي. شعرت بتهيج في أمعائي لرؤية كمِّ الدماء التي أهرقتُها. ليست بمثل سوء الفستان الأبيض الذي تحوَّل إلى الأحمر في «كوخ الصنوبر»، لكنها قريبة، سيئة بما يكفي لأن أبدأ في النشيج ثانية، بينما أغوص بجسدي

في الحوض. تكوَّنت في المياه فروع رقيقة من اللون الوردي اتسعت في دوائر حتى تلاشت. أغمضت عيني وقلت لنفسي إن كل ما في هذه الليلة سيتلاشى بنفس الطريقة. بريق ملون سرعان ما ذهب، الرجل في المتنزه سوف يعيش، ولأنه كان يحمل مطواة، فلن يتحدث عما فعلته به. سيطوي النسيان كل شيء خلال أيام.. أسابيع.. شهور..

تفحصتُ مفاصلي، فوجدتها قد احمرت إلى درجة مروِعة، والألم ينبض فيها، وألم مماثل ينتشر في قدمي التي ضربت بها الرجل حتى فقدَ وعيه. عاودتني أحاسيس أقسى مما مرَّ بي في وقت سابق من هذه الليلة.. اقتلاع شعري، رؤيته «هو» مقرفصًا على الأرض وفي متناول يده مطواة تلوثت بالدم، ذكريات.. لكنها ليست لهذه الليلة، بل لأخرى مرت منذ سنوات عشر.. لـ «كوخ الصنوبر».. لأشياء ظننت أنني نسيتها، وقلت لنفسي إنها لا يمكن أن تكون قد حدثت.. إن كل ما هو عن تلك الليلة قد اقتُطع من عقلي تقريباً. كنتُ أعرف أنني مخطئة، وها أنا أتذكر المزيد بدلًا من النسيان. انزلقت أكثر في الحوض، على أمل أن يغسل الماء الساخن كل شيء، لا أريد أن أتذكر ما حدث في «كوخ الصنوبر»، لقد كان ذلك هو السبب أنني اقتطعته من ذهني، صحيح؟ لأنه كان أبشع من أن أحتفظ به في رأسي. لكنِ سواء أحببت ذلك أم لا، لا مجال لإنكار أنَّ شيئاً منه قد آبَ إلى عقلي الليلة.. ليس شيئًا ضخمًا، مجرد ومضة قصيرة من الذكرى، كأنها صورة باهتة، ولكنها كافية لبثّ الرجفة في أوصالي، رغم الماء الساخن الذي يغمرني حتى رقبتي.

طرقات متسارعة على الباب، إنها «سام» تعلمني أنها على وشك الدخول. خطت خطوة واحدة إلى الداخل، قبل أن تستوقفها كومة الملابس الملوثة بالدماء. انحنت تحملها في صمت، فسألتها:

- ماذا ستفعلين بها؟

- لا تقلقي بشأن ذلك، أعرف ما ينبغي فعله.

- قالتها وأخذت الملابس خارج الحمام.

لكنني كنتُ قلقة.. بسبب الذكريات التي عادت إلى وعيي فجأة.. وبسبب الرجل في المتنزّه.. وبسبب تساؤلي لماذا وقفت «سام» في الخلفية تشاهدني وأنا أضربه بلا وعي، وكأنه مجرد اختبار آخر لي من اختباراتها غير المعلنة.

فجأة، صدمتني فكرة.. سؤال تحوَّل فعلًا إلى الضبابية، بفعل البخار المتصاعد من الماء، وبفعل استنفاذ قواي.. كيف لـ «سام» أن تعرف ما ستفعله بملابسي الغارقة في الدماء؟.. وواحد آخر، كيف كانت بذلك الهدوء ونحن نفر من ساحة جريمتي؟!.. الآن، عندما أفكر في الأمر، أجد أنها كانت أكثر من مجرد هادئة.. لقد كانت في منتهى الدقة والخفة في الخروج بي من المشهد، تتأكد من إخفائي وإخفاء الدماء التي فوق ملابسي من الناظرين، وتعثر على مصدر للمياه لتغسل الدماء عني.. لا أحد يمكنه أن يكون كفئاً لهذه الدرجة في تلك الظروف، ما لم يكن قد فعلها من قبل!

هذه الأفكار تلتها فكرة أخرى، ليست سؤالًا هذه المرة، بل يقينًا ضجَّ في عقلي، مسرعًا وعاليًا إلى درجة أنني قفزت واقفة في الحوض، والماء يتناثر على جانبيه..

الحقيبة..

لقد تركاها وراءنا في المتنزّه!

الفصل 20

حين أخبرتها بفقدي للحقيبة، قالت لي «سام»:

- لا يقلقنَّكِ ذلك الأمر يا صغيرتي.. لقد لاحظت ذلك في حينه، لو كان بها شيء هام، لأخذتها معنا.

كنا في حجرتها، هي تدخنِ سيجارتها عند الشباك، وأنا أجلس على حافة الفراش، منفعلة..

- وهل أنتِ واثقة أن ليس بها ما يشي بنا؟

- واثقة.. الآن حاولي أن تنامي قليلًا.

كانت هناك أسئلة كثيرة أريد طرحها، ماذا فعلت بملابسي المبقعة بالدم، لماذا جعلتني ألتقط مثل تلك الصور في المتنزه، هل كنتُ عنيفة ومختلة جدًا إلى درجة أن أستدعي تلك اللمحات الخاطفة من.. «هو» في «كوخ الصنوبر»؟ كل التساؤلات بقيت داخلي، حتى لو ذكرتُها، لن تعلق «سام» عليها.

وهكذا غادرت الحجرة، قاصدة المطبخ، أبتغي الزاناكس وصودا العنب، قبل أن أستلقي على الأريكة جاهزة لقضاء ليلة جديدة بلا نوم.

لكن ما أدهشني أنني سقطت في النوم، لقد كنت منهكة إلى درجةٍ لم يمكنني معها مغالبته. غفوتي كانت قصيرة، قاطعها كابوسٌ عن «ليزا».. وعن الجميع. كانت «ليزا» تقف وسط «كوخ الصنوبر»، والدم يتدفق من جروح رسغيها، وفي يدها حقيبة «سام»، وقد تناثرت عليها الدماء. كانت تمد إليّ يدها بها قائلة: لقد نسيتِ هذه يا «كوينسي».

انتفضتُ جالسة وقدماي ثابتتان، ورغم الصمت الذي يعم البيت، إلا أن ذبذبات صدى ما كانت تتردد في غرفة المعيشة، أحسها، ربما تكون صدى صرخة أنا من أطلقتها.

مرت دقيقة وأنا أنتظر أنَّ أحدًا سيستيقظ حتمًا، فبالتأكيد

سمعها «جيف» و«سام».. أو ربما أنني لم أصرخ.. ربما كانت فقط في الحلم. خارج النافذة، كانت سماء الليل ترق، والفجر يخترقها شيئاً فشيئاً. أعرف أنَّ عليّ أن أحاول النوم مرة أخرى، وإلا سأنهار قريبًا جراء قلة النوم، لكن أعصابي تطلق شرارات الفوضى في رأسي، وربما كانت الوسيلة الوحيدة لإخمادها هي الذهاب إلى المتنزّه، لأنظر إن كانت الحقيبة ما تزال هناك.

وعلى هذا الأساس، تسللتُ على أطراف أصابعي إلى غرفة النوم، وزفرتُ ارتياحًا إذ وجدت «جيف» نائمًا يطلق شخيرًا خافتاً. وبسرعة، ارتديت ملابس الجري، ووضعت في يدي قفازين مفتوحي الأصابع، كي أخفي بهما الجروح على عقلات أصابعي، والتي بدأت تكوِّن قشرة عليها.

وبمجرد أن خرجت، عبرت البنايات عدوًا كالصاروخ، ازدادت سرعتي أكثر وأنا أعبر «سنترال بارك ويست»، حتى اضطرَّ سائق إحدى سيارات الأجرة إلى ضغط دواسة الفرامل بشدة لتفادي صدمي. أطلقَ السائق نفير سيارته، لكنني تجاهلته.. في الحقيقة، لقد تجاهلت كل شيء وأنا أطير نحو تلك البقعة في المتنزّه، حيث سقطت الحقيبة من يدي.. نفس البقعة التي ضربتُ فيها رجلًا، حتى جعلت وجهه يشبه التفاحة المتعفنة. لكن الآن قد ذهب الرجل.. وكذلك الحقيبة.. وحلَّ مكانهما رجال الشرطة. عشرات منهم يروحون ويجيئون حول مربع من شريط الشرطة الأصفر أحاط المكان، فبدا المشهد كأنه جريمة قتل، من ذلك النوع الذي تراه في برامج التلفزيون البوليسية. يتفحصون تلك المساحة، ويتناقشون بينما يحتسون القهوة التي يتصاعد البخار من أكوابها الورقية. ظللت خلف المتسكعين للمشاهدة وأنا أتقافز، كان هناك العديدون رغم الساعة المبكرة، والفجر يتراءى في لونه ما بين الأزرق والرمادي. اخترت سيدة مسنة تصطحب كلبًا مسنًا مثلها لأسألها:

- ماذا هناك؟

- رجلٌ هُوجم.. الضرب كان مبرحًا.

- هذا فظيع.. هل سيكون بخير؟

قلتُها آملة أن تبدو نبرتي مكتسية بالتعاطف، فأجابتني بصوت كالهسيس كأنها تحكي فضيحة:

- أحد رجال الشرطة هؤلاء يقول إنه في غيبوبة.. المدينة مليئة بمرضى النفوس.

في داخلي، كنت أشعر بمشاعر متداخلة تَخزني كأشواك الصبار.. هناك سعادة بأن الرجل لم يزل حيًّا، بأنني رغم كل شيء لم أقتله، وارتياح لأن كونه في غيبوبة يعني أنه لم يحكِ شيئًا للشرطة، وبالذنب لكوني أشعر بالارتياح هكذا، وبالقلق.. هذا هو الشعور الغالب، القلق بشأن الحقيبة التي قد تكون الشرطة قد عثرت عليها.. أو سُرقت، أو جرَّتها الذئاب التي - لسبب غير مفهوم - تجد طريقها إلى المتنزه، لا يهم أيًا ما يحدث لها طالما أنها بعيدة عن حيازة الشرطة، فتلك الحقيبة يمكن أن تربطني بحادث الضرب، فبصماتي تغطي كل أجزائها.

ولذا، فقد عدتُ إلى البيت بوجه مظلم بالعبوس. كان «چيف» قد استيقظ عندما انسللت عبر الباب الأمامي، كان واقفًا في المطبخ مرتدياً «تيشرت» فوق ملابسه الداخلية..

- «كوينسي»؟.. أين كنتِ؟

- ذهبت لأجري.

- في هذه الساعة؟!.. الشمس لم تشرق بعدا

- لم يواتني النوم.

نظر «چيف» إليَّ بعينيه المنتفختين، وأثر النوم لم يزل يغشاهما، حكَّ رأسه، ثم حكَّ بين نهديه، وسألني:

- هل كل شيء على ما يرام؟ هذه ليست أنتِ يا «كوين»

- أنا بخير.

كان من الواضح أنني لستِ بخير، كأن جسدي أجوف، وكأن كل ما بداخلي قد كُشط بمغرفة الأيس كريم التي أستخدمها لوضع الزبد في علب كيك الـ «مافن». كررت:

- بخير.

- أكل هذا بسبب الليلة الماضية؟

تجمدت أمامه.. ما الذي عرفهُ - لو أنه قد عرف شيئًا- عن ليلة أمس؟.. إحساسي بأني أخفي عنه سرًا، يجعلني أرتجف بإحساس الذنب. أن يمكنه العلم بما حدث هو الاحتمال الأكثر سوءًا.

- لأنَّ عليَّ الذهاب إلى شيكاجو.

زفرتُ ببطء، كيلا أثير شكوكه، ثم قلت:

- بالطبع لا.

- لقد بدا عليكِ الضيق الشديد حيال الأمر. صدقيني، أنا أيضاً يا «كوين» لا أحب فكرة أن أتركك وحدك مع «سام».

- سنكون بخير.

حدَّق بي للحظة، عابسًا، في صورة مثالية لحامل الهم، وقال:

- هل أنتِ واثقة أن كل شيء على ما يرام؟

- أجل. لمَ تكرر سؤالي عن ذلك؟

- لأنكِ نزلت للجري قبل السادسة، ولأنك اكتشفت للتو أن «ليزا ميلنر» قد قتلت، والفاعل مجهول.

- وهو ما أعجزني عن النوم، وذاك ما دفعني إلى النزول للجري.

- ولكنكِ سوف تحكين لي إذا ما ساءت الأمور. صحيح؟

كنتُ أرتعش من مجهود اغتصاب ابتسامة أضعها على وجهي، لجذبني «چيف» إلى صدره يحتضنني. حاولتُ أن أبادله العناق، لكنني لم أستطع، غلبني الإحساس بأنني لا

أستحق هذه المودة.

بعدها، أعددت الإفطار بينما يتجهز للنزول إلى عمله، وتناولنا الطعام في صمت، وأنا أخفي يدي المجروحة تحت منشفة الأطباق أو في حجري، بينما يتصفح «چيف» جريدة «نيويورك تايمز»، وأنا أسترق نظرة إلى كل صفحة يقلبها، لأرى خبرًا عن رجل المتنزه، رغم علمي أن الوقت مبكر جدًا لذلك، فجريمتي حدثت بعد آخر موعد لنشر خبر جديد في العدد الصادر اليوم، وسيتأجل بحيمي الخاص ليفتح أفواهه مع طبعة الغد.

بمجرد أن غادر «چيف»، خلعت المفتاح من حول رقبتي وفتحت درجي السري في المطبخ. كان القلم الذي سرقته «سام» من المقهى هناك، أخذته وكتبت به كلمة واحدة بعرض معصمي: «صامدة»

ثم قفزتُ تحت الدش، وأنا أشد أجفاني كيلا ترمش بينما أراقب الماء يغسل الحبر من على جلدي..

لم ننبس أنا و«سام» ببنت شفة.. كنا نخبز فقط.. أهدافنا محددة جيدًا: «تورت التفاح المقلوب» مع صوص الكراميل لي، وكعكة السكر لـ «سام». كل منا تعمل في طرف من المطبخ بعيدًا عن الأخرى، كجبهتين متعارضتين قد تحالفتا في حرب ضد عدو مشترك. وبينما أعجن العجين للتورت، ظللت أطمئن أن يدي لا تنز الدم في العجين، متيقنة أنني سأجد اللون القرمزي يتسلل إلى راحة يدي، لكن كل ما رأيته هو اللحم وقد تورم واحمر نتيجة لغسله مرات عديدة.

قالت «سام»:

- أعلم أنكِ تعيدين التفكير.

- أنا بخير.

- لقد قمنا بما هو صائب.

- أحقًا؟

- أجل.

كنتُ قد بدأت بتقشير التفاح قبل تقطيعه إلى رقائق، يداي ترتجفان وأنا أنظر إلى قشر التفاح الأحمر والأصفر الذي يسقط ملتفاً حول نفسه في شرائط طويلة، آملة أن أصبّ كامل تركيزي عليه بما يكفي لتكفَّ «سام» عن التحدث، ولكن ذلك لم يجدِ، واستمرت تقول:

- الذهاب إلى الشرطة الآن لن يعيد الأمور إلى نصابها ثانية.. بغض النظر عن مدى رغبتك في القيام بذلك.

- الأمر ليس أنني أريد الذهاب إلى الشرطة، ولكن ما أعتقد أنه ينبغي عليَّ أن أفعل. أعرف من خلال عمل «چيف» أنه من الأفضل دومًا لمرتكب الجريمة أن يذهب بنفسه، لا أن يتم القبض عليه، فعلى الأقل رجال الشرطة يحترمون - على مضض- من يأتي بنفسه للاعتراف، وكذلك الحال مع القضاة.

استطردتُ:

- يجب أن نخبر « كووب».

- هل فقدتِ عقلك اللعين؟!

- ربما كان بإمكانه مساعدتنا.

- إنه يظل شرطيًّا!

- إنه صديقي.. وسوف يتفهم.

على الأقل أرجو أنه سيفعل، فهو يقول دائماً إنه على استعداد لفعل أي شيء ليحميني. هل هذه حقيقة مطلقة، أم أنَّ هناك حدودًا لوفائه، فهو بأي حال، قد أعطى وعده ذاك لـ «كوينسي» التي يعرفها، وليس لـ «كوينسي» الموجودة حقًا. أشك أن مثل هذا الوعد ينطبق على «كوينسي» التي تناولت بالفعل قرصين من الزاناكس منذ عادت من المتنزه هذا الصباح، أو «كوينسي» التي تسرق الأشياء اللامعة، لمجرد أن

ترى انعكاس صورتها عليها، أو «كوينسي» التي سحقت رجلًا، إلى درجة أن تدخله في غيبوبة!

- دعكِ من الأمر يا صغيرتي، إننا بخير، وقد ابتعدنا عن كل ذلك، انتهى الأمر.

سألتها ربما للمرة الخمسين:

- وأنتِ مطلقة الثقة في أن تلك الحقيبة لا تحتوي شيئًا يقود إلينا؟

- تمام الثقة. أطفِئي لهيب القلق الذي يأكلك.

لكن بعدها بساعة، رنَّ هاتفي بينما أُخرج التورت المقلوب من الفرن، فأسرعت بوضعه على سطح المطبخ وبخلع قفاز الفرن، وأجبت المكالمة، فأتاني صوت امرأة تقول:

- هل يمكنني التحدث إلى الآنسة «كوينسي كاربنتر»؟

- أنا «كوينسي».

- آنسة «كاربنتر»، معك المحققة «كارمن هرناندز»، من شرطة نيويورك.

جمَّدني الخوف وشعرتُ برجفة وبتنميل في جسدي. قدرتي على الاستمرار في حمل الهاتف هي قدرة غامضة، أما مسألة أنني ما زلت أستطيع التحدث، فتلك معجزة صغيرة..

- كيف يمكنني مساعدتكِ، حضرة المحققة؟

عندما سمعت «سام» ما يقال، استدارت بقوة نحوي، وهي تحتضن وعاء العجن على بطنها.

- كنتُ أتساءل إذا ما كان بإمكانكِ الحضور إلى القسم اليوم....

سمعتُ باقي ما قالته بنصف إنصات، فقد تحالفَ الخوف الذي جمدني مع أذني، فمنع الصوت من الوصول إليَّ، في صفقة طيبة، ولكن الكلمات المفتاحية كانت واضحة، كضربات فأس على الجليد. أسئلة.. الكثير من الأسئلة.

أجبتُها:

- بالطبع.. سأكون هناك بأسرع ما يمكنني.

بمجرد أن أنهيتُ المكالمة، انحسرت قبضة الخوف المجمدة، ليحل مكانها صَهد الاحتراق باليأس. وفي المصيدة بين التجمد والاحتراق، انهرتُ على أرض المطبخ، كما يذوب الثلج متحولًا إلى بركة من الماء.

يومان بعد «كوخ الصنوبر»

كانا يُدعيان المحقق «كول» والمحقق «فريمونت»، رغم أنه كان من الممكن تسميتهما الشرطي الطيب والشرطي الشرير، ولكل منهما دور يلعبه، وقد أدَّيا دوريهما جيدًا. «كول» كان الطيب، كانَ شابًا ربما لم يكمل الثلاثين، أحبت «كوينسي» عينيه الودودتين وابتسامته الدافئة، القابعة تحت شاربه المنمق، الذي يُربّيه محاولًا أن يبدو أكبر سناً، وعندما وضعَ ساقًا على ساق، وجدت «كوينسي» جواربه تتسق مع الأخضر في ربطة عنقه في لمسة لطيفة.

«فريمونت» كان الفظَّ فيهما، كان قصيرًا مدكوكًا أصلع، له صدغان يشبهان صدغيّ كلب «بولدوج» ترجرجا قليلًا حين قال:

- هناك شيء ما يحيِّرنا.

أضافَ «كول»:

- يغلبنا الفضول أكثر منهُ الحيرة

حدجهُ «فريمونت» بنظرة غاضبة، وقال:

- الأمور غير متسقة يا آنسة «كاربنتر».

كانوا في غرفة «كوينسي» في المستشفى، والألم يمنعها من ترك الفراش، لجلست فيه مدعومة بالعديد من الوسائد، وهناك إبرة وريدية في ذراعها، وخزُها الضعيف المستمر يشتت انتباهها عما يقوله المحقق..

- أمورا!

قال «كول»:

- لدينا أسئلة.

زادَ «فريمونت»:

- الكثير منها.

- لقد قلتُ لكما كل ما أعرفه بالفعل.

كان ذلك في اليومِ السابق، و«كوينسي» قد تلقت من مسكّات الألم ما أذهب عقلها، فلا تعرف تماماً ما قالته، لكنها غطت الأساسيات، إنها متأكدة من ذلك. لكن «فريمونت» حدَّق بها بعينيه المحتقنتين المرهقتين.. بزّته شهدت أيامًا كانت أفضل من حالها الآن، حيث اهترأت حواف الأكمام، وهناك بقعة صفراء من (المستردة) على ياقة السترة، وآثار وجبات سابقة. قال:

- لم يكن ذاك كثيرًا أبدًا.

- أنا لا أتذكر الكثير.

تدخَّل «كول»:

- إننا نأمل في استطاعتك أن تتذكري أكثر. هل يمكنكِ المحاولة؟ فقط لأجلي، سأقدِر لك هذا كثيرًا.

تراجعت «كوينسي» بظهرها تسنده إلى الوسائد، وأغمضت عينيها تفتش في ذاكرتها عن أي شيء من تلك الليلة، ولكن لا شيء سوى يمّ أسود يُرغي ويزبد، وما شاهدت من قبل، «جينيل» تخرج من الغابة، وبريق السكين.. ثم رأت بعد ذلك ركضها عبر الغابة، والأغصان تخمش وجهها، بينما ظهر منقذها في الأفق، كل ما بينهما ضائع.

رغم ذلك حاولت.. قبضت أجفانها ويديها بشدة، تسبح في تلك اللجَّة، تغوص تحتها، وتحاول أن تجد فيها شيئًا..

ثم خرجت من كل ذلك بلا شيء، مجرد ومضات.. من الدماء.. السكين.. وجهه.. كلها لا تضيف شيئاً، مجرد قطع «بازل» بلا تفاصيل، لا تعطي أي علامة في تكوين الصورة.

- أعجز عن ذلك.

قالتها «كوينسي» أخيرًا وهي تفتح عينيها، نجلى والدموع على وشك الفرار من مقلتيها..

- أنا آسفة حقًا، لكنني لم أستطع.

المحقق «كول» ربَّت على ذراعها، فاجأتها نعومة راحة يده، إنه أكثر وسامة حتى من ذلك الشرطي الذي أنقذها، صاحب العينين الزرقاوين، الذي هرع إليها عندما صرخت طالبة حضوره بالأمس. قال «كول»:

- أنا متفهم لذلك.

- أنا لا.

قالها «فريمونت»، وهو يتململ على الكرسي، الذي يئزُّ من تحته..

- أحقًا نسيتِ كل ما حدث ليلة أول أمس، أم أنك فقط تريدين النسيان؟

وفي الحال أضاف «كول»:

- إنه من المفهوم تمامًا أن تريدي ذلك، فلقد عانيتِ من أهوال عظيمة.

استمر «فريمونت»:

- ولكننا نحتاج إلى معرفة ما حدث.. هذا غير مقنع.

شوشت غيومٌ على أفكار «كوينسي»، وأصابها الصداع ببرق، ينبض بالألم، الذي يتجاوز وخز الإبرة في ذراعها. قالت:

- غير مقنع؟!

رد «فريمونت»:

- أناس كثيرون ماتوا.. كلهم ما عداكِ.

- لأن ذلك الشرطي أطلقَ على.. عليه الرصاص.

كانت قد اتخذت قرارها أنها لن تنطق اسمه أبدًا. أكملت:

- أنا متأكدة أنه كان ليقتلني لو لم يُردِه ذلك الشرطي بطلقة..

- الضابط «كوبر».

- أجل

لم تكن «كوينسي» متأكدة من أنها تعرف ذلك، لا شيء حول الاسم يبدو مألوفًا..

- الضابط «كوبر»، هل سألتهُ عما حدث؟

- فعلنا.

- وماذا قال؟

- قال إنه تلقَّى تعليمات بالبحث في الغابة عن مريض أُبلِغ عن فقده من «مستشفى بلاكثورن النفسي».

حبست أنفاسها خشية أن ينطق باسم ذاك المريض، مفزوعة منه. عندما لم يقله، سرى فيها تيار دافئ من الارتياح.

- أثناء بحثه، سمع الضابط «كوبر» صرخة آتية من ناحية الكوخ، وفي طريقه للتحقق من الأمر، رآكِ بين الأشجار.

ارتسم المشهد أمام عيني «كوينسي»، حتى غطى على مشهد المحققين المجاورين لفراشها. الضابط «كوبر» تفاجأ باللون الناصع لحافة ثوبها الأبيض فوق ركبتيها، مدركًا حينئذ إلى أي حد اصطبغ ثوبها بالدم. تتعثر في طريقها باتجاهه، تتلجلج بتلك الكلمات التي لا ينقطع صداها في ذهنها المشبع بحبوب الدواء: «لقد ماتوا.. لقد قُتِلوا جميعاً.. وهو ما زال حرًا طليقًا».. ثم ارتماؤها عليه تضغط نفسها إليه بشدة، فتمسح الدم.. دمها.. دم «جينيل».. دم الجميع في زيِّه الرسمي.

كلاهما سمعا ضوضاء، خشخشة في الأدغال على بعد بضع ياردات على يسارهما.

«هو»..

بزغَ من بين الأغصان ذراعان يلوِّحان، وساقان نحيفتان ترتجان.

سحبَ «كووب» مسدسه.. صوَّبه.. وأطلقه

احتاجَ الأمر ثلاث رصاصات كي يسقطه. اثنتان في صدره جعلتا ذراعيهِ تتأرجحان أكثر، كأنه دمية ماريونيت تخلّى عنها محركها فسقطت حبالها. لكنه استمر في التقدم نحونا، ونظارته قد انزلقت من فوق إحدى أذنيه، وصار إطارها يقطع وجهه مائلًا. تضخمت نظرة الذهول في العين الواحدة التي ظهرت من ورائه، بينما يطلق «كووب» رصاصته الثالثة على جبهته.

قال «فريمونت»:

- وما قبل ذلك؟.. وماذا حدث بعدها؟

تمدَّد الصداع في رأس «كوينسي»، حتى صار كبالونٍ على وشك الفرقعة..

- أنا حقًّا.. بأمانة.. لا أستطيع تذكر شيء آخر.

- لكنه ينبغي عليكِ.

صاح بها «فريمونت» غاضبًا، لسبب لا حيلة لها معه.

- لماذا؟

- لأن هناك أشياء بعينها عن تلك الليلة لا تتسق مع بعضها.

تملّك الصداع دماغ «كوينسي»، فأغمضت عينيها وأجفلت..

- أية أشياء؟

- لأكون صريحًا، نحن لا نفهم لماذا تبقين أنتِ، بينما يموت كل الآخرين.

وأخيرًا سمعتْها «كوينسي»، نبرة الاتهام الموجهة إليها، والشك القابع وراء كلامه.

- هل يمكنكِ إخبارنا لماذا؟

عند هذا الحد، تفجَّر شيء داخل «كوينسي».. رجفة الغضب ترددت في صدرها، وتبعتها شرارة التحفز. انفجر البالون داخل دماغها، مبعثرًا الكلمات التي لم تنوِ قولها أبدًا.. كلمات ندمت عليها بمجرد أن نطقَ بها لسانها..

- ربما.. (خرجَ صوتها كالفولاذ).. أنّني أشدّ مما كانوا هم.

الفصل 21

المحققة «هيرناندز» هي من أولئك النساء اللاتي لا يمكنك إلا أن تُعجب بهن، حتى وإن كنت تحسدهن. كل شيء فيها اجتمع بمنتهى الدقة، بدءًا من البلوزة داكنة الحمرة تحت السترة السوداء، إلى البنطال متقن التفصيل، وحذائها ذي الرقبة، بكعب خفيض، ثم هاك شعرها بلون الشوكولا الداكنة، مشدود إلى الخلف ليبرز تركيبة عظام وجهها مثالية الخِلقة.

عندما صافحتْني، شعرتُ بيدها صلبة وودودة في آن واحد، تقبض على يدي بطريقة يمكنها معها التظاهر بأنها لم تلحظ عظيمات أصابعي المصابة.

- شكرًا لحضورك واستجابتك لذلك الإخطار الصغير، أعدكِ أن الأمر لن يستغرق سوى دقائق قصيرة.

تنفستُ.. حاولت أن أحتفظ بهدوئي، على طريقة «سام» وتوجيهاتها لي، بعد أن جذبتني من أرض المطبخ لأنهض واقفة.

- يسعدني أن أقدم المساعدة.

ابتسمت «هرناندز».. لا تبدو كابتسامة مغتصبة. قالت:

- رائع.

كنا في «سنترال بارك».. في نفس المكان الذي جئناه أنا و«چيف» لنأخذ «سام» منذ بضعة أيام، رغم أنها الآن تبدو كأنما مرت سنوات. أخذتني المحققة عبر نفس درجات السلم التي صعدتها في تلك المرة البعيدة، التي ليست بعيدة أبدًا، ثم أدخلتني مكتبها، حيث لا أثر للفوضى، وقد خلا باستثناء إطار يحوي صورةً لها مع طفلين ورجل منتفخ الصدر كالبرميل، لا يسعني إلا الظن بأنه زوجها.. وهناك أيضا حقيبة يدا

تتوسط المكتب..

هي نفسها تلك الحقيبة التي تركناها أنا و«سام» في المتنزّه!

وجودها لم يكن مفاجأة، لقد كنا نتوقع أن هذا هو سبب الاستدعاء، وقضينا المسافة التي مشيناها إلى هنا في التفكير في مبرر لوجودها - ووجودنا- في المتنزه في الليلة الماضية. رغم ذلك تجمَّد جسدي عند رؤيتها، ولاحظت «هرناندز» ذلك، فسألتني:

- هل تعرفتِ عليها؟

تنحنحتُ كي تخرج الكلمات، التي وقفت في حلقي كأنها قطعة من عظام الدجاج ابتلعتُها بالخطأ..

- نعم، لقد فقدناها في المتنزَّه ليلة أمس.

تمنيتُ أن أعيد الكلمات إلى فمي في نفس لحظة خروجها منه، كما تفعل الحية بلسانها.

- فقدناها!.. أنتِ و«تينا ستون»؟

أخذتُ نفسًا عميقًا.. إنها تعرف بالطبع عن «سام» واسمها الجديد. هذه المحققة متوهجة العقل كما هي متوهجة المظهر، وإدراكي لذلك يشعرني بالضعف.. إنه حقًا يرهقني. عندما اتخذت مجلسها وراء مكتبها، ارتميتُ على الكرسي أمامه، وقلت لها في وهن وأنا أصحح لها:

- اسمها الحقيقي «سامنثا بويد» وقد غيَّرته حديثًا إلى «تينا ستون»».

- بعدما حدثَ لها في نُزُل «نايت لايت»؟

أخذتُ نفسًا عميقًا آخر، المحققة «هرناندز» أدت واجباتها بالقطع. قلت:

- نعم.. لقد مرت بالكثير. كلتانا مررنا بالكثير، لكن دعينا من ذلك، فأنتِ بالتأكيد تعرفينه كاملًا.

- إنَّ ما حدث لكما من الفظائع رهيب.. إنه عالم مجنون، صحيح؟

- إنه كذلك.

ابتسمت «هرناندز»، في إشفاق هذه المرة، قبل أن تفتح الحقيبة وتخرج منها عدة أغلفة ورقية ممزقة، وقالت بينما ترتب بعض الكتب بيننا على المكتب:

- لقد وجدنا الحقيبة مبكرًا هذا الصباح، ونسبناها إلى السيدة «ستون»، حين وجدنا اسمها داخل أحد الكتب، ثم عثرنا عليه عند البحث السريع في محاضر الشرطة، فعلى ما يبدو كانت قد تمَّ الإمساك بها ووجهت إليها تهمة الاعتداء على شرطي ومقاومته حين هم بالقبض عليها.

تنحنحتُ ثانية، ثم قلت لها:

- لقد كان ذلك سوء فهم.. أنا واثقة أن تلك التهم قد أُسقِطت.

- وهذا ما حدث فعلًا.

قالتها «هرناندز» وهي تقلب نظرها في أحد الكتب، على غلافه روبوت في شكل امرأة تحوم في ساحة نجمية أرجوانية. أكملت:

- لقد أنقذتِها في تلك الليلة، صحيح؟

- أجل، جئناها أنا ورفيقي «چيفرسون ريتشاردز»، إنه يعمل بمكتب المحامي العام.

اسمهُ دقَّ جرسًا ما في ذاكرة المحققة، فارتسمت ابتسامة ألم على وجهها وهي تقول:

- إنه مكلف بقضية كبيرة حاليًا، أليس هو؟

ازدردتُ لعابي وأنا أشعر بالارتياح لكوني لم أجعل «چيف» يأتي معي إلى القسم. كنت بالطبع أريده معي، لكن «سام» هي من أثنتني عن ذلك، قائلةً إن إحضار محامٍ، حتى لو كان رفيقي، سيوقظ الشكوك لديهم ضدنا، والآن ها قد صار واضحًا أنَّ جلبهُ معي كان سيأتي به للقاء محققة ممتعضة من توليه الدفاع عن شخص قتل أحد زملائها من الشرطة.

- لا أعرف الكثير عنها.

أومأت «هرناندز»، قبل أن تعود إلى موضوعنا الأصلي..

حيث إننا لا رقم لدينا للتواصل مع السيدة «ستون»، فأعتقد أن من الحكمة أن يكون لنا حوار معك، ومعرفة ما إذا كنتِ تعرفين مكان وجودها، أو أنها تقيم معك، ربما؟

كان بإمكاني الكذب، ولكنني لم أر جدوى من أن أفعل، فإحساسي يخبرني أن المحققة تعرف إجابة سؤالها بالفعل، فقلت:

- بالفعل.

- وأين هي الآن؟

- إنها تنتظرني في الخارج، في الحقيقة

على الأقل، هذا ما آمل به، فقد كانت «سام» هادئة حين غادرنا الشقة، ولكن ذلك كان كله لأجل خاطري، أما الآن وهي وحيدة، فأكاد أراها وهي تطرق الأرض بقدمها وتُنهي ثالث سيجارة على التوالي، بينما تحاول أن تلمح أي شيء من وراء زجاج المدخل الدائري. وانتني فكرة أنَّ «سام» بإمكانها - بينما أنا هنا- أن تترك المدينة بأسرها، وتنفذ من هذه المصيدة. وبأمانة، لستُ متأكدة أن هذا بالأمر السيئ.

قالت «هرناندز»:

- أظنه يوم سعدي، أتعتقدين أنها قد ترغب في الحضور معنا وفي الإجابة عن بعض الأسئلة؟

- مؤكد.

خرجت الكلمة بصوت عالٍ حادٍ كأنها صرير. فاستطردتُ:

- أفترضُ ذلك.

مدَّت المحققة يدها إلى الهاتف، ونقرت بعض الأرقام، ثم تحدثت إلى الرقيب المسؤول تخبره أن «سام» قد تكون موجودة في الخارج. قالت:

- أحضِرها إلى الداخل، واجعلها تنتظر خارج مكتبي.

- هل «سام» تواجهُ مشكلة ما؟

- إطلاقًا.. وقع حادث في الليلة الماضية، رجل تعرَّض إلى الاعتداء المبرح.

أبقيتُ يديَّ في حجري، اليمنى القبيحة المتقشرة مختبئة تحت اليسرى الأقل قبحًا، بينما أقول:

- هذا فظيع!

- أحد المتريِّضين وجده وهو يجري هذا الصباح..

أكملت «هرناندز».

- كان غائبًا عن الوعي، في فوضى من الدم. يعلم الله ماذا كان ليحدث له، لو لم يعثر عليه في هذا التوقيت.

كررتُ قولي:

- هذا فظيع!

- وبما أن حقيبة السيدة «ستون» وُجدت قريبة من مسرح الأحداث، فذلك يجعلني أتساءل إذا ما كانت قد رأت شيئًا. أو أنتِ كذلك، بالنسبة إلى ذلك الأمر، فالظاهر أنكِ كنتِ معها.

- كنتُ معها بالفعل.

- في أي وقت كان ذلك؟

- حوالي الواحدة.. ربما بعدها بقليل.

تراجعتْ «هرناندز» بظهرها في مقعدها، وهي تحك أظافرها متقنة الطلاء..

- أليس متأخرًا قليلًا التجوال في المتنزَّه في ذلك الوقت؟

- نعم هو كذلك، لكننا كنا نحتسي الخمر.. تعرفين نزهات الفتيات حين يخرجنَ معًا. وبما أنني أقطن بالقرب من المتنزَّه، فقد فكرنا أن التنزه عبره أسرع من ركوب سيارة أجرة.

إنها تلك الذريعة التي جهزناها أنا و«سام» في الطريق إلى هنا، وكنتُ قلقة من أن أعجز عن قولها، ولكن انزلقت الكذبة من فمي بلا أي تردد، وبسهولة أدهشتني أنا نفسي.

- وكان هذا وقت اكتشفت السيدة «ستون» أنها...

- «بويد».. اسمها الحقيقي هو «سامنثا بويد».

- وكان هذا وقت اكتشفت السيدة «بويد» أنها فقدت حقيبتها؟

- لقد أُخِذت منها في الحقيقة.

رفعت «هرناندز» حاجبها المنحوت بدقة وهي تقول:

- أُخِذت؟!

- توقفنا عند مقعد من مقاعد المتنزَّه، لتدخن «سام» سيجارة..

تلك حصاة الصدق وسط نهر هادر من الباطل..

- ومرَّ بنا رجل يجري، جذبَ الحقيبة وفرَّ هاربًا. لم نُبلغ عن السرقة، لأن الحقيبة - كما ترين- ليس بها شيء ذو قيمة

- فلماذا كانت تحملها من البداية؟

أجبتُها مسترسلة في الكذب:

- إن «سام» شخصية حذرة، بدرجة مرضية ربما.. لا يمكنني لومها مع اعتبار ما تعرضت له.. لنا في الواقع.. لقد أخبرتني أنها تحملها بغرض الاحتماء بها..

بإيماءة من المحققة «هرناندز» قالت:

- مثل تمويه.

وبإيماءة مني وافقتُها:

- بالضبط، فالسارق سيركز على الشيء الكبير كهذه الحقيبة، ويغفل عن الأشياء ذات القيمة مثل محفظتها.

ظلت «هرناندز» تنظر إليَّ من وراء مكتبها، تدرسني جهدًا في

صمت طال، تُحلل المعلومات متأخرةً في استجابتها لها، وبدا لي أنها تعد الثواني حتى يمر وقت كافٍ لأبدأ في التخوُّف. أخيرا سألتني:

- هل رأيتِ الرجل الذي سرق الحقيبة جيدًا؟

- في الحقيقة لا.

- ولا أي ملحوظة؟

- لقد كان المكان مظلمًا، وهو كان يرتدي ملابس داكنة، سترة منتفخة على حد ما أتذكر، لا أعرف بالضبط، فكل شيء حدث بسرعة.

استرخيتُ بظهري في مقعدي، أشعر بالتخفف، بل وأقرّ كذلك أنني شعرت بالفخر بنفسي. لقد حكيتُ كذبتنا بمنتهى الثقة دون أي هفوة، حتى كدتُ أنا نفسي أصدقها. لكن «هرناندز» فتحت أحد الأدراج وأخرجت صورة، ودفعتها عبر المكتب نحوي وهي تسألني:

- أيمكن أن يكون هذا هو الرجل الذي رأيتِهِ؟

كانت لقطة متعجلة لشاب فاسق له نظرة وحشية ووشم على رقبته، وله ذلك الجلد الباهت الجاف المميز للمدمنين.. نفس المدمن الذي انكسرت أنفه بضربة من جبهتي.. رؤية وجهه جعلت قلبي يتوقف للحظة، قبل أن أقول:

- نعم..

قلتُها في نعومة..

- إنه هو.

- إنه نفس الرجل الذي عُثر عليه مضروبًا حتى الموت تقريبًا هذا الصباح.

كانت «هرناندز» تقول ما أعرفه بالفعل. أكملت:

- اسمه «ريكاردو رويز»، «روكي» للاختصار، وهو رجل بلا مسكن، مدمن، نفس تلك القصة البائسة. دوريات الشرطة

في المتنزّه تعرفهُ جيدًا، وقد قالوا إنه لم يبدُ لهم أبدًا من أولئك الذين يقحمون أنفسهم في المشاكل، فقط يريد مكانًا لينام حتى جرعته التالية.

ظللتُ أحدق في الصورة.. معرفة اسمه وكيف كان حاله جعلا قلبي ينفطر من الإحساس بالذنب والندم. لم أفكر في الخوف الذي أحسستُ به آنذاك، ولا بالمطواة التي أخذتها «سام» بعد ذلك. كل ما أمكنني التركيز عليه هو حقيقة أنني آذيته.. بشدة.. بدرجة ربما لن يتعافى منها.

- هذا بشع..

نجحتُ في تصنّع الاهتمام..

- هل سيصبح بخير؟

- يقول الأطباء إن الوقت ما زال مبكرًا جدًا لتوقع أي سياق. لكن هناك شخص ما أوسعه ضربًا بشدة، ألم تريا أنتما الاثنان أي شيء مريب ليلة أمس؟ شخص يهرب مثلًا، أو أي أحد يتصرف بطريقة غامضة؟

- بعد أن سُرقت الحقيبة، غادرنا أنا و«سام» المتنزّه بأسرع ما أمكننا، ولم أر شيئًا كهذا.

رفعتُ كتفيّ وحاجبيّ، كتعبير عن الاهتمام البالغ بتقديم المساعدة، ثم قلت:

- آسفة، إذ ليس بإمكاني قول شيء آخر.

- إذا ما تحدثتُ إلى السيدة «ستون».. معذرة، أقصد السيدة «بويد»، هل ستخبرني بنفس القصة؟

- قطعاً!

أو على الأقل هذا ما أتمنى، فبعد الليلة الماضية، لم أعد أثق أنني و«سام» على نفس الجانب.

- أنتما قريبتان، كما أتخيل. مررتما بمحنتين متماثلتين.. أي لقب تطلقه عليكما الصحف؟

قلتُها في غضب.. بكل الازدراء والهجومية.. كأنني أُعلِم المحققة «هرنانز» أنني لا أعتبر نفسي منهنّ. ها أنا أمامها قد تخطيت الأمر، حتى لو لم أعِد مؤخرًا أؤمن تماماً بذلك. أحسّت المحققة بنبرة صوتي، وجعّدت أنفها غير متقبلة لنبرتي..

- أرى أنكِ لا تحبين هذا اللقب؟

- نهائيًا. لكنني أفترضُ أنه أفضل من أن يشار إليّ كضحية.

- لماذا تحبين أن يُقال لكنّ؟

- الصامدات.

عادت المحققة تسترخي في مقعدها، منبهرة بما سمعت. سألتني:

- وصرتما أنتِ والسيدة «بويد» قريبتين؟

- بالفعل.. من اللطيف أن أجد فيمَن حولي شخصًا يفهمني.

- بالطبع هو كذلك.

قالتها وهي تعنيها، ففي نبرتها شيء من التعاطف، وإن لم يظهر على ملامحها إلا أثر طفيف.

- وأنتِ تقولين إنها تقيم معك؟

- لبضعة أيام، نعم.

- وإذًا، فحقيقة أنَّ لها سوابق من المشاكل القانونية لا تؤرقك؟

ابتلعتُ ريقي وسألتها:

- سوابق؟.. تعنين قبل تلك المرة حين أتيتم بها هنا؟

راجعت «هرناندز» أوراقها، وقالت:

- أعتقد أن السيدة «بويد» أغفلت ذكر تلك المرات لكِ. لقد نبشتُ قليلًا في تاريخها الحديث، لا يوجد أمر جلل في غضون خمس السنوات الماضية فقط.. عدا الإمساك بها بتهمة التعدي قبل يومين من حادث «روكي رويز» المؤسف، فقد تمّ إيقافها

للسير في حالة سكر بيّن منذ أربع سنوات في «نيو هاميسفير»، ومرة غيرها في «مين» منذ عامين، وغرامة تخطّي السرعة القانونية لم تدفعها، بعد أن أوقفها رجال المرور في «إنديانا» الشهر الماضي.

توقفَ العالم بي عند تلك العبارة توقفاً مفاجئاً صارخاً، جعلَ كل شيء ينقلب رأسًا على عقب. انزلقت يداي من فوق ركبتيَّ وأمسكتا بجانبيِّ الكرسي، وكأنني سأسقط من فوقه.

«سام» كانت في «إنديانا» بالكاد في الشهر الماضي!

حاولتُ أن أبتسم للمحققة «هرناندز»، لأُظهر لها أنني ثابتة الجنان، وأنني أعرف كل ما تبتغي أن تُعلمني به عن «سام»، ولكن في الواقع كان عقلي يجتر الكثير من الذكريات، تتقلب كصفحات ألبوم صور، وكل صورة بالكاد تومض في ذهني، ساطعة، واضحة، مليئة بالتفاصيل، أرى رسالة «ليزا» الإلكترونية، تلمع باللون الأزرق الجليدي على هاتفي:

«"كوينسي"» أحتاج إلى الحديث معك. إنه أمر غاية في الأهمية. أرجوك أرجوك أرجوك ألّا تتجاهلي هذه الرسالة».

رأيتُ «جوناه ثومبسون» يقبض على ذراعي والضيق على وجهه.. «الأمر يتعلق بـ «سامنثا بويد»، إنها تكذب عليكِ».

أسمعُ صوت «كووب» الخفيض ونبرة الاهتمام: «نحن لا نعلم ما هي قادرة على فعله».

- ورأيتُ «سام» في المتنزّه، تغطي ملابسي الملطخة بسترتها، ساحبة إيايِ إلى الماء لتغسل يديَّ من الدماء، حاسمة وسريعة جدًا.. رأيتُ نفس تلك الملابس غائصة بين ذراعيها، وكأن ما حدث أمر معتاد الحدوث، و: « لا تقلقي بشأن ذلك، أعرف ما ينبغي فعله»..

رأيتُها تخترق زحام المراسلين، وتجد طريقها بينهم، غير خائفة من الكاميرات، بدون أيِ درجة من الانزعاج، عندما أعلنَ «جوناه» أن «ليزا» قد قُتِلت، وقد انعكسَ وميض الكاميرات

على وجهها، وجدته شاحباً كجثة على بلاط الأرضية. خاوياً من أي تعبير.. لا حزن.. ولا مفاجأة.. لا شيء!

- آنسة « كاربنتر»!

أتاني صوت المحققة «هرناندز» خافتًا وسط فيض الذكريات..

- هل أنتِ بخير؟

- أنا بخير.. إنني أعرف كل ذلك.. «سام» لم تكذب عليَّ أبدًا.

لم تفعل.. على أقل تقدير، ليست هناك نقطة محددة يمكنني الإمساك بها واعتبارها كذبة. لكنها لم تقل لي كل الحقيقة بدقة. منذ أتت لم تخبرني بالكثير عن أي شيء..

أنا لا أعرف أين كانت..

لا أعرف مع من كانت..

والأهم من كل ذلك.. أنا لا أعرف أي فظائع قد تكون ارتكبتْها!

الفصل 22

عاودَ البرد هجومه بكامل قوته على المتنزَّه، يصدمكَ كأنها لحظة قفزك في حوض السباحة البارد. تغير الجو عالق مع ذرات الهواء، يملؤك بالشعور أن الوقت قد مرَّ والخريف قد حطَّ بأجنحته بالفعل.

وبسبب هذا الطقس، كان الجميع يتحركون بجنون، يهرولون بدلًا من المشي، ويسرعون بالدراجات، والمربيات يدفعن عربات الأطفال المزدوجة بسرعة، فيبدو المشهد كأنهم جميعًا في حالة فرار من شيء ما، يتناثرون في شتى الاتجاهات، مما يذكرك بالنمل في فيلم «ويللي - نيللي» يفر من القدم التي توشك أن تدهسه.

أما أنا - على أي حال - فواقفة في مكاني كتجسيدٍ حي للجمود، وراء النافذة الزجاجية الدائرية العالية، «سام» في الداخل تتحدث إلى المحققة «هرناندز»، عساها تحدثها بما كان مني، كما كان فعلًا. ورغم أنني أبدو خاوية من داخلي، بلا أي انفعال، إلا أن كل ما كنت أبتغيه حقًا في تلك اللحظة هو أن أركض، ليس نحو البيت، بل بعيدًا عنه، أن أجري حتى أصل إلى جسر «جورج واشنطون»، أستمر في الركض عبر «نيوجيرسي» إلى «بنسلفانيا»، ثم «أوهايو»، أتلاشى في قلب الأرضِ، حينها فقط سأشعر أنني ابتعدت عن واقع ما فعلت في المتنزه.. ابتعدتُ عن تلك الومضات الخاطفة المشوشة عن «كوخ الصنوبر»، التي تلتصق بي كقميص بلَّله العرق.. الأهم من كل شيء، سأكون بعيدة عن «سام»، لا أريد أن أكون هنا عندما تخرج من قسم الشرطة، أخشى ما سوف أراه، كما لو أن نظرة واحدة إليها ستجعل الإثم يرتسم على وجهها جليًا ساطعًا مثل طلاء شفتيها الأحمر.

لكنني مكثت في مكاني، رغم أنَّ ساقيَّ تهتزان بعصبيةِ تلك الطاقة المكبوتة، أتضور بشدة احتياجاً وجوعاً إلى المهديء،

أشعر بطعم صودا العنب على لساني بالفعل.

إنني أبقى، لعلّي مخطئة في ظني بـ «سام»..

أريد أن أكون مخطئة..

لقد كانت في إنديانا، حين كانت «ليزا» لم تزل حية. بكل الأحوال كان سبيلاهما بعيدين، لا مجال لتقاطعهما، و«إنديانا» ولاية كبيرة يتوه المرء فيها، على عكس «مونسي»، ووجود «سام» فيها لا يعني أنها كانت قاصدة رؤية «ليزا»، وكذلك ـــ فقطعاً ـــ ليس هناك أي سبب يدعو إلى الظن بأن «سام» قتلت «ليزا»، بل إن القفز إلى مثل ذاك الاستنتاج يشي بأشياء عني أنا، لا عنها. على الأقل، هذا ما أخبر به نفسي، بينما أستجمع قواي لمواجهة هذا البرد، وساقاي ترتجفان، متسائلة ما الذي تقوله «سام» بالضبط داخل أعماق هذا المبنى ورائي، فإنَّ لها أكثر من عشرين دقيقة هناك، أشعر بها أطول كثيرًا من ذلك، إذ يغزو القلق جنبات روحي، ويثير في نفسي غضبًا يجعلني أريد أن أركض.

أخرجتُ هاتفي من جيبي، وسحبت قائمة الاتصال بإبهامي، أفكر في محادثة «كووب»، والاعتراف بكل ذنوبي، حتى لو كان معنى ذلك أنه سيكرهني. فإذا استبعدنا الجري، فهذا هو السياق المنطقي الوحيد الذي يمكنني فعله، أن أواجه آثامي وأُسقِط الأقنعة. لكن «سام» خرجت من البوابة الزجاجية الدائرية، مبتسمة كطفلة أفلتتْ للتو من شيء ما. شفتاها الممطوطتان أطلقتا سهم الخوف في قلبي، أخشى أن تكون قد حكت حقيقة ما حدث الليلة الماضية، والأسوأ، أنني صرتُ أخاف من أنها أصبحت محل ارتيابي. قرأتْ ما يدور في ذهني، لقد رأت شيئًا في تعبير وجهي، فتلاشت ابتسامتها، ومالت برأسها تقيِّمني، وقالت:

- استرخي يا صغيرتي، لقد التزمتُ بالسيناريو المتفق عليه.

كانت حقيبة اليد الصغيرة معها، مُدلى على ساعدها متأرجحة،

تعطيها مظهرًا مرحًا أقلقني. حاولتْ أن تمرِّرها لي، لكنني تراجعت خطوة إلى الوراء، لا أريد أن تكون لي علاقة بها، بل لا أريد أن يكون لي أي علاقة بـ «سام» نفسها.

أبقيتُ مسافة ذراع بيني وبينها طوال سيرنا مبتعدتين عن قسم الشرطة. حتى السير كان فعلًا مملًا، جسدي يتوق إلى الانطلاق راكضًا. لاحظتْ هي المسافة وقالت:

- هاي.. لا داعي لكل هذا التوتر، لقد أخبرتُ المحقق «ماك بيتش» بكل ما اتفقنا عليه، نزهة نسائية، وترنحنا مخمورتين في المتنزه، ثم سرقة ذلك الشخص لحقيبة اليد. إنَّ له اسماً.. «ريكاردو رويز».

حدجتني «سام» بنظرة جانبية، وقالت:

- أنتِ الآن معنية بالأسماء!

- أعتقد أنني يجب أن أفعل.

أشعر أنني يجب أن أردده كل يوم، مع الصلاة للرب، كنوع من التكفير عن ذنبي. سأفعلها حقًا، لو علمتُ أنَّ ذلك سيساعد فيما نحن فيه.

- فقط لنكن واضحين.. أمِن المسموح لي أن أذكر اسمه، ولكنه غير مسموح لي بذكر...

- إيَّاكِ ونطقه!

خرجت الجملة كفرقعة السياط، سريعة حادة لاذعة، فهزَّت «سام» رأسها وقالت:

- اللعنة! إنكِ مشدودة الأعصاب للغاية.

إن معي كل الحق أن أكون كذلك.. هناك رجل في غيبوبة بسببي.. «ليزا» قُتِلت.. و«سام» ربما تكون؟.. من المحتمل؟.. أنها كانت هناك!

- أين كنتِ قبلَ الحضور إلى نيويورك؟.. ولا تقولي هنا وهناك، أريدُ مكانًا محددًا.

ظلّت «سام» صامتةً لحظة، كانت كافية لأفكر أنها تستجمع ما في عقلها من مخزون الكذبات، كي تقرر أيها تصلح لطرحها كإجابة. في النهاية قالت:

- «مين»

- أين في «مين»؟

- «بانجور».. ارتحتِ الآن؟

لا لستُ كذلك، إنَّها تخبرني بلا شيء.

كنا ما نزال مستمرين في السير جنوباً في عمق المتنزَّه، وأشجار السنديان الحمراء تحف جانبي الممر، وأوراقها بالكاد تتشبث بأماكنها على الأغصان، بينما بدأت ثمرات شجر البلوط بالتساقط بالفعل، متناثرة في عشوائية، لتصنع دوائر حول جذوع أشجارها، والقليل منها كان يسقط بينما كنا نمر، فيصدر صوتاً خفيفاً عند اصطدامه بالأرض.

- كم طال مكوثكِ هناك؟

- لا أدري، ربما سنوات.

- وهل ذهبتِ إلى أماكن أخرى خلال ذلك الوقت؟

رفعت «سام» ذراعيها، فتأرجحت الحقيبة، وقد اختارت نبرة متعجرفة لتقول بها:

- أووه.. لا مكان محدد، فقط «الهامبتون» في الصيف، و«الريفيرا» في الشتاء، «موناكو» رائعة بصفة خاصة في هذا الوقت من العام.

- إنني أسأل بجدية يا «سام».

- وأنا جادة للغاية في ضيقي بكل تلك الأسئلة.

تمنيتُ أن أرجّ «سام» بشدة، فتتساقط الحقائق لتطرق الأرض كثمار البلوط المتساقطة حولنا. أريد منها أن تخبرني بكل شيء. وبدلًا من ذلك، أخذتُ أهدّئ دوامات عاصفة التوتر التي أخذتني معها، وقلتُ لها:

- إنني فقط أريد أن أشعر أنه ليس بيننا أي أسرار نخفيها.

- أنا لم أكذب عليكِ نهائياً يا «كوينسي»، ولا حتى لمرة واحدة.

- ولكنكِ أيضًا لم تخبريني بحكايتكِ كاملة، أنا فقط بحاجة لمعرفة الحقيقة.

- أفعلًا تريدين الحقيقة؟

أشارتِ «سام» بذقنها إلى الطريق أمامنا، ووقتها فقط اكتشفتُ إلى أي مدى أخذَنا المسير، وقد استغلت «سام» المسافة التي بيننا لصالحها، وقادتني وإياها إلى المكان الذي فررنا إليه ليلة أمس. الشرطة قد اختفت واختفى معها شريطها الذي تُحدد به المكان الممنوع، ولم يعد لهم من أثر إلّا العشب المائل مِن أثر وطء أقدامهم حينما كانوا يبحثون عن أدلة. تفحصتُ العشب باحثة عن أثر الكعب العالي لحذاء المحققة «هرناندز» ذي الرقبة العالية، فأعاقتني تكتّلات من الشموع كانت تسدّ المكان الذي عثروا فيه على «روكي رويز».. طويلة نحيفة، زجاجية، عليها صور العذراء من الجوانب، مِن تلك التي تباع بدولار في كل كشك في المدينة، وهناك أيضاً دمية دب رخيصة، يحتضن قلباً، وبوستر مكتوب عليه: «العدالة من أجل روكي»، وبالون هيليوم يطير وخيطه مثبت في الأرض بثقل بلاستيكي.

- هنا تمامًا تجدين الحقيقة.. أنتِ فعلتِ ذلك يا صغيرتي، وأنا أتستر عليكِ. كان بإمكاني أن أخبر المحققين بالحقيقة، ولكنني لم أفعل، وهذه هي كل الحقيقة التي تحتاجين معرفتها.

لم تقل شيئًا آخر، ولم تكن تحتاج إلى قول شيء آخر، وأنا فهمت بجلاء.

عادت «سام» تستأنف السير، لم تزل تتجه جنوبًا، يعلم الله إلى أين! بينما ظللتُ في مكاني قابعة، يجمّدني الإحساس بالذنب والخوف والإنهاك. لا أتذكّر متى كانت آخر مرة نمتُ حينها

أثناء الليل جيداً، كل ما أعرفه أنَّ ذلك كان قبل ظهور «سام» في حياتي، ظهورها أبعد عني الراحة حتى صارت إلى العدم، ولا أرى بارقة أمل في أن يتغير ذلك قريباً، أتخيَّل أسابيع من الأرق، يعكّر ليلي الحلم بـ «سام»، بـ «روكي رويز»، وبـ «ليزا» مدلاة من الأعلى ومعصماها مذبوحان...

- ألن تأتي؟

صاحت «سام» متسائلة، فهززتُ رأسي، فقالت:

- افعلي ما يريحكِ.

- إلى أين تذهبين أنتِ؟

- هنا وهناك.

قالتها بنبرة يقطر منها التهكم والسخرية، ثم أكملت:

- لا تنتظريني.

استأنفت طريقها، لم تلتفت لتنظر إليَّ سوى مرة واحدة، وعلى الرغم من أنها لم تبتعد كثيرًا، إلَّا أنني لم أفسر تعبير وجهها. نفس السحب التي أتت بالبرد، أطفأت شمس المساء وكسرت وهجها، وأنزلت الظل لتقسم وجه «سام» نصفين بين الضوء والظل.

كوخ الصنوبر

9:45 مساءً

بدلًا من حفل راقٍ، كما كانت «چينيل» تنوي، كان عشاءً صامتًا غريبًا، عرضًا صامتًا لمجموعة من الناس البالغين على العشاء، يتفاهمون بالإشارة، حيث تمّ سكب النبيذ، وأكل الحضور الطعام، وكل تركيزهم انصبّ على عدم إفساد ملابسهم ببقع الطعام والشراب، طامحين إلى التخلص من أثواب الحفل السخيفة وأربطة العنق الخانقة، عدا «چو» الوحيد الذي بدا مرتاحاً إلى أبعد الحدود، مستدفئًا بسترته الصوفية، غافلًا عن مدى ابتعاده عن التشبه ببقيّتهم.

لم تبدأ الأمور في التبسط إلّا بعد العشاء، حينما دخلت عليهم «كوينسي» بالكعكة، وعليها عشرون شمعة مشتعلة، وبعد نفخها بدأت «چينيل» بتقطيعها - بنفس السكين الذي جزّ إصبعها- إلى قطع عشوائية، ومن ثم بدأت الحفلة حقًا، تلك التي أجّلوها طوال اليوم، حيث صبوا زجاجات شراب كاملة في كؤوسهم، وعلا صخب الموسيقى من الـ «آي بود» والسماعات المتنقلة التي أحضرها «كريج» معه.. «بيونسيه»»، «ريهانا»»، «تيمبرليك»»، «تي»»، نفس الموسيقى التي كانوا يسمعونها في غرف النوم داخل مساكنهم، ولكنها الآن أعلى صخبًا، وجموحًا، وقد أُطلِق عنانها أخيرًا.

رقصوا في غرفة المعيشة، وارتفعت الكؤوس عاليًا ينسكب منها الخمر، عدا «كوينسي» التي لم تشرب الخمر وإنما أتت بسُمّها الخاص «كولا دايت»»، إلّا أن هذا لم يمنعها على الأقل من الرقص معهم، تدور وسط الغرفة وحولها «كريج» و«بيتز» و«رودني»»، بينما «إيمي» بجانبها، تخبطان جنبيهما معًا وتضحكان، ثم انضمّت «چينيل» إلى المعمعة حاملةً كاميرا «كوينسي»»، لتلتقط بها الصور، فثبتت «كوينسي» في وضعها، بابتسامة وحركة من رقص الديسكو جعلت نوبة من

الضحك تنتاب «چينيل»، وشاركتها «كوينسي» أيضًا. وبينما كانت الموسيقى تنبض في الغرفة وهي ترقص، والغرفة تدور كالدوامة، لم يمكنها تذكر متى شعرت بمثل هذه البهجة من قبل، هذه الحرية، وهذه السعادة.. ها هي ترقص وحولها الحبيب الأكثر تميزًا، وها هم أقرب الأصدقاء.. الحياة الجامعية البهيجة كما تخيّلتها دومًا ها هي أمامها الآن.

بعد بضع أغانٍ أخرى، تعبوا جميعهم، فملأت «چينيل» كؤوسهم مجددًا، وتمددت «إيمي» و«بيتز» على أرض الغرفة. أخرج «رودني» تلك النارجيلة التي تستخدم لتدخين الحشيش، وهو يطوِّحها بيديه كأنه يحرك علمًا. وعندما وضعها أمامه، تحلَّق حوله «چينيل»، «كريج» و«إيمي» في انتظار أدوارهم في سحب أنفاس منها. لم تُعجب «كوينسي» بذلك! حين جربت من قبل ذات مرة، أصابها سعال شديد ثم ضحك ثم سعال.. ثم شعرت بأنها مهترئة العقل ومرتبكة إلى درجة تفقدها أي استمتاع بالمزاج الجيد الذي يصنعه المخدر.

ولذا، فبينما كان الآخرون يدخنون، ظلت هي في غرفة المعيشة متمسكة بكأس الكولا، وإن كانت متأكدة تمامًا أن «چينيل» أضافت إليها خمرًا حين كانت تملأ الكؤوس للجميع. «بيتز» ذات خفة الرأس الخالدة، كانت هناك أيضًا مستلقية مخمورة على أرض الغرفة، بعد ثلاثة كؤوس من الفودكا وشراب التوت البري.

- «كوينسي».. ليس عليكِ فعل ذلك.

كانت أنفاسها تحمل رائحة الفودكا الرخيصة وهي تتكلم..

- فعل ماذا؟

- تبًا لـ «كريج».

كانت تضحك متشنجة، كأنها تُلقي بالقَسم الدستوري للمرة الأولى.

- ربما أنا أريد ذلك!

- بل «چينيل» من تريد.. ربما لأنها تتمنى أن تكون مكانكِ.

- أنتِ مخمورة يا «بيتز»، وتتحدثين بغير منطق!

- بل أنا على صواب.. وأنتِ تعرفين أني على صواب.

أصرَّت «بيتز».. وضحكت ضحكة متشنجة أخرى، حاولت كوينسي تجاهلها، لكن ضحكة «بيتز» المخمورة بقيت ملتصقة بذاكرة «كوينسي» بينما كانت تتجه إلى المطبخ.. كانت تلك الضحكة تحمل معرفةً بشيء ما.. شيء يعرفه الجميع عدا «كوينسي». في المطبخ، وجدت «چو» محنيًا على الرف، يتناول أحد تلك الاختراعات التي أعدَّتها له «چينيل». وجوده أذهلَها، فقد نسيته، لمنذ تناولهم العشاء ظل هادئًا لم تشعر بوجوده، ويبدو أن الآخرين كذلك مثلها، إذ لم يشعر به أحد، حتى «چينيل»، أهملته كدمية انتهى دورها بعد أعياد الكريسماس.

لكنه كان هناك، يتابعهم جميعًا يشربون ويرقصون من وراء نظارته المتسخة، حتى إن «كوينسي» تساءلت كيف يرى رعونتهم، هل شعر تجاهها بالسعادة؟ بالغيرة؟

- أنتِ راقصة ممتازة.

قالها بينما هو يحدّق في كوبه.

- شكرًا؟

خرجت منها كأنها سؤال، كأن «كوينسي» لم تصدقه.

- إن كنتَ تشعر بالملل، بإمكاني أخذكَ إلى سيارتك.

- لا بأس بكل شيء. ليست فكرة جيدة قيادة السيارة الآن.

- لم أكن أشرب معهم.

قالتها «كوينسي» وإن كانت تزداد قناعة أكثر وأكثر أنّ هذه كذبة، شكرًا لـ «چينيل»، لقد بدأت تشعر بأقل أثر من الطنين، وقالت:

- إنني أعتذر عن إحراج «چينيل» لكَ كي تبقى، إنّها

تستطيع دومًا أن تكون مـ... مقنعة!

- إنني أحظى ببعض المرح.

قالها بنبرة تشي بالعكس تمامًا، استطرد:

- أنتِ لطيفة للغاية.

- أشكركَ.

شكرته «كوينسي» مرة ثانية، ولمرة أخرى وضعت تلك النغمة غير المتأكدة مما تقول، كعلامة استفهام غير مرئية.

- وجميلة.

قالها «چو» هذه المرة وقد تجرأ على رفع عينيه عن كوبه..

- أعتقد أنكِ جميلة جداً.

نظرت «كوينسي» إليه.. نظرة فاحصة حقيقية.. وعندما فعلت ذلك، رأت ما يبدو أن «چينيل» سبقتها ورأته فيه.. إنه حلو.. حلاوة السذاجة.. كأولئك الأفظاظ في الأفلام، الذين ما إن يخلعوا نظاراتهم حتى يشرقوا كالزهور.. هالة قوية تشع حول سلوكه الخجول، وتجعله يبدو صادقًا في كل كلمة يقولها ويعنيها.

- أشكركَ.

قالتها من قلبها هذه المرة.. بدون علامة الاستفهام.

بعدها مباشرة، تزاحمَ الآخرون عائدين، وقد جعلهم الحشيش مهتاجين بالضحك المفرط، و«رودني» يحمل «إيمي» المستمرة في الصراخ على كتفه، و«چينيل» و«كريج» يتكئان على بعضهما، والابتسامة تعلو وجهيهما، وذراع «چينيل» النحيف يحيط خصره، يرفض أن يتركه حتى وهو يتجه نحو «كوينسي»، ظلت تمده وراءه متشبثة به، وهي توجه حديثها إليها..

- «كوينسي»، لقد فاتكِ الكثير من اللهو.

كان وجهها محتقناً لامعاً، وخيوط من شعرها الداكن المتعرق ملتصقة بصدغها، لكن ما إن لمحت «چو» موجودًا في المطبخ هو الآخر، حتى غاضَ الدم في وجهها، وأخذت تنقل بصرها بين «كوينسي» و«چو»، ثم وجهت إليه الحديث بحرارة كأنه صديقها الغالي، الذي افتقدته منذ زمن طويل:

- أنتَ هنا!.. لقد كنتُ أبحث عنكَ طوال الوقت.

سحبته من يده حتى أجلسته على كرسي وثير في الغرفة الكبرى، وجلست تزاحمه فيه وركبتاها في حجره.

- هل تقضي وقتًا طيبًا؟

سألته «چينيل»، فأشاحت «كوينسي» بوجهها بعيدًا، لتركز نظرها على «كريج» الآتي إليها ثملًا هو الآخر، ولكنّه ليس مفتولًا بالثمالة مثل «بيتز»، ولا صاخبًا مثل «چينيل». كان له بريق ناعم، بهذا الجسد المشدود.

همست تجيبه:

- بالتأكيد.

وهي تطير بخفة معه نحو الردهة، لم تستطع تجاهل نظرات «بيتز» التي تكاد تقول لها: «لقد حذّرتكِ ولم تستمعي إليّ!»، ولا نظرة «چينيل» أيضًا، وهي ما تزال تلتصق بـ «چو» وتمسّد شعره متظاهرة بالاهتمام به، إذ كانت عيناها مظلمتين، لم تدرِ «كوينسي» أهي حقًا راضية عن تمام خطتها لهما، أم أنّ الغيرة تملؤها؟!

الفصل 23

لاحقني الإرهاق بمجرد عودتي إلى البيت، فلم أصل إلى أبعد من غرفة المعيشة، حيث انكفأت على وجهي على الأريكة وانهرت نائمة. استيقظت بعدها بساعات، و«چيف» يجلس على ركبتيه بجانبي، ويكز كتفي وهو يناديني والقلق مرسوم على وجهه:

- ماذا هنالك، هل أنتِ بخير؟

اعتدلتُ جالسة، وعيناي لم تزالا ناعستين، بينما ألمح شمس المساء تتسلل من الشباك:

- أنا بخير، إنّني فقط متعبة.

- أين «سام»؟

- في الخارج.

- خرجت؟!

- خرجت تستكشف المدينة.. أظنها سئمت من حبسها هنا.

نقرَ «چيف» على شفتي وهو يقول:

- إحساس خبرته جيدًا.. بما يعني أننا يجب أن نخرج أيضًا.

كان يجتهد ليبدو كما لو أن الفكرة واتته في سياق الحديث، رغم أنه كان من السهل عليّ ملاحظة نيّته المبيّتة، التي كان ينتظر من أجلها أيامًا للعثور على لحظة تجمعنا بدون «سام». وافقت، رغم أنني لم أرد الخروج حقًا، الإنهاك والعصبية يضغطان بشكل مؤلم على ظهري وكتفي وعنقي، ثم إن لديّ موقعي على الإنترنت، الذي يعاني من انحدار متزايد إلى درجة الخطر، وتعرف ذاتي التي تشعر بالمسؤولية أنني يجب أن أبتلع المُسكِن (أدفيل)، وأقضي المساء في تنشيطه. لكن ذاتي الأخرى غير المسؤولة تحتاج إلى تشتيت انتباهها عن حقيقة عدم معرفتي بأي شيء عن «سام»، لماذا هي هنا؟ ماذا تنوي؟ بل حتى من هي حقيقةً؟ لقد دعوتُ شخصية غريبة تمامًا إلى

منزلنا، وصرتُ أنا نفسي خلال هذه المسألة غريبةً.. صرت شخصًا يستطيع أن يضرب أحدهم حتى الموت في «سنترال بارك»، ثم يكذب بشأن كل ذلك أمام الشرطة.. شخصًا كان قد اعتاد أن يحتويه «چيف» تمامًا، ثم ها هو الآن تأكله الرغبة في أن يدعه «چيف» بمفرده.

في الخارج، كانت الشمس الغاربة وراءنا، وألقت ظلي الممطوط على رصيف المشاة، نحيلًا وداكنًا. يغالبني أحيانًا التفكير بأنني أشبه ذلك الظل أكثر مما أشبه المرأة التي كوّنته. أشعر بأنني بلا كيان مادي، كما لو كنتُ سأذوب بكاملي حين يحل الظلام وأختفي تمامًا.

انتهى بنا المطاف إلى السير مسافة عدة بنايات، حتى وصلنا إلى حانة فرنسية صغيرة، ندّعي أننا نحبها، ولكننا نادرًا ما نتردد عليها. ورغم أننا نرتعش من البرد، اخترنا طاولة جانبية في الساحة الخارجية، «چيف» في سترة مستعملة ثمانينية الطراز ماركة ميمبرز أونلي، وأنا ألتحف كارديجان له رقبة عالية. أبينا أن نكلم «سام»، بل وأبينا أن نتحدث عن قضيته، فلم تبقَ لنا إلا أمور صغيرة نناقشها، بينما نطلب الرتاتوي والكاسوليت، الطبق الفرنسي المكون من قطع الخبز المقدد والخضروات وصوص الطماطم لكلينا. لم تكن لديَّ شهية للحديث، والقليل الذي أكلته كنتُ أجبر نفسي على ابتلاعه، كل لقمة كانت تقف في حلقي، حتى أبتلعها برشفة نبيذ، ففرغ كأسي بسرعة قياسية. وعندما مددت يدي إلى دورق النبيذ الأحمر، لاحظها «چيف»، وصاح بي:

- انتظري، ماذا جرى ليدكِ؟

كان هذا هو الوقت الملائم لأخبر «چيف» بكل شيء.. كيف أنني منذ وقت قريب قتلتُ رجلًا.. كيف أنني مرعوبة من أن يتم القبض عليَّ.. كيف أنني أعيش في رعب من تكرار ذكرى «كوخ الصنوبر».. وكيف أنني عرفت أن «سام» كانت في إنديانا حين ماتت «ليزا». وبدلًا من إخباره بأي شيء،

ألصقتُ ابتسامة على وجهي، وبذلتُ قصارى جهدي في تقليد أمي، بألّا شيء هناك، وبأنني طبيعية تمامًا، وإذا صدقت هذا بما يكفي، فسيصبح حقيقيًا.

- أوه، إنّه مجرد حرق صغير، كنتُ غبية هذا الصباح ولمستُ صاج المخبز وهو ما يزال ساخنًا.

أجبتُه معطية للكلمات نبرة سلسة، وأشحتُ بيدي، لكن «چيف» أمسك بها وهو يفتش في تفاصيل عُقل أصابعي..

- هذا يبدو سيئًا للغاية، هل تؤلمكِ؟

- ليس تمامًا، إنّه فقط قي،.

حاولتُ إبعادها ثانيةً، لكنَّه أطبق قبضته عليها قائلًا:

- يدكِ ترتجف!

- فعلًا؟

نظرتُ نحو الشارع، متظاهرة بالاستغراق في متابعة السيارة الكاديلاك الفضية التي مرت، فمن المستحيل أن أستطيع النظر في عينيّ «چيف»، ليس وهو قلق بشأني إلى هذه الدرجة الرائعة.

- عديني أن تذهبي إلى الطبيب إذا ما ساء الأمر بأي درجة.

قلتُ في حبور:

- سأفعل.. أعدكَ.

شربتُ بعد ذلك المزيد من النبيذ، أفرغتُ الدورق، وطلبتُ غيره قبل أن يستطيع «چيف» الاعتراض. كان النبيذ هو حقًا ما أحتاجِ إليه، الكحول مع الـ المهديء الذي تناولتُه بمجرد أن وصلت إلى البيت بعد المتنزَّه، خليط جعلني أشعر بلذة الارتياح، وقد ذهبا معًا بآلام ظهري وكتفي، بل ولم أعد أفكر تقريباً في «سام» أو «ليزا» أو «روكي رويز»، وعندما أتذكرهم، أتناول المزيد من النبيذ حتى أنساهم.

في طريق العودة من الحانة، احتضنَ «چيف» يدي السليمة،

والحنى لكي يقبلني عندما توقفنا لعبور الطريق.

في وقت لاحق، في الشقة، تركَ لي «چيف» اختيار الفيلم، فاخترتُ «فيرتيجو». وعندما بدأت الأسماء الافتتاحية تتحرك على الشاشة بكل هلاوس عظمة تعدد الألوان، استلقيتُ ملتصقة بـ «چيف»، باسطة ذراعي على صدره، وشاهدنا الفيلم في سكونٍ، وعيناه تغفلان وتصحوان في أغلبه، ولكنه تيقَّظ أثناء الذروة، و«جيمي ستيوارت» يجر المسكينة «كيم نوفاك» فوق درجات برج أجراس الكنيسة، مستجلياً الحقيقة. وبمجرد أن انتهى الفيلم قال:

- ليس هناك ما يضطرني إلى الذهاب إلى شيكاجو، يمكنني أن أبقى هنا إن كنتِ تريدين.

- بل إنَّه من الهام أن تذهب. ثم إنكَ لن تتأخر هناك، صحيح؟

- ثلاثة أيام.

- سينقضون سريعًا.

- يمكنكِ أن تأتي معي.. أعني إن كنتِ ترغبين.

- ألن تكون مشغولاً؟

- مطحوناً في الحقيقة. لكن هذا لا يعني ألّا تمتِّع نفسك. أنتِ تحبين شيكاجو، فكّري في الأمر.. بيتزا الطبق العميق، بعض المتاحف...

- كنتُ أضع رأسي على كتف «چيف»، يمكنني سماع تسارع قلبه، يشي بوضوح بأنه يريدني معه. أنا أيضًا، أحب أن أغيِّر هذه المدينة بأخرى.. لزمن طويل يكفي لأنسى كل ما فعلته. لكنني لا أستطيع.. ليس و«سام» ما زالت موجودة. عندما قادتني إلى المكان الذي هاجمت فيه «روكي رويز»، كانت «سام» تشير بوضوح إلى أنها تحمِّلني جميلًا بسكوتها. حركة خاطئة واحدة من جانبي يمكن أن تهز ميزان حياتنا الدقيق، لقد امتلكت «سام» الآن القوة لتدمير حياتنا. قلتُ له:

- وماذا عن «سام»؟ لا يمكن أن تتركها هكذا وحدها هنا.

- إنها ليست كلبًا يا «كوين».. يمكنها أن تعتني بنفسها ليومين.

- سأؤنب نفسي. إلى جانب أنها ربما لن تبقى هنا طويلًا.

- الأمر لا يتعلق بذلك، إنني قلق عليكِ يا «كوين». هناك شيء ليس طبيعيًا. إنكِ تتصرفين بغرابة منذ أن شاركتكِ السكن.

بدأتُ أتملص منه، لقد كانت ليلة جيدة حتى بدأ يتكلّم.

- لديّ الكثير لأفعله.

- وأنا أعرف ذلك.. وهذا وقت جنوني وضاغط عليك، ولكنني فقط أشعر أنَّ هناك شيئًا آخر يحدث.. شيئاً لا تخبرينني به

- استلقيتُ على ظهري مغمضة عيني..

- أنا بخير.

- أتقسمين أن تخبريني، إن لم تكوني بخير؟

- أجل.. فقط توقّف الآن عن طلب هذا مني..

- أريد فقط أن أطمئن عليكِ حين أذهب.

- طبعاً سأفعل.. ولديَّ «سام».

تقلّب «چيف» بعيداً عني وهو يقول:

- هذا هو ما يقلقني.

انتظرتُ ساعة لكي يأتي النوم مستلقية على ظهري، أتنفس بانتظام، أخبر نفسي بأنني سأغرق في النوم في أي لحظة. لكن أفكاري كانت قاسية جامحة، تتحرك باستمرار دون تعجل للانتهاء عند سفح الجرف، أتخيلها كجزء من تسلسل الحلم من فيلم «فيرتيجو»، دوائر ساطعة تدور إلى الأبد، كل واحدة لها لونها الخاص، الحمراء تدور حول مقتل «ليزا»، والخضراء لأجل «چيف» وقلقه، بينما الزرقاء لتأكيد «چوناه لومبسون» لي أن

«سام» تكذب عليّ. حلزونة «سام» سوداء، بالكاد تُرَى وهي تدور بالكآبة في عقلي المؤرق.

في الواحدة صباحاً، نهضتُ من الفراش متجهة إلى الردهة. باب غرفة الضيوف مغلق، بلا ضوء يتسلل من عتبته. ربما عادت «سام» وربما لم تعد، حتى وجودها لم يعد أكيدًا. في المطبخ، فتحتُ حاسوبي، فبما أنني مستيقظة، ربما أستطيع إنجاز بعض العمل على الموقع الإلكتروني. لكن بدلًا من صفحة «حلوى كوينسي» قادتني أصابعي إلى بريدي الإلكتروني، حيث عشرات الرسائل في الصندوق، بعضها من أماكن بعيدة، كفرنسا وإنجلترا وحتى اليونان. مررتُ عليها.. عناوينها ذات وتيرة واحدة، حتى توقفتُ عند عنوان ليس من المراسلين:

«Lmilner75»، فتحتُ الرسالة، رغم أنَّني أحتفظ بمحتواها في الذاكرة.. بأنوار النيون الوردية، كما لو أنني أستخدم درجات ألوان الأفكار في «فيرتيجو».

««كوينسي»، أحتاج إلى الحديث معك. إنه أمر غاية في الأهمية. أرجوكِ.. أرجوك.. أرجوك ألَّا تتجاهلي هذه الرسالة»

همستُ: ما الذي جرى لكِ يا «ليزا»؟ ماذا كان هذا الهام للغاية؟

فتحتُ نافذة بحث جديد، متجهة مباشرة إلى «جوجل»، وكتبتُ اسم «سام»، فُحييت بالخليط المتوقع من الروابط عن نُزل «نايت لايت»، وموت «ليزا»، والفتيات الناجيات. وبالرغم من بعض المقالات المتناثرة عن اختفاء «سام»، إلا أنني لم أعثر على شيء ينوِّه إلى مكان محتمل لوجودها. ثم بحثتُ عن «تينا ستون» والذي أتى بسيول من المعلومات عن نساء كثيرات كثيرات، يحملن ذات الاسم. كانت هناك صفحات فيسبوك، وأكثر من نعي، وتحديثات على موقع «لينكد إن»، ولكن العثور على شيء يخص هذه الـ «تينا ستون» تحديداً بدا

مستحيلاً. تساءلتُ: ماذا لو أن «سام» كانت مدركة لذلك عند اختيار الاسم.. وأنها - مثلما أفعل الآن- رأت هذا البحر من الـ «تينا ستون» في العالم، وقررت أن تغوص فيه، وهي تعرف أنها لن تخرج منه. خرجتُ من «جوجل» وعدتُ إلى رسالة «ليزا»: ««كوينسي»، أحتاج إلى الحديث معكِ. إنه أمر غاية في الأهمية. أرجوكِ أرجوك أرجوك ألّا تتجاهلي هذه الرسالة».. وأنا أقرؤها، بدأت كلمات «جوناه تومبسون» تتسلل إلى النص، وتحوله إلى معنى مختلف.. الأمر يتعلق بـ «سامنثا بويد». إنَّها تكذب عليكِ.

كنتُ على وشك الدخول للبحث عبر «جوجل» مرة أخرى، عندما سمعتُ صوت شيء ورائي. إنَّه سعال مكتوم. أو ربما صرير خشب الأرضية خافتاً. ثم فجأة كان هناك شخص ما ورائي. أغلقتُ شاشة الحاسوب بسرعة والتفتُ أنظر.. كانت «سام» صامتة جامدة في ظلام المطبخ، وذراعاها في وسطها، ووجهها غامض خاوٍ، قلتُ:

- لقد روَّعتِني.. متى عدتِ إلى المنزل؟

هزّت كتفها..

- منذ متى وأنتِ هنا؟

هزت كتفها ثانية. يمكن أن تكون هناك طول الوقت أو ربما لبضع ثوان، لن أعرف أبداً.

- عجزتِ عن النوم؟

ردّت:

- بلى.. وأنتِ؟

هززتُ كتفي.. اثنان يمكنهما أداء هذه اللعبة. اهتزت زاوية فم «سام» تقاوم ابتسامة..

- لقد أتيتُ بشيء ربما يساعد.

بعد ذلك بخمس دقائق، كنتُ أجلس على سرير «سام»، وفي

حجري ويسكي «وايلد تركي»، محاولة منع رعشة يدي، بينما تطلي «سام» أظافري. الطلاء أسود لامع، مع قطرة زيتية اللون صغيرة على آخر كل ظفر، تماشى جيداً مع نقش القشور على عُقل أصابعي. ثم الآن نفس التظليل بلون الصدأ. قالت «سام»:

- هذا اللون يبدو جيداً على أصابعكِ.. غامضاً.

- ما اسمه؟

- الموت الأسود.. لقد أتيتُ به من «بلومينجديلز»

أومأتُ في فهم، لقد سرقته.. مرّت عدة دقائق لم ننبس فيها ببنت شفة. ثم قالت «سام» بلا مقدمات:

- نحن أصدقاء، صحيح؟

إنَّه سؤالٍ آخر من أسئلتها المتراكبة، كتلك الدمى الروسية التي كلما فتحتُ إحداها وجدتُ في داخلها شبيهتها الأصغر، تبدأ بإجابة السؤال الأول، لتفتح على نفسك الطريق حتى السؤال الأخير. قلت:

- بالطبع

- جيد.. هذا جيد يا «كوين».. أعني.. تخيَّلي كيف يكون الأمر لو لم نكن كذلك!

حاولتُ قراءة تعبير وجهها، كان خاويًا.. فارغًا تمامًا.

- ماذا تعنين؟

قالت في هدوء:

- حسنًا.. أنا أعرف الكثير من الأمور عنكِ الآن.. الأمور التي أنتِ قادرة على فعلها.. الأمور التي فعلتِها حقيقة. أمور كثيرة كان بيدي استخدامها ضدكِ، إن لم نكن صديقتين.

توتّرت يدي في يدها، وحاولتُ أن أجذبها منها وأجري خارج الغرفة بأظافر نصفها مطلي ومخطط بالأسود. بدلًا من ذلك، نظرتُ إليها بتودد، آملة أن ترى في ذلك إعزازًا، وقلت:

- هذا لن يحدث أبدًا، إن ما بيننا صداقة بطول العمر.

ردّت «سام»:

- جيد.. أنا سعيدة.

مرة أخرى خيَّم الصمت فيها على الغرفة، وبقي هذا الحال لخمس دقائق، حتى أعادت «سام» فرشاة الطلاء إلى زجاجته، وابتسمت ابتسامة واسعة قائلة:

- لقد انتهيتُ.

تركتُ الغرفة قبل أن تجفّ أظافري تماماً، ممّا اضطرني لإمساك مقبض الباب ولفه براحتَي يدي. نفختُ في يدي في المدخل، في انتظار أن يتحول الطلاء إلى طبقة لامعة. ثم توجهتُ إلى غرفة النوم الرئيسية، وألقيتُ نظرة على «چيف»، لأتيقَّن من أنه لم يزل نائمًا، قبل أن أدخل إلى الحمام.

لم ألقِ بالًا لإنارة الحمام، فهكذا أفضل. رقدتُ على الأرض، عمودي الفقري مسطح، وحافتا كتفي باردتان على البلاط. ثم أجريتُ اتصالًا.. رقم «كووب» الملتصق دومًا بذاكرتي. استغرق الأمر عدة رنات حتى ردّ، وعندما فعل، كان صوته يغلب عليه النعاس..

- «كوينسي»؟

- مجرد سماعه يجعلني أشعر أنني أفضل؟ قلتُ:

- «كووب»، أعتقد أنني في مشكلة.

- أي نوع من المشاكل؟

- أظن أنني ورطتُ نفسي في شيء لا أستطيع الفكاك منه.

سمعتُ خشخشة الملاءات الخافتة، تشي بأنه اعتدلَ في الفراش. مرَّ ببالي أنه قد لا يكون وحده، ربما هناك شخص ينام بجواره غالبية لياليه، وأنا التي لا تعرف.

- إنكِ تُقلقينني.. أخبريني ما الذي يحدث.

لكنني لم أستطع.. كان هذا هو الجزء الأشد تناقضًا في كل ذلك. لا أستطيع أن أخبر «كووب» عن شكوكي في «سام»، بدون أن أطلعه على الفظائع التي ارتكبتُها، أمران متراكبان، لا ينفصل أحدهما عن الآخر. قلت:

- هذه ليست فكرة جيدة.

- هل تحتاجين أن آتيكِ؟

- لا.. فقط أردتُ أن أسمع صوتكَ، وأرى إذا ما كانت لديكَ أي نصيحة لي.

تنحنحَ «كووب»..

- من العسير إعطاء نصيحة، حينما أجهل ما يحدث.

- أرجوك!

مرت لحظة صمت من ناحية «كووب». تخيلّته ينزلق من الفراش، ويلقي بجسده في زيه الرسمي، يستعد للحضور إلى هنا ومساعدتي سواء شئتُ أم أبيت. أخيراً قال:

- كل ما أستطيع أن أخبركِ به هو أنكِ إذا ما وقعتِ في ظروف سيئة، فأفضل ما يمكنكِ فعله هو محاولة أن تتعاملي معها بندّية.

- فإن لم أستطع؟

- «كوينسي» أنتِ أقوى مما تعتقدين.

- لستُ كذلك.

- أنتِ معجزة، وأنتِ حتى لا تعرفين ذلك. أغلب الفتيات لو مررن بظروفكِ لمُتنَ في تلك الليلة في «كوخ الصنوبر»، ولكن ليس أنتِ.

ومضت في عقلي تلك الذكرى المرعبة والمحيرة التي مرت بي في الحديقة.. «هو».. رابض على أرض «كوخ الصنوبر».. لماذا تلك الصورة من بين كل شيء تعاودني؟

- فقط لأنكَ أنتَ أنقذتني.

- لا.. لقد كنتِ قد تعاملتِ بالفعل وأنقذتِ نفسك. ولهذا، فأيًّا كان ما ورَّطتِ نفسكِ به، فأنتِ قادرة على الإفلات منه.

أومأتُ.. رغم علمي أنه لا يراني.. أومأتُ لأنني أعتقد أن هذا سيجعله سعيدًا إذا ما رآه.

- أشكركَ.. آسفة لكوني أيقظتكَ.

- إياكِ أن تشعري بالأسف لتواصلكِ معي، إن هذا هو ما أنا موجود لأجله.

أعرف ذلك، وممتنة أبعد مما يمكن للكلمات أن تعبِّر. ظللتُ في مكاني أمسك بالهاتف، بعد أن أغلق «كووب» الخط، أحدق فيه، وفي إضاءته، وأراقب الساعة في الجزء العلوي وهي تتغيَّر دقيقةً وراء أخرى. بعد إحدى عشرة دقيقة، أتت وولت، عرفتُ ما الذي أحتاج لفعله، رغم أن الفكرة ذاتها قلبت معدتي. وهكذا، بحثتُ في هاتفي عن إحدى رسائل «جوناه تومبسون» النصية، وأرسلتُ إليه وأصابعي تعاندني في دق كل حرف:

مستعدة للحديث.. حديقة «بريانت» 11:30 بالضبط.

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook

الفصل 24

في وقت متأخر من الصباح التالي..

حديقة «بريانت بارك»..

بعض الهدوء المؤقت قبل زحام الغداء الذي أوشك، بعض الموظفين بدؤوا في التسلل من مكاتبهم في البنايات القريبة مبكراً. أخذتُ في متابعتهم من مكاني في الظل الذي يرميه مبنى مكتبة نيويورك العامة، شاعرة بالغيرة من حميميتهم وحياتهم الخالية من الهم. كان صباحاً صافياً رغم ميل الطقس إلى البرودة. أوراق الشجر المتساقطة على الممشى كستهُ باللون المذهب، وحول الأشجار مسطحات من اللبلاب تسخر من الشتاء.

لمحتُ «چوناه» على الجانب الآخر من الحديقة رأسًا ذا شعر لامع يتواثب وسط الزحام. كان متأنقًا كأنه يواعد امرأة للمرة الأولى، قميص بنقش مربعات ومعطف ذو جيوب مربعة مع بنطال بلون النبيذ يُثني أطرافه، ورغم أن أيام أكتوبر الباردة حد الرجفة قد حلت، إلا أنه لا يرتدي جوارب، يا لَه من متأنق وضيع!

في المقابل، كنتُ أرتدي نفس الملابس التي ارتديتها بالأمس، فقد كنتُ أكثر إرهاقًا من أن أفكر في شيء جديد أرتديه. هدَّأتني مكالمتي لـ «كووب» بما يكفي للحصول على قسط من النوم، ولكن خمس أو ست ساعات ليست كافية لمحو افتقاده منذ بداية الأسبوع.

عندما وصل «چوناه»، ابتسم وقال:

- أنا وزميلي في العمل تراهنّا على عشرة دولارات، هل ستحضرين أم لا؟

- مبارك عليكَ، لقد ربحتَ للتو عشرة دولارات.

هزَّ «چوناه» رأسه قائلًا:

- كانت أموالي في خطر الضياع.

- حسنًا، ها أنا هنا.

لم أحاول حتى إخفاء ضجري، كنتُ كمَن لديه مشكلة جديةٍ مع النوم، أو كمَن يعاني من صداع رهيب، وفي الواقع كنت الاثنين معًا. كان الصداع قابعًا خلف عيني مباشرة، إلى درجة جعلتني أنظر شذرًا إلى «چوناه»، حين قال «وماذا الآن؟»، وأرد قائلة:

- الآن أمامكَ دقيقة واحدة لإقناعي بالبقاء.

- لا بأس (نظرَ في ساعته)، ولكن قبل أن تبدأ الساعة بالعد، لديّ سؤال..

- بالتأكيد لديك.

حكَّ «چوناه» رأسه، فلم يتحرك شعره، أظن أنه لابد قد قضى ساعات في التأنق كالهرر، أو ربما كتلك القرود التي لا تكف عن نتف أشياء من فرائها. سألني:

- هل تتذكرينني؟ ولو حتى من بعيد؟

أتذكَّر تسكُّعه على جانب الطريق خارج بنايتي. أتذكر التقيؤ على قدميه.. أتذكَّر بالتأكيد أنه أخبرني بالحقيقة البشعة لكيفية مقتل «ليزا ميلنر». لكن بخلاف ذلك، لا ذكريات لديّ عن «چوناه تومبسون»، الأمر الذي استنتجه من عدم وجود إجابة سريعة عندي.

- لا تذكرينني.

- هل يفترض أن أفعل؟

- لقد ارتدنا الكلية معًا يا «كوينسي»، وكنتُ في صفكِ في مادة علم النفس.

الآن، فاجأني هذا، فهو يعني أن «چوناه» أكبر ممّا كنتُ أظنه في البداية بخمس سنوات، وإلا فهو مخطئ بشدة في حساباته.

- هل أنتَ متأكد؟

- تمامًا.. قاعة «تامبرو هول».. كنتُ أجلس وراءكِ بصف واحد. ليس لأنه كان لكل واحد مقعد مخصص أو ما شابه.

أتذكر حجرة الدراسة في «تامبرو هول». كانت نصف دائرة تجتاحها الريح، تنحدر بشدة حتى مستوى الدور الأرضي، وصفوف المقاعد منظمة على غرار الاستادات، حيث ركبة من وراءك خلف رأسك ببضع بوصات. بعد الأسابيع الأولى، اعتاد كل واحد الجلوس في نفس المكان تقريبًا في كل المحاضرات. كنتُ أنا في الخلف، إلى اليسار قليلًا.

- آسفة، لا أتذكركَ نهائيًا.

- أنا قطعًا أتذكركِ.. مرات كثيرة كنتِ تلقين عليَّ التحية، حين تتخذين مقعدكِ قبل بدء المحاضرة.

- حقًا؟

- أجل، كنتِ ودودة جدًا. أتذكر كيف كنتِ دومًا تبدين سعيدة.

سعيدة! لا أتذكر متى كانت آخر مرة استخدمَ فيها أحد هذه الكلمة ليصفني بها. أكملَ «چوناه»:

- كنتِ تجلسين مع فتاة أخرى، كانت كثيرًا ما تتأخر.

إنَّه يتحدث عن «چينيل»، التي كانت تتسلل إلى الصف بعد بداية الدرس، غالبًا وهي تعاني دوار انسحاب الخمر من دماغها، وفي مناسبات عديدة سقط رأسها على كتفي نائمة، ثم كنتُ أدعها تنقل ما كتبتُ في دفتري.

- كنتما صديقتين على ما أعتقد.. ربما أكون مخطئًا، لكنني أتذكّر الكثير من المشاحنات التي دارت بينكما.

- لم يحدث أن تشاجرنا.

- بل فعلتما جدًا. كان هناك شيء سلبي وعنيف يحدث بينكما.. كأنما تدَّعيان أنكما أقرب صديقتين، لكنكما لا تتحملان

بعضكما بعضاً في الحقيقة.

إنني لا أتذكر شيئًا من ذلك، وإن لم يعنِ ذلك أنه غير حقيقي. فيما يبدو أنّ هذا حدث بمعدل كافٍ لأن يتذكره «چوناه». قلتُ في هدوء:

- لقد كنّا صديقتين مقربتين.

- يا ربي!

قالها «چوناه» وهو يحرك يده في تمثيل سيئ لجمع قطعتين معًا. بالتأكيد هو يعلم بالفعل. فتاتان كانتا تجلسان في الفصل أمامه، وكلتاهما لم تعودا إلى الحضور بعد عطلة نهاية الأسبوع الأولى في أكتوبر.

- ما كان ينبغي أن أذكر ذلك الأمر.

لا، ما كان ينبغي له، وكنتُ سأعطيه محاضرة في ذلك، لو أن رأسي لم تكن تؤلمني، ولم أكن حريصة على تغيير الموضوع.

- والآن، بعد أن أثبتنا كيف أنني أمتلك ذاكرة ضعيفة، آن الأوان لتخبرني لماذا أنا هنا؟ لديكَ دقيقة قد بدأت الآن.

قفزَ «چوناه» في عمق الموضوع، كمندوب مبيعات وصل بمقدمته التشويقية إلى الذروة، وهو ما اعتقدتُ أنه يمارسه كنمط تكراري، فقد أدّاه بنعومة من تدرّب عليه العديد من المرات.

- لقد جعلتِ الأمر واضحًا جدًا، أنتِ لا تريدين الكلام عمّا حدث، وأنا أتفهم ذلك وأقبله. هذا ليس عن وضعكِ يا «كوينسي»، رغم كونك تعلمين أنني موجود في أي لحظة تريدين فيها مناقشته. هذه المرة الأمر عن «سامنثا بويد» ووضعها.

- قلتَ إنها كانت تكذب عليَّ. فيمَ كان ذلك؟

- سأصل إلى تلك النقطة. ما أريد أن أعرفه هو إلى أي حد تعرفين عنها؟

- لماذا تهتم هكذا بـ «سام»؟

- لستُ أنا فقط يا «كوينسي». لابد أنكِ قد رأيتِ الاهتمام الذي أثاره المقال الذي كُتب عنكما، لقد كان معدل المشاهدات التي نالها جنونيا.

- إذا ذكرتَ ذلك المقال مرة أخرى، سأغادر.

- أنا آسف.

قالها «چوناه» وقد احمرَّ أسفل رقبته قليلًا، مما جعلني أسعد برؤيته محرجًا من أفعاله ولو قليلًا. استطرد:

- فلنعد إلى «سام».

- أنتَ تريد مني أن أفشي بعض مساوئها.

- لا!

أخبرتني النبرة الحادة العالية للغاية التي اعترضَ بها أنني على حق.

- كل ما أريده ببساطة هو أن تشاركيني بمعلوماتكِ عنها. اعتبريه تعريفًا شخصيًا بها.

- هل ستقوم بتسجيل صوتي لذلك، أم أنك ستغلق التسجيل؟

- أفضل أن أسجله.

- هذا سيئ جدًا.

لقد استثار غضبي، وجعل صداعي ينبض أكثر قليلًا، وجعل ساقي تهتز في توتر، فقلت:

- فلنتمشَّ.

بدأنا نتسكع بعيدًا عن المكتبة متجهين نحو شارع 6، بينما تزداد كثافة الزحام في المتنزَّه والناس يملؤون ممرات السير الضيقة، يقتنصون المقاعد المنشودة المصطفة عليها، فوجدنا نفسينا «چوناه» وأنا مدفوعين معًا للاقتراب كتفًا بكتف.

- الناس فعلًا يريدون أن يعرفوا أكثر عن «سام».. ماذا تحب؟ أين كانت تختبئ كل هذا الوقت؟

- إنها لم تختبئ.

لسبب ما، كنتُ ما أزال أشعر بحاجة للدفاع عنها، كما لو كانت ستعرف إن لم أفعل ذلك. أكملت:

- لقد كانت في هدنة.

- أين؟

انتظرتُ لجزء من الثانية قبل أن أجيبه، لا أدري إن كان ينبغي لي فعل ذلك. لكن هذا هو ما أنا هنا لأجله، أليس كذلك؟ حتى لو ظللتُ أقول لنفسي: إنه ليس كذلك.

- «بانجور».. «مين»..

- لماذا خرجتْ عن هدنتها؟

- أرادت أن تقابلني بعد انتحار «ليزا ميلنر»..

- انتبهتُ إلى غلطتي بسرعة، فاستدركتُ:

- أعني مقتلها.

- أكنتِ تعرفينها؟

شردتُ أفكر في «سام» وهي تطلي أظافري.. نحن أصدقاء، أليس كذلك؟.. أجل.

كلمة بسيطة، من ثلاثة أحرف صغيرة، لكنَّ وراءها الكثير أبعد من ذلك. نعم كنتُ أعرف «سام»، بالضبط كما تعرفني هي. أعرف أيضًا أنني لا أثق بها، وأنا متأكدة تمامًا أنها تحمل نفس الشعور نحوي.

- وأنتِ واثقة بعدم رغبتكِ بمشاركة أية معلومات عنها؟

سألني «چوناه» بينما وصلنا إلى طاولتَيّ لعب تنس الطاولة في «بريانت بارك»، أحد تلك الأشياء التي «توجد في نيويورك فقط». كلتا الطاولتين مشغولتان، إحداهما بزوج من الكهول

الآسيويين، والأخرى حولها اثنان من موظفي المكاتب الكسالى، وربطتا عنقيهما سائبتان وهما يلاحقان الكرة أمامًا وخلفًا. قضيتُ لحظة أتابعهم بينما أحاول صياغة إجابة مناسبة لسؤال «چوناه». قلتُ له:

- الأمر ليس بتلك البساطة.

- أعرف شيئًا ربما يغيِّر رأيكِ..

- ماذا تقصد؟

هذا سؤال غبي، أنا أعرف ما يعنيه بالفعل، الكذبة الكبيرة التي أخبرتني بها «سام»، فكون «چوناه» لديه معلومات لا أعرفها أمر يضايقني بلا حدود.

- فقط أخبرني بما تعرفه يا «چوناه».

قال وهو يحك رأسه مرة أخرى:

- أود ذلك يا كوينسي.. أود لو أفعل حقًا.. لكن الصحفي الجيد لا يشارك معلوماته مع المصادر المتحفظة. أعني أنكِ لو أردتِ أن أعطيكِ بعض الأسرار الكبيرة، فأنا أحتاج منكِ شيئًا صغيرًا في المقابل.

رغبتُ في تركه والانصراف أكثر من أي وقت. أعرف أنّ الأمور يجب أن تسير هكذا: أخبر «چوناه» أن يدعني وشأني، ثم أتوجه إلى البيت لأخذ الغفوة التي أحتاجها بشدة. رغم ذلك، أحتاج أيضًا أن أعرف إلى أي حد تكذب «سام» عليّ.. أحد الأمرين يجب أن يفوق الآخر أهمية ويلغيه.

قلتُ:

- «تينا ستون».

- من هذه؟

- اسم «سامنثا بويد». لقد غيَّرت اسمها رسميًا منذ سنوات، لتجنب أمثالكَ. هكذا استطاعت الابتعاد عن الأنظار تلك السنوات، عمليًا «سامنثا بويد» لم يعد لها وجود.

- شكرًا يا كوينسي.. أعتقد أنني سأنبش قليلًا في حياة «تينا ستون».

- وستخبرني بما ستكتشفه.

لم يكن هذا سؤالًا، وقد وافقَ «چوناه» بإيماءة خفيفة وقال:

- بالطبع.

- حان دورك، أخبرني بما لديك.

- يتعلق الأمرِ بالمقال الذي أقسمتُ أنني لن أذكره مرة أخرى.. تحديدًا بالصور التي تنتشر فيه.

- ماذا عنها؟

أخذ «چوناه» نفسًا عميقًا، ورفع يديه معلنًا براءته، قبل أن يقول:

- أنا مجرد مرسال، تذكري هذا..

وأخيرًا قال:

- أرجوكِ، لا تقتليني!

الفصل 25

كانت سام في المطبخ، مرتدية مئزرها، متشبهة بـ «بيتي فاكينج كروكر»، مدعية أنها أي شيء غير تلك العاهرة المنحرفة. عندما دخلتُ، وجدتها تقف عند وعاء العجن، تضرب البيض وتضيفه إلى كومة من السكر والدقيق تشبه أكوام الثلج الصغيرة.

- نحن بحاجة إلى التحدث.

لم ترفع عينيها عن الوعاء وهي تقول:

- أمهليني دقيقة.

اندفعتُ إليها، وفي سرعة البرق كان الوعاء يطير عن سطح المطبخ ويرتطم بالأرض وعجين الكيك السائل يسيل على حافة سطح المطبخ، ومنه إلى الخزانة من تحته، ثم إلى الوعاء نفسه.

- ما هذا بحق الجحيم يا كوين؟

- هذا بالضبط ما أفكر به يا «سام».. ما هذا بحق الجحيم؟

مالت على الطاولة ناظرة إليّ بحذر. ثم فهمت.. إنها تعرف بالضبط عمّا أتحدث.

- أي قدر أخبركِ به؟

- كل شيء.. أعرف كل شيء.. كيف ذهبتِ إلى صحيفة «چوناه»، في اليوم التالي لتفجر خبر موت «ليزا». كيف قلتِ له من تكونين، وأنكِ كنتِ في نيويورك لتربيني.. كيف سألتِه عمّا إذا كان يريد فرصة العمر في صورة للصفحة الأولى. كنتِ تعلمين أنه ما يزال هناك عندما قدمتِ نفسكِ، كنت تخططين لسير الأمور هكذا، وأردتِ أن نكونَ في الصَفحة الأولى.

لم تحرك «سام» ساكنًا، وكأنَّ حذاءها ذا العنق الطويل زُرع في أرض المطبخ، وبركة لزجة من عجين الكيك تتجمع حول قدميها.

- نعم.. وماذا بعد؟

أمسكتُ بمغرفة مسطحة كانت بالقرب مني، وأطحتُ بها عبر الغرفة، فضربتُ الحائط بجوار النافذة، تاركة عليه بقعة من العجين، قبل سقوطها على الأرض. لم يجعلني ذلك أشعر بتحسن..

- هل أنتِ مدركة كم كان ذلك غبيًّا؟ رأى الناس تلك الصور يا «سام».. الغرباء الآن يعرفون مَن نحن.. إنهم يعرفون أين أعيش!

- فعلتُ ذلك من أجلكِ.

ضربتُ على سطح المطبخ بيدي، لا أريد أن أسمع شيئًا منها.

- اخرسي!

- بصدق، كان تفكيري أنَّ هذا سيساعدك.

- اخرسي.

ارتعشت «سام»، وارتفع حاجباها المرسومان كقوسين يعبران عن الذهول..

- أحتاج أن أشرح لكِ لماذا فعلتُ ذلك.

كان هناك طبق كرتوني للبيض موضوع على اليمين، نصف دزينة من البيض بقيت فيه، فالتقطت واحدة و..

- اخرسي.

طارت البيضة تجاه رأس «سام»، فتنحَّت عن مسارها، لتنفجر على الخزانة خلفها..

- الـ...

رميتُ بأخرى.. كقنبلة يدوية.. بحركة سريعة من الرسغ. عندما التقت بالوعاء على الأرض، أمسكتُ باثنتين أخريين ورميتُهما بتتابع سريع.

- اللعنة!

ضربت كلتا البيضتين مئزر «سام» هذه المرة، فسال الأصفر اللزج عليها في فوضى، مما دفع بها لتصطدم بالدولاب، ليس من القوة بالطبع ولكن من المفاجأة. هممتُ بإلقاء ما تبقى من البيض، لكن «سام» اندفعت منزلقة عبر البركة اللزجة على البلاط، وأزاحت الكرتونة بعيدًا، فتحطم باقي البيض على الأرض، وصرخت في وجهي:

- أعطني فرصة لأشرح لكِ..

صرختُ أنا أيضًا:

- أعرف بالفعل لماذا فعلتِ ذلك، إنك تريدين أن أشتغل غضبًا، كدتُ أقتل رجلًا.. هل يكفيكِ ذاك القدر من غضبي؟ ما الذي تريدين دفعي لفعله أيضًا؟!

أمسكت بكتفَيّ وأخذت تهزني قائلة:

- بل أريد أن تفيقي.. لقد عشتِ تختبئين كل تلك السنوات.. ينبغي أن تتكلمي.

- أنا لستُ من تخفَّتْ، لستُ من أخفت - حتى عن أمها- أنها لم تزل حية.

- ليس هذا ما أعنيه.

- فماذا تعنين إذًا يا «سام»؟.. تمنيتُ لو أنكِ - لمرة واحدة- تقدمين بعض المنطق. حاولتُ أن أفهمكِ، لكن لم أتمكن من ذلك.

- توقفي عن التظاهر بشخصية ليست لكِ.

قررت «سام» هي الأخرى أن تبدأ في قذف الأشياء، فأزاحت بيدها وعاءً آخر عن الرف، ليرتطم بالأرض ثم يتدحرج إلى الركن وهو يدور على حافته.

- تمثلين على نفسكِ أنكِ فتاة نموذجية، لها حياة نموذجية، وتصنع كعكات نموذجية. لكن هذه ليست أنتِ يا «كوينسي»، وأنتِ تعلمين ذلك.

دفعتني نحو غسالة الأطباق، فوخزني مقبضها في أسفل عمودي الفقري، فدفعتها بدوري، فانزلقت على الأرض الزلجة بالعجين والبيض والدقيق، وقلتُ لها:

- إنكِ لا تعرفين عني أي شيء.

اقتربت مني ثانية، تدفعني نحو سطح المطبخ..

- بل أنا الوحيدة التي تعرفكِ.. أنتِ مقاتلة.. تلك التي تفعل أي شيء لتنجو.. تمامًا مثلي.

تشنجتُ في مواجهتها وهي تحاصرني..

- لا شيء فيّ يشبهكِ.

- أنتِ فتاة ناجية.. لهذا ذهبتُ أنا إلى «چوناه تومبسون»، كيلا تَستطيعي الاختباء أكثر من ذلك. كي يمكنكِ أخيرًا العيش بما يليق باللقب الذي كسبتِهِ.

كان وجهها قريبًا مني إلى الحد الذي جعلني أتوقّف عن التنفس.. حضورها كالنار، تستنزف الأكسجين من الغرفة.. دفعتُها بعيدًا كي أخلي لنفسي مساحة تكفي للالتفاف، فثبّتت يدي بقبضتها محاولة جرِّي ناحيتها، لكن يدي الأخرى تلمّست سطح الرف في محاولة للعثور على أي شيء يمكنني أن أجده، فلمست أناملي أوعية المعايرة وانزلقت ملعقة من بين أصابعي لترن على الأرض.. أخيرًا قبضت أصابعي على أقرب شيء منها، فاستدرتُ إليها شاهرة إياه وملوحة به.

تراجعت «سام»، صارخة متعثرة حتى سقطت على الأرض، وهي تضغط نفسها على باب إحدى خزانات المطبخ..

سرتُ عبر المطبخ، يساورني إدراك غامض بأنها تنطق باسمي مكررة إيّاه، يأتي صوتها بعيدًا كأنه من تحت الماء، كما لو أنها تصيح من أعماق بئر.

- «كوين»!

هذه المرة كانت عالية بما يكفي لزلزلة خزائن المطبخ.. عالية

بما يكفي لاختراق الضباب الموحش الذي أحاطني..

- «كوينسي».. أرجوكِ!

هذه المرة كانَ صوت «سام» هامسًا.. خفضتُ بصري، كانت هناك سكين في يدي.. ملتوية.. سطحها يواجه السقف ويعكس ضوء مصباح السقف في بريق لجي!

أسقطتُها.. شاعرة بتنميل في يدي..

- لم أعِ ما أفعل!

ظلت سام جالسة على الأرض، متكورة على نفسها، ركبتاها في صدرها، لا تستطيع الكف عن الارتجاف، وكأنها في نوبة صرع. قلتُ والدموع تختنق في حلقي:

- لم أكن لأؤذيكِ.. أقسم لكِ!

تهدّل شعر سام على وجهها، وبدت من ورائه شفتاها الحمراوان بلون الياقوت، وطرف أنفها، وعين واحدة من بين خصلاته تلمع بالرعب..

- «كوينسي».. من أنتِ؟

هزرتُ رأسي.. بكل الصدق لم أكن أعرف من أنا!

الفصل 26

قطعَ الصمت في المطبخ طنينٌ لدى الباب الأمامي، أتى من جهاز الإنتركم، ليخبرنا أنّ شخصًا يقف خارج البناية منتظرًا. عندما ضغطتُ زر الجهاز، طقطقَ صوت امرأة في أذني تسأل:

- آنسة « كاربنتر»؟

- نعم؟

- هلا « كوينسي»، هذه « كارمن هيرناندز»، آسفة لحضوري هكذا، ولكنني سأحتاج دقيقة من وقتكِ.

سرعان ما كانت المحققة «هيرناندز» في غرفة الطعام، أنيقة الملبس، بسترة رمادية وقميص أحمر والسوار حول معصمها الأيمن يجلجل بتخبط التمائم المستديرة المتدلية من السوار الفضي اللامع، ربما كان هدية زوج في عيد زواجهما، أو ربما مكافأة لنفسها اشترتها حين يئست من أن يفعل ذلك، في كلتا الحالتين هو جميل، يغري النسخة الأكثر همجية مني أن تسرقه، وتخيلتُ أنني أنظر في كل تميمة منها فأرى في كل منها نسخة مختلفة عن نفسي.

- هل هذا وقت مناسب؟

إنها تسأل وهي تعرف أن الإجابة «لا»، فالمطبخ مرئي لأي عابر للبهو في الطريق إلى غرفة الطعام، بكل الفوضى الكئيبة من صفار البيض وعجين الكيك، وحتى لو غفلتْ عينها عنه، فأنا و«سام» نجلس قبالتها مكتسيتيْن بالدقيق والبيض.

أجبتُها:

- لا.. لا بأس.

- هل أنتِ متأكدة؟ تبدين في حال من الفوضى.

- لقد كان واحدًا من تلك الأيام...

رسمتُ على وجهي ابتسامة واسعة تكشف كل الأسنان

واللثة، كانت أمي لتفخر بي إن رأتها. أكملت:

- تعرفين كيف يمكن للجنون أن يتمكن من المطبخ.

- زوجي من يقوم بالطهي.

- أنتِ محظوظة.

تدخلت «سام» لأول مرة في الحديث بسؤالها:

- هل لنا معرفة سبب زيارتكِ أيتها المحققة؟

رفعتْ شعرها وراء أذنها، معطية للمحققة انطباعاً كاملًا بقسوة نظرتها.

- إنني فقط أتابع بعض التساؤلات القليلة عن الاعتداء على «روكي روين».. لا شيءَ جدي، أنا فقط أؤدي مهامي الوظيفية

- لقد أخبرناكم بالفعل بكل شيء.

حاولتُ إخفاء قلقي العارم، ولكن ظهرت الحدة في كل كلمة نطقتُ بها وأنا أقول:

- لم يعد هناك شيء لأضيفه حقًا.

- أمتأكدة أنتِ من ذلك؟

- تمامًا.

تصادمتْ تمائم سوارها ثانية، بينما تُخرج دفتر ملاحظات من جيب سترتها وتقلِّب فيه..

- حسنًا، لديّ شاهدان يقولان غير ذلك.

- أوه؟

لم تنطقِ «سام» بشيء على الإطلاق، بينما كانت «هيرناندز» تدوِن شيئًا في دفترها..

- أحدهما يعمل في فندق «رامبل»، اسمه «ماريو»، أحضره ضابط كان في ثياب مدنية ليلة أمس، ليست مفاجأة كبيرة لأحد إن كانت لديه قائمة طولها مِيل من التوسلات والإغراء بما لديه من معلومات، فسأله الضابط عمّا إذا كان قد رأى

شيئًا ليلة الاعتداء على «روكي»، فقال: لا. ولكنه ذكر شيئًا غير معتاد حدث في الليلة السابقة، امرأتان تجلسان في الحديقة حوالي الواحدة صباحًا، إحداهما تدخن، وقال: إنها أعطته سيجارة.

أتذكَّره، الشاب الوسيم الذي يرتدي الجلد. ذِكره جعلني أتوتر لسبب وجيه، لقد تحدّثت معه «سام» ورأى وجهينا.

- لقد حدَّد هاتين المرأتين لي.. إنهما أنتما الاثنتان.

قالت سام:

- كيف يعرفنا؟

- لقد تعرَّف على صورتكما في الجريدة. أفترضُ أنكما تعرفان أن صورتكما احتلت الصفحات الأولى أول أمس.

أبقيتُ يديَّ على ركبتي حيث لا تراهما «هيرناندز»، أكوِّرهما معًا في عصبية، أعتصرهما كلما استرسلت في كلامها. قلت:

- أتذكَّره.. لقد أتى إلينا بينما كنا نجلس في المتنزَّه.

- في الواحدة صباحًا؟

سألتها «سام»:

- هل هذا غير قانوني؟

- لا.. ولكنه فقط ليس عاديًا.

اقتربت المحققة «هيرناندز» برأسها تجاهنا وهي تقول:

- خاصة مع اعتبار أنكما كنتُما هناك ليلتين متتاليتين.

أحسستُ بالألم في ساعدي من جراء استمراري في الضغط على قبضتي في حجري، فحاولتُ إرخاءهما إصبعًا ثم آخر، وأنا أقول لها:

- لقد أخبرناكم لماذا كنا هناك.

- خرجتما للشراب، صحيح؟

- نعم.

خرج صوتي مبحوحًا، ونظرنا أنا و»سام» إلى بعضنا بعضاً، بينما تدوّن «هيرناندز» شيئًا آخر في مفكرتها، مستعرضة شطبها لشيء وكتابة شيء مكانه.

- منطقي.. فلننتقل إذن إلى الشاهد الثاني.

- عاهر آخر؟

سألتها «سام»، فلم تستظرف المحققة السؤال، بل ردَّت على «سام» بنبرة مستهجنة:

- رجل مشرد تحدّث عن «روكي رويز» إلى أحد رجال الشرطة الذين يجوبون المتنزّه، وقال إنه رأى امرأتين عند ذلك المسبح الفخم الذي يركب فيه الأطفال القوارب، هذا المكان يكتبون عنه، إنني أقرأ عنه في كتب أطفالي، شيء عن فأر؟

- «ستيوارت ليتل».

قلتُها لا أدري لماذا؟! فقالت:

- هذا هو. إنه مكان لطيف. هذا الرجل المشرد هو الآخر بالتأكيد يظنه كذلك، فهو ينام أحيانًا على مقعد قريب منه. ولكن في الليلة التي تمَّ فيها الاعتداء على «روكي»، يقول: إنَّ تينكَ المرأتين طاردتاه، بعد أن لحتاه وهو يتابع إحداهما تغسل يديها في الماء، ويقول إن إحداهما -على ما بدا له- كانت تنزف.

لم أجرؤ على السؤال إذا ما كان قد وصفَ تينْكَ المرأتين، فمن الواضح أنه فعل.

- أنتما الاثنتان تطابقان الوصف الذي أعطاه لنا، ولذا، أنا فقط سأقوم بتخمين قاسٍ، وأفترض أنهما كانتا بالفعل أنتما. هل تريد إحداكما أن تشرح لي ما الذي حدث هناك؟

طوت يديها على الطاولة، والسوار يتدلى منها، وتحت الطاولة تحوّل كفّاي إلى حجر متجمد، كأنه قطع الفحم تُعتصَر لإنتاج الماس، حتى إن الضغط شقّق إحدى القشور التي تغطي عقَل أصابعي، وبدأ خيط من الدم يسيل بين أصابعي.

- كان ذلك بالضبط كما بدا..

قلتُها بدون تفكير، فقط تركت الكذبة تخرج من فمي..

- تعثرتُ بينما كنا نسير عبر الحديقة، فكشطتُ يدي، وكانت تنزف كثيرًا، فذهبنا إلى البركة لأغسلها.

- أكانَ ذلك قبل أم بعد سرقة حقيبة اليد؟

- قبل.

حدَّقت «هيرناندز» فيَّ بنظرة ثاقبة. تحت هذا الشعر المصفف والسترة المَخيطة بدقة، روح عنيدة وصلدة. هي في الغالب قد اجتهدت كثيرًا، حتى وصلت إلى هذه المكانة أكثر مما يحتاج الرجال للاجتهاد، هذا أكيد للأسف، أراهنُ أنهم جميعًا يقللون من شأنها. وبالمثل أنا، وها نحن هنا..

- هذا مثير للاهتمام. صديقنا المشرد لم يذكر أنه رأى حقيبة يد.

- نحن...

لسبب ما، أوقفتُ نفسي، واختفت الكذبة كذرة ملح ذابت على لساني. انحنت «هيرناندز» إلى الأمام بتودد تقريبا، وهي تتجهز للبدء في مجرد دردشة أنثوية..

- أنصتا يا سيدتَيَّ، أنا لا أعرف ما الذي حدث في الحديقة تلك اللَيلة، ربما كان «روكي» مغيبًا عن وعيه، ربما حاول أن يؤذيكما فدافعتما عن نفسيكما بعنف بعض الشيء. لو أن الأمر هكذا، فمن مصلحتكما الاعتراف.

عادت بظهرها إلى الخلف، وقد انقضى وقت التودد، والسوار يخشخش على سطح الطاولة، بينما كانت تكتب في مفكرتها مجددًا.

- إنني أفهم لماذا لا تريدان أن تفعلا ذلك. الرجل في غيبوبة، وتلك حالة خطرة، ولكنني أقسم أنني لن أحاسبكما، ليس قبل أن أعرف القصة كاملة.

نظرت «هيرناندز» في مذكراتها، ثم نظرت إلى «سام»..

- الآنسة «ستون» سوف أتغاضى عن سوابقكِ في خرق القانون.

أحسبُ لـ «سام» ذلك البرود، إذ لم يظهر على وجهها أي رد فعل، بل كان هادئًا تمامًا. لكن يمكنني القول: إنها كانت تبحث عن رد فعلي أنا، وعدم ظهور رد فعل مني أخبر فيه المحققة بكل ما تحتاج إلى معرفته.

- أنا فقط أريد أن أكون واضحة معكما، ألّا شيء من كل تلك الأمور سيُقحَم في التعامل معكما.. في حال أن قررت إحداكما تسليم نفسها بالطبع.

ردت «سام»:

- لن نفعل.

- خذا بعض الوقت للتفكير في الأمر.

قامت «هيرناندز» وطوت مفكرتها تحت ذراعها، وسوارها يغني..

- ناقشا الأمر معًا، ولكن لا تتأخرا كثيرًا، فقد يسوء الأمر. وآه، لو أن إحداكما من اقترفت الجرم، فكما تعلمان، من المستحسن أن تصلّيا كي يفيق «روكي رويز» من غيبوبته، لأنني لو وجدت تهمة القتل الخطأ قد سقطت في براثني، فلا مجال للمراهنة هنا.

بعد أن ذهبت «هيرناندز»، أعلنت «سام»:

- لن نعترف بشيء.

- بل يجب أن نفعل.

ظللنا في غرفة الطعام، يحاصرنا صمت غير محتمل. تسلّل ضوء الشمس من النافذة، ليضيء ذرات الغبار التي تحوم بالكاد فوق الطاولة، لا نجرؤ على النظر إلى بعضنا، ونتابع الغبار كأنه زحام من الناس ينتظرون العاصفة، وأعصابنا مشدودة في

رعب غير معلن.

- في الواقع، ليس علينا ذلك، إنها توقعنا. ليس لديها شيء ضدنا، لا شيء غير قانوني في الجلوس ليلًا في «سنترال بارك».

- «سام»، هناك شهود.

- رجل مشرد وقوّاد لم يريا شيئًا.

- إذا قلنا الحقيقة الآن، ستسهِل هي لنا الأمر. إنها متفهمة. حتى هذه لا أصدقها. المحققة «هيرناندز» ليس لديها النية لمساعدتنا، إنها فقط امرأة ذكية للغاية تؤدي وظيفتها.

- يا إلهي! لقد كانت تكذب يا «كوين»!

عاد الصمت يخيم، وعدنا نتابع تراقص ذرات الغبار..

- لماذا لم تخبريني أنكِ كنتِ في إنديانا؟

نظرت «سام» أخيرًا تجاهي. كان وجهها غريبًا، غير مقروء..

- إنكِ لا تريدين الخوض في هذا الأمر يا فتاتي. ثقي بي.

- أحتاج إجابة.. أحتاج الحقيقة.

- الحقيقة الوحيدة التي تحتاجينها هي أن تعرفي أن ما حدث في المتنزه كله ضدكِ، وأنا فقط أحاول أن أنقذكِ.

- بالكذب؟

- بحفظ أسراركِ.. إنني أعرف الكثير عنكِ. أكثر مما تعتقدين.

دفعت نفسها مبتعدة عن الطاولة، وفجرت حركتها لديَّ سيلًا من الأسئلة، كل منها يلح أكثر من الآخر..

- هل قابلتِ «ليزا»؟.. هل كنتِ في منزلها؟.. ماذا أيضًا لم تخبريني بشأنه؟

أبعدت «سام».. شعرها الداكن عن وجهها، فأخذ يتطاير حولها مخفيًا وجهها الضبابي.. هناك ذكرى مشهد مماثل تتفتق في عقلي!..

- «سام»، أرجوكِ.....

تركتْ غرفة الطعام في صمت، وبعدها بلحظة، انغلق الباب الأمامي خلفها. ظللتُ جالسة، متعبة إلى درجة أنني لم أستطع الحركة، كنتُ قلقة إلى درجة أنني لو حاولت النهوض سأسقط على الأرض. الطريقة التي بدت بها «سام» وهي تغادر أعادت شريط الذكريات في رأسي، لقد رأيتُ ذلك من قبل، أعرف أنني رأيته.

فجأة تذكرتُ، مما جعلني أهرع إلى حاسوبي. دخلتُ على حسابي في موقع فيسبوك، ثم بحثتُ عن صفحة «ليزا». مزيد من التعازي تملأ صفحتها، مئات منها، تجاهلتُها وذهبتُ إلى ملفات الصور التي نشرتها «ليزا»، وسرعان ما وجدتُ ما أبحث عنه.. «ليزا» ترفع قنينة نبيذ وتتوهج بالسعادة وقد كتبت فوقها «وقت الخمر.. لول!»

تفحصتُ المرأة في خلفية الصورة.. الضباب الداكن الذي فتَنني للغاية حين رأيتُه أول مرة. حدَّقت في الصورة، كما لو كنتُ أستطيع إجبار الصورة على ضبط تركيز عدسات التصوير. أفضل ما استطعت فعله هو تضييق عيني، لجعل رؤيتي ضبابية، عسى أن يوازن هذا الضباب ذاك وينبثق بعض الوضوح. أتى ذلك بنتيجة إلى حد ما، في بقعة بيضاء ظهرت على حافة الضباب الداكن، وداخلها نقطة حمراء.. طلاء شفاه.. إنه طلاء شفاه «سام» الفاقع كالدم. عندما رأيتُ ذلك، سرت القشعريرة في جسدي بسرعة متزايدة، وشعرتُ بأنني مربوطة على قنينة صاروخية تخترق الأوزون، مطلقة الشرر وراءها، حتى انفجرنا معًا.

الفصل 27

حين حلَّ موعد عودة «چيف» من العمل، كان المطبخ نظيفًا، وقد حزمتُ حقائبي، واحدة كبيرة، وأخرى أحملها. وقف في الرواق المؤدي إلى غرفة نومنا، عينه تطرف كما لو كنتُ سرابًا..

- ما الذي تفعلينه؟

- سأذهب معكَ.

- إلى شيكاجو؟

- اشتريتُ تذكرتي عبر الإنترنت. نفس الطائرة، رغم أننا لن نجلس متجاورين.

- هل أنتِ متأكدة؟

- كانت فكرتكَ.

- صحيح. لكنه فقط وقع المفاجأة الشديد. وماذا عن «سام»؟

- أنتَ بنفسك من قلتَ إن بإمكاننا تركها وحدها بضعة أيام، إنها ليست كلبًا، أتذكر؟

في الحقيقة، كنتُ أتمنى أن نعود فنجدها قد ذهبت بلا رجعة، في هدوء، بدون ضجة.. كعقرب متعجل نَسي حتى أن يلدغ. كان «چيف» ينظر في تلك الأثناء إلى الغرفة، كما لو كانت للمرة الأخيرة، وقال:

- دعينا نأمل أنَّ شيئًا ما سيبقى حين نعود.

- سأعتني بذلك.

لم تعد «سام» حتى وقت متأخر من الليل، بعد أن أوينا أنا و«چيف» إلى الفراش بفترةٍ طويلة. قبل أن نرحل متجهين إلى المطار في الصباح، طرقتُ باب غرفتها. وبعد عدةِ طرقات دون إجابة، فتحتُ الباب قليلًا، ودلفت منه، فوجدتُ «سام» في الفراش، واللحاف يصل إلى ذقنها، والبطانية متموجة وهي

مُتقلب تحتها.

- لا.. أرجوك لا تفعل..

كانت تتأوه.. اندفعتُ نحو السرير أهزُّها من كتفيها، وبالكاد ابتعدت قبل أن تصطدم بي وهي تهب جالسة مستيقظة تمامًا.

- ما الذي يحدث؟

- كابوس.. كنتِ تحلمين بكابوس.

حدقت «سام» بي، لتتأكد أنني لستُ جزءًا من الحلم السيئ. كانت تبدو كامرأة تمَّ إنقاذها لتوّها من الغرق، وجهها أحمر ومبتل، وشعرها ملتصق بخديها المبللين بالعرق في خطوط طويلة داكنة تشبه الطحالب، وحتى تلك الرجفة الخفيفة التي انتابتها، بدت كما لو أنها تحاول نفض الماء الزائد.

- يا إلهي.. لقد كان سيئًا!

جلستُ على حافة الفراش، أنوي سؤالها عمّا كانت تحلم به.. هل كان «كالفين ويتمر» ووجهه المغطى بالجوال؟ أم كان شيئًا آخر؟ ربما عن «ليزا» وهي تنزف في حوض الاستحمام. لكن «سام» ظلت تنظر إليَّ، وهي تعرف أنَّ هناك شيئًا على وشك الحدوث.

- «چيف» وأنا سنرحل لبضعة أيام.

- إلى أين؟

- إلى شيكاجو.

- هل تطردينني؟ أنا لا أملك تكلفة الإقامة في فندق.

- أعرف.

قلتُها محافظة على نبرة هدوء واعتدال. لم أقل شيئًا يحبطها، هذا أمر لابد منه..

- يمكنكِ البقاء بينما نذهب.. اعتبريه نوعًا من رعاية المنزل. ربما تُعدِّينَ بعض المخبوزات إذا أحسستِ برغبة بها.

- موافقة.

- هل يمكن لي أنا و«چيف» أن نثق بكِ؟

كان سؤالًا لا طائل من ورائه، فأنا بالطبع لا أثق بها، ولهذا السبب في المقام الأول سأذهب مع «چيف» إلى شيكاجو. تركُها ورائي هو الخيار الوحيد المتاح.

- بالتأكيد.

كنتُ قد أخليتُ حقيبة يدي من النقود قبل دخولي الغرفة. أخرجتُ ورقتين من فئة المائة دولار، وسلَّمتهما لـ «سام» في يدها، وأنا أقول:

- ها هو مبلغ للمصاريف، أنفقي منه على الطعام، أو ربما تذهبين لمشاهدة فيلم.. أو أيًّا ما يكون.

إنها رشوة، و«سام» تعرف ذلك. قالت بينما أخذت تفرك الورقتين معًا:

- ألا تحصل المعتنية بالمنزل على ما يمكن أن نسميه راتبًا؟ تعلمين، لكي أبحث عن مكان.. التأكد من أن كل شيء على ما يرام.

بينما كانت تحاول وضع الأمر في إطار السؤال المنطقي، لم يمنع هذا شعوري بالخيانة، كأنني لُسعتُ بصفعة. أتذكر ليلة «سام» الأولى هنا، وكيف سألها «چيف» بشكل قاطع إذا ما كانت قد جاءت بحثًا عن المال، وهي أنكرت ذلك، وأنا صدَّقتها. الآن يراودني الإحساس بأن هذا كان السبب الوحيد الذي أتى بها. ثرثرة آخر الليل، الخبز، كل علاقة الصداقة تلك كانت مجرد وسيلة لذلك.

- ما رأيكِ بخمسمائة؟

نظرت «سام» حولها في الغرفة، كنتُ أستطيع رؤية عقلها يحسب الحسبة ويقيِّم كل قطعة.

- الألف تبدو أفضل.

ضغطتُ على أسناني وأنا أقول:

- بالطبع.

ذهبتُ لإحضار حقيبتي، وعدتُ إليها بشيك مستحق الدفع لـ «تينا ستون»، بتاريخ لاحق لموعد عودتي أنا و«چيف» بيوم واحد. لم تقل «سام» شيئًا عندما رأت التاريخ، فقط طوت الشيك ووضعته مع النقود على المنضدة المجاورة للفراش، وقالت:

- أما زلتِ تريدينني هنا عندما تعودين؟

- هذا يرجع إليكِ.

ابتسمت «سام»..

- إنه كذلك حقًا.. أليس كذلك؟

على متن الطائرة، وافقَ المسافر المنفرد بجواري على تبديل مكانه مع «چيف»، مما سمح لنا بالجلوس معًا. أمسك «چيف» بيدي أثناء الإقلاع ومنحني ضغطة لطيفة. وبعد الهبوط ثم التسجيل في فندقنا، كان أمامنا المساء والليل كله لنا وحدنا. اختفت الغرابة التي كانت قبل يومين، عندما كان غياب «سام» واضحًا كغياب خنصر. مشينا خلال مربعات وسط المدينة حول الفندق، التوتر من الأسبوع الماضي يذوب في نسيم بحيرة «متشيجن».

قال «چيف»:

- أنا سعيد بصحبتك يا «كوين»، أعلم أن الأمر لم يبدُ كذلك البارحة، لكني أعنيها.

لمّا مدَّ يده إليّ، أخذتُها بسرور. وجوده بجانبي يساعدني، وخاصةً مع اعتبار ما أنوي فعله.

أثناء طريق العودة إلى الفندق، استوقفَنا ثوب في نافذة متجر.. أسود وأبيض، خصره ضيّق وتنورته واسعة مثل ديور من زمن الخمسينات.

- مباشرة من طائرة باريس.

اقتبستُها من «جريس كيلي» في فيلم «النافذة الخلفية».

- تظن أنه سيباع؟

قال «چيف» منتحلًا شخصية «جيمي ستيوارت»:

- حسنًا، في الواقع، هذا يعتمد على السعر.

أجبتُ وما زلتُ «جريس»:

- صفقة بألف ومائة دولار. هذا الثوب يجب أن يعرض في البورصة.

تركَ «چيف» الانتحال وعاد إلى طبعه..

- وأعتقد أنكِ يجب أن تشتريه.

عدتُ إلى شخصيتي أنا أيضًا..

- حقًا؟!

لمعت ابتسامة «چيف» العريضة..

- كان أسبوعًا قاسيًا. تستحقين شيئًا طيبًا.

داخل المتجر، أراحتني معرفة أن سعره أقل من تقديري وأنا «جريس كيلي».. اكتشاف أنه يناسب مقاسي زادني راحة.. اشتريته في الحال. قال لي «چيف»:

- ثوب كهذا يستحق احتفالًا مناسبًا، أظن أني أعرف المكان المناسب.

تأنقنا للعشاء، أنا في ثوبي الجديد، و«چيف» في بزته الأفضل. بشكرٍ موصول للقائم على الحجوزات في الفندق، تمكنَّا من حجز متأخر في أكثر مطاعم المدينة حداثة وبذخًا. بعد تشجيع «چيف»، أسرفنا في قائمة تذوق الأصناف التسعة، ثم أنفقنا ما معنا على زجاجة خمر فاخر، ثم التحلية بـ «سوفليه شوكولاتة» كأنه مذاق من الجنة، حتى رجوتُ خبَّاز الحلوى أن يعطيني الوصفة.

عدنا إلى الفندق، اغتسلَ «چيف» بعدها، وعاد إلى السرير متورِّدًا ولطيفًا.

- ماذا يتضمن مخططكِ للغد؟

سألني وصوته بعيد، يبحر بالفعل على سفينة إلى أرض الأحلام.

- المزارات المعتادة. معهد الفن، بوابة السحاب، وربما المزيد من التسوق.

- جميل. (تمتمَ بها في نُعاسه).. ستحظين ببعض التسلية.

- ولهذا جئتُ.

قلتُها ولم أعنِها. التسلية ليست سببًا في مجيئي إلى هنا. ولا حتى «چيف». بينما كان في الحمام، يغسل عرقه، كنتُ عبر هاتفي أستأجر سيارة. في الصباح سأقود السيارة إلى «إنديانا»، وأحصل على بعض الإجابات أخيرًا.

الفصل 28

ما بين «شيكاجو» و«مونسي» 230 ميلًا، أسرعتُ في قطعها بما تسمح به سيارة الكامري التي استأجرتها على عجل، هادفةً الوصول إلى منزل «ليزا» لمعرفة إن كان بإمكاني اكتشاف شيء - أي شيء- قبل العودة إلى المدينة مساءً. الرحلة طويلة، قرابة سبع ساعات مجملًا، لكن ربما لو أكملتُ بنفس السرعة، أستطيع العودة قبل أن يشعر «جيف» بغيابي. على الطريق، قطعتُ شوطًا جيدًا بسرعة، وتوقفتُ فقط لمرة واحدة، عند متجر بقالة بائس على جانب طريق «I-65» واحد من تلك المتاجر الهلامية التي تريد إقناعك أنها جزء من سلسلة محلات، ولكنّ الترقيع مفضوح، مع كل عبوات الصودا اللزجة، والبلاطات البالية في الأرض، والأكواب المغلفة بواقيات من البلاستيك الشفاف على الأرفف. ابتعتُ زجاجة ماء، ولوحًا من حلوى الشوفان (جرانولا) مع بعض مقرمشات الجبن، فطور الأبطال. اصطفت الولاعات الفضية عند مكتب المحاسبة، وعندما كان المحاسب يفض لفافة جديدة من البنسات، التقطتُ واحدة وألقيتُها في جيبي. لقد كشفني، لكنه ابتسمَ وودعني بغمزة.

عدتُ إلى السيارة، أحسبُ وقتي بحسب ميل الشمس على شريط الأسفلت. المنظر الجاري عبر النوافذ كان قرويًا فظًا، المنازل متلاصقة من جوانبها، بشرفاتها المائلة، أميال من الحقول تُطوى بجانبي، أعواد الذرة فيها قد اختُزلت إلى نبتات ضئيلة. اللوحات على مخارج الطريق كانت تشير إلى تلك المدن الصغيرة بأسمائها الغريبة المضللة: باريس، البرازيل، بيروا.. وعندما اصفرت عين الشمس، ولم تعد ملتهبة فوق رأسك مباشرة، كنتُ أقود عبر «مونسي»، أبحث عن العنوان الذي أعطتني إياه «ليزا»، في حال أردت الكتابة إليها.

وجدتُ منزلها في شارع جانبي هادئ، مليء بمنازل المزارعين وأشجار الجميز. بيت «ليزا» كان ألطف من البيوت الأخرى

بدرجة ملحوظة، بمصاريع زاهية حديثة الطلاء، وأثاث الحدائق في الشرفة الأمامية. في منتصف العشب المشذب جيدًا، افترشت الحديقة دائرة من الزهور، انبثقت وسطها نافورة طيور من الفايبرجلاس، تشبه فطر عش الغراب عملقة.

كانت هناك سيارة عائلية ضخمة في الممر، مثبَّت على مصدِّها الخلفي ملصق هيئة بوليسية، بالتأكيد ليست سيارة «ليزا».

بعد أن ركنتُ السيارة في الشارع، تفقدت هيئتي في مرآتها الأمامية، لأتأكد من أنني أبدو حزينة متفاجئة، ولست مشوشة ومطاردة.

كنتُ قد أوليتُ عناية فائقة باختيار ملابسي في الفندق، بحيث تكون إلى حدٍ ما بين اللارسمية والحداد: جينز داكن، قميص بنفسجي غامقٍ، وحذاء أسود بلا كعب. توجهتُ إلى الباب الأمامي، مستخدمة الممشى المبلط الذي يقطع الحديقة، وعندما رننتُ الجرس ارتد إليَّ صداه من عمق المنزل. المرأة التي أجابت كانت ترتدي زيًا موحد اللون، بدرجة داكنة للسروال وقميص بولو بدرجة بيج أفتح، طويلة ذات وجه مثلث، ربما كانت تشبه «كاترين هيبورن» أيام شبابها، لكن حاليًا هناك شبكة من التجاعيد حول عينيها.. إنها تستحضر في الذهن صور سكان أوكلاهوما في أعمال «ووكر إيفانز»، نحيفة صلبة وقد برزت عظامها، أعرف تمامًا من هي، إنها «نانسي».

- هل يمكنني مساعدتكِ؟

قالتها بصوت حاد كصفير رياح السهول، ولم يكن لدي أي تخطيط لما أفعله أو أقوله، كان كل ما يهمني هو الوصول إلى هنا. ها أنا قد وصلتُ، ولا أدري ما هي خطوتي التالية.

- أهلًا.. أنا..

أومأت نانسي برأسها قائلة:

- «كوينسي»، أعرف.

إنها تنظر إلى أظافري وطلائها الأسود المتقشر. يدي اليمنى

المرقطة بالقشور، كأنها حروق الشمس حول عُقل الأصابع، جذبت انتباهها، فدسستُها في عمق جيبي.

- أنتِ هنا لأجل الجنازة؟

- اعتقدتُ أنها انقضت بالفعل.

- بل غدًا.

كان يجب أن أدرك أنها ستتأخر، فهناك عينات ستُفحص، بالإضافة إلى تقرير السموم الضروري.

- لقد كانت «ليزا» تفكر كثيرًا بكما، أعرف أنها كانت لترغب في وجودكِ هناك.

وكذلك سترغب بذلك الصحافة، التي أتوقع منها حشودًا من الصحفيين، ضاغطين أزرار كاميراتهم، متذكرين المزمور الثالث والعشرين. قلتُ:

- ربما لا تكون هذه فكرة جيدة، أخشى أن أتسبب في تشتيت الانتباه.

- إذن، سيكون من اللطيف حقًا أن تخبريني لماذا أنتِ هنا؟ أنا لستُ عبقرية، لكنني متأكدة تمامًا أن «مونسي» ليست على مرمى حجر من نيويورك!

- أنا هنا لأعرفَ أكثر عن «ليزا»، أنا هنا من أجل التفاصيل.

في الداخل، كان منزل «ليزا» مرتبًا إلى حد محبط. غرفة المعيشة تحتل المساحة الأكبر، غُرفتا الطعام والمطبخ مفتوحتان على بعضهما بعضاً لتشكلا معًا غرفة ضخمة، وعلى الحوائط ديكور بإطارات خشبية، مما جعل المكان يبدو باليًا عتيق الطراز، يليق بجدة أرملة، وليس بامرأة في الثانية والأربعين.

لم أرَ أي علامة لجريمة قتل تمت هنا. لا شرطة تعبّر بحثًا عن بصمات، لا أوجه مكفهرةّ لرجال المباحث الجنائية تخز السجاد وتلتقط أشياء بالجفوت.. تلك المهام قد انقضت وفي

انتظار النتائج. أكوام صناديق من الورق المقوى، بعضها مطوي وبعضها لا، يفسد المشهد في غرفة المعيشة، العارية بالفعل من الزخارف. المناضد الصغيرة عليها مفارش دائرية، حيث كانت هنا ذات يوم مزهريات وصحون زينة.

- عائلة «ليزا» سألت إذا ما كان بإمكاني البدء في حزم أغراضها. إنهم لا يريدون وطء المكان بأقدامهم بعد الآن. ليس بمقدوري لومهم.

جلسنا حول الطاولة البيضاوية في غرفة الطعام، وأمامنا مفرش سفرة مطوي. خمّنتُ أن «ليزا» اعتادت تناول وجباتها هنا، حيث إنَّ المكان مجهّز لفرد واحد. تحدثنا بينما كنا نرتشف الشاي في فناجين ذات زهور وردية حول حافتها. أخبرتني أن اسمها «نانسي سكوت»، من قوات ولاية إنديانا لخمسة وعشرين عامًا، ولكنها غالبًا ستتقاعد بحلول هذا الوقت من العام القادم. هي عزباء، لم تتزوج قط، لديها كلبان من نوع الراعي الألماني، بوليسيان خرجا من الخدمة.

- كنتُ من أوائل من دخلوا مهجع الطالبات ذاك، وأول من أدركَ أن «ليزا» لم تمُت كالباقين. كل الرجال الآخرين (وكانوا كلهم عداي رجالًا) ألقوا نظرة على تلك الأجساد وافترضوا الأسوأ. أنا كذلك، على ما أعتقد. أوه.. كان ذلك شريرًا.. الدم.. كان في كل مكان.

سكتتْ، وقد انتبهت إلى مَن تتحدث، فأومأتُ لها أن تستمر..

- عندما ألقيتُ نظرة واحدة على «ليزا»، علمتُ أنها ما تزال على قيد الحياة. لم أعرف ما إذا كانت ستبقى هكذا، ولكنها بطريقة ما نجت. بعد ذلك، بدأتُ أميل إليها، كانت تلك الفتاة مقاتلة.

- وهكذا صرتما قريبتين من بعضكما؟

- «ليزا» وأنا كنا قريبتين، بنفس الطريقة التي أنت و«فرانك» قريبان بها.

«فرانك»!.. إنه لأمر مزعج سماع أنه يدعى بهذا، فبالنسبة لي هو ببساطة «كووب».

- كانت تعرف أنها تستطيع استدعائي وقتما تحتاج. كنت دومًا موجودة، أنصتُ إليها، أساعدُها بأي طريقة أستطيعها. هذا النوع من العلاقات هشّ كما ترين. إنكِ تحتاجين إلى جعلهم يدركون أنكِ هناك لدعمهم، ولكن دون الانخراط بشدة، يجب الحفاظ على مسافة، وضع الأمور في نصاب أفضل بهذه الطريقة.

فكرتُ في «كووب» وفي جميع الحواجز غير المرئية التي بناها بيننا.. دائمًا مجرد إيماءة، فكرة العناق لم تخطر في باله، لم يأتِ إلى مسكني أبدًا إلّا حين تحتّم عليه ذلك، أمن المحتمل أن «نانسي» أملت عليه نفس هذه القواعد في الحفاظ على المسافات؟! لن يصدمني أن تكون من تينكَ النساء اللاتي لا يحتفظن بآرائهن لأنفسهن.

- في خمس السنوات الماضية أو نحو ذلك، صارت علاقتنا تندرج تحت مسمى الصداقة، أصبحتُ قريبة من عائلتها كذلك، دُعيت إلى عشاء عيد الشكر، وفي أعياد الميلاد العائلية.

- يبدو أنهم أناس طيبون.

- أي نعم. يصعب عليهم الأمر بشدة. سيظللهم الحزن لبقية حياتهم.

- وأنتِ؟

- أوه.. أنا غاضبة!

ارتشفتْ الشاي من فنجانها، فتجعدت شفتاها مع الحرارة، قبل أن تتحولا إلى خطٍ قاسٍ وهي تقول:

- أعلم أن المفترض أن أحزن، وأنا كذلك، ولكن الأمر أبعد من الحزن، أنا أغلي بالغضب، شخصٌ ما أخذ منا «ليزا» بعيدًا.. بعد كل ما مرت به.

أفهمُ ما عنتهُ بالضبط. مقتل «ليزا» كأنه هزيمة.. الناجية الأخيرة انهزمت أخيرًا.

هل ساوركِ الشك دومًا أن الحادث كان يُخفي ما هو أكثر؟

- بل متأكدة تمام التأكد. كنتُ واثقة أن ليزا لا يمكن أن تقتل نفسها. ليس بعد أن قاتلت بكل هذه الضراوة لتنجو، وقامت بالكثير باليد التي كافحت بها. أنا من طلبت تحليل السموم، اللعنة على تضارب المصالح!. كنتُ محقة بكل تأكيد. لقد وجدوا تلك الحبوب في جسدها، ولم يجدوا وصفة دوائية لها في المنزل بكامله. بعدها فحصوا جروح السكين، الأمر الذي كان عليهم فعله منذ البداية.

- عندما تحدثنا معًا على الهاتف، قلتِ بأنه لم يكن هناك أي مشتبه بهم. هل تغيّر هذا؟

- أبدًا.

- ماذا عن الدافع؟

- حتى الآن لا شيء.

- تبدين مقتنعة أنهم لن يقبضوا أبدًا على مرتكب الجريمة!

أطلقت زفرة حارة وقالت:

- لأنني لستُ... حينما عرف هؤلاء الأغبياء حقيقةَ ما حدث، كان الوقت قد مرَّ بالفعل. مسرح الجريمة قد انتُهك بالفعل. أنا مع تلك الصناديق.. وبعض أصدقاء «ليزا» وأبناء عمومتها.. كلنا مغروسون هنا فيما لا يعلمه سوى الرب.

مالت في جلستها تحدِّث الطاولة.

- طوال الوقت قبعت تلك الحلقة من النبيذ هنا بالضبط. من كأس لم يلحظ أحد فقده. أيًا كان مرتكب الجريمة، فقد أخذه معه. ربما كان الآن محطمًا على جانب طريق ما، مقذوفًا من نافذة سيارة.

انتبهت إلى يديَّ اللتين استرختا على سطح الطاولة وراحتيها

المنبسطتين، فسحبتُهما بعيدًا بسرعة، فقالت:

- لقد أنهَوا رفع البصمات بالفعل.. لم يجدوا أي بصمة. نفس الشيء مع الحمّام، السكين، وهاتف «ليزا». كلها تلمع بالنظافة.

سألتُها:

- ولا واحد من أصدقائها يعرف أي شيء؟

- إنهم يتعسَّسون في المنطقة، ولكن الأمر صعب. «ليزا» كانت تحب الصحبة. كانت اجتماعية للغاية.

اعتراض «نانسي» كان جليًّا، كانت تبصق الكلمات كما لو أنها بشعة المذاق في فمها.

- أتعتقدين أنها ما كان يجب أن تفعل؟

- أعتقد أنها كانت تضع ثقتها في غير محلها. بسبب ما مرت به، صارت تريد مساعدة كل محتاج للمساعدة. البنات بالذات، الواقعات في المتاعب.

- متاعب مثل ماذا؟

- الفتيات المعرضات للخطر. سواء لمشاكل مع الوالدِين، أو هاربات من عشيق يهوى ضربهن. كانت «ليزا» تؤويهن وتعتني بهن حتى يشتد عودهن ويقفن على أرجلهن ثانية. كنتُ أرى هذا كمحاولة منها لملء ذلك الفراغ الذي خلَّفته تلك الليلة في مهجع الطالبات.

- فراغ!

- «ليزا» لم تواعد كثيرًا. لم تكن تثق كثيرًا بالرجال، لأسباب وجيهة. ربما حلمت كغالبية الفتيات بالزواج وبإنجاب الأطفال، وبأن تصبح أمًا. ذلك اليوم في مهجع الطالبات نزعَ منها كل تلك الأماني.

- إذا فهي لم تُواعد أبدًا؟

- قليلًا.. لا شيء اتّخذ مسارًا جدّيًا. أغلب الشباب انصرفوا

حينما اكتشفوا ما حدث لها.

- هل ذكرتْ أيًّا منهم لكِ؟ ربما مثلًا عن أنَّ أحدهم يُضايقها؟ أما تكلمت أبدًا عن مشاكل مع الفتيات اللاتي تصاحبهن؟

«سام».. هي على وجه التحديد من أعني، ترى..أذكرتْ «ليزا» «سامنثا بويد»؟

- لم تذكر أي أحد على وجه الخصوص.

ارتشفتْ «نانسي» آخر قطرة من فنجانها، ونظرت إلى فنجاني، متمنية بوضوح أن أُنهيه أنا أيضًا وأغرب عن وجهها.

- كم ستبقينَ في المدينة يا «كوينسي»؟

نظرتُ في ساعتي، كانت الواحدة والربع، أحتاج أن أكون على الطريق في الثانية والنصف، لو أردتُ أن أعود إلى شيكاجو دون إثارة شكوك «چيف».

- لساعة أخرى.

جلتُ بناظري في الغرفة التي حُزِم نصف متاعها، ثم في الصناديق الفارغة المطوية المسندة إلى الجدار..

- أتحتاجين بعض المساعدة؟

الفصل 29

عرضتُ على «نانسي» أن أبدأ بغرفة نوم «ليزا»، بينما تستمر هي في حزم متعلقات غرفة المعيشة. وافقت على مضض، كما لو أنها كانت غير متأكدة من أنني أهل للثقة. لكنها بعد ذلك كلّفتني بصندوقين. قالت مشيرة إلى الرواق:

- لا تهتمي كثيرًا بتصنيف الأشياء، عائلتها ستقوم بذلك، نحتاج فقط إلى إخلاء المكان.

وأخيرًا، بعيدة عن رقابتها، تسكعتُ في الردهة وأنا أنظر داخل كل غرفة من ثلاث الغرف الموجودة هنا.. الأولى غرفة الضيوف، قليلة الأثاث ومنظفة بعناية. خطوتُ إليها وتجوّلت في محيطها، أمرر أصبعي على خزانة ملابسها، سريرها، المنضدة المجاورة له.. ليس هناك أثر لوجود «سام» هنا مسبقًا. رغم أن بمقدوري تخيلها وهي تدخن بجوار النافذة المفتوحة، تمامًا مثلما تفعل في الغالب في شقتي في هذه اللحظة بالذات. عدتُ إلى الردهة، وتوقفت عند الحمام، متهيبة دخوله.. دخوله سيبدو كانتهاك حرمة مقبرة. إضافة إلى أن بمقدوري رؤيته كاملًا من موقعي عند الباب، من حوض الاستحمام، إلى المغسلة والمرحاض، كان بأكمله ذا لون أزرق كالبحر. وإن شابته بضع لطخات من مسحوق الألومنيوم المستخدم لرفع البصمات.

حدّقتُ بتوتر في حوض الاستحمام، هنا لقيت «ليزا» مصرعها. أتخيلها مستلقية فيه، محاطة بماء وردي غائم، ثم رحتُ أفكر في «سام» تقف عند عتبة الباب، تمامًا في مكاني، تراقبها لتتأكد أن المهمة قد تمت. شعرتُ بعجزي عن النظر إلى ذلك الحوض للحظة أطول، فتوجهت إلى غرفة نوم «ليزا»، أحاول جاهدة التخلص من تلك الرعشة المفاجئة التي انتابتني.

غرفة النوم كلها بين الوردي والأبيض الكريمي، بسجادة كريمية، وستائر وردية، ولحاف زهري على السرير. هناك مشاية

رياضية في الركن غطتها الأتربة، وتناثرت فوقها الملابس. تساءلتُ إن كانت «ليزا» قد أجرت مكالمة واحدة لها وهي تقدّم نصائحها وتتحرك منتعلة المشّاية، أو متمددة في الفراش. ذكرى صوتها عبر الهاتف تعاودني: «ليس بإمكانكِ تغيير الماضي وما جرى، كل ما بيدكِ التحكم فيه هو كيفية تعاملكِ معه»».

توجهتُ إلى طاولة الزينة، تناثرت على سطحها إكسسورات شعرها، وسلالها البلاستيكية الممتلئة بأدوات الزينة، وصندوق مجوهرات قديم، عندما رفعتُ غطاءه، برزت بالبيرينا خزفية لها تنورة قصيرة من (التل)، وبدأت بالدوران.

في الجانب الآخر من الخزانة، كانت مجموعة من الإطارات البلاستيكية التي تحاكي شكل الخشب وفيها مجموعة من صورها.. هذه «ليزا» على الشاطئ مع «نانسي»»، كلتاهما تضيّقان عينيهما من الشمس.. «ليزا»، مع من أظنهما والديها، أمام شجرة الكريسماس.. «ليزا» في الأخدود العظيم «جراند كانيون»، في حانة وخلفها إضاءة نيون، وعلى كتفها يد تضع خاتمًا أحمر.. في عيد ميلاد والكعكة تلطّخ وجهها.

كنتُ أُفرغ درجًا تلو الآخر في كل مرة، ساحبةً كومة من حمالات الصدر والجوارب والسراويل الداخلية التي تليق بالجدات. أزلتُ الملابس بسرعة، محاولة تجاهل حقيقة أنني أتطفل على ما ليس لي، أشعر أنني أنتهك خصوصيتها، كما لو كنتُ قد اقتحمت منزلها وأخذتُ في نهب المكان.

نفس الشيء عندما بدأتُ أُفرغ فساتينها وسراويلها، والتنانير المشجرة التي انقضت موضتها منذ سنوات. لكنني بعد ذلك وجدتُ ما كنت آمل أن أجده.. هناك صندوق مؤمن رمادي في أعمق أعماق الخزانة، مختفٍ جزئيًا وراء سلة، صغير، له درج واحد به ثقب ضيق، على غرار ذلك الموجود في درجي السري في المنزل، ومثله أحاطت به خدوش وخربشات حول ثقب المفتاح، خدوش يصنعها فتحه دون مفتاح.

أنا الآن متأكدة أن «سام» سبقَ أن جاءت هنا، فتلك الخدوش هي عمل يديها. مؤكد أنها كذلك.

مددتُ يدي إلى القلادة التي تحمل مفتاحي، ما زلتُ أضعُها. على الرغم من كونها بعيدة جدًا عن منزلي، إلا أنها تمنحني شعورًا بأنني طبيعية، بينما في الواقع قد قلبت «سام» حياتي رأسًا على عقب.

جذبتُ الدرج بقوة، فانزلقَ مفتوحًا، وفيه تكدّست ثلاثة ملفات، العلوي أزرق اللون وبلا عنوان، فتحتُه فوجدت ما يمكنني أن أطلق عليه دفتر قصاصات، الصفحة التالية ملصق بها قصاصات من الصحف ومقالات من المجلات، وقصص مطبوعة من الإنترنت، كلها عن مذبحة مهجع الطالبات. بعض الجمل من المقالات كان تحتها خط بقلم أزرق، علامات استفهام، ووجوه حزينة ازدحمت بها الهوامش.

الملفان الآخران أحدهما أحمر، والثاني أبيض، واحد عن «سام»، والثاني يخصني، عرفتُ ذلك بدون حتى أن أفتحهما، الحسبة بسيطة، الناجيات الثلاث الأخيرات في ثلاثة ملفات.

ملف «سام» كان الأحمر، وبداخله مقالات عن نُزل «نايت لايت»، بما في ذلك تلك المنشورة في مجلة «تايم»، والتي صدمتني في طفولتي. ملاحظات «ليزا» متزاحمة هنا أيضًا، كلمات وعبارات وجمل كاملة خربشتها في الهوامش. في ظهر الملف وجدتُ قصاصتين من الجرائد، كلتاهما دون تاريخ.

«تواصل سلطات هيميلوك، بنسلفانيا التحقيق في مقتل اثنين من المخيِّمين عُثر عليهما مطعونيْن حتى الموت الشهر الماضي، حيث اكتشفت الشرطة جثتي «تومي كوران» 24 عامًا، و«سوزي بافكوفيتش» 23 عامًا، داخل خيمة في منطقة كثيفة الأشجار على بعد ميلين من المدينة. كلتا الضحيتين قُتلتا طعنًا مرات عديدة. وعلى الرغم من دلائل المقاومة في ساحة الجريمة، فقد صرح المسؤولون أنَّ شيئًا لم يختفِ من المكان، مما

قادهم إلى استنتاج أن السطو لم يكن سبب الحادثة.

هذه الجريمة المروعة قد وضعت العديد من أهل المدينة الهادئة في حالة من القلق، فقد أتت بعد عام واحد بالكاد من العثور على جثة امرأة في العشرين من عمرها، على طريق الوادي، وهو طريق هادئ لا يستخدمه تقريبًا إلا موظفو «مستشفى بلاكثورن النفسي». المرأة، التي عجز المحققون عن معرفة هويتها، قُتلت خنقًا، وتعتقد الشرطة أنها قتلت في مكان آخر، ثم تخلص القاتل من الجثة في الغابة. ولكن الشرطة تقول إن الجريمتين لا علاقة بينهما»

«هازلتون، بنسلفانيا - تمَّ العثور بالأمس على رجل مطعون حتى الموت، داخل المنزل الذي يقيم فيه مع زوجته وابنتها. استجابةً لمكالمة للطوارئ، خرجت الشرطة إلى شارع «مابل»، لتجد «إيرل بوتاس»، 46 عامًا مقتولًا في مطبخ مسكنه ذي الطابقين، نتيجة لعدة طعنات في الصدر والبطن، واعتبرت السلطات الحادث جريمة قتل، والتحقيقات مستمرة لمعرفة ما وراء الحادث»

ضغطتُ على جبهتي بيدي، كانت بشرتي ساخنة من أثر المقال الأول وذكر «بلاكثورن» فيه، ذلك الاسم يجعلني أتصبب عرقًا. على الرغم من عجزي عن تذكر السبب، إلا أنني سمعت من قبل بهاتين الجريمتين في الغابة، لقد حدثتا منذ قرابة عام قبل « كوخ الصنوبر» في نفس الغابة. لماذا تحتفظ «ليزا» بهذه القصاصة وتُدبّسها في ملف مخصص لـ «سام»؟ هذا أبعد من قدرتي على الفهم!

عدتُ إلى قراءة القصاصة ثانية، فلم يُضف ذلك أي توضيح للأمر، فأعدتُ تثبيتها في مكانها من الملف، وأبعدته، متناولة الملف الأبيض..

ملفي.

أول ما رأيته حين فتحت الملف، كان ورقة منفردة عليها

اسمي، ثم رقم هاتفي.. الآن بدأت الأمور تفسّر نفسها، فمن هذا الملف عرفت «سام» رقمي، واتصلت بي ليلة القبض عليها.

تلا ذلك مجموعة مقالات عن «كوخ الصنوبر» مثبتة معًا بمشبك وردي. كنت أقلّبها بسرعة دون التدقيق فيها، خشية أن تسقط عيني على صورة أخرى.. له!

تحت المقالات كان ثمّةَ خطابٌ..

الخطاب!

ذلك الخطاب الشرير، حتى «كووب» اهتاجَ حين اطّلع عليه.

يجب ألّا تكوني على قيد الحياة.

كان عليكِ أن تلقي حتفكِ في ذلك الكوخ.

لقد كان مقدّرًا لكِ أن تتمّ التضحية بكِ.

انتابتني رجفة وبدأتُ ألهث، ولكنني تماسكت، خشية أن تشعر «نانسي» بما يعتريني. وبدلًا من ذلك، ظللتُ أحدق في الخطاب، بعيون لا ترمش، وكأن كل الأصفار البديلة عن الحروف فيه لديها عيون تبادلني التحديق، وسؤال واحد يمزّق عقلي متجليًا: كيف حصلت «ليزا» على نسخة منه؟.. برقَ بعده سؤال أكثر إلحاحًا: لِمَ هو معها؟

خلف الخطاب، كانت هناك ورقة مُدبّسة، دُوِّن عليها محضر تحقيق الشرطة، على رأسها اسمي والتاريخ، بعد حادث «كوخ الصنوبر» بأسبوع. ومذيّلة بدقة باسمين لشخصين، لم يمرّا في بالي منذ سنين: المحقق «كول» والمحقق «فريمونت».

رنَّ صوت «نانسي» آتية من آخر الردهة: «كوينسي»؟

في لمح البصر، كنتُ قد أغلقت الملف، ودسسته وراء ظهري تحت القميص، الذي أدخلته في سروالي عميقًا، كيلا ينفلت مع حركتي، ثم دسستُ قميصي فوقه داخل السروال آملة ألا تلحظ «نانسي» أنه لم يكن داخله من قبل. ألقيت بالملفين الآخرين

في الصندوق وأغلقت الدرج جيدًا، بالكاد قبل تدخل عليَّ «نانسي» ناظرة أولًا إلى الصناديق، ثم إليّ وأنا أفرد قامتي من انحنائي أمام دولاب «ليزا».

- لقد حان موعدكِ.

عادت تنظر إلى الصندوقين، وكلاهما لم يمتلئ تمامًا، وعلى جانب أحدهما ألقيَ أحد سراويل «ليزا».

- آسفة لكوني لم أستطع إنجاز المزيد. حزمُ أغراض «ليزا» أصعب كثيرًا مما ظننت، إنه يعني أنها رحلت حقًا.

حملنا معًا الصندوقين إلى غرفة المعيشة، تاركة «نانسي» تسبقني. وعندما ودّعتني عند الباب، كنتُ قلقة من أن تهمّ بعناقي، فتشعر بنتوء الملف على ظهري. تخشَّب جسدي للفكرة، لكنها على ما يبدو مثل «كووب» عندما يتعلق الأمر بالعناق، إنها حتى لم تصافحني، فقط زمَّت شفتيها، فبرزت التجاعيد حولهما وهي تقول:

- انتبهي إلى نفسكِ يا صغيرتي.

أسبوع بعد «كوخ الصنوبر»

حدّق الشرطي الطيب والشرطي الشرير في «كوينسي»، متوقّعَين منها شيئًا لم تستطع تقديمه لهما. المحقق «فريمونت»، ذلك البولدوج العجوز، بدا مشتتًا كما لو أنه لم ينم منذ أيام، ولاحظت «كوينسي» أنه يرتدي نفس السترة منذ محضر التحقيق الأول، ببقعة الخردل التي ما تزال مكانها. وعلى العكس كان المحقق «كول»، يبدو كشيطان وسيم، برغم الشعر الخشن الذي يحاول أن يكون شاربًا أعلى شفته، وقد انفتلَ طرفاه حين ابتسم لها قائلًا:

- أنتِ غالبًا متوترة. اهدئي قليلًا.

لكن «كوينسي» كانت منفعلة جدًا، مضى عليها يومان فقط منذ خرجت من المستشفى، لتجد نفسها في قسم الشرطة، تدفعها أمها الغاضبة على مقعد مدولب، لأن المشي لم يزل يؤلمها.

أثناء قيادتها في الطريق إلى القسم قالت أمها بضيق:

- أي سخف هذا؟! ألا يفهمون كم هو غير ملائم استدعاؤك؟

كانت أمها تنظّف حمام الطابق العلوي حين جاءتها المكالمة، فردت على الهاتف بقفازها المطاطي. ورغم السخف، إلا أنها بدلّت ملابسها إلى فستان مشجر للذهاب إلى قسم الشرطة، في حين بقيت «كوينسي» في منامتها ومعطفها المنزلي، رغم رعب والدتها المعترض.

- هل هناك خطأ ما؟

سألت «كوينسي» بينما كانت تحدّق في المحققين من فوق مقعد مدولب، مندهشة من استدعائها إلى هنا، فأجابها «كول»:

- لا أبدًا، كل ما هنالك أن لدينا المزيد من الأسئلة.

- لقد أخبرتكم بكل ما أعرفه بالفعل!

هزّ «فريمونت» رأسه متأسيًا:

- والذي هو الكثير من اللاشيء.

قال «كول»:

- اسمعي يا «كوينسي»، أريدك أن تتأكدي أننا لا نتعمد مضايقتك، كل ما نريده هو التأكد من أننا حصلنا على كل المعلومات عما حدث في ذلك الكوخ. من أجل عائلات الضحايا.. بالتأكيد تتفهمين ذلك.

لم تكن «كوينسي» تريد التفكير في كل أولئك الآباء المفجوعين، والأشقاء والأصدقاء. لقد زارتها أم «چينيل» في المستشفى، كانت ترتجف وعيناها حمراوان، تتوسل إليها أن تخبرها بأن ابنتها لم تتألم. كذبت «كوينسي» وأخبرتها أنها لم تشعر بشيء، وأنها متأكدة من ذلك.

- أتفهَّم ذلك، وأريد المساعدة.. حقًّا أريد أن أساعد.

مدَّ المحقق يده إلى حقيبة بجواره، وأخرج منها ملفًا، وضعه على الطاولة، ثم جهاز تسجيل وضعه على الملف، وقال:

- سنطرح عليكِ بعض الأسئلة، وإن لم تمانعي، نريد تسجيل الحوار.

ظهر القلق في عيني «كوينسي» وهي تحدق في جهاز التسجيل، لكنها قالت:

- بالتأكيد.

ارتعشت نبرتها وهي تقولها. ضغط «كول» على زر التسجيل، قبل أن يقول:

- والآن أخبرينا يا «كوينسي»، بأقصى قدرة لديك على التذكر، ما الذي تتذكرينه عن تلك الليلة؟

- كل الليلة؟ أم حين بدأت «چينيل» في الصراخ؟ لأنني لا أتذكر كثيرًا من ذلك.

- بل الليلة كلها.

- حسناً..

توقفت «كوينسي»، وتململت قليلًا لتنظر من شرّاعة الباب. كان الباب نفسه مغلقًا، بعد أن طلبوا من أمها الانتظار في الخارج. الفتحة المربعة للشّراعة لم تُظهر إلا جزءًا من الجدار ذي اللون العاجي، وزاوية من ملصق تحذيري عن مخاطر القيادة في حالة سُكر، لكنها لم تستطع رؤية والدتها.. لم تستطع رؤية أي شخص.

قال «فريمونت» في هدوء:

- نحن نعلم أنكم تعاطيتم شرب الخمر وكذلك الماريجوانا أيضًا.

أقرّت «كوينسي» بذلك:

- نعم كانا هناك.. لكنني لم أتعاطَ أيهما.

- أنتِ فتاة مهذبة إذًا؟

- نعم.

قال «كول»:

- لكنه كان حفلًا.

- نعم.

- وكان «چو هانين» هناك؟

جفلت «كوينسي» لسماع اسمه، وبدأت الغُرَز الجراحية ــــ ممّا تركته الطعنات الثلاث في جسدها من جروح ــــ تنبض بالألم..

- نعم.

سألها «فريمونت»:

- هل حدثَ شيء أثناء الحفل؟.. شيء جعله يغضب.. قام أحدهم بإغاظته أو التنمر عليه؟.. ربما آذاه إلى درجة جعلته يريد أن ينتقم؟

- لا.

- هل حدثَ أي شيء جعلك أنتِ تغضبين؟

- لا.

نفت «كوينسي» ثانيةً، وهي تضغط الكلمة، آملةً أن يبدو وقعها في آذانهما صادقًا.

- لقد فحصنا تقرير الطب الشرعي عنكِ، الخاص بالاغتصاب.

كان يُلمح إلى مجموعة الفحوصات الخاصة بالاغتصاب، والتي تحمَّلتها «كوينسي» بعد الانتهاء من خياطة جروحها. لم تكن تتذكر الكثير عنها، فقط كانت تلصق ناظريها بالسقف، تحاول كبْت نحيبها، بينما تحدثها الممرضة مهدئة إياها مع كل خطوة.

- النتيجة تقول إنك نمت في تلك الليلة، هل هذا صحيح؟

غشيها إحساس بالعار، وهي تجيب بإيماءة واحدة.

سألها «فريمونت»:

- أكان ذلك بالتراضي؟

أومأت برأسها مرة أخرى، وقد شعرت بالصهد على جبهتها ورقبتها..

- هل أنتِ متأكدة؟ إنه أمر مقبول لو قلتِ إن الأمر لم يكن كذلك.

- بل كان.. بالتراضي، أعني ذلك.. لم أُغتَصب.

تنحنحَ المحقق «كول»، حريصًا مثل «كوينسي» على تغيير الموضوع..

- فلننتقل إلى النقطة التالية. لنتحدث عما حدث، بعدما خرجت صديقتك «جينيل» من الغابة، وطُعِنتِ أنتِ في كتفك، هل أنتِ واثقة من عدم تذكرك أي شيء بعد ذلك؟

- أجل.

- حاولي.. فقط لدقائق قليلة.

أغلقت «كوينسي» جفونها وهي تشعر أنها المرة المائة التي تحاول فيها خلال هذا الأسبوع، كي تستحضر أبهت الذكريات عن تلك الساعة المفقودة في ذهنها. تنفست بعمق، وكل نفسٍ كان يشد على جروحها، وبدأ رأسها يؤلمها. الصداع مرة أخرى يتمدد في دماغها، وبدأ الظلام يغالبها، فصاحت:

- آسفة.. لا أستطيع.

سألها «فريمونت»:

- لا شيء على الإطلاق؟

- لا (كانت ترتجف الآن، وتوشك على البكاء).. لا شيء لدَي.

عقدَ «فريمونت» ذراعيه وحدجها بنظرة ضيق وهو يزفر، بينما مالَ «كول» برأسه يتأملها، كأنه يراها بشكل أفضل هكذا.

- أشعر بالعطش..

وجَّه كلامه إلى «فريمونت»:

- هانك، أيمكنكَ أن تتلطف قليلًا، وتأتيني بالقهوة من ماكينة القهوة هناك؟

فوجئ «فريمونت» بالطلب..

- أنت جاد؟

- نعم، من فضلك

ثم نظر إلى «كوينسي» يسألها:

- هل القهوة مسموح بها لكِ؟

- لا أعرف.

فقرَّر «كول» أن: «من الأفضل ألَّا نجازف»، وأكمل:

- الكافيين قد يتفاعل مع الأدوية التي تستخدمينها، ألستُ محقًا؟ لن يكون ذلك أمرًا جيدًا لكِ. هه!

هه! تلك الكلمة الأخيرة هي ما نبَّهت «كوينسي». كل

أسلوب التشجيع المحفز، لم يكن سوى تمثيل.. وجهُ «كول» الوسيم والابتسامات الدافئة الجذابة إلى درجة غير مفهومة، كل ذلك مجرد تمثيلية. أكّد «كول» هذا بمجرد خروج «فريمونت» من الغرفة..

- سأشهد لكِ، أنت جيدة جدًا.

- أنتم لا تصدقونني.

- كلا البتة. لكننا سنصل إلى الحقيقة في النهاية. فكري في ذلك يا «كوينسي». تخيَّلي كيف سيشعر آباء أصدقائك حين يكتشفون أنك كنتِ تكذبين طوال الوقت.. هه!

هذه المرة، غمزَ بعينه، كما لو كان يخبرها بطريقته أنه يعرف أنها تعرف.

والآن، يمكنك أن تحدثي بكل ما تريدين عن كونكِ لا تتذكرين شيئًا، ولكننا، أنا وأنتِ، نعرف أنك تتذكرين.

ولمرة أخرى، بدأ تحوُّلٌ غريبٌ داخل «كوينسي».. صلابة داخلية.. كل شيء يتحول إلى حديد مجلفنٍ، رأت نفسها وكأن جلدها يلمع كمعدن مصقول، ويصنع درعًا يحميها من اتهامات «كول».. صورة جعلتها تشعر بالقوة، وتقول:

- آسفة من كون افتقاري إلى الذاكرة يجعلك غاضبًا.. يمكنك أن تقضي سنوات تسألني عما شئت. ولكن حتى أستعيد ذاكرتي لن تتغير إجاباتي.

ردَّ «كول» في برود:

- ربما هذا بالضبط ما سأفعله.. سأذهب إلى منزلك مرة كل شهر.. لا، بل بحق الجحيم مرة كل أسبوع.. أعتقد أنَّ والديكِ سيبدآن بالتساؤل عن سبب استمرار ذلك المحقق الوسيم في طرح أسئلته.

ابتسمت «كوينسي» ابتسامة سمجة مستهينة وهي تقول:

- على قدر يسير من الوسامة.

- لو أنني مكانكِ، ما كنتُ لأبتسم.. ستة صبية قد قتلوا يا «كوينسي»، وذووهم يريدون إجابات، والناجية الوحيدة هي أنتِ، الفتاة الصغيرة الضعيفة، التي تدَّعي أنها لا تتذكر شيئًا.

- أحقًا تعتقد أنني من ارتكبت ذلك؟

- بل أعتقد أنك تخفين أمرًا بالتأكيد.. ربما لحماية شخص ما. قد أغيِّر رأيي أخيرًا، إذا ما أخبرتني بكل ما رأيتِه في تلك الليلة.. بما في ذلك تلك الأشياء التي نسيتِها عمدًا.

- لقد أخبرتكَ بكل ما أعرفه، ما الذي يجعلك تعتقد أنني أكذب؟

- لأن كل ما أدليتِ به غير متّسق. بصماتك على سكينٍ قتلَ جميع أصدقائك.

- وكذلك كل من عداي.

امتلأ صدر «كوينسي» بالغضب وهي تفكر كيف تبادلت الأيدي تلك السكين.. «چينيل»، «إيمي»، «بيتز»، كلهم لمسوها بالتأكيد. هو أيضًا..

- لا ينبغي لي أن أذكِّرك بهذا، ولكنني أيضًا طُعنت بنفس السكين.. ثلاث مرات.

- اثنتان في الكتف، وواحدة في البطن، ليس من بينها طعنة قاتلة.

- ليس بسبب عدم محاولة قتلي.

- أتريدين معرفة ما جرى للآخرين؟

سحبَ «كول» الملف على المنضدة، وعندما فتحه، رأت «كوينسي» الصور.. صورها، التقطتها بكاميرتها، عثرت عليها الشرطة في «كوخ الصنوبر» بالطبع، وحمَّلتها مع صور أخرى محفوظة معها.

سحبَ المحقق صورة مأخوذة عبر المائدة، فيها «چينيل» تُخرج لسانها أمام «كوخ الصنوبر» لتخطف الكاميرا..

«چينيل بينيت»، أربع طعنات، واحدة في القلب، في الرئة، الكتف، والبطن. بالإضافة إلى جزّ حلقها.

شعرتْ فجأة أن القوقعة التي تدرَّع عقلها داخلها قد تحللت وذابت، وتركتها مكشوفة العورة.. فتمتمت قائلة:

- توقَّف!

تجاهلها «كول»، جارًا إصبعهُ إلى صورة أخرى. «كريج» هذه المرة، يقف متقمصًا دور البطل فوق الصخرة التي تسلقوها..

- «كريج أندرسون»، ست طعنات، يتراوح عمقها من اثنتين إلى ست بوصات.

- أرجوك!

جاءت التالية صورة «رودني» و«إيمي»، يضمان بعضهما أثناء جولتهم.

- «رودني سبيلينج»، أربعة جروح عميقة، اثنان في البطن، واحد في الذراع.. واحد في القلب.

- توقّف!

علت صرخة «كوينسي» بما يكفي لإسراع «فريمونت» بالدخول، ومعه شرطي بالزي الرسمي كان يحوم في المدخل، تعرفت عليه «كوينسي» على الفور.. إنه الضابط «كوبر»، الذي لملَم ما تبعثر من أعصابها بنظرة من عينيه الزرقاوين حملت لها الحماية. مجرد رؤيته بعثت فيها شعورًا بالراحة ..

- ما الذي يحدث هنا؟.. «كوينسي»، هل أنتِ بخير؟

طالعته «كوينسي» بعينين دامعتين، وإن أبت أن تطلق دمعها وتدع المحققيْن يرياها تبكي. قالت بنبرة راجية:

- أخبره.. أخبره أنني لم أفعل شيئًا.. أخبره أنني إنسانة صالحة.

تحرك الضابط ليقف بجوارها، حتى ظنت «كوينسي» أنه سيعانقها، وكانت لترحب بذلك، لما كان أحوجها في هذه

اللحظة إلى الشعور بالأمان بين ذراعي أي شخص. لكن بدلًا من ذلك، استقر كفه الضخم على كتفها، وقال موجهًا كلامه إليها، ولكنَّ عينيه مثبتتان على المحقق «كول»:

- نعم يا «كوينسي» أنتِ إنسانة رائعة.. أنت التي نجت.

الفصل 30

مرت قاطرةٌ، أرعدت حين نفخت بوقها، فهزت «الكامري» المتوقفة في حارةِ الطوارئ، وأنا جالسة في مقعد الراكب الأمامي، قدمي مُدلاة من الباب المفتوحِ، ينير ضوء السيارة الداخلي هالةً على يدي والملف الذي كنتُ ممسكة به مفتوح على نسخة التحقيق معي، التي أجراها «فريمونت» وذاك الكريه «كول». ما وسعني إلا أن أتذكر، لما رأيتُ السطور القليلة الأولى:

«كول»: الآن أخبرينا يا «كوِينسي» -قدر طاقتك- ما تذكرين من تلك الليلة.

«كاربنتر»: كل الليلة؟ أم منذ أن بدأت «چينيل» الصراخ؟ لأني لا أكاد أذكر شيئًا بعد ذلك.

«كول»: كل الليلة».

طرحتُ المخطوط جانبًا، زاهدة في المزيد من القراءة، فلا حاجة لي بأن أعيش المحاورة مرة أخرى، وقد كفتني الأولى.

تحت أوراق التحقيق كانت بضع صفحات من رسائل إلكترونية مطبوعة ومشبوكة، كلها مرسلة في وقت متقارب، قبل ثلاثة أسابيع.

آنسة «ميلنر»

بلى، أعلم من أنتِ، وما حدث لكِ قبل سنينٍ طوال، وأود أن يصلك عزائي وإن تأخر. وأحب أن أعبِر عن خالص تقديري لما أظهرتِ من قوة وثبات طوال تلك السنين. من أجل ذلك أبعث إليكِ ببعض التحقيق مع السيدة «كاربنتر» الذي طلبتِه. وسبب فضولك عنها مفهوم عندي، وإن فات الآخرين، فقد مرت بكما أحوال متقاربة. وأنا - وإن كان قد طال انقطاعي عن معاملاتي مع السيدة «كاربنتر»- فإنني أتذكرها جيدًا. أنا وشريكي قد حاورناها عدة مرات بعد

أحداث «كوخ الصنوبر». وكلانا شعر بأنها لم تقل الحقيقة. غريزتي أنبأتني بأنَّ أمرًا قد سبق الأحداث الفظيعة التي جرت في الكوخ تلك الليلة، أمراً أرادت السيدة «كاربنتر» إخفاءه. مما دفع شريكي إلى الظن بتورطها في مقتل أصدقائها، ولكني لم أشاركه رأيه حينها ولا أشاركه إياه الآن، وخاصةً في ضوء شهادة الضابط «كوبر» في التحقيق بخصوص الواقعة. على أن هذا لم يمنعني من أن أعتقد إلى اليوم أنها تخفي جزءًا مما وقع في «كوخ الصنوبر». وأيًا كان الأمر فلا يعلمه سواها.

مع مودتي

م/ «هنري فريمونت»

«قد قلتُ كل ما عندي بخصوص «كوخ الصنوبر».

رأيي في «كوينسي كاربنتر» لم يتغير.

«كول»

عدا فصاحة المحقق «فريمونت»، لم يفاجئني شيء في محتوى الرسالة. «كول» يعتقد أني مذنبة. «فريمونت» يتأرجح بين أمرين. على أن مجرد وجود هذه الملفات أوجسني، خاصة مع عثوري عليها مخبأة في خزانة «ليزا». هذا إثبات أنها كانت تبحث في ماضيّ قبل أسابيع قليلة من مقتلها. حاولتُ إقناع نفسي أنَّ الأمرين ليسا مرتبطين ضرورةً، لكن هذا غير ممكن، هما مرتبطان.. أعلم ذلك.

بقيت رسالتان مطبوعتان تحت رسالتَي «كول» و«فريمونت»، لكن بخلافهما فهاتانِ بعثتا الرجفة في أوصالي:

أسعدنِي أن بلغتني منكِ رسالة مرة أخرى يا «ليزا». وكعادتي أتمنى دومًا أن تكوني في أحسن حال. «كوينسي» أيضًا بخير، لذا فاجأتني أسئلتكِ بخصوص ما جرى في «كوخ الصنوبر». لكنِ أشكركِ على عدم طرحها على «كوينسي» نفسها، وأتمنى أن تبقي على هذا التحفظ. لا يسعني ألا أن أخبركِ بما قلت من قبل: «كوينسي كاربنتر» خاضت تجربة قاسية، وأنت في

ذلك على دراية وخبرة. هي ناجية، مثلكِ تمامًا. واعتقادي الراسخ أنها صادقة إذ تقول إنها لا تذكر الكثير عن تلك الليلة. وأنت كطبيبة نفسية للأطفال، أجدر الناس بمعرفة أن متلازمة الذاكرة المكبوتة أمر حقيقي. مع اعتبار ما حدث لها، لا أستطيع أن ألوم عقل «كوينسي» على الرغبة في النسيان.

«فرانكلين كوبر»

ملاحظة: لن أخبر «نانسي» بما تفعلين. أوقنُ أنه سيُغضبها»

في البداية، ضاقَ صدري لأنّ «كووب» لم يفكر أن يخبرني بتواصل «ليزا» معه. بدا لي بأنه أمر كان يجدر بي معرفته، وخاصة عقب مقتلها. ثم لِنتُ للأمر لما أعدتُ قراءة دفاعه المخلص عني. هكذا «كووب»، حازم مهذب ولا يكشف سترًا. حينها أدركتُ لِمَ لم يخبرني بالأمر: لم يُرد أن يزعجني.

وإن كانت رسالة «كووب» قد فاجأتني، فإنها لم تكن لتهيئني لما وجدتُ أسفل منها..

«مرحبا «ليزا»! شكرًا على اتصالكِ بي بدلًا من سؤال «كوينسي». أنتِ محقة. من الأفضل أن نبقي الأمر في طي الكتمان عنها، فلا نفع من إثارة ضيقها. يؤسفني عجزي عن تقديم عونٍ يذكر. أنا و«كوينسي» لم نعد على اتصال كما كنا، لكن تلك سنة الحياة! دائمًا في شغل! إن أردتِ الحديث، سأعطيكِ رقم هاتفي، ويمكنكِ مكالمتي حين تقدرين.

«شيلا»»

فاجأتني هذه الرسالة، حتى لم أثق أنها حقيقية. أغمضتُ عيني منتظرة أن تختفي الرسالة حين أفتحها.. لكني حين فتحتُها إذ بي أجد الرسالة مكانها، كانت حروفاً ولحة على الورقة الصافية.

هذه العاهرة!

غاضبة قفزتُ من السيارة، أقف على حافة الطريق. إلى جانب قدمي زجاج منثور، على الأرجح زجاج قارورة. لكن لا يسعني إلا أن أراها كأس النبيذ المفقودة من بيت «ليزا»،

وقد ألقاها القاتل من نافذة سيارته المسرعة، بينما كان ما زال منتشيًا من ارتكاب جريمته.

أخرجتُ القداحة من جيبي، وأمسكتها عند طرف الملف. هي شيء زهيد يحتاج بضع نقرات لتُشعل نارها. لا عجبَ أن الموظف تركني أسرقها، على الأغلب أن المتجر يمنحها مجانًا.

بعد إيقادها، خفتت النار لحظة، حتى نشبت في الملف. لم تلبث أن تصاعدت في جوانبه. فلما كادت تحرق يدي أسقطتُ الملف، وألسنة اللهب تلتمع حال سقوطه. رآها سائق قاطرة، فنفخَ بوقه وأكمل سيره. على الأرض تآكلَ الملف محترقًا حتى لم يبق إلا رماد، ينتثر مع عصف المركبات المسرعة.

ما إن أيقنتُ أن كل صفحة قد مُحيت، حتى تلقّفتُ قارورة الماء من حامل الأكواب، وسكبتها على الملف، حتى خبت النار إلى حفيف دخان. إتلاف الأدلة.. هذا هو الجزء السهل. ما يجب عليّ فعله بعده سيكون أصعب بكثير.

عدتُ إلى السيارة، واستدرتُ عائدة إلى طريق (I-65) متجهة شمالًا. أقود بيد واحدة، وأتصل بالأخرى من هاتفي، ثم وضعته في المقعد المجاور عليّ وضع مكبر الصوت وكل رنة يتردد صداها في السيارة والصوت يذكرني بمكالمات يوم عيد الأم، حيثِ أعد الرنات متمنية - مؤنبة نفسي- ألا يجيب أحد. اليوم أُجيبَ على المكالمة.

«كوينسي»! قالتها أمي بنبرة متعجبة بوضوح من اتصالي.

- أهناك خطبٌ ما؟

- نعم، لمَ لم تخبريني أن «ليزا ميلنر» تواصلت معكِ؟

الفصل 31

عمّت لحظة من الصمت من جانب أمي، طالت كفاية حتى ظننتُ أنها أقفلت. مرت ثوانٍ لم أسمع فيها غير هبوب الريح على هيكل السيارة. لكن بعدها تكلمت أمي بصوت فاتر لا نغمة له: المقابل الصوتي لمثلجات فانيليا ذائبة.

- يا لَه من سؤال غريب يا «كوينسي»!

تأففتُ منها غضباً..

- رأيتُ الرسالة يا أمي. أعلم أنكِ أعطيتها رقم هاتفك. هل عاودتِ الاتصال؟

صمت آخر، ثم تشوّش في الإرسال، تبعهما قول أمي:

- كنتُ أعرف أنكِ ستغضبين إن علمتِ

- متى تحدثتما؟

- آه، لا أعرف!

- بلى تعرفين يا أمي، أخبريني الآن.

مزيد من الصمت، ومزيد من التشويش

- تقريبًا منذ أسبوعين

- هل أخبرتكِ «ليزا» لِمَ استرعيتُ انتباهها مجددًا فجأة؟

- أخبرتني أنها قلقة.

اقشعرَّ بدني لتلك الكلمة.. ««كوينسي» أحتاج أن أحدثكِ، الأمر هام للغاية. أرجوكِ. أرجوكِ لا تتجاهلي هذا»».

- قلقة من أجلي، أم قلقة عليّ؟

- لم توضح الأمر يا «كوينسي».

- إذًا فيمَ تحدثتما؟

- استفسرت عن حالكِ، وأخبرتها أنكِ بخير. ذكرتُ موقعكِ الإلكتروني، و«جيف»

- أي شيء آخر؟

- سألتني...

صمتت أمي لحظة تُسائل نفسها، ثم أتبعت:

- سألتني إن كنتِ قد استعدتِ أية ذكريات، عما حدث تلك الليلة.

اقشعرَّ بدني مرة أخرى، فأوقدتُ المدفأة راجيةً أن تدفع عني الرجفة.

- ولَمَ قد تفعل ذلك؟

قالت أمي:

- لا أعلم

- وما كان ردُّكِ؟

- الحق أنكِ لا تذكرين شيئًا.

إلا أنها لم تكن الحقيقة، ليس الآن. أذكر شيئًا، قدر نظرة من ثقب الباب إلى تلك الليلة.

أخذتُ نَفَسًا عميقًا، أستنشق فيه غبار الهواء الساخن المتدفق من فتحات التدفئة، لم يشعرني هذا بالدفء بالمرة. كل ما فعلته أنها جعلت حلقي جافًا ومحتقنًا. اخشوشنَ صوتي وأنا أقول:

- هل ذكرت «ليزا» لماذا أرادت معرفة ذلك؟

- قالت إنكِ جُلتِ في خاطرها مؤخرًا، وأنها أرادت أن تتفقد أحوالكِ.

- إذًا لماذا لم تتصل بي؟

بدلًا من ذلك، تواصلت «ليزا» مع «كول» و«فريمونت» و«كووب»، وأمي. الكل إلّاي! ولمّا عمدت إلى الاتصال، كان الوقت قد ذهب.

- لا أعرف يا «كوينسي»، ربما لم ترد إزعاجكِ، أو ربما...

استغرقت في صمت لحظة طويلة أخرى. طالت وتمددت حتى

شعرتُ بالمسافات بيني وبين أمي.. كل تلك الحقول والمدن والقرى، التي تقع على طول هذا الطريق السريع في إنديانا، حتى بيتها شاهق البياض في مقاطعة «باكس».

- أمي؟ ربما ماذا؟

- كنتُ سأقول ربما اعتقدت «ليزا» أنكِ لن تصدِّقي معها.

- ولكنها لم تقل هذا. أقالته؟

- لا.. لا شيء على هذا النحو، ولكني شعرتُ -وربما أكون مخطئة- شعرت أنها تعلم شيئًا، أو شكّت في شيء.

- عن؟

سكتت أمي..

- عمّا حدث تلك الليلة.

انكمشتُ في مقعد السائق، وأحسستُ بحرارة لا تطاق فجأة، وتفصدت جبهتي عرقًا سالَ متصببًا على حاجبيّ. مسحتهُ وأطفأتُ المدفأة.

- وما الذي أوحى لكِ بهذا الإحساس؟

- أكثر من مرة ذكرت مدى حسن حظكِ، وسرعة تعافيكِ، وسهولة تعافي جراحك. وخاصةً بالمقارنة مع الآخرين.

خلال عشر سنوات كان هذا جلّ ما حدَّثتني به أمي عن «كوخ الصنوبر». أربع جمل حقيرة. كنتُ سأعتبرها تقدمًا هائلًا رغم خطئها، لولا جسامة الوضع.

- أمي، هل ألمحت «ليزا» إلى أنَّ لي يدًا فيما حدث في «كوخ الصنوبر»؟

- لم تُلمح إلى شيء..

- إذا لم تظنين أن الشك كان يساورها؟

- لا أعلم يا «كوينسي»

ولكني أعلم. هذا لأن أمي أيضًا يساورها الشك في أمر ما.

هي لا تظن أني قتلتُ الآخرين. ولكني أعتقد أنها -مثل «كول» و«فريمونت»- تعجب لما عشتُ أنا في حين لقيَ البقية مصرعهم. في دخيلة نفسها تظن أنني أخفي أمرًا ما.

أذكر كيف نظرت إليّ حين خرّبت المطبخ منذ سنوات. الأذى الذي أظلمَ عينيها. الخوف الذي أرجفَ عينيها.

تمنيتُ لو محا الرب صورتها تلك من عقلي، تمامًا كما انمحت تلك الساعة في «كوخ الصنوبر». أود لو أنها تمحى من ذاكرتي، وتظلم حتى لا تُرى مرة أخرى.

- لمَ لمْ تخبريني بذلك؟

- حاولتُ...

قالتْها وافتعال الغضب مفضوح..

- اتصلتُ بكِ ليومين متواليين ولم تجيبي.

- محادثتكما كانت قبل أسبوعين يا أمي، كان يجب أن تخبريني من فورها

- أردتُ حمايتكِ، هذا واجبي كوني أمكِ.

- ليس من أمر كهذا.

- كل ما أريده لكِ أن تكوني سعيدة. هذا كل ما أردتُ يا «كوينسي».. سعيدة، راضية، وعادية.

في كلمتها الأخيرة تجسدت كل أحلامها لي، وكل خيباتِي. كانت بشدة وبقوة قنبلة أُسقطت وسط الحوار.. إلا أنني من انفجرت..

- أنا لستُ عادية يا أمي!

- صرختُ وكلماتي يتردد صداها عن الزجاج الأمامي..

- بعد ما حدث لا يمكن لي أن أكون عادية.

ولكنكِ كذلك!.. كانت لديكِ مشكلة، ولكنا عالجناها، وأصبح كل شيء سليمًا

أحرقت الدموع عينيَّ.. حاولت أن أثنيها عن الهطول، ولكنها سالت على خدي وأنا أقول:

- أنا أبعد ما يكون عن السلامة.

رقَّ صوت أمي.. فيه شيء لم أسمعه من سنين، اهتمام!

- ولِمَ لَمْ تخبريني بذلك من قبل يا كوينسي؟

- لا يُفترض أن أحتاج إلى تصريح.. وإنما أن تلاحظي أنتِ أنَّ أمرًا ليس على ما يرام!

- ولكنكِ بدوتِ بخير!

- لأنكِ اضطررتني إلى ذلك يا أمي.. الأدوية، ورفض مناقشة الأمر.. كل ذلك كان منكِ، حتى أصبحتُ...

لا أدري ماذا أصبحتُ!

أصبحتُ نفسًا مريضة ولا شك!

شديدة المرض، حتى إنني أستطيع أن أحصي لأمي فنون فشلي الإنساني. على الأرجح إني في مشكلة مع الشرطة. ومن المحتمل أنني آوي قاتلة «ليزا» في شقة لم أكن لأقدر على تسديد ثمنها إلا لأنَّ أصدقائي قد قتلوا. أدمنتُ الزاناكس، والخمر. أتظاهر أنني لستُ مكتئبة وغاضبة ووحيدة. حتى عندما أكون مع «چيف»، تُثقل الوحدة صدري.

الأسوأ من ذلك، أني لم أكن لأدركه لولا دخول «سام» في حياتي. تطلّب الأمر بعض الاستفزاز من طرفها بالطبع. كل هذه الاختبارات والتحديات والنغزات، لتكشفَ أمرًا عن نفسي، لأذكرَ شيئًا دقيقًا من أمر أحبُّ لو أني ما تذكرته.

ثم دهمتني فكرة جعلتني كسمار تدقُّه المطرقة، هش، مرتجف، يدقّ بعمق في أمر لا مهرب منه.

- أمي، كيف كان صوت «ليزا» على الهاتف؟

- ماذا تعنين؟ كان صوتها كما اعتدته

- أريد تفصيلًا. كيف كانت نبرته. هل كان أجشَ أو فيه خشونة؟

- حقًّا لم ألاحظ!

قالتها أمي وقد التبسَ عليها الأمر. أتخيَّلها وهي تنظر إلى هاتفها محتارة.

- أنتِ من حادثتِ «ليزا» من سنين. لا أعرف كيف هو صوتها!

- أرجوكِ يا أمي، إن استطعتِ أن تصفيها بأي شيء.

للمرة الأخيرة، وجمت أمي. قبضتُ على المقود راجية أن تأتي بشيء. وبخلاف ما خذلتني مرات مضت، فهذه المرة، «شيلا كاربتر»، أتت بالنجدة.

- كانت سكّاتها كثيرة.

قالتها متجاهلة المفارقة الساخرة للعبارة..

- ليزا كانت تتكلم ثم تسكت. وكلما سكتت سمعت زفيرًا هادئًا

- تنهيدة؟

- أهدأ من ذلك.

هذا كل ما أحتاج أن أعرفه. بل إنه يخبرني بكل شيء.

- أمي يجب عليّ أن أذهب

سألتني:

- هل ستكونين بخير؟ أخبريني أنكِ ستعتنين بنفسكِ.

- سأفعل، أعدكِ.

- أتمنى أن أكون قد ساعدتُ، أيًا يكن ما يجري

قلت:

- نعم، شكرًا يا أمي. لقد ساعدتني أكثر مما تتخيلين.

لأني الآن أعرف أن تلك السكّات التي كانت تسمعها أمي قطعًا لم تكن تنهيدات، ولكنها كانت نفثات مدخّن.. ما يعني أنها لم تتحدث إلى «ليزا»!

أمي حادثت «سام».. «سام» الفضولية الحشرية، تعرف أكثر مما تظهر. تعرف الأمر من البداية. لهذا ظهرت فجأة، ليس لتتعرف بي، وليس من أجل المال.

تحاول أن تعرف كل ما تستطيع عن «كوخ الصنوبر»، عما فعلته هناك. أغلقتُ المكالمة، وفتحتُ النافذة، تاركة نفحات الهواء البارد تلفحني. رياح الغرب الأوسط. أحكمتُ قبضتي على المقود، وأنزلتُ قدمي على الدواسة، ورحتُ أراقب عدّاد السرعة وهو يرتفع، فوق السبعين، الخمس والسبعين، يعبث حول الثمانين ميلًا.

لا فارق، مهما أسرعتُ أشعر أني ذبابة تتلوى في شِباك نسجتها لها «سام». أدركتُ ألّا طريق للخلاص إلا بواحدة من اثنين؛ المقاومة أو الهروب. أعرف أيهما أحتاج.

لما عدتُ إلى الفندق، بدّلت حجز طائرتي. هناك رحلة عند الساعة الثامنة مساءً من شيكاجو إلى نيويورك. سآخذها. لم يفهم «چيف» بالطبع حاجتي الملحة إلى العودة المفاجئة إلى نيويورك. ألحّ عليّ بالأسئلة، وأنا أكدِّس ملابسي في الحقيبة، وفي كل مرة أجيبه باثنتين.. أنطق بالكذبة، وأفكر بالإجابة الصادقة.

- هل لهذا علاقة بسام؟

- لا

(بالطبع)

- كوينسي، هل فعلت شيئًا خاطئًا؟

- ليس بعد.

(نعم، فعلت شيئًا رهيبًا. كلانا فعل).

- أنا فقط لا أفهم لماذا يجب أن ترحلي الآن في هذه اللحظة؟

- لأني أحتاج أن أعود بأسرع ما يمكن

(لأن سام تعرف أمورًا عني، أمورًا فظيعة. كما أعرف عنها أمورًا فظيعة. والآن أحتاج أن أطردها من حياتي إلى الأبد)

- هل من المصلحة لو ذهبتُ معكِ؟

- هذا لطف منكَ ولكن لا. لديك عمل يشغلكَ

(لا يمكنكَ أن تأتي معي يا «چيف». لقد كذبتُ عليكَ في أمور كثيرة. ولو علمتها لما أردتَ أن تقترب مني ثانية)

ما إن جهّزتُ متاعي واتجهتُ صوب الباب، حتى أمسكني «چيف» وضمني إليه. وددتُ لو بقيتُ في هذا الوضع، مضمومة، معزّاة. لكن هذا لا يمكن، ليس و«سام» ما زالت في حياتي.

سألني:

- هل ستكونين بخير؟

- نعم

(لا، بخلاف ما تظن، فلن أكون بخير أبدًا)

الطائرة صغيرة، بالكاد تمّ حجزها. رحلة خاسرة هدفها انتقال الطائرة إلى مطار «جون كينِدي»، لتبدأ رحلة رابحة في الصباح. جلستُ وحيدة في صفٍّ كامل. بعد الإقلاع استلقيتُ على الكراسي الفارغة، راقدةً أجتهد كيلا أفكر في «سام»، لكن دون جدوى. لا وسيلة لغض الطرف عن الشكوك الزاحفة إلى عقلي على أقدام العنكبوت. أتخيلها تضع حبوبًا في كأس «ليزا»، تنظر إليها ترشف منها، وتنتظر أن يظهر مفعولها. أتصوّر «سام» تمسك سكينًا تجزّ بها معصم «ليزا» وتشاهد حصيلة فعلتها وهي تقضم أظافرها.

- أفي وسعها الإتيان بمثل ذلك؟

- ربما.

- بل لم تفعل شيئًا كذلك؟

لأنها كانت تصيد المعلومات عني، ربما أجبرت «ليزا» على مساعدتها، ولكن «ليزا» رفضت، ودفعتها، وهددت أن تطردها. الآن دوري لأفعل مثل ذلك، ولكن أدعو أن تختلف المحصلة النهائية.

بطريقة ما نمتُ معظم الرحلة، على أن هذا لم يعُد عليّ براحة، فقد حلمتُ بـ «سام» تجلس منتصبة الظهر إلى أريكة غرفة المعيشة، وأنا في المقعد المقابل لها.

سألتها: هل قتلتِ «ليزا ميلنر»؟

قالت: هل قتلتِ أنتِ أولئك الصبية في «كوخ الصنوبر»؟

- أنتِ تتجنبين السؤال.

- وكذلك أنتِ.

- إذًا تظنين أنني قتلتهم في «كوخ الصنوبر»؟

وهنا تبتسم «سام» بشفتين محمرتين من طلاء شفتيها الذي بدا كأنما هو دم يلطخها.

- أنتِ مقاتلة، تفعلين أي شيء للنجاة. مثلي تمامًا.

نبهتني مضيفة الطائرة عندما بدأ الهبوط في نيويورك. اعتدلتُ في مجلسي، ونفضتُ عني أحلامي. نظرتُ من النافذة، سماء الليل وإضاءة الطائرة معا قد جعلاها مرآة بيضاوية، وبالكاد تعرفتِ على انعكاس صورة الحدقة إليّ.. لا أذكر آخر مرة عرفتني فيها.

كوخ الصنوبر

10:14 م

في غرفة النوم، لم يضيّع «كريج» أي وقت في خلع ملابسه.

تساءلت كم فتاة كانت في موقعها هذا معه قبل ذلك، وهل استسلمنَ للمحاصرة. تمنّت لو أن إحداهن قاومته قبلها. تمنّت ألا تكون الوحيدة.

- لم أكذب عليكِ يا «كوينسي»، لذا سيتوجب عليكِ الإتيان بعذر أفضل من ذلك لترفضي.

- لكني لستُ رافضة.

قالتها متقهقرة في الرأي، قبل أن تشعر بالسخط على نفسها لتبديل رأيها فجأة.

- كنتُ فقط أظن...

- أنَّ الأمر شموعٌ وورود وفيض من الغزل!

ردَّت:

- أنه سيعني لكَ شيئًا.. هل أعني أنا لك أي شيء؟

تدحرجَ «كريج» عن السرير وقد استحيا فجأة. بحثَ عن ملابسه. كان هذا إجابة عن كل ما تحتاج «كوينسي» معرفته. ورغم ذلك، مدت يدها إليه تستميله أن يعود إلى السرير قبل أن يكمل لباسه.

قالت:

- ليس من الضروري أن تكون هذه مشكلة. ما زلتُ أريد أن أقضي الليلة معكَ، من يدري ما قد يحدث.

رغم جهودها، التقطَ كريج ملابسه من جانب السرير وارتداها.

- لا شيء سيحدث. أعتقد أنكِ أوضحتِ هذا بما يكفي.

- أرجوكَ عُد إلى السرير، أحتاج فقط أن أتهيأ للأمر.

- تهيَّئي كما تريدين..

أكمل لباسه واتجه إلى الباب..

- أما أنا، فاكتفيتُ من التهيئة.

ثم رحل عائدًا إلى الحفل، تاركًا «كوينسي» منطوية على نفسها في السرير تبكي، ودمعاتها تقطر على الثوب الأبيض المستعار، وكل دمعة تذرفها تتسع في بقعة داكنة.

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook

الفصل 32

كان الوقت قد تجاوزَ منتصف الليل، حين وصلتُ إلى المنزل. ورغم غفوتي على متن الطائرة، لم أشعر بالراحة، بل حط عليّ النعاس والوهن، ارتعشت يدي وأنا أفتح الباب، ليس فقط من الإرهاق، ولكن من التشكك أيضًا، فلستُ أعلم ما ينتظرني حينِ أدخل الشقة. أتخيَّل نفسي أفتح الباب فأجد المكان خاويًا من كل ما نملكه، وأن الشيك البنكي المنتظر موعده ملقى على أرض عارية، وحتى تلك الاحتمالات هي أفضل من أن أجد «سام» تنتظرني وظلها على جدار الردهة، ترفع سكينها متربصة بي.

تركتُ حقائبي عند الباب كي أُخلي يديَّ، فمن المحتمل أن أحتاجهما للدفاع عن نفسي. لكن لم تكن «سام» هناك ممسكة بسكين، ولا هي تقدم لي كأسًا من النبيذ أذابت لي فيه أقراصًا سامة. جلتُ بنظرة سريعة فيما حولي، لأتأكد أن كل شيء في مكانه كما تركته.. الشقة معتمة، وشعور بالفراغ يخيم عليها، وبعض الإهمال، كما لو أن شخصًا غادرها مؤخرًا، تاركًا عبقه فيها يحوم كالغبار.

- «سام»!..إنني هنا.

أخذ قلبي يخفق بقوة، بينما كنتُ أنتظر استجابة لندائي، لم تأتِ أبدًا.

- لقد قررت العودة مبكرةً... أدركتُ رحلة طيران متأخرة.

ناديتُ ثانية، بينما كان صدري يمتلئ بالرجاء.. ثم بدأت أتحرك في الشقة، أضيء الأنوار.. المطبخ، غرفة الطعام، غرفة المعيشة.. لا أثر للسرقة، ولا أثر لـ «سام».

لقد رحلت.. أنا واثقة من ذلك، هربت من المدينة كما كنتُ آمل، حاملة أسرارها معها، تاركة أسراري في حالها. أخذتُ أبحث في حقيبتي عن هاتفي، كتبتُ لـ «جيف» عندما هبطت الطائرة، وأخبرته أنني وصلتُ بسلام، وأنني سأتصل به حين

أنتهي من الإجراءات.. لقد انتهيت، وها أنا في الردهة وهاتفي في يدي، وعلى وشك ضغط أيقونة الاتصال..

هنا لاحظتُ أن باب غرفة الضيوف لم يزل مغلقًا، وبصيص ضوء ينفذ من تحت الباب ليحط على حذائي وأنا واقفة قبالته. هناك صوت موسيقى مكتومة من وراء الباب الخشبي.. غاصَ قلبي بين قدميّ، ما تزال «سام» هنا!

- «سام»!

وصلتُ إلى مقبض الباب، كان سلسًا في يدي.. الباب ليس مقفلًا. بدون تردد، فتحته ونظرت نحو الداخل.. الغرفة غارقة في الأضواء الحمراء والذهبية، الأحمر من المصباح بجوار الفراش، والذهبي من العديد من الشموع المتراصة حوله، مع موسيقى تصدح من مشغل أسطوانات قديم خرجَ من دولاب التخزين. «بيجي لي» تغني أغنيتها الرومانسية "Fever" في الضوء الناعم. وأرى «سام» تتكئ على حافة الفراش. على الأقل أعتقد أنها هي، تبدو مختلفة عما عرفتُها بدرجة تجعل التعرف عليها صعبًا، ترتدي ثوبًا مختلفًا كليًّا عن ذلك الأسود الأجرب الذي ظهرت به أول مرة، أحمر بأكمام قصيرة، وتنورة تتسع قليلًا من أسفلها، وفتحة صدر واسعة، ومعه انتعلت حذاء ذا كعب عال من نفس اللون، وقد رفعت شعرها إلى الأعلى كاشفة عنقها الأبيض.

لم تكن وحدها.. هناك رجل يجلس بجانبها، مرتديًا «بولوشيرت» أسود اللون وبنطال كاكي، لم أجد لديّ صعوبة في التعرف عليه.

«كووب»!

يده على رقبة «سام»، تتسلل أسفل ذقنها تداعب بشرتها الشاحبة، في حين تتحسس «سام» أيضا بسبابتها عضلات ذراعه.

- ماذا..!

«ماذا يحدث هنا؟ عليكما اللعنة». تلك هي الجملة الكاملة التي أردتُ قولها، لكن لم تخرج مني سوى أول كلمة، فأسقطت «سام» يدها عن ذراعه، في حين تجمدت يده على رقبتها وجسده متصلب من المفاجأة. لم أره مصدومًا هكذا منذ أول لقاء لنا خارج «كوخ الصنوبر».. بنفس التعبير الذي اعتلى وجهه، في تلك الليلة. لم يكن مبالغًا ولا مذعورًا، ولكن ها هو نسخة مشوهة من تلك الذكرى.

- «كوينسي».. أنا فعلًا..

- اخرج من هنا.

اعتدلَ لينهض ويخطو نحوي..

- يمكنني أن أشرح لكِ.

- اخرج من هنا.

هدرتُ بها في وجهه، فحاول ثانية أن يشرح..

- ولكن..

- اخرج من هنا

فجأة هجمتُ عليه، أخمشه بيد، وأنهال على وجهه بالصفعات بالأخرى، ثم كورتُ قبضتي، وأخذتُ ألكمه، لا يهم ماذا أضرب منه، طالما تصيبه. تلقى ضرباتي لطمة بعد الأخرى دون أن يحرك ساكنًا. لكن تدخلت سام المكتسية بالأحمر لتدفعني إلى الحائط مثبِّتة إياي. وهمست بصوت كالفحيح لـ «كووب» «اذهب»، لكنه توقفَ عند الباب يشاهدني وأنا أحاول التملص وأضرب رأسي في الحائط نائحة. كل ضربة أشد من سابقتها، فصرخت فيه «سام»:

- اذهب، عليكَ اللعنة.

هذه المرة أطاعها «كووب» وخرج من الغرفة، وانزلقتُ أنا على الحائط أنتحب. والألم يزيد الطين بلة، عاقدة ذراعيَّ حول نفسي أضمها، شاعرة كأنَّ سكينًا حادةً تطعن أحشائي مرة تلو

مرة.

كوخ الصنوبر

مساءً 10:56

غادرت «كوينسي» الغرفة وقد أنهكها البكاء، ذاهبةً للبحث عن «جينيل». كانت تحتاج تلك التوليفة من المواساة والوقاحة، والتي لن تجدها إلا عند «جينيل»، ففي هذا الصدد هي أشبه بصنفرة آدمية، تخدش بغرض أن تنعِم، بميزانٍ دقيق.

في غرفة المعيشة، وجدتُ «رامدي» مستلقية على مقعد وثير، «إيمي» تجلس في حجر «رودني»، وذراعها اللينة حول رقبته، وقد فرغا بالكاد من قبلتهما، فذكَّرا «كوينسي» بالسباحين، بأفواههم المفتوحة ولهاثهم.

- أين «جينيل»؟

ظهر النصف الأنثوي من «رامدي»، تلتقط أنفاسها، منزعجة من المقاطعة المزعجة..

- ماذا؟

- «جينيل»، هل رأيتماها؟

هزت «إيمي» رأسها نافية، وعادت إلى الغرق فيما هي فيه، فتركتهما «كوينسي» وخطت نحو الخارج، والأرضية الخشبية تئز تحت قدميها.

كانت ليلة صافية، القمر بدر، والأشجار تحتِ ضوئه رمادية باهتة. تمهَّلت على الشرفة منصتة عساها تجد أثرًا لـ «جينيل»، خُطى على العشب مثلًا، أو تلك الضحكة المبحوحة من حلقها، التي تستطيع أذنا «كوينسي» تمييزها وسط الزحام، إلا أنها لم تجد سوى حركة الزواحف على الأشجار في نهاية مواسمها، ونعيق بومة بائسة.

بدلًا من العودة إلى الداخل، استمرت «كوينسي» في المشي، منجذبة إلى الغابة، حتى وجدت نفسها تتبع نفس المسار الذي سلكوه من قبل. ما يزال العشب مائلًا من أثر وطئهم

له. فقط عندما بدأت الأرض بالميل صعودًا، حينها فكرت «كوينسي» في العودة، لكنه كان قرارا متأخرًا، وشعرت بأن عليها أن تكمل طريقها قدمًا، وإن لم تكن متأكدة من وجود سبب لذلك، ربما هو حدس.. غريزة.. يقين ما يضخ الدم في عروقها.

عندما اقتربت من حافة المنحدر، تراءت لها الصخرة الكبيرة وقد خرقت بحجمها الهائل تلك القبة التي صنعتها أغصان الشجر المتلاحمة، كأنها ثقب في مظلة، تسلَّل منه نور القمر كمطرٍ فضي، على شخصين فوق الصخرة..

أحدهما كانت «چينيل».

والآخر كان «كريج»!

اعتصرت قبضة الغضب والوجع أحشاء «كوينسي»، ورغم ذلك لم تستطع أن تحيد بعينيها عن «چينيل» و «كريج»، متحرقة بيأس. كان الأمر كله جميلًا للغاية ومؤلمًا، كتماثيل حجرية قاسية.

ثم علا نشيجها متقطعًا على حين غرة. فسدَّت فمها بيدها كاتمة صوتها، رغم أنها لا يجب أن تهتم إن سمعاها، بل إنها تتمنى لو شق صراخها عنان السماء، وأن تحمل الريح عويلها المشؤوم.

لكن قبضة الغضب استمرت تعتصرها، فتزيد من غضبها ووجعها، فتراجعت عائدة عبر الغابة، وقد بدأت تذرف دمعها على ما جفَّ من قبل.

ظلَّ صوت «چينيل» يطن في أذنيها بينما هي تهبط المنحدر. يتكرر أنينها كأنه طائر يغرد ساخرًا منها:

أجل.. أجل.. أجل.

الفصل 33

«لماذا؟» سألتُها وأنا ما زلتُ ملقاة على الأرض.

تجاهلتني «سام»، وعبرت الغرفة لتطفئ مشغل الأسطوانات، ثم إلى حقيبة الظهر لتخرج منها بنطالها الأسود وترتديه تحت تنورة ثوبها الأحمر.

- لماذا؟

قالت «سام»:

- لأن هذا اللازم.

- لم يكن كذلك.

جلستُ على ركبتي.. مردفة:

- بل شعرت أنه كذلك.

لأنها علمت كم سيؤذيني حين أعرف. وأنا موقنة أنها عزمت أن أعرف. كانت هذه مجرد طريقة أخرى لتعبث بي، لتوقظني، لتغضبني.

اعتمدتُ على الحائط لأُعين نفسي على الوقوف. ما زلتُ غير متزنة.. استندت عليه، حتى أنظر إليها رأسًا برأس. الآن قد خلعت ثوبها ودفعت رأسها في قميص، ثم جلست على السرير لتبدِّل حذاءها ذا العنق، مكان الكعب العالي.

قالت لي:

- أنتِ مريضة، وتعرفين هذا، أليس كذلك؟.. لا تحتملين أنَّ إحدانا قد تعيش حياةً طبيعية. وأن واحدة على الأقل قد تصير سعيدة.

ذهبت سام إلى النافذة ودفعتها لتنفتح. أشعلت سيجارة ونفثت دخانها ثم قالت:

- تفهمينني جيداً، أليس كذلك؟

- نعم. لقد جئتِ ورأيتِ أني طبيعية ومستقرة، فقررتِ أن

تفسدي حياتي عليّ.

- مستقرة! حبيبتي، لقد أرسلتِ رجلًا إلى المستشفى.. ما زال في غيبوبة لعينة.

- بسببكِ! أنتِ من دفعتني لفعل ذلك!

- استمري باعتقاد ذلك يا «كوين». إن كنتِ تحتاجين هذه الكذبة لتطيقي نفسك، فابقي عليها.

أشحتُ بنظري عنها، لا أعلم ماذا أصدق. أشعر وكأن الجاذبية قد انمحت، وكل ما كان آمنًا راسيًا في حياتي قد أصبح معلقًا في الهواء، أبعد ما يكون عن المنال.

سألتها:

- لماذا «كووب»؟ إنها منهاتن، حيث بإمكانك الاختيار من بين مليون رجل غيره. فلماذا هو؟

- الضمان.

- ضمان ماذا؟

قالت «سام»:

- تلك المحققة مرت بي هذا الصباح، «هرناندز». قالت إنها تريد أن تكلمكِ. عندما أخبرتها أنكِ رحلتِ، أخبرتني أنها ستعاود المجيء، وأنكِ لم تحسني إلى نفسكِ بمغادرتكِ المدينة.

- لأنَّ سفري مع صاحبي المحامي أثار الشكوك بالطبع!

أكملتْ:

- لم أدرِ ما عليّ فعله. فاتصلت بـ «كووب».

شهقتُ وتخدرت فجأة..

- قطعًا لم تخبريه عن المتنزَّه؟

رمشت بعينيها وهي تنفخ الدخان:

- قطعًا لا! أخبرته أني أريد أن تعرف أكثر، وأنه يجب أن يأتي إلى المدينة إن استطاع، وفعل.

- ثم أغويته؟

قالت «سام»:

- ليس هذا تمام الصدق. كان أكثر من راغب.

- إذًا.. لماذا فعلتِها؟

تنهدت سام ضجرةً، منهكة، قد غلبتها الحياة، قالت:

- لأني ظننتُ أن هذا سيساعدنا. وتحديدًا أنتِ، إن تمكنت الشرطة من ربطنا بالرجل المضروب، سنحتاج إلى شخص إلى جانبنا، شخص غير «چيف».

- شرطي!

قلتُها بينما كنتُ أستوعب سواد الموقف..

- شخص سيدافع عنا بين أقرانه.. شخص تُعميه عاطفته عن الصواب وعن تسليمنا، إن شكَّ في شيء.

- تمامًا! بل أنتِ تفهمين كل ذلك بالفعل.

- لم أحاول أبدًا أن أنام مع «كووب».

نفثت «سام» الدخان..

- وكأنَّ هذا يهم! ما زلتِ تستغلينه.. لسنوات كنتِ تستغلينه. تكتبين له رسائل في أية ساعة، تلمّحين إليه فيأتيك المدينة من فوره، تغازلينه بين الحين والآخر لتحظَي باهتمامه.

قلت:

- كلا، ليس الأمر كذلك. لم أكن لأفعل هذا به.

- بلى تفعلينه طول الوقت يا «كوين»، لقد لمستُ ذلك بنفسي.

- ليس عمدًا.

- حقاً؟! أتقصدين أنَّ هذه العلاقة الغريبة المريبة بينكما لا علاقة لها بما وقع في «كوخ الصنوبر»؟ أنكِ لم تلاحظي أبدًا ولو

قليلًا أنه خاتم في إصبعك!

- لا!

داستْ سام سيجارتها، وأشعلت أخرى..

- كذب، كذب، كذب.

- لنتحدث عن الأكاذيب إذن.

دفعتُ نفسي عن الحائط، وقد أقامَني الغضب..

- لقد كذبتِ، عندما أخبرتني أنكِ لم تقابلي «ليزا». لقد فعلتِ، ولبثتِ في منزلها لبعض الوقت.

توقفت «سام» عن نفث دخان السيجارة، خدَّها مسحوب إلى الداخل والدخان متجمّع في فمها. لما تفرَّقت شفتاها، خرجت سحابة رمادية تدور كالضباب.

- أنتِ مجنونة!

- هذه ليست إجابة. على الأقل، اعترفي أنكِ كنتِ هناك.

- حسنًا، كنتُ هناك.

- متى؟

- قبل أسابيع قليلة. لكنكِ بالفعل تعلمين ذلك.

- لماذا ذهبتِ؟ هل دعتكِ «ليزا»؟

هزت «سام» رأسها نفيًا.

- إذن، أقحمتِ نفسكِ كما فعلتِ معي؟

- صحيح. وبخلافكِ، قالتْ: مرحبا، لمّا علمتْ من أنا.

- كم بقيتِ هناك؟

- تقريبًا أسبوع.

- إذن، أعجبها بقاؤكِ عندها؟

سؤالٌ ساذج. بالطبع أعجبَ «ليزا» بقاء «سام» عندها، هذا ما عاشت له، أن تأخذ الفتيات المكروبات تحت جناحها

وتساعدهن. كانت «سام» على الأرجح أشدَّهن كربًا.

أجابت «سام»:

- نعم، في البداية. ولكن بحلول نهاية الأسبوع، لم تطق «ليزا» وجودي أكثر من ذلك.

استنتجتُ الباقي. ظهرت «سام» لجأة بحقيبة محشوة بزجاجة الـ«وايلد تركي» وفي وجهها تعابير الأخوة. بسطت لها «ليزا» ضيافتها. لكن هذا ليس كفاية، ليس لـ «سام» وحاجتها النفسية إلى التطفل والتنغيص. ربما أرادت أن تنفض عن «ليزا» سَكينتها، أن تغضبها، أن تجعلها مقاومة.

«ليزا» لم تدعْها تفعل، وأنا فعلتُ. وكلتانا دفعت ثمنًا مختلفًا.

- ولماذا كذبتِ بخصوصها؟

- لأني علمتُ أنكِ ستفرطين في ردّ الفعل إن أخبرتكِ، وستبدئين بالشك.

- لماذا؟ ألديكِ أمر تخفينه؟ أقتلتِ «ليزا» يا «سام»؟

ها هو.. السؤال الذي كدَّر عقلي لأيام قد نطقتُ به وخرج إلى الواقع. هزت «سام» رأسها وكأنها تشفق عليّ..

- «كوينسي» البائسة الحزينة، أنتِ أكثر اضطرابًا مما حسبت.

قلت:

- أخبريني ألّا يدَ لكِ في موتها.

طرحت «سام» السيجارة على الأرضية الخشبية، وأظهرت مبالغةً في دعسها..

- مهما قلتُ، فلن تصدقيني.

رددت:

- لم تعطني سببًا لأصدقكِ حتى الآن، فلمَ أفعل؟

- لم أقتل «ليزا».. صدقي أو لا تصدقي، الأمر سيان.

علت رنَّة من جيبي.. هاتفي.

- هذا صديقكِ على الأرجح

قالتها «سام» بتقزُّز، وأردفت..

- أحدهما على الأقل.

تفقدتُ الهاتف، وبالطبع كانت عليه رسالة من «كووب»:

- «نحتاج أن نتحدث».

ومن حيث تقف عند النافذة، سألتني «سام»:

- أيُّهما؟

لم أُجبها، وتلك إجابة في حدّ ذاتها. حدقتُ في الشاشة، يكاد قلبي يتوقف لفكرة مقابلة «كووب» ثانية، ليس فقط الليلة، ولكن دائماً.

دسَّت «سام» سيجارة أخرى بين شفتيها وقالت:

اهربي إلى شرطيّكِ الصغير، «كوِينسي كاربنتر».. ولكن تذكري، انتبهي لما تقولين. أسراري هي أسراركِ. والضابط «كووب» قد لا تعجبه أسرارك.

قلتُ:

- اذهبي إلى الجحيم.

أشعلت «سام» سيجارتها وابتسمت..

- كنتُ هناك فعلًا يا عزيزتي.

كوخ الصنوبر
11:12 ليلاً

كانت «كوينسي» تلهث مع وصولها إلى الكوخ. شعرت برئتيها تحترقان، والتعب وهواء الليل يمزقهما. وبرغم البرد، غطتها طبقة رقيقة من العرق، باردة ولزجة.

في الداخل، كانت فوضى عارمة، أطباق متسخة وقوارير الخمور الفارغة تتناثر هنا وهناك. غرفة المعيشة كانت خاوية على عروشها. حتى النار قد انطفأت، لا يدل عليها إلا رائحة دخان الخشب.

النوم، هذا كل ما أرادت «كوينسي».. أن تسقط نائمةً، وتستيقظ ناسيةً كل ما رأت. كان ممكنًا، علمَت ذلك. بالفعل دماغها يخبرها أن الأمر اختلطَ عليها، وأنها رأت ما لم تَرَه. ربما «چينيل» كانت مع شخص آخر، لعله «چو». أو أن «كوينسي» فقط ظنت أنها رأت «كريج» مستلقيًا على ظهره، ووجهه ملتوٍ بينما هو يطؤها.

لكنَّ قلبها علِمَ خلاف ذلك.

بينما تمسح دموعها، عبرت «كوينسي» غرفة المعيشة، مارة بغرفة «چينيل» الخالية. وفي مقابلها غرفة «بيتز» التي أوت إلى الفراش، والباب المغلق يستر مشهد السرير البائس ذي الطابقين. أما باب غرفة «رامدي» فكان مغلقًا هو الآخر، وإن لم يكفِ لكتمان خرير المرتبة المائية. مصحوبة مع زمجرات متباعدة من «رودني».

التفتت «كوينسي» إلى غرفة «كريج».. تبًا له!

لقد صارت غرفتها الآن.

لكنها لم تكن خالية!.. شخص ما كان على الفراش، خيال باهت ظهرَ في ضوء القمر، راقدًا مسندًا يديه تحت رأسه. بالكاد رأت «كوينسي» عينيه متيقظتين خلف نظارته الوسخة.

قال:

- لم أدرِ أين أنام.

نظرت إليه «كوينسي»، تحسده، كم يبدو مرتاحًا ومطمئنًا.. نشجت، ومسحت دمعة قبل أن تنزل على وجهها.

سألها:

- هل أنتِ بخير؟

ردت «كوينسي»:

- عليكَ الذهاب.

جلسَ والاهتمام يلمع في عينيه المبهمتين..

- لستِ بخير.

- أكيد.

جلست «كوينسي» على السرير، ذرفت دمعة أخرى، وهذه المرة لم تدركها. قال:

- رأيتهما يغادران سويًا، مشيا إلى الغابة.

- أعرف.

- أنا آسف.

لمسَ كتفها، مباغتةُ اللفتة جعلتْ «كوينسي» تنتفض مبتعدة منه.

قالت:

- اذهب، رجاءً.

- هو لا يستحقكِ.

عندما لمسَ كتفها مرة ثانية، تقبلتها منه «كوينسي». زادهُ هذا جرأة، فزحفت يده نزولًا على ذراعها وإلى خصرها. ومجددًا، قبلت منه ذلك. همس:

- أنتِ أفضل منه. أفضل منهما. شديدة الحسن.

- شكرًا

- أعني ما قلتُ.

التفتت إليه «كوينسي» شاكرةً وجوده. بدا صادقًا جدًا، لا خبرة له. نقيض «كريج».

مالت إليه وقبلته.

الفصل 34

أرسلَ لي «كووب» اسم الفندق الذي يمكث فيه، على بعد بضعة شوارع من شقتي، مع رقم غرفته. لم أعرف إن كان حجزها قبل المجيء إلى المدينة لمقابلة «سام» أم بعدها. قررت ألّا أسأل.

ترددتُ أمام الباب، متشككة في قدرتي على مواجهته مرة أخرى. أدرك في قرارة نفسي أني زاهدة فيها. أفضل الوقوف في أي مكان آخر غير هذا الممر المعتم، مع صوت آلة الثلج الناشز، ورائحة منظف البسُط. لكن هناك تاريخ يجمعنا، فأيا يكن ما فعله «كووب»، أنا مدينة له بفرصة تفسير موقفه.

طرقتُ الباب، فقابلني بصريرِ انفتاحه مباشرة. ما زالت يدي مقبوضة و«كووب» يقف قدّامي. أومأ إيماءة تحية خاطفة خالطها الحزي، وقال:

- «كوينسي»... ادخلي، إن أردتِ.

الماضي وحده ما يبقيني هنا، ماضيٍّ ودور «كووب» فيه. والحقِ الذي لا مراء فيه، أنه لم يكن لي ماضٍ إلا بسببه. لذا دخلتُ، أخطو إلى غرفة ضيقة إلى درجة غريبة، ليست أكبر من خزانة كبيرة استطاع أحدهم أن يضمّنها سريرًا ووحدة أدراج. بالكاد توجد مسافة قدمين بين السرير والحائط، مما أعاقَ عبوري أمام «كووب» بينما يغلق الباب ورائي. لا كراسي في الغرفة، فآثرتُ الوقوف بدلًا من الجلوس على الفراش.

أعلم تحديدًا ما أحتاج فعله، أن أخبر «كووب» كل شيء. ما فعلته «سام»، وما فعلتهُ أنا. ربما بعدها أستطيع أن أعود إلى حياتي الطبيعية. وكأنها كانت طبيعية منذ «كوخ الصنوبر»!

لكن لا يمكنني الاعتراف لـ «كووب». بالكاد أستطيع النظر إليه.

- لننتهِ من هذا.

عقدتُ ذراعيَّ، ونقلتُ ثقل جسدي إلى ساقي اليسرى، لأقف في وضعية غاضبة.

قال «كووب»:

- سأكون سريعًا.

كان قد استحم للتو، والبخار ما يزال عالقًا في الحمام الضيق، وشعره القصير ما يزال رطبًا وجسده يفوح بالرطوبة ساخنةً وله رائحة الصابون.

- أحتاج أن أوضح موقفي، أن أوضح أفعالي.

- ما تفعله في وقت فراغكَ لا يعنيني، ليس كأني ألقي لكَ بالًا.

جفلَ «كووب»، وشعرتُ بنزعة قوة مرضية، أنا أوذيه أيضًا، الضربة الأولى.

- «كوينسي»، كلانا يعلم أن هذا ليس صحيحًا.

- ليس صحيحًا؟ لو كان لأحدنا قدرٌ عند الآخر، لما ذهبتَ إلى شقتي لتحاول مضاجعة «سام» بينما أنا غائبة.

- لم يكن هذا سبب وجودي هناك.

- بل قطعًا هذا ما بدا لي أنه السبب.

قال «كووب»:

- هي اتصلتْ بي يا «كوينسي»، قالت إنها قلقة بشأنكِ. لذا جئتُ، لأنَّ أمرًا أزعجني. أنا لا أثق بها يا «كوينسي».. لم أثق بها منذ وصلت. إنها تدبِر أمرًا، وأردتُ أن أكتشفه.

- الإغراء وسيلة تحقيق مثيرة. هل تستخدمها كثيرًا؟

- ما رأيتِه لم يكن مخططًا يا «كوينسي». كان وحي اللحظة.

دارت عيني، ورحتُ أهوِّل الموقف بطريقة درامية كما كانت تفعل «جينيل».

- هذا أكثر الأعذار ابتذالًا.

ردّ «كووب»:

- بل الحقيقة. لا تعلمين كم أنا وحيد يا «كوينسي». وحيد وحدة تامة. أنا أسكن في منزل يكفي خمسة أفراد. وحدي تمامًا فيه. بعض غرفه لم أدخلها لسنوات، فارغة وأبوابها مغلقة.

تركني اعترافه مشدوهة. هذه أول مرة يفتح فيها «كووب» قلبه لي هكذا. بدا أننا نشترك في أمور أكثر مما تصورتُ. ورغم ذلك رفضتُ التعاطف معه. لستُ مستعدةً لمسامحته. قلتُ:

- ألهذا أردتَني أن آتي؟ لتستدرَّ عطفي على حالكَ؟

- كلا، طلبتُ مجيئكِ لشيء يجب إخباركِ به. هناك سبب..

توقفَ «كووب» ليتنحنح..

- سببٌ لمحاولتي أن أكون متاحًا لأجلكِ، سببٌ لأن أُتيح نفسي لكِ ليل نهار. «كوينسي»....

أنبأني حدسي بما سيقول بعدها. هززتُ رأسي، وصرخَ عقلي: أرجوك «كووب» لا تقلها..

لكنَّه قالها بأي حال «أحبكِ».

- لا

نطقتُ بها هذه المرة..

- لا تقل أكثر من ذلك

- لكنها الحقيقة. تعرفينَ ذلك، أظن أنكِ عرفتِ ذلك منذ البداية. ولمَ قد أقود إلى هنا فورَ أن تطلبيني؟ لأراكِ، لأكون معكِ. لا فرق إن كانت دقيقة أو ساعة. مجرد رؤيتكِ تكافئ هذه الرحلة الوحيدة.

اقتربَ مني، وتراجعتُ مبتعدة عنه. عالقة في زاوية بين الحائط ووحدة الأدراج، ظل «كووب» يتقدم، حتى أصبح في مواجهتي. قال:

- لم أقابل أحدًا مثلكِ قط يا «كوينسي». صدقيني عندما

أقول ذلك. أنتِ قوية جدًا، ناجية حقيقية.

نظرَ إليّ، وارتجفت ركبتاي لمرأى عينيه الزرقاوين. لمسَ خدي بإبهامه.

- «كووب».

قلتُها.

- توقف!

قال بصوت مبحوح:

- تشاركينني الشعور. أعلم ذلك.

تصورتُه مضطجعاً إلى جانب «سام». كرهتُه لذلك، كان يجب أن يكون لي وحدي.

قلتُ:

- لستُ كذلك.

- تكذبين.

الغرفة حارة، بل خانقة. المكيّف الطنان تحت النافذة لا يكاد يُحدث تأثيرًا. وفوق ذلك «كووب»، الملاصق لي يبثُّ نوعًا آخر من الحرارة.

قلتُ:

- يجب عليَّ الذهاب.

- كلا.

لما دنا أكثر، رددتُه دافعةً صدره.

- ماذا تريد مني يا «كووب»؟ أفصِحْ بما عندكَ. ماذا تريد بعد ذلك؟

- أنتِ.

قالها برقة..

- أريدكِ أنتِ يا «كوينسي».

بخلاف ما أخبرتُ به «سام»، فكرتُ بما قد يُخضعني إلى رغبتي بـ«كووب». تلكما العينان الزرقاوان تربكاني كأنني متهمة. براقتان مثل الليزر تريان كل شيء، لكن صوته هو الحاسم. هذا الاعتراف الناعم يجذبني بين ذراعيه.

كانت هذه أول مرة يضمني فيها منذ «كوخ الصنوبر»، أول مرة يحيطني بهاتين الذراعين القويتين. ظننت أن الذكرى ستلوّث هذا العناق الآخر، لكنها لم تفعل، فقط جعلته أجمل..

معه أشعر بالأمان.

دائمًا ما كنت كذلك.

سرعان ما صرنا في السرير.. لا مكان آخر.

يعلم ما يريد. تركته يحصل عليه.

فليساعدني الله!

كوخ الصنوبر
11:42 ليلاً

كان ما يزال نائمًا، عندما انزلقت «كوينسي» عن الفراش، وعبرت الغرفة على أناملها، تقتنص حذاءها وثوبها وملابسها. آلمتها الحركة. بقي الوجع بين رجليها يتوهج كلما انحنت، ومع ذلك لم يكن بالشدة التي توقعتها، وفي ذلك عزاء.

ارتدتْ ملابسها على عجل، وقد لسعها البرد القارص في الغرفة فجأة. شعرتْ بأنها محمومة، كانت ترتعش من البرد رغم أن بشرتها ملتهبة الحرارة.

في الردهة، زاغت «كوينسي» عن الحمام، لم تشغل نفسها بإيقاد المصباح. لم يكنْ لها رغبة في مواجهة نفسها في المرآة تحت الضوء الباهر. بدلًا من ذلك وقفت تحدق في انعكاسها المظلم وقد انمحت عنه أكثر تفاصيله. لقد صارت ظلًا.

فجأة، رنَّت أنشودة قديمة في رأسها. شيء من المدرسة الابتدائية، كانت هي وزميلاتها في غرفة البنات الدامسة يرددن اسمًا.

«ماري الدموية، ماري الدموية، ماري الدموية»

«ماري الدموية».. همست «كوينسي» وعيناها على انعكاسها معدوم الملامح.

ما إن خرجت من الحمام، حتى ترددت عند مدخل الردهة، خشية أن يكون «كريج» و«جينيل» قد عادا، مخمورين متضاحكين، وكأنَّ أمرًا بينهما لم يكن. تقدمت لمَّا لم تسمع صوتًا. الصمت يخيم على الكوخ.

اتجهت «كوينسي» إلى المطبخ، وقفت هناك، تقيِّم خطوتها القادمة. هل تواجههما؟ تطلب العودة إلى المنزل؟ ربما تبحث عن مفاتيح «كريج» وتذهب بسيارته الرباعية، تاركة إياهم عالقين بدون هواتفهم المحمولة.

جعلتها الفكرة تبتسم. بالفعل دخلت في المرحلة الثانية من الحزن، التي تعلمتها في دروس علم النفس، قبل ثلاثة أيام فقط. فوّتت «جينيل» تلك المحاضرة، ولم تعطها «كوينسي» ملاحظاتها بعد. لم تعلم الدرجة الثانية في سلم الحزن، ولكن «كوينسي» تعرفه.. الغضب.

شعرت «كوينسي» بحرارته في معدتها، مثل حرق، أو أحمى من الحرق. ينبض خارجًا، يجري في أطرافها. اتجهت إلى المغسلة مستعدة لأنْ تُخرج طاقتها النارية فيها إلى فعل. كانت هذه طريقة أمها.. طيبة الذكر «شيلا كاربتر».. وعدوانها السلبي. تنظف بدلًا من الصراخ.. تصلح بدلًا من التكسير.. لا تقول أبدًا ما في خاطرها.

لم تُرد «كوينسي» أن تكون نفس هذه المرأة.. لم ترد أن تصلح الفوضى التي يصنعها الآخرون.. أرادت أن تغضب.. حقًا.. هي غاضبة. منفعلة.. حتى إنها أمسكت طبقًا متسخًا من الحوض واستعدت لكسره على سطح المطبخ.

لكن انعكاسها ما منعها.. ذلك الوجه الباهت يبادلها النظر من النافذة فوق المغسلة، هذه المرة لم تستطع تفاديه.. هذه المرة رأت نفسها بوضوح.. عينان حمراوان من أثر الدموع، شفتان ملتويتان تجهمًا.. وجه تربّد بالغضب والحسرة وبعارٍ وهبِ نفسها لغريب بشكل تام.

لم تكن هذه «كوينسي» التي ظنت أنها هي. كانت شخصًا مختلفًا تمامًا. شخصًا لم تعرفه.

زحفت الظلمة حولها.. شعرت بها «كوينسي» تقترب، مدٌّ أسود يعلو الساحل، سريعًا ما أحاط بها، يقبض على المطبخ، بطمسه. لم ترَ «كوينسي» سوى وجهها يحدق بها.. الوجه الغريب.. حتى طمسته الظلمة كذلك.

أعادت «كوينسي» الطبق إلى الحوض، واستبدلته بشيء آخر.

السكين!

لم تدرك لماذا أمسكتها! قطعًا لم تفكر ماذا ستفعل بها، كل ما عرفته أن في إمساكها نشوة.. عبرت الباب الخلفي لـ «لكوخ الصنوبر» والسكين في قبضتها.. أسرعت تعبر الشرفة في خطوات ثلاث واسعة. في الخارج، كانت الأشجار الأقرب إلى الكوخ مصطفة كحرس رمادي يحمي بقية الغابة.

أثناء مرورها، ضربت إحداها بسطح السكين. تردد أثر الصدمة رجفةً في يدها صاعدةً في ذراعها، بينما كانت تغور في الغابة.

الفصل 35

دوّى صوت إغلاق الباب عبر الردهة، ليوقظني من نومي العميق. فتحتُ عيني وأنا أشهق، والهواء الجاف يخدش رئتي. شمس النهار تحرق طريقها في خط مائل من النافذة إلى وسادتي. كان واضحًا وحادًا، أحسُّها أشواكًا تخز شبكية عيني. تقلبتُ على جانبي لاعنة الشمس، بينما أخذتُ أفرد ذراعي إلى الجانب الآخر من الفراش.

فارغ.

حينها تذكرتُ أين أنا.

مع من كنتُ.

ماذا فعلتُ.

وثبتُ عن الفراش بعقل مشوشٍ والغرفة تدور من حولي. فلما انتهيتُ إلى الحمام الضيق، انهرتُ على الأرض. استشعرتُ برودة بلاطه تحت عجزي العاري، ركبتاي مضمومتان إلى صدري. أفكاري مشوشة، غير واضحة. كأنني لا أنتمي إلى هذا العالم، لكني فيه.

هذه أعراض انسحاب، أدركتُ ذلك. انسحاب الذنب على مشاعري. لم تدركني نوبة مثلها كلّ تلك لسنين.

تسللت الذكريات في خطىً ثابتة، مثل دقات عقرب الثواني. دق دق دق. في ظرف دقيقة، عاد إليّ كل شيء، كل تفصيلة ساقطة قذرة.

بالطبع قد غادر «كووب». ربما كان ذلك سبب صوت صفق الباب، ولكني أحسب أنه ذهب في هدوء، مفضلًا عدم إيقاظي، لا أقول بأني ألومه.

على الأقل، كان دمثًا كفاية لأن يترك لي ورقة كتبت على عجل، في مفكرةٍ تحمل اسم الفندق المتواضع. رأيتها ملقاة إلى جانب التلفاز بينما كنت أترنح إلى الحمام.

سأقرؤها لاحقًا، ما أن أقدر على إنهاض نفسي عن الأرض.

جسدي كله يئن ألمًا، ولكنه ألم من حصل على مبتغاه.. إنه نفس شعوري أحيانًا بعد الركض، متعبة وراضية وربما شيء من القلق من أن أكون قد أفرطتُ في الأمر.

هذه المرة لا شك.. أفرطتُ إفراطًا كارثيًا.

نظرتُ إلى يدي. أكثر الطلاء الأسود الذي طلته «سام» قد تقشَّر عن أظافري، تاركًا محض نقاط. هناك وسخ تحت أظافري، على الأرجح أنه أثر من الطلاء. أو ربما بقايا من جلد «كووب» تناثرَ عندما خدشتُ ظهره وأنا أرجوه أن يزيد في قوته. بقيتْ ريحه في كفي.. رائحة عرقٍ ومَنِيٍّ ونفحة من الكولونيا الرجالية. استنهضت نفسي ووقفتُ أمام مغسلة بحجم الصحن، نثرتُ الماء البارد على وجهي، كنت أحاذر من النظر إلى نفسي في المرآة.. أخشى مما قد أراه.. بل أخشى أن أرى عدمًا.

خطوتان، وجلستُ على الفراش ثانية. ورقة «كووب» تناظرني من بقعتها عند التلفاز.

أخذتُها وقرأتُها..

«عزيزتي «كوينسي»»، أستحي من تصرفي. ورغم شدة رغبتي فيما حدث، أدرك الآن أنه ما كان ينبغي أن يحدث. أظن أن الأفضل أن ننقطع لمدة طويلة. آسف»

وهذا كل الأمر!.. عشر سنين من الرعاية والصداقة والتقدير فُقدت في ليلة.. ألقيَت بنفس سهولة إلقائي للورقة بعد قراءتها في السلة قرب الحائط. لما أخطأتها ووقعتْ على الأرض، زحفتُ إليها وأخذتُها ووضعتها في السلة.

ثم أخذتُ السلة وقذفتها عبر الغرفة.

بعد اصطدامها بالحائط وسقوطها، التقطتُ شيئًا آخر.. جهاز التحكم. وذاك أيضًا طار عبر الغرفة، مكسورًا على ظهر السرير. هجمتُ على ألحفة السرير المنسدلة نحو الأرض، أقطعها، وألف

بها قبضتي لأكتم بها صوت نحيبي.

رحل «كووب».

لطالما افترضتُ أن هذا سيحدث يومًا ما.. سحقًا! بل كاد يحدث فعلًا، قبلٍ أن يعيده خطاب التهديد ليدور ثانية في فلكي. لكنني لست مستعدة لحياة لا أجد فيها «كووب» حين أحتاجه. لا أثق في قدرتي على تولي الأمور وحدي.

لكن لا خيار الآن. الآن لم يبقَ أحد في حياتي غير «چيف».

«چيف»!

تبًا!

إدراكي لحجم خيانتي له بعثَ موجة غثيان في أحشائي تخزني.. هذا سيدمِره.

قررتُ من فوري ألّا أخبره بما فعلتُ قط، هذا هو الخيار الوحيد المتاح لي. سأجد طريقة لنسيان هذه الغرفة النتنة، هذه الألحفة المبرومة، إحساسي بقرب «كووب»، وأنفاسه الدافئة تداعب أذني. مثل «كوخ الصنوبر» سأمحوها كلها من ذاكرتي، وعندما أواجه «چيف» ثانية، لن يرتاب بشيء، سيرى فقط «كوينسي» التي يظن أنه يعرفها. «كوينسي» العادية.

اكتملت الخطة.. جلستُ.. محاولة تجاهل الذنب الذي يعتصر أحشائي؛ شعور سأحتاج إلى الاعتياد عليه. نظرتُ إلى هاتفي، فوجدتُ ثلاث مكالمات فائتة، ورسالة لم يُرد عليها من «چيف». عجزتُ عن سماع رسائله، صوته سيحطمني. ولكنني قرأتُ ما كتب، وكل كلمة فيه تحمل همًا.

(لماذا لا تُجيبين على هاتفكِ؟ هل كل شيء على ما يرام؟)

كتبتُ له:

(اعذرني. سقطتُ في النوم ما أن وصلتُ إلى البيت. سأتصل بكَ لاحقًا)

ألحقتُ بها «أحبك»، ثم مسحتُها خشية أن تُريبه. بالفعل بدأتُ أفكر كخائنة.

إضافة إلى «چيف»، فاتتني مكالمة أخرى، من «چوناه لومبسون»، استقبلتها بعد الثامنة بقليل. قبل ساعة تقريبًا. لما رددتُ على الاتصال، أجابني بعد رنة واحدة.

- أخيرًا!

- صباح الخير لك أيضًا

تجاهلني «چوناه»، وقال:

- فتشتُ قليلًا عن «سامنثا بويد»، المعروفة بـ «تينا ستون». أعتقد أنه سيهمكِ سماع ما عندي.

- «ماذا وجدت؟»

ردَّ «چوناه»:

- من الصعب الشرح على الهاتف، يجب أن تري بعينكِ.

تنهدت..

- نافورة «بيثيسدا». بعد عشرين دقيقة.. أحضِر قهوة.

كوخ الصنوبر

11:49 ليلاً

استترَ القمر خلف السحاب، تاركًا الغابة أظلم مما أظلمت. صعب على «كوينسي» البقاء على المسار والأرض تحت قدميها خليط قاتم من ورق الشجر والحشائش، لكنها وصلت المنحدر. أمكنها الشعور بالجهد الزائد يشد عضلة ساقها.

لم يكن لها خطة. ليس تمامًا. كل ما أرادته هو أن تواجههما.. أرادت أن تذهب إلى تلك الصخرة، تقف أمام جسديهما المنهكين المجزِّعين بضوء القمر، تخبرهما كم تتألم.

السكين ستجبرهما على التصديق.. ستُخيفهما.

سريعًا قطعت «كوينسي» نصف المنحدر، وقلبها يخفق بقوة ليضخ الدم الحار في عروقها، أنفاسها لاهثة تمزق رئتيها بينما تتقدم صاعدة. داهمها شعور أنَّ أحدًا يراقبها، لم يزد على نغزة في مؤخرة عنقها، تخبرها أنها ليست وحدها، توقفت متلفتة حولها. ورغم أنها لم ترَ شيئًا، إلا أنها لم تستطع أن تنفض من شعورها أن ثمة أعيُن تراقبها، مما ذكَّرها بشائعات الأشباح الهندية التي تجوب الغابة. رحبت بها، تلك الأشباح الناقمة، تاقت إلى أن تلحق بها إلى مرامها.

هناك صوتٌ في الغابة.. خطوات سريعة فوق حفيف الأوراق الساقطة. للحظة، ظنت «كوينسي» أن أشباح الغابة حقيقة، وفوجٌ منها متجهٌ إليها. ألقت نظرة وراءها، متوقعة أن ترى زحفها بين الأشجار، لكن هذا الشبح كان إنساناً كاملاً. سمعت «كوينسي» لهاثَ إجهاد، أشد من لهاثها. وسرعان ما أصبح الصوت في إثرها، ليجعلها تلتفت إليه.

ظهرَ «جو»، مستيقظًا الآن ومرتديًا ملابسه على عجالة. كنزته في وضع معكوس، وعروقه تحك بروز حنجرته في رقبته.

قالت:

- أحتاج أن أكون وحدي.

ما زالت أنفاسه منهكة، يجاهد الكلمات:

- لا تفعلي ذلك.

أشاحت عنه «كوينسي» مجرد النظر إليه أشعرها بالغثيان.. ما زالت تشعر به داخلها، الحرارة بين ساقيها أشعرتها بالخزي.

- لا تعلم ما سأفعل.

- أعلم. والأمر ليس جديرًا بعواقبه.

- وما أدراكَ؟

- لأني فعلتها من قبل. وشعرتُ كما تشعرين الآن.

- دعني وشأني.

- أعلم أنكِ تريدين إيذاءهم.

فجأة، انقشعت ظلمة الغضب التي غشيتْ «كوينسي»، تاركةً إياها في حالة من الدوار والاضطراب. رأت السكينَ في يدها فشهقت. لم تذكر لماذا التقطتها؟ أحقًا عزمت أن تعمِلها في جسديهما؟ أم في جسدها؟

أحرقَ الشعور بالخزي أحشاءها، فهزت رأسها بهستيرية حتى تشوشت الغابة المظلمة في عينيها.. وقالت:

- ليس ما تظن.

- حقًا؟

- لم أكن....

بترت كلامها، عالمة أنَّ أيًّا مما ستقول لن يكون معقولًا.. خذلتها الكلمات.

- ينبغي أن تعودي، لا يصح أن تبقَي في الخارج هكذا.

- لقد جرحاني.

قالتها «كوينسي» وعادت إلى البكاء فجأة، فقال:

- أعلم، ولهذا يجب أن تعودي الآن.

مسحت «كوينسي» دموعها. كرهت نفسها لأنها بكت أمامه، كرهت كيف استمتعت بِصحبته، كرهت أنَّ من بين كل الناس في ذلك الكوخ، هوَ وحده من رأى «كوينسي» الحقيقية.

قالت:

- سأفعل، أين ستذهب؟

سرَّح نظره، كأنما ليتحرَّى مكانًا قصياً وراء الأشجار.

- المنزل.. يجب أن تذهبي إلى منزلكِ أيضًا.

أومأت «كوينسي».

أسقطت سكينها.

فتزلت على جنبها تتوّسد الأوراق.

ثم جرت من حيث أتت.. مارة به.. تحاول أن تتجاهل كيف غيَّم ضوء القمر نظارته، معتمًا عدستيها.. كأنها ضباب.

الفصل 36

خمس وعشرون دقيقة، بعد قطع الاتصال مع «چوناه»، ها أنا في سنترال بارك، مندفعة عبر نفق الباروك، المؤدي إلى شرفات جسر «بيثيسدا». رأيتُه عبر الأقواس المزخرفة عند نهاية النفق، يجلس عند حافة النافورة، بقميص وردي وبنطال أزرق، وسترة رياضية رمادية اللون، يحلِّق فوقه سرب حمام، قبل أن يحط على الأجنحة المشرعة للملاك الذي يتوسط البِركة.

قلتُ وأنا أجلس بجانبه:

- أعتذر عن تأخري.

تشمَّم «چوناه» رائحتي وصاح:

- واه!

أنا أيضًا كنتُ أشم رائحتي، لم يكن بمقدوري الاستحمام في الفندق، فلم يكن قد تبقَّى لي ماء ساخن. كان عليَّ أن أغسل مناطق العرق على الأقل قبل ارتداء ملابسي والتي أرتديها منذ الأمس.

بينما أرتدي ملابسي خطرَ في بالي كَمّ الأميال التي قطعتها بهذه الملابس.. لقد كنتُ أفكر في الأربع والعشرين ساعة الماضية، من شيكاجو إلى مونسي، والعودة ثانية، ثم من شيكاجو إلى نيويورك إلى حجيرة فندق «سبارتان» المخزية، والآن ها قد قطعت الطريق إلى سنترال بارك، نتنة الرائحة، ومبقعة بالعرق، أعتقد أنني سأحرقها في نهاية اليوم.

- نجلي؟!

- صه.. أين قهوتي؟

بجوار قدمه على الأرض استقرَّ كوبا القهوة، وإلى جوارهما حقيبة يد، ممتلئة بما أتمنى أن يكفيني من المعلومات عن «سام»، كي تُطرد من حياتي. إن لم يكفِ، فعلى الأقل سأقابل بخروجها من شقتي.

- انتقي ترياقكِ.

قالها «چوناه» وهو يرفع كوبي القهوة ويكمل:

- قهوة سوداء أم بالكريمة والسكر؟

- كريمة وسكر، أفضلها حقنًا بالوريد.

ناولني كوبًا عليه علامة X تجرعت نصف ما فيه دون أن ألتقط نفَسي.

- أشكركَ.. أيًا كان ما قدمتَه اليوم لي من أفضال، فلا شيء يعلو على هذه.

- سوف تغيّرين كلامكِ هذا بعد دقيقة واحدة.

قال جملته وهو يرفع إليه الحقيبة، فلم أصبر وسألته:

- ماذا وجدتَ؟

فتحَ سحَّاب الحقيبة وجذب ملفًا ذا لون «بيج»، وهو يقول:

- قنبلة!

في داخلِ الملف، كانت عشرات الأوراق السائبة عن بعضها، فردها «چوناه» بحركة رشيقة من أصابعه، بحيث يسمح لي بإلقاء لمحة سريعة فقط على صور المقالات الإخبارية والملفات المطبوعة عن الإنترنت.

- البحث عن «سامنثا بويد» يُظهر كل المعلومات المعتادة عن نُزل «نايت لايت».. كانت الوحيدة التي عاشت.. ناجية أخيرة.. لقد ابتعدت عن الأعين منذ ثماني سنوات، ولم يُر أو يُسمع عنها شيء بعد ذلك، إلا منذ أيام قليلة.

- أعرف كل هذا بالفعل.

- «تينا ستون» قصة مختلفة.

توقفَ «چوناه» أخيرًا عند قصاصة صغيرة ناولها لي قائلًا:

- هذه من «هازلتون إيجل»، منذ اثني عشر عامًا

ضربَ قلبي جدران صدري بقوة وأنا أنظر في القصاصة،

وأتعرّف عليها، فقد رأيتُ مثيلتها في بيت «ليزا»:

«هازلتون، بنسلفانيا - تمَّ العثور بالأمس على رجل مطعون حتى الموت، داخل المنزل الذي يقيم فيه مع زوجته وابنتها. استجابة لمكالمة للطوارئ، خرجت الشرطة إلى شارع «مابل ستريت»، لتجد «إيرل بوتاس»، 46 عامًا وقد مات في مطبخ شقته ذات الطابقين، نتيجة لطعنات متعددة في الصدر والبطن. استبعدَ الطب الشرعي أن يكون انتحارًا، والتحقيقات مستمرة لمعرفة ما وراء الحادث».

- كيف وجدتَ هذه؟

- بحثتُ على «ليكسز نيكسيز» عن «تينا ستون».

- ولكن ما علاقة هذا بها؟

- وفقًا للصحيفة، اعترفت ابنة زوجة «إيرل بوتاس» بقتله.

عرفتُ الآن لماذا احتفظت «ليزا» بذلك المقال..

- لقد كانت هي!.. «تينا ستون» قتلت زوج أمها!

أومأ «چوناه» إيجابًا وقال:

- أخشى أن هذه هي الحقيقة.

تجرعتُ الباقي من قهوتي، على أمل أن تزيح ذلك الصداع الذي عاد يضغط جمجمتي. في هذه اللحظة، كنت مستعدة لأن أقتل في سبيل قرص مهديء.

- ما زلتُ لا أفهم لماذا غيّرت «سام» اسمها، لتصبح نفس المرأة التي قتلت زوج أمها.

- هذا هو الغريب في الأمر، لكنني غير واثق أنها فعلت ذلك.

أخرجَ من الملف عدة تقارير طبية، مكتوب في أعلاها اسم «تينا ستون».

- أليس من المفترض في التقارير الطبية أن تكون سرية

أيضًا؟

- من الواضح أنكِ لا تقدّرين إمكاناتي جيدًا.. «الرشوة محرك عظيم».

- أي خسّة هذه!

بدأتُ أقلّب التقارير، التي تبدأ من العام الماضي، ثم التواريخ الأقدم. زارت «تينا ستون» الطبيب بشكل متقطع، ودائمًا في حالات الطوارئ، وعادة بدون تأمين صحي. منذ أربع سنوات كان لديها كسر في الرسغ نتيجة حادث دراجة نارية، وقبلها بعامٍ أجرت أشعة الماموجرام بعد أن أحست بكتلة في ثديها، ثبت أنها حميدة.. جرعة زائدة من مضاد الاكتئاب (أميتروفيلين) منذ ثماني سنوات. توقفتُ عند هذا التقرير، فهذه هي المرةُ الثانية التي تتناول فيها جرعة زائدة، الأولى قبلها بعامين. نظرتُ إلى التاريخ، فوجدته يعود إلى ثلاثة أسابيع بعد أحداث «كوخ الصنوبر»!

- لا يمكن أن تكون هذه «سام».. التواريخ لا تتطابق، لقد أخبرتني بأنها لم تغير اسمها إلا منذ بضع سنوات بعد حادثة «كوخ الصنوبر».

عندما داهمني الإدراك، كدتُ أسقط على ظهري في بركة النافورة. أفلتُّ الملف من يدي، فتناثرت أوراقه، فسارع «چوناه» يلملمه قبل أن يبعثره الهواء، بينما ظللتُ واجمة في مكاني، حتى جلسَ إلى جانبي طاويًا الملف تحت إبطه وقال:

- لقد فهمتِ الأمر الآن، صحيح؟

- «تينا ستون» و «سامنثا بويد».. ليستا نفس الشخص!

- مما يستدعي السؤال: من منهما تلك التي في شقتك؟

- ليس لديَّ أدنى فكرة!

لكنني أحتاج إلى معرفة ذلك!.. وقفتُ في الحال، ساقاي مرتخيتان لا تكادان تحملانني، وهممتُ بالذهاب، لكن

«جوناه» أوقفني بوجه متجهم يحمل الأسف، وقال:

- لسوء الحظ، هناك المزيد..

فتحَ الملف، وقلَّب فيه حتى وصلَ إلى صفحة في آخره..

- هناك حادثة تشير إلى كونها مدمنة.

- أعرف.. هذا قبل تغيير اسمها المزعوم.

- ربما ترغبين في معرفة أين أخذت جرعاتها.

وأشارَ «جوناه» إلى اسم المنشأة التي كانت «تينا ستون» تُعالج فيها. «مستشفى بلاكثورن للطب النفسي»، تلك التي تقع على الجانب الآخر من غابة «كوخ الصنوبر».

ما إن رأيتُ الورقة حتى شعرتُ بدوار أسوأ من ذلك الذي أصابني في الصباح، بل أسوأ حتى مما أصابني لحظة أدركتُ أنني ضربت «ريكاردو رويز» حتى كدتُ أنهي حياته.

«تينا ستون» كانت مريضة في مصحة «بلا كثورن».

في نفس الوقت الذي كان فيه «هو» أيضًا هناك.

بالضبط نفس الوقت الذي جاء «هو» فيه إلى «كوخ الصنوبر» ودمَّر عالمي!

«كوخ الصنوبر»

منتصف الليل

انفجرت الصرخة الأولى من الغابة، مع وصول «كوينسي» إلى الشرفة الخلفية للكوخ، مخترقة أسماعها بينما هي تتسلق الدرجات الخشبية القليلة. التفتت «كوينسي» نحو مصدر الصوت وقد شلّتها المفاجأة بما أعجزها عن الخوف.. الخوف سيأتي لاحقًا!

أدارت بصرها في الغابة المظلمة خلف الكوخ، مدققة النظر من شجرة إلى شجرة، وكأن الصراخ أتى من إحداها، لكنها كانت تعرف مصدره بالفعل.

إنها «جينيل».

كانت متأكدة من ذلك.

انطلقت صرخة ثانية في الغابة أطول من الأولى، عاتية حتى كادت تشق عنان السماء.. أكثر حدة.. حادة بما يكفي لإفزاع بومة من أعلى فروع شجرة قريبة لترفرف مارة بشرفة الكوخ قبل أن تختفي على سطحه.

امتزجَ صوت البومة مع صوت آخر.. خطوات مضطربة. ما هي إلا لحظة وظهر «كريج» خارجًا من الغابة، عيناه زائغتان، وجسده يترنح بجنون.. كان قد ارتدى قميصه، ورفع سرواله، وإن لاحظت «كوينسي» أن أزراره مفكوكة وكان الحزام متدليًا منه يتأرجح.

- اركضي يا «كوينسي».

كاد يكفئ على وجهه من جرّاء سرعته المحمومة، وهو يكمل:

- يجب أن نركض.

كان قد وصل إلى الشرفة، محاولًا جذبها معه بينما كان يتخطاها، فالتوى ذراعها في يده، ولم تتحرك من مكانها، ليس

قبل أن تصل إليهما «چينيل». صرخت متسائلة:

- «چينيل»؟

تردَّد صدى صوتها في الغابة، مكررًا اسم صديقتها، وكل مرة أكثر خفوتًا من سابقتها، فأجابتها صرخة أخرى، عوى « كريج» عندما سمعها، وانتفضَ جسده انتفاضة صغيرة، كأنه يُلقي شيئًا عن ظهره، وصرخ في « كوينسي»:

- هيّا.

لكن صرخة رابعة جذبتها إلى الأمام، إلى نهاية آخر درجة وطرف حذائها على حافتها، وخلفها « كريج» يحاول الدخول مزاحمًا أولئك المتدافعين نحو الخارج. سألت «إيمي» والرعب يمزق أوصال صوتها:

- ماذا كان ذلك؟

بينما تساءلَ «بيتز»:

- أين«چينيل»؟

- ماتت! (صرخَ كريج).. لقد ماتت!

لكنها لم تكن قد ماتت بعد، «كوينسي» ما تزال تسمع حشرجاتها تؤرق الليل، ووقع أقدام خفيفة كأقدام قطة تتعثر في الغابة.

ظهرت «چينيل» فجأة، وكأنها واحدة من أشباحها الهندية، آتية بمحاذاة صف الأشجار خلف الكوخ. لكنها لم تصمد واقفة طويلًا، فقط غريزة الحياة أبقتها واقفة، وقد ترقّط ثوبها ببقع حمراء داكنة عند الكتف والصدر والبطن، وأحاط كفّاها برقبتها، أحدهما يقبض بقوة على الآخر، والدم يتدفق أسفلهما كشلال يُغرق صدرها.

هنا زلزلَ الخوف الجميع بقوة.

خوف قبضَ أحشاءهم وجمدهم في أماكنهم ملتصقين بالباب الخلفي.

فقط «كوينسي» من خرجت من جمودها، ونزلت من الشرفة يدفعها الخوف، إلى حيث تجمّع الثلج على عشب الفناء، المنسحق تحت قدميها وهي تنقل خطواتها نحو «چينيل»، وتسللت رطوبة باردة إلى قدميها داخل حذائها.

أخيرًا وصلت إلى «چينيل»، ممسكة بها وهي تنهار نحو الأمام، وقد سقطت يداها بعيدًا عن رقبتها، فانكشفَ الجرح الواسع الذي يتدفق منه الدم، حاراً ولزجاً، صبغَ ثوب «كوينسي» الأبيض.

غطت «كوينسي» الجرح بيديها، والدم ينبض على كفَّيها، وجسد «چينيل» يهمد ويزداد ثقله على «كوينسي»، فركعت على ركبتيها، حتى خرت جالسة، ثم ارتخت «چينيل» كدمية قماشية واسعة العينين تحدق فيها برعبٍ، وقد تهدَّجت أنفاسها.

صرخت «كوينسي»:

- النجدة!

رغم علمها أن «چينيل» صارت أبعد من أن تُجدي معها أية نجدة.

صرخت ثانية:

- النجدة! أرجوكم!

وبقيَ الجميع على جمودهم في أماكنهم على الشرفة. «إيمي» مختبئة في صدر «رودني»، وقميص نومها يرفرف حولها، و«بيتز» تنهار باكية، فاقدة السيطرة على أعصابها. فقط «كريج» نظرَ إليهما. شعرت «كوينسي» أنه يستطيع أن يرى أعمق ما في قلبها، كأنما يعرف كل سر من أسرارها القميئة. حدقت به، لترى الخوف يغزو عينيه، وهو يعود إلى الصياح:

- «كوينسي»! اركضي!

لكن «كوينسي» لا يمكنها ذلك، ليس و«چينيل» تحتضر بين ذراعيها، ولا حتى بعد أن شعرت بحضورٍ جديد في

وسطهم، شيء دنيء يفور بالكراهية.

صارَ بينهم قبل أن تلتفت لتنظر، وامتدت أصابعه في شعرها لتقبض على خصلة تجذبها وتكاد تنزعها. برقَ الألم في جسدها وهي تُسحب حول نفسها لترى ما رآه الآخرون..

كيانًا غامضًا.

سكينًا مشحوذة.

ثم وميضًا فضيًّا.

أصابتها طعنات متلاحقة، واحدة تلو الأخرى، واخترقت كتفها طعنتان حادتان، كلسان من لهب يخترق بشرتها وعضلاتها، ليشق عظامها.

غلبها الألم الشديد الصارخ بداخلها، فلم تصرخ. وقعت على جنبها، وتدحرجت «چينيل» من حجرها، فصارتا راقدتين وجهًا لوجه، و«كوينسي» تحدق في عينَي «چينيل» الميتتين، بينما تتدفق بركة من الدم على العشب بينهما، تُذيب الجليد، ويتصاعد منها بخار خفيف.

كان ما يزال هنا. سمعت «كوينسي» صوت أنفاسه المنتظمة، ثم لمست يده شعرها ثانيةً، لكنه لم يجذبه، بل داعبهُ وهو يقول:

- ها هي ذي! هاك!

أقصى ما رأته منه «كوينسي» كان مجرد ظل. وبينما تنتظر طعنته الأخيرة، تخطاها، ثم تجاوز من كانت فيما سبق «چينيل»، في طريقه إلى «كوخ الصنوبر».

كان ذلك آخر ما رأته «كوينسي»، قبل أن يغشاها الوجع والحزن والخوف، وتغيم رؤيتها بالسواد، وبصرها مشوش. أغمضت عينيها مرحبة بالنسيان، تاركةً الظلام يسيطر على وعيها.

الفصل 37

رفضتُ كل توسلات «جوناه» إليَّ كي أدعه يرافقني إلى الشقة. ظلَّ يخبرني أن الأمر خطير للغاية، وأنه على حق، لكن وجوده سيعقد الأمور أكثر، إذ يجب أن يكون هذا بيني وبين «سام».

أو «تينا».

أو أيًا تكن.

عدتُ ثانية إلى توخي الحذر عند دخول الشقة، وعدت ثانيةً أتمنى ألّا تكون هنا، لكنها موجودة. وأنا في الردهة، سمعتُ صوت تدفق مياه الدش في الحمام، يبدو أن «سام» تستحم. وقفت بباب الحمام، حتى سمعتُ ضوضاء من الجانب الآخر، كان سعال «سام»، وهي تطرد ما في حلقها المتهيج من السجائر، بينما ماء الدش مستمر في التدفق.

أسرعتُ إلى غرفة «سام»، حيث حقيبة ظهرها ما تزال قابعة في الركن. لم أستطع فتحها، كانت يدي ترتجف بشدة. تنفست بعمق عدة مرات، متمنية تناول قرص الزاناكس، على الرغم من معرفتي أنني بحاجة إلى كامل انتباهي. لكن الإدمان انتصر عليّ، وجذبني إلى المطبخ، لأضع قرص الزاناكس في فمي، وأبتلعه مع عدة جرعات من صودا العنب، مستمرة في الشرب طويلًا بعدما انزلقَ القرص من حلقي.

استجمعتُ شجاعتي تمامًا، وعدتُ إلى غرفة «سام»، وبيد أكثر ثباتًا، فتحت حقيبة الظهر بسهولة. فتشتُ فيها، أخرجتُ الملابس المسروقة، تيشيرت أسود، مجموعة مهترئة من حمالات الصدر والسراويل الداخلية، برزت من تحتها زجاجة من الويسكي «وايلد تيركي»، زجاجة جديدة لم تُفتح بعد، ارتطمت بالأرض وتدحرجت نحو ركبتي.

مددتُ يدي إلى قاع الحقيبة أفتش في الأشياء الرفيعة فيها: فرشاة، مزيل رائحة العرق، عبوة فارغة، تحققت من الملصق

عليها، فكان «آمبيان» وليس أنهتروفيللين»».

وجدتُ الـ «الهاتف»، الذي أخذه «سام» من درجي السري، نفس الهاتف الذي سرقته من ذلك المقهى. كان مقفلًا والبطارية ميتة على الأرجح. في أبعد عمق الحقيبة، لامست أناملي صفحات ملساء باردة، إنها مجلة.

أخرجتُها وقلّبتها لأرى الغلاف، كانت نسخة من «تايم»، أطراف صفحاتها مطوية ومدبَّسة، وتكاد تتمزق إذا ما حاولت فكَّها. الصورة في واجهتها لنزلٍ متداعٍ تحيطه سيارات الشرطة، وتنمو حوله أشجار الصنوبر المكتسية بالطحلب الإسباني، والعنوان الرئيسي باللون الأحمر مكتوب على خلفية السماء الرمادية: «نُزُل الرعب».

إنه نفس عدد المجلة الذي كنتُ أقرؤه وأنا طفلة بنهم، وأنا أرتعش تحت غطائي. مرعوبة من أن تزورني الكوابيس. قلبتُ الصفحات إلى أن وجدتُ المقال الذي أثار أضخم مخاوف طفولتي، كان يعرض صورة أخرى لنُزل «نايت لايت»، لقطة خارجية لإحدى الحجرات، ومن الباب المفتوح، يظهر وميض أبيض، وإحدى الضحايا مغطاة بملاءة.

يبدأ المقال بعمود ضيق بجوار الصورة: «قد تظن أن هذا يحدث في الأفلام فقط، ولا يمكن حدوثه في الحقيقة، على الأقل ليس بهذا الشكل، وبالتأكيد ليس لكَ أنت. لكنه حدث، أولًا في مهجع طالبات في ولاية إنديانا، ثم في نُزُلٍ في فلوريدا».

هذا المقطع مألوف بالنسبة لي، شعور بالـ«ديجافو» ليس من طفولتي، وإن كنت قد قرأتُها بالتأكيد آنذاك.. لكن هذه الذكرى أحدث من ذلك، «سام» ذكرتْها لي في أول ليلة لها هنا، جملة عابرة أثناء ثرثرة فتيات، بينما كنا نتناوب الشرب من زجاجة النبيذ، تحدث في مناجاة صادقة عن نُزل «نايت لايت».

كان حديثها كلمة من الهراء المنقول بنفس مفردات هذه المجلة كلمة كلمة.

أعدتُ أشياءها إلى الحقيبة، كل متعلقاتها عدا المجلة التي يمكنني استخدامها كسلاح ضدها، والهاتف الذي يمكنها استخدامه ضدي. طويتُ المجلة تحت ذراعي، ودسست الهاتف داخل حمالة صدري.

غادرتُ الغرفة راضية، تاركة إياها تقريبًا بنفس المظهر الذي دخلتُها به، وأسرعت عائدة إلى المطبخ، أتجرع صودا العنب، حاملة حاسوبي. أخذتُ رشفة أخرى وأنا أفتح الحاسوب، وأفتح الـ «يوتيوب»، وفي خانة البحث كتبت: اللقاء مع «سامنثا بويد»، فأظهر لي عدة نسخ من مقابلتها التليفزيونية الوحيدة، جميعها قد رفعها نفس المخابيل الذين يديرون مواقع الجريمة. ضغطتُ على أولها وبدأ الفيديو..

على الشاشة، كانت نفس المذيعة التي مرَّرت عرض المقابلة المعطر بـ«شانيل» أسفل بابي. كان تعبير وجهها لطيفًا، بقناع من الحياد، وإن خانتها عيناها، كانتا سوداوين مفترستين، عيني سمكة قرش.

ومعها جلست امرأة شابة تُولِي ظهرها للكاميرا، بالكاد داخل إطار الكاميرا، مجرد ظل قد تمَّ تشويش صورته بحيث يفهم المشاهد بالكاد أنها فتاة، دون أن يتعرف عليها، سألتها:

- هل تتذكرين ما حدثَ في تلك الليلة يا «سامنثا»؟

- بالتأكيد أتذكرا

ذلك الصوت، إنه لا يشبه صوت «سام» التي أعرفها، «سام» التي في اللقاء صوتها ليس نقيًا مثلها، والنطق أقل دقة.

- هل يغلبكِ التفكير في الأمر؟

- كثيرًا.. إنني أفكر في ذلك الشخص طوال الوقت.

- تعنين « كالفين ويتمر»، أليس كذلك؟ رجل الجوَال؟

كان هناك ظل مُعتم يميل مع إيماءة «سام» التي في اللقاء وهي تقول:

- ما زلتُ أستطيع رؤيته.. أتعلمين.. عندما أُغمض عيني.. لقد صنعَ ثقوبًا في الكيس لعينيه، وشقًّا صغيرًا عند أنفه للتنفس، لن أنسى أبدًا منظر الكيس وهو يرِفُّ مع أنفاسه، والخيط الذي ربطه حول رقبته ليُبقي الكيس في مكانه.

لقد سرقت ذلك النص أيضًا، ذكرتهُ لي كما لو كانت تنطق به للمرة الأولى. عدت إلى بداية الفيديو وأنا أشعر بدوار طفيف، بينما الآنسة «شانيل 5» تمر بعينيها الشبيهتين بعيني القرش على «سام في اللقاء»، وتسألها:

- هل تتذكرين ما حدث لكِ في تلك الليلة يا «سامنثا»؟

رمشَ جفني، وأحسستُ فجأة أن عيني مُجهدة.

- بالتأكيد أتذكر.

وابتعدَ الصوت القادم من الحاسوب وصار مبهمًا وهي تقول:

- هل يغلبكِ التفكير في الأمر؟

الخدر يزحف في جسدي، في يدي أولًا، ثم صاعدًا في ذراعي بتنميلٍ حارق.

- كثيرًا.. إنني أفكر في ذلك الشخص طوال الوقت.

صارت الشاشة ضبابية.. ثم تأرجحَ وجه المذيعة، فرفعتُ عيني أنظر بعيدًا، فوجدت المطبخ بكامله قد تحوَّل إلى خطوط ملونة غير واضحة. ألقيتُ نظرة على صودا العنب والتي التمعت بلون أرجواني كأضواء النيون الملونة. شعرتُ بيدي تتخدر أكثر، إلى درجة أنني عجزت عن رفع الزجاجة، فصدمتُها بمرفقي مسقطة إياها لتنسكب أرضًا، وظهرَ في قاعها مسحوق حبوب الزاناكس الزرقاء.

وارتفعَ صوتٌ ورائي:

- عرفتُ أنكِ ستكونين عطشى.

درتُ حول نفسي، لأراها في المطبخ مرتدية ملابسها وجافة، بينما ما يزال صوت الماء يأتي من بعيد، يختلط مع صوت لقاء «سام» آتيًا من الحاسوب، لقد كان فخًا.. مصيدة لي!

- ما...

عجزتُ عن الكلام، شاعرة بثقل لساني وكأنه سمكة تتلوى في فمي.

- ششششششش...

هذا كل ما قالته، وتحولت إلى ظل مشوش، تمامًا مثل صورة نظيرتها التي ما زالت تتحدث على الحاسوب.

«سام اللقاء» خرجت من الحاسوب إلى الواقع، فقط لم تكن «سام»... حتى الحبوب التي تُعيث فسادًا في جهازي العصبي لم يمكنها تثبيط لحظة الانكشاف هذه، والتي يعلم الله، ربما تكون الأخيرة، إلى حين، أو ربما إلى الأبد.

حركتُ بصعوبة لسانًا ثقيلًا للغاية، لأقول لها:

- «تينا».. «تينا ستون».

تحركت نحوي، فملتُ نحو حامل السكاكين الخشبي، محركة ذراعي ببطء، إلى أن قبضتُ على أكبر سكين، شعرت بها في يدي تزن مائة رطل. انكفأتُ على وجهي، ساقاي رخوتان، وقدماي ثقيلتان كحجرين. لم تُنتج محاولتي سوى ضربة واحدة ضعيفة، سقطت معها السكين من بين أصابعي المرتخية.. ورأيتُ المطبخ يميل.. مدركة أنني أنا التي تسقط جانبًا، وكل شيء يغيم في عيني، حتى ارتطمَ رأسي بالأرض.

بعد عام من «كوخ الصنوبر»

كانت «تينا» من بين آخر من رحلوا. جلست على سريرها بصريره المزعِج، تحدق بأعين خاوية في الجانبِ الآخر من الحجرة، الذي احتلته مؤخرًا مهووسة حرائق بشعر ملبّد تُدعى «هيدر». كانت الملاءات قد نُزعت، فتعرّت المرتبة المتكلّلة، ببقع البول الصفراء المستطيلة عليها، وعلى الحائط بجوارها لم تغطِ طبقة الطلاء الكلمات اللعينة المرسومة بأحمر الشفاه الخاص بـ «ماي»، التي سبقت «هيدر» في سكن الغرفة، وعندما انتقلت من هنا، أورثتْ «تينا» كنزها من أحمر الشفاه.

ثلاث سنوات قضتها «تينا» في تلك الحجرة، هذا كل ما يمكن أن يقال، أطول وقت قضته في مكان واحد، لم يكن ذلك خيارها، فالحكومة هي من قررت لها ذلك. لكن حان وقت الرحيل الآن، الممرضة «هاتِي» تصيح بذلك من الرواق، بتلك النبرة القميئة الخاصة بها.

- حان وقت الإغلاق يا قوم.. فلتخرجوا جميعكم من هنا.

رفعت «تينا» حقيبتها المرتكنة إلى جانب السرير، كانت حقيبة «چو»، تركها والداه وراءهما، حين أخليا الغرفة بعد مقتله. الآن صارت لها، وكل ما تملكه داخلها.. ليس ذلك بالكثير، أذهلتها خفّتها.

عندما غادرت «تينا» الغرفة، لم تنظر وراءها، كثرة التنقل علّمتها أن إطالة النظرة الأخيرة لا تجعل الرحيل أسهل، حتى لو كنتَ تستقتل للرحيل منذ اللحظة الأولى لوصولكَ.

في الرواق، أخذت «تينا» مكانها مع المتشردين الآخرين، مصطفين كي يعدُّوا رؤوسهم مرة أخيرة. ولكن بدلًا من أن يتأكد المشرفون من رؤيةِ الجميع حاضرين، فتشوا في المكان لمعرفة إن كان هناك أحدٌ قد تخلّف. وعند الظهيرة، كانت أبواب «بلاكثورن» تغلق إلى الأبد.

كان غالبية مرضى «بلاكثورن» أخطر من أن يتم إطلاقهم

إلى العالم، وبالفعل تمت إحالتهم إلى مصحة أخرى في الولاية، «هيلدر» من بينهم، بينما صُنفت «تينا» من القلائل الذين تمّ اعتبار كفاءتهم النفسية كافية لإطلاق سراحهم، لقد قضت ما يكفي من الوقت، لتصير حرة في الذهاب الآن.

بعد عدِّ الرؤوس، نقلوها هي وآخرين إلى ردهة الاستقبال الواسعة، التي أُخليت بالفعل من أثاثها. لاحظت أن التلفاز قد خُلِــع من مكانه على الحائط، ومعظم الكراسي قد تكدست في ركن، ولكن طاولتها لم تزل في مكانها، تلك الطاولة بجوار النافذة ذات القضبان الحديدية، التي اعتادت هي و «چو» أن يجلسا معًا عليها، وهما يتأملان الغابة على الجانب الآخر من الحديقة العشبية المرقعة لـ «بلاكثورن»، يسمِّيان الأماكن التي سيذهبان إليها معًا، عند خروجهما من هنا.

سمحت «تينا» لنفسها بإلقاء نظرة أخيرة على تلك الأشياء، وعضَّها الندم في الحال، فقد جعلها ذلك تفكر في «چو»، وكانت قد أُمِرت ألّا تفكر فيه، ولكن ها هي قد فعلت. طول الوقت تفعل.. الرحيل لن يغيِّر ذلك.

لقد أُمِرت كذلك ألّا تفكر بتلك الليلة، وكل الأهوال التي جرت فيها، كل الصبايا القتيلات، ولكن كيف لها ألّا تفعل؟ كان هذا سبب إغلاق المكان.. السبب الرئيسي لتسريحها خارجه هي وغيرها.

بعض المشرفين حضروا لمشاهدتهم يغادرون، «مات كِروملي» كان هناك، ذلك اللعين ذو الشعر المموج، والذي دس يده تحت سروالها مِرات عديدة ملَّت من عدِها، حملقت فيه بينما كانت تمر، فغمزَ لها بعينه ولعقَ شفته.

في الخارج كانت السيارة الڤان التي ستقلّهم إلى محطة الحافلات متوقفة بانتظارهم. لم يأبه أحد أين سيذهبون بعد ذلك، طالما ليسوا عندهم. وبينما كانت «تينا» تصعد إلى الحافلة، ناولتها الممرضة «هاتِي» مظروفًا كبيرًا، في داخله اسم

وكالة خدمات اجتماعية، ستساعدها في العثور على وظيفة، ومعه كل تقاريرها الطبية، وكل الوصفات الطبية الضرورية، ومبلغ من المال تعرف «تينا» أنه بالكاد يكفي كنفقات لأسبوعين على قدر الكفاف. وضعت الممرضة «هاتِّي» يدها على كتف «تينا»، وابتسمت لها قائلة:

- عيشي حياةً رائعة يا «تينا»، انطلقي واصنعي من نفسك شيئًا.

عامان بعد «كوخ الصنوبر»

لا يوجد أحد في المنزل. كررت «تينا» ذلك لنفسها بينما أخذت تطرق ثانيةً على الباب الكالح بفعل الشمس. لم يكن هناك أحد في البيت، ينبغي فقط أن ترحل، لكنها لم تستطع، فقد أفلست حتى آخر دولار.

لقد حاولت «تينا» أن تُحدث طفرة في حياتها، ولفترة قصيرة أحدثت فعلًا، شكرًا للسيدة اللطيفة في الخدمات الاجتماعية، والتي قدمت لها الوظيفة، على الرغم من كونها عاملة تكييس في سوبرماركت ذي أرضية متهالكة.. وكذلك دلَّتها على مكان لتسكنه، نزُل داخلي للناس من أمثالها. لكن كل تلك المخالفات للمواصفات الصحية أصابت المتجر في مقتل، مما يعني أنها لم تستطع دفع إيجار السكن، فمساعدات البطالة بالكاد تغطي تكلفة الطعام والمواصلات.

وهكذا، ها هي الآن تعود إلى «هازلتون»، ما تزال تطرق على باب المنزل ذي الطابقين، الذي لم تره منذ أربعة أعوام، وهي تدعو ألّا يجيبها أحد.

عندما أجابها صوت ما، كادت أن تفرَّ مبتعدة، إنها تفضل الموت جوعًا على وجودها هنا. لكنها أجبرت قدميها على البقاء فوق سجادة عتبة الباب.

المرأة التي فتحت قد ازدادت بدانة عن آخر مرة رأتها فيها «تينا»، بمؤخرة أعرض من الأريكة الثنائية، وعلى جنبها حملت طفلًا، يتلوى صارخًا بوجه أحمر. كُتلة مقززة ذات حفاضة متدلية، ألقت «تينا» عليه نظرة واحدة، وغاصَ قلبها في قدميها.. طفل آخر! ذلك الشيء المسكين البائس!

- أهلاً أمي.. ها أنا عدتُ إلى البيت.

نظرت إليها والدتها، كأنها تنظر إلى شخص غريب، وزمَّت شفتيها تكاد تعض على خديها، وهي تقول:

- هذا ليس بيتكِ.. لقد تأكدتِ من هجره.

على الرغم من أن هذا بالضبط ما توقعته، إلا أن قلبها تشنَّج، فوالدتها لم تصدق أبدًا بأن «إيرل» قد اقترفَ تلك الأشياء بحقها.

- أرجوكِ يا أمي، إنني بحاجة إلى المساعدة.

تلوَّى الطفل أكثر، فتساءلت «تينا» إن كان يعلم بأمر أخته غيرِ الشقيقة.. تساءلت إن كان ذِكرها قد أتى على لسان أمها يومًا.

قطعَ صوت رجلٍ صرخاتِ الطفل، آتيًا من غرفة المعيشة. لم يكن لدى «تينا» أي فكرة عمَّن يكون..

- من الذي بالباب؟

حدَّقت أم «تينا» فيها قائلة:

- ليس شخصًا هامًا.

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook

ثلاثة أعوام بعد «كوخ الصنوبر»

كانت الحانة مكتظّة رغم كونها ليلة الثلاثاء، جميع المقاعد مشغولة، والطاولات أيضًا. لا شيء يضاهي الجعة الرخيصة لتستقطب مدمني الكحوليات عديمي الجدوى. كان الزحام يجعل «تينا» تدور من هنا إلى هناك طوال دوامها، تجمع أكوامًا من الأكواب الفارغة والأطباق الملطخة بالكاتشب في طريقها، غسلتها كلها، وغمرَ الماء يديها طويلًا، حتى تجعدت أصابعها وابيضّت. وعندما انتهى دوامها، نزعت غطاء شعرها ومريلتها، ودسّتهما في سلة الغسيل بجوار باب المطبخ الخلفي، ثم توجهت إلى البار نفسه، لتناول الشراب المجاني للعاملين، والمفترض أنه يعوّض بخل صاحب الحانة في الأجور.

كان «لايل» هو الساقي على البار تلك الليلة، والذي راقَ لـ «تينا» أكثر من الآخرين، له شاربٌ مفتول، وشفاه مغرية، وساعدان غليظان كثيفا الشعر، صبّ لها كأسها دون سؤالها عما ترغب.

- وهنا «وايلد تيركي» للآنسة «تينا».

قالها وصبَّ لنفسه كأسًا أيضًا، وتقارعا الكأسين، وقالت «تينا»:

- في صحتك.

ثم تجرّعت كأسها جرعة واحدة، وطلبت غيره، فملأ لها كأسها مجانًا مرة أخرى، رغم أنها أخبرته بأن معها ما يكفي لشرائه. ارتشفته هذه المرة متمهلة، وهي تجلس على طرف البار، تتابع الناس. كان الزحام مموهاً فوق الوصف، في عرضٍ متغير من الشعر المنفوش والكروش الكبيرة وغناء فرقة «چين بلوزوم». تعرفت «تينا» على أغلبهم. ثم رأت شخصًا عرفته حق المعرفة، انسلّ جالسًا على آخر طاولة، محاولًا التودد وجذب فتاة بشعر أحمر، بدا نفورها ورفضها واضحين.

لقد مرّت بضع سنوات، لكنه كما هو تمامًا لم يتغير، ولا حتى

طريقة حلاقته المضحكة تغيرت.

«مات كوملي».

المشرف الذي تحرَّش بها وبـ «هيلدر»، ووحده الله يعلم كم من النساء الأخريات أيضًا في «بلاكثورن».

رؤيته بعد كل تلك السنوات، أزاحت الحجب عن الذكريات السيئة المخزونة في عقلها.

الوحيد الذي أخبرتهُ كان «جو»، والذي اشتاط غضبًا، حتى إنه عرض عليها طعن كرة الشحم ذاك. وهو نفس ما جعل حاله ينتهي إلى «بلاكثورن» من الأساس، إذ إنَّ طالبًا أحمق في إحدى كلياتِ التعليم المفتوح استمر بالتنمر عليه، حتى اشتد هياج «جو» وردَّ عليه بوخزه في جنبه بسكين اللحوم.

رفضت «تينا» عرضه، الأمر الذي ندمت عليه، وتمنت الآن لو أنها قَبلته، فأمثال ذلك المؤذي «مات كوملي» يجب ألّا يفلتوا من العقاب.

ولذلك، تركت «تينا» شرابها، وتسللت إلى المطبخ، لجلب بعض اللوازم. ثم استندت إلى طاولته بابتسامة منذرة وهي تقول: «أهلًا أيها الغريب».

بعدها بعشر دقائق، كانا يقفان على رقعة من العشب وراء الحانة، وقال:

- إنكِ تحبين ذلك، أليس كذلك؟ يجعلكِ تشعرين بنجمكِ المفضل «ماتي بوي»؟

أومأت «تينا» برأسها موافقة، رغم أن لمستهُ كانت في الحقيقة مثيرة للغثيان، لكنها تحملت ذلك، كانت تعلم أنه لن يدوم طويلًا.

- كم فتاة تحرشت بها؟ هناك في «بلاكثورن»؟

- لا أدري. عشر، أو إحدى عشرة، أو اثنتي عشرة.

كان يلهث فعليًا، وصوته أجش في أذنيها. تصلّب جسد

«تينا»..

- هذه من أجلهنّ.

ضربتهُ بكوعها في بطنه، فترنّح مرتين متقهقرًا إلى الخلف، مجرجرا يده الباردة الرطبة معه. دارت حول نفسها، ولكمته، مرارًا وتكرارًا، ضربات سريعة متلاحقة وحادة في أنفه مباشرة، وسرعان ما خرَّ على ركبتيه، ممسكًا أنفه بيديه، محاولًا وقف تدفق الدم منه، وهي تلاحقه بضرباتها في بطنه، وقفصه الصدري، وبين فخذيه.

وبمجرد أن سقطَ على ظهره يتلوى من الألم، دفعت «تينا» بمنشفة أطباق - أخذتها من المطبخ- في فمه. نزعت الجينز وسرواله الداخلي عنه، ومزّقت قميصه، وكل ما هو مخيط، حتى صارت مجرد أشلاء ملتصقة بكتفيه، ثم كبَّلت يديه وكاحليه بحبل أخذته من تحت حوض المطبخ. وعندما تأكدت من قوة ربطه. سحبت القلم الأسود الذي يكتبون به عروض الحانة على السبورة البيضاء، ووضعت غطاءه بين أسنانه، وهزت القلم المفتوح وكتبت على جذعه العاري ثلاث كلمات:

(متحرِّش، مُنحرف، حُثالة)

وأخذت ملابسه معها، وغادرت.

تسع سنوات بعد «كوخ الصنوبر»

إنه شهر أكتوبر، مما يعني أنها تفكر في «چو». يخطر في بالها دائمًا عندما يحين الخريف. حتى بعد تسع سنوات، تستدعيه في عقلها لسعة البرد الخفيفة في الهواء، في سترته الصفراء بلون الرمال، متسللًا إلى القاعة. «انتظرني»، همست بها في وهن عند الباب الخلفي، محاولة اللحاق به.

كل عام تفكر أنه ربما يكون مختلفًا، وتتلاشى تلك الذكريات، ولكنها حتى الآن، ورغمًا عنها، صارَ يساورها الشك بأنها جزء دائم منها، مثل ذلك الوشم على رسغها.

في فترة استراحة التدخين وراء المطعم، فركت «تينا» الوشم بإبهامها، مستشعرة نعومة الأحرف الداكنة..

«الصامدة»

ستة أعوام منذ وشمتهُ، قبل وقت طويل من رحيلها شمالًا إلى «بانجور». كان ذلك في نوبة روحانية، بعدما كتبت كل ما أرادت فوق جسد «مات كروملي» الوردي البدين. لم تندم للحظة على ما فعلت به، بل جعلها ذلك تشعر بأنها قوية، وإن قلقتْ بعدها من أنَّ بعض الزبائن سيتجنَّبونها، ويقللون ما يتركون لها من إكرامية. وعلى العكس، أعطاها الزبائن أكثر، مشفقين عليها. شكرًا لكرمهم، لقد استطاعت شراءِ سيارة، ليست إلا المالك الثالث لفورد إسكورت، لكن لم يهمها ذلك، فالسيارة سيارة بأي حال.

داخل المطعم، بدأ زحام فترة الغداء يتزايد. تعرف «تينا» معظم الزبائن، لقد قضت هنا فترة طويلة بما يكفي لمعرفتهم ومعرفة طلباتهم. زبون واحد كان غريبًا، فتى قوطي يرتدي السواد، ظل يحدق فيها، حتى داخلتها الريبة، فذهبت إليه تتلقى طلبه، وسألته:

- هل أعرفكَ من قبل؟

نظرَ الصبي إليها وقال:

- لا، ولكنني أنا أعرفكِ.

- لا أعتقد ذلك.

قال وعيناه مثبتتان على وشم جلدها:

- أنتِ تلك الفتاة.. تلك الفتاة التي كادت أن تُقتل، في ذلك الفندق، منذ كل تلك السنوات البعيدة.

عضّت «تينا» على نواجذها، وقالت:

- لا أدري عمّا تتحدث!

خفضَ الصبي صوته هامسًا:

- سرُّك في أمان معي.. لن أخبر أحدًا أنكِ «سامنثا بويد».

عندما انتهتْ مناوبتها، توجهت مباشرة إلى المكتبة، وإلى صف الحاسوبات منتهية الصلاحية فيها، حيث جلست بين العجائز والمحرومين من الإنترنت، تبحث في «جوجل» عن اسم «سامنثا بويد».

لم يبدُ لها الشبه قوياً إلى درجة الخلط بينهما كتوءمين، فهي أنحف قليلًا من «سامنثا»، وعيونهما ليست متماثلة، لكن الشبه كان موجودًا، وربما يزيد إذا ما صبغت شعرها بدرجة سواد شعر ذلك الفتى القوطي.

عادت تفكر في «چو»، هذا أمر لا فكاك منه، البحث عن اسمه أتى في نفس الصور التي طُبعت في كل مكان بعد جريمة «كوخ الصنوبر»، وفي كل مكان ظهرت فيه صورة «چو»، كانت صورة تلك الفتاة تتبعها، «كوينسي كاربنتر»: الناجية.

حدّقت «تينا» في صورة «كوينسي»، ثم في «چو»، ثم عادت إلى «سامنثا بويد»، شبيهتها ذات الشعر الأسود، وفي أعماق عقلها دقّ شيء ما.. خطة!

تسع سنوات وأحدَ عشر شهراً بعد كوخ الصنوبر

سحبت «تينا» حقيبة الظهر من مؤخرة سيارتها، مؤكدة لنفسها أنها تستطيع أن تفعل ذلك، لقد خططت للأمر طوال عام تقريباً، درست الخلفيات، وحفظت سطوره، وصارت مستعدة.

مع حقيبة الظهر على كتفها، تقدمت على الممشى الحجري، ودقت جرس الباب. وعندما فتحت لها الشقراء ذات العينين الودودتين، عرفت «تينا» إلى من تنظر..

- «ليزا ميلنر»؟.. أنا «سامنثا».

خرجَ صوت الفتاة مصدومًا من وقع المفاجأة عليها..

- «سامنثا بويد»!

أومأت «تينا» برأسها وهي تقول:

- أفضِّل مناداتي «سام».

الفصل 38

استيقظتُ، إلا عيناي لم تدرِكا ذلك بعد. جفناي يرفضان أن يُفتحا، رغم شدة ما ألتفتُ بوجهي. حاولت رفع يديَّ لأفتحهما بإصبعي. فلم أقدر. يدي عاجزة، مستقرة في حجري.

قالت «تينا»:

- أعلم أنكِ تسمعينني، أيمكنكِ الكلام؟

«نعم» لم تخرج متأهلة لتُسمّى حتى همسة.. «ماذا».. هذا كل ما استطعت. أفكاري تُمالني وهنًا، مثل حلازين تحرث طينًا.

قالت تينا»

- سيزول.

رويداً رويداً، بدأ بالفعل الإحساس يتسلل عائدًا إلى جسدي، بما يكفي لأن أعلم أني جالسة، وشيءٌ مائلٌ يربط صدري. حزام الأمان. أنا في سيارة!.. تجلس إلى جانبي «تينا». أشعر بوجودها، أسمع صرير الجلد من المقود في يدها، رغم أن السيارة لا تتحرك والمحرك ساكن. نحن متوقفتان.

أحاول التحرك، أتلوَّى تحت الحزام.

- «لماذا..؟»

ردَّت «تينا»:

- استرخي. حافظي على طاقتك، ستحتاجينها قريبًا.

ظللتُ أتأوَّد في مقعدي. مددتُ يدي إلى الباب. أصابعي الثقيلة لا تدرك إلا الهواء.

قالت:

- كان في مقدوركِ أن تجعلي هذا سهلًا يا «كوين. صدقيني، أردتُه أن يكون سهلًا.. أردته أن ينتهي في يوم، أو يومين على الأكثر. أظهر لكِ، أتودد، فتخبرينني بكل ما تذكرين عن «كوخ الصنوبر»، مرور الكرام.

وصلتِ أصابعي أخيرًا إلى مقبض الباب، وبطريقة ما استطعتُ أن أجذبه. انفتح البابِ حتى أقصى اتساعٍ له، ليلفح وجهي نسيم الغابة الخريفي. ملتُ إليه، أحاول أن أنزل نفسي من الباب، لكن الحزام يمنعني. عقلي المشوش أنساني إياه، وكأنه ليس هاماً. حتى لو تخلصت من الحزام ومن السيارة فلا مهرب، ليس ومعظم جسدي متيبس كالحجارة.

- حسبكِ..

جذبتني «تينا» لتُعيدني إلى المقعد. لما مدت يدها عبر حجري لتغلقِ الباب، هممتُ بلكم ذراعها، لكن الضربات وصلت تربيتاً. قالت:

- لا نحتاج أن نصعّب الأمر يا عزيزتي. أحتاج الحقيقة فقط. ماذا تذكرين عن « كوخ الصنوبر»؟

لساني بدأ يحل، صرتُ قادرة على النطق بجملة..

- لا شيء.. لا أذكر أي شيء.

- ما زلتِ تكررين ذلك. لكني أعجز عن تصديقكِ. «ليزا» تذكرت كل شيء.. كان في كتابها. «سام» كذلكَ، أخبرت تلك المحاورة كل شيء.

عقلي ما زال يسترجع قواه، ومن ورائه لساني:

- كم منَ الوقت تظاهرتِ أنكِ هي؟

- ليس زماناً طويلًا، شهر أو نحو ذلك. ما أن أدركت إمكانية الإفلات.

- لماذا؟

- لأنني أحتاج أن أعرف كم تعرفين «أنتِ» يا « كوين». بعد كل هذا الوقت، كان يجب أن أعرف، ولكن كنتُ أحتاج المساعدة. ولأني عرفتُ أنكما أنتِ و«ليزا» لم تكونا لتعيراني أدنى الاهتمام، تظاهرت أني «سام». علمتُ أنها مجازفة وقد لا تنجح، ولكني علمتُ أيضاً أنها ستجذب انتباهكما، وخاصة «ليزا» التي

فعلت كل ما بوسعها لتساعدني حتى أعرف أكثر عن «كوخ الصنوبر». أخبرتُها أن هذا سيساعدك. قلتُ إنَّ حملكِ على التذكر سيعين عملية التشافي. اقتنعتْ في بادئ الأمر، قبل أن تخالطها الريبة.

قلت:

- ولكنكِ استأنفتِ جهودك. اتصلتِ بأمي.

لم يظهر في صوتها مفاجأة لمعرفتي ذلك..

- نعم، ما إن أدركت أن «ليزا» لن تؤدي الغرض. بعدها طردتني.

- لأنها أدركت من أنتِ؟

كل هذا الحوار أمدَّني بالقوة.. الطاقة تخالط جسدي. يداي أصبحتا أخف ثقلاً، وكذلك رجلاي. يمكنني الكلام بغير طول تفكير.

- وجدتْ رخصة القيادة خاصتي. فتّشَت في أشيائي قليلًا.

- ألهذا قتلتِها؟

ضربتْ «تينا» المقود بشدة هزت السيارة..

- لم أقتلها! «كوينسي»!.. أحببتُها، يا الله! لقد ابتأستُ لما علمت الحقيقة

- لكنكِ جئتني بأي حال.

- كدتُ ألا أفعل. لم تبدُ كأفضل الأفكار..

انفجرتْ منها ضحكة، غير لائقة، وفي السخرية غارقة..

- اتَّضح أني أصبت.

- عمَّ تبحثين؟

- المعلومات.

- عن؟

- «چو هانن»

نزلَ الاسم صاعقةً أحرقت غفوتي ونثرتها عني. أجبرتُ جفنيَّ على أن يفتحا، ليداعب ضوء من اللون الزهري والبرتقالي رموشي. الغروب. شريط من النور الغارب عبر لوحة القيادة، اجتمع وانعكس على شيء وضعته «تينا» هناك.. سكين، من مطبخي!

- ها هيَ، حاولي أخذها.. (حذَّرتني..) أضمنُ لك أنني أسرع.

نقلتُ بصري عن السكين إلى الزجاج أمامها، إنه متسخٌ بلطخات المسّاحة وببقعٍ تركتها أوراق الشجر المبتلة. وراء الوسخ أرى أشجارًا وطريقًا من الحصى يؤدي إلى كوخ متهالك، نوافذه المشقوقة تحيط بابًا أغرقهُ نبات حزّاز.

- لا! أغمضتُ عينيّ معتصرة أجفاني ثانية، وقلت:

- لا، لا، لا!

لما زلتُ أكررها، راجيةً أن يكذّب التكرار الحقيقة، يُحيلها كابوسًا أنهض منه قريبًا. لكنه ليس حلمًا، بل حقيقة. علمتُها ما أن فتحت عيني مرة أخرى. أعادتني «تينا» إلى «كوخ الصنوبر»!

الفصل 39

لم يُحسن الزمان إلى هذا المكان المتردي تحت أثقال الانحلال والإهمال. مظهره أبعد ما يكون عن البناء وأقرب إلى شيء قذر برزَ في أرض الغابة، فطر، سُم. الأوراق المتساقطة تغطي السقف، وتحيط بالمدخنة الحجرية، التي تبرز كسِنٍّ شائك متعفن. استحالَ طلاء الواجهة الخارجية إلى رمادي باهت، وخرقها الحزاز وبراعم نباتات هالكة تتراءى بين زوايا الخشب. رغم أن اللافتة ما زالت معلقة فوق الباب، أحد المسامير أسقطه الصدأ ومالت عنه الكلمات.

- لن أدخل إلى هناك!

طغت الهستيريا على كل حروف كلماتي، التي خرجت فَزعة كأنها الصرير..

- لا يمكنكِ دفعي إلى الدخولّ!

- ليس عليك ذلك، فقط أخبريني الحقيقة

صوتها أهدأ كثيرًا مني.

- أخبرتكِ ما أعرفه بالفعل!

التفتت إليَّ ومرفقُها مستند إلى المقود..

- «كوين»، لا أحد يصدق أنكِ لا تذكرين شيئًا. قرأت ذلك المحضر، الضباط يظنون أنك كاذبة

قلت:

- «كووب» يصدقني.

- فقط لأنه أرادَ مضاجعتك.

- أرجوك، صدقيني لا أذكر شيئًا..

توسلتُ إليها..

- أقسم بالرب أنني لا أذكر شيئًا.

هزّت «تينا» رأسها وتنهدت. فتحت بابها قائلة:

- إذًا يبدو أننا سندخل.

بدأ جسدي يرتعش.. الأدريبالين يمزّعه. رأيتُ السكين على لوحة القيادة فوثبتُ أمسكها. «تينا» كذلك.. استولت عليها من يدي الممدودة.

كانت محقة، هي أسرع.

اتجهتُ إلى المفاتيح بعدها، أستهدفُ الميدالية البلاستيكية. مرة أخرى، تسبقني «تينا» إليها. تنزع المفتاح من مدخله. أخذت السكين والمفاتيح وخرجت.

قالت:

- سأعود في غضون ثوانٍ. لا تحاولي الجري. لا مهربَ لك.

اتجهت إلى الكوخ، تاركة إيَّاي في السيارة، أجاهد لآتي بخطة. دفعتُ إبهامي في المشبك على خصري، لينفك حزام المقعد عني مرتدا، ثم بحثت عن هاتفي داخل جيوبي، فلم أجده.

اختفى.

أخذته «تينا».

لكن معي آخر. ذاكرتي تترنح في عقلي المخدَّر. دفعتُ يدي تحت قميصي، وأصابعي تتحسس الهاتف المسروق، ما زال محفوظًا تحت سوار حمالة الصدر.

من الزجاج الأمامي، أشاهد «تينا» عند باب المقصورة الأمامي، واقفة تحت لافتة «كوخ الصنوبر» الماثلة مباشرة. تحاول الدخول برجّ مقبض الباب. حين لم يفلح ذلك، ألقت بثقل جسدها على الباب تصدمه بكتفها.

فتحتُ الهاتف. أحبس أنفاسي وأنا أعاين مستوى البطارية، أحمر. كذلك إشارة الشبكة بالكاد موجودة. شَرطة واحدة تظهر وتنقطع تباعًا. قدّرت أن الشحن والإشارة يكفيان مكالمة واحدة.

أو هكذا أرجو.

لكن الاتصال بالنجدة ليس خيارًا. «تينا» ستسمعني أتحدث. ستخطف مني الهاتف، أو أسوأ. لا يمكنني المخاطرة، حتى وإن ظننت أن هذا الأسوأ قادمٌ قطعًا وإن تأخر.

إذن تبقّى لي الكتابة، وبقيَ لي «كووب». ولأني لا أستخدم هاتفي، أعلم أنه لن يتعرف الرقم. قد يكون هذا في صالحي، مع اعتبار ما جرى بالأمس.

نظرتُ إلى الكوخ مجددًا، لأجد «تينا» ما زالت تدفع الباب. الآن فرصتي الوحيدة. أرسلت إلى «كووب» سريعًا، مستدعية رقمه من ذاكرتي المشوشة، وأصابعي تنزلق على شاشة الهاتف وشيكة النفاد.

أنا «كوين».. «سام» أخذتني رهينة عند «كوخ الصنوبر».. أنجدني!

صفَّر الهاتف لما ضغطتُ الإرسال، يؤكد أن الرسالة في طريقها. ثم تحولت الشاشة سوادًا، وقد أفرغت البطارية حمولها. دفعته في جيبي.

عند الكوخ، نجحت «تينا» في كسر الباب، انفتح كفمٍ مظلمٍ متقيّح متثائب، مستعد أن يلتقمني. المصابيح الأمامية موجهة إليه مباشرة، وأشعتها تشق طريقها في الغسق المسرع إلى داخل الكوخ، حيث ظهرت بقعة من الأرضية الغبراء تشع في الوهج.

تلك اللمحة داخل الكوخ ضاعفت الرهبة المجتمعة في رئتيَّ، شعرتُ كأن زجاجًا يخرق النسيج الإسفنجي، يقطع مرور الهواء. حين سارت «تينا» عائدة إلى السيارة، لم يكن لي خيار إلا الجري.

إلا أني أعجز عنه.

الوقوف يختلف تمامًا عن الجلوس. الآن وقد خرجتُ من السيارة ووقفت على قدمي، استبدّ بيَ الخدر ثانية، وأخذ يخل

بتوازني. ترنحتُ، وهيأتِ نفسي للسقوط الوشيك. لكن «تينا» هنا، تقيم جسدي. طوّحتْ بالسكين تحوم بها حول عنقي، ليخدش النصل بشرتي. قالت:

- اعذريني يا فتاتي، لا مخرج لكِ من هذا.

ساقتني «تينا» إلى الكوخ وأنا أتخبَّط في قبضتها. كعباي يشقان طريقهما غائصان في الحصى، ولا يكادان يخطوان. فقط محاولتان للمقاومة هما كل ما أبديته من جهد. إحدى ذراعيَّ مقيدة تحت ذراعها حاملة السكين، والتي لا أراها ولكن قطعًا أحسُّها. ذقني تحتكّ بالمقبض كلما صرخت، وما أكثر ما صرخت!

وحين لا أصرخ، أحاولُ ثني «تينا» عن أيٍّ مما كانت تنوي فعله.

- لا يمكنكِ فعل ذلك بي.

أنفثُ الكلمات ولعابي يتطاير..

- أنتِ مثلي، ناجية.

لم تُجب «تينا». فقط استمرت تجرُّني إلى باب الكوخ، وقد أصبح على بعد عشرة أذرع.

- زوج أمكِ كان يؤذيك، أصحيح؟ ألهذا قتلتهِ؟

قالت «تينا»:

- شيءٌ قريب من ذلك، صحيح.

لانتْ قبضتها بمقدار شعرة، مما يكفي لأعلم أني أؤثر بها. قلتُ:

- أرسلوكِ إلى بلاكثورن، رغم أنكِ لم تكوني مجنونة. كنتِ تدافعين عن نفسك، منه. وهذا ما تحاولينه منذ ذلك الحين، حماية النساء، إيذاء الرجال الذين يؤذونهنّ.

- اخرسي..

لم أفعل. لا يمكنني.. أكملت:

- وفي بلاكثورن، قابلته.

لم أعد أتكلم عن «إيرل بتاش». «تينا» علمتْ ذلك، ولهذا قالت:

- له اسم، يا «كوينسي».

- أكنتما مقرَّبين؟ هل كان حبيبكِ؟

قالت «تينا»:

- كان صديقي. صديقي الأوحد، على الإطلاق.

أوقفَتْ جرَّها العنيف إلى الكوخ، وأحكمت قبضتها عليّ، سن السكين يضغط اللحم تحت ذقني. أود الابتلاع لكن لا أقدر، خشية أن يجزّ النصل الجلد.

أمرتني:

- قولي اسمه. يجب أن تقوليه. «كوينسي».

- لا يمكنني، أرجوكِ لا تُجبريني.

- يمكنك.. وستقولينه.

- أرجوك!

كنتُ قد اختنقت بالكلمة، بالكاد تُسمع..

- أرجوكِ، لا!

- قولي اسمه اللعين.

ابتلعتُ ريقي رغمًا عني، ما دفعَ عنقي أكثر إلى حد السكين. وخزتني كأنها محرقة، ساخنة ونابضة. أرقتُ الدموع من عيني.

«جو هانن».

اندفعَ القيء مع خروج الكلمات من فمي. أبقتْ «تينا» السكين مكانها بينما أُفرغ معدتي، قهوة وصودا العنب وبقايا حبوب لم تزحف بعدُ في طريقها إلى جوفي.

عندما انتهيت، لم أشعر بتحسن. ليس والسكين على رقبتي.

ليس ومسافة خمسة أذرع تقودني إلى «كوخ الصنوبر». ما زلتُ أشعر بالإعياء والدوار. وأكثر من أي شيء، أشعر أني منهكة. جسدي ضعيف إلى حد الشلل.

واصلتْ «تينا» جرّي إلى الكوخ، وأنا مُذعنة لم تبقَ عندي مقاومة. كل ما بوسعي فعلهُ هو أن أبكي، وخيوط القيء تتدلى من ذقني.

سألتُها:

- لماذا؟

لكني بالفعل أعلم لماذا. كانت هنا تلك الليلة، معه. أعانته على قتل «جينيل» والآخرين كلهم. كما ساعدته على قتل أولئك المخيِّمين في الغابة. وكذلك قتلُها «ليزا» فيما بعد، وإن ادَّعت النقيض.

ردَّت «تينا»:

- لأني أحتاج أن أعرف القدر الذي تذكرين.

- ولكن لماذا؟

لأنه سيساعدها أن تقرر إن كانت تحتاج إلى قتلي أيضًا. تمامًا مثل «ليزا».

كما عند الباب الآن، هذا الفم الخبيث. نفحة باردة تفحّ من الداخل، خافتة مُرجفة. بدأتُ أصرخ، صرخات ذعر تنفجر من حلقي المطلي بحمضي المعدي.

- لا!.. أرجوكِ لا!

قبضتُ على إطار الباب بيدي الطليقة، أظافري تنشب في الخشب. دفعة واحدة من «تينا» وانكسرَ الخشب في قبضتي. طرحتُ الشظايا وواصلت الصراخ.

فتحَ لي «كوخ الصنوبر» ذراعيه مُرحبًا.

الفصل 40

ما إن صرت في الداخل، حتى عقدَ الصمت لساني.

لا أريد لكوخ الصنوبر أن يعلم أني هنا.

أفلتتني «تينا»، وهي تدفعني إلى الداخل. تعثرتُ وسط الردهة، ورحتُ أنزلق عبر الأرضية. في الداخل ظلام دامس، النوافذ الوسخة تصد أكثر الضوء الآتي من الخارج. الباب المفتوح يجعل الوهج الأصفر لمصابيح السيارة تنفذ– مستطيل منير يمتد على الأرضية. في وسطه ظلّ «تينا»، عاقدة ذراعيها، تمنعني عن الهروب.

قالت:

- أتذكرتِ أي شيء؟

نظرتُ حولي، بفضول يخالطه الرعب. بقع الرطوبة تظلل الحائط، أو ربما هي دماء. حاولتُ تجنب النظر إليها. هناك المزيد من البقع على السقف، بأشكال دائرية ناجمة عن أضرار الماء. الأعشاش وأنسجة العنكبوت تغطي العوارض الخشبية. لطخات من ذَرْق الطيور تغطي بعض أجزاء الأرضية. وفأر ميت في الزاوية، تحلَّل إلى العظام.

المكان كله أُفرِغ، كل الأثاث الريفي تمَّ شحنه ولعله أُحرق. مما جعل الغرفة تبدو أوسع، عدا المدفئة، والتي بدت أصغر مما أذكر. رؤيتها استحضرت صورة «كريج» و«رودني» راكعين أمامها، صبيان يتظاهران بالرجولة، يعبثان بالحطب والكبريت.

ذكريات أخرى تنتابني في ومضات بارقة قصيرة. كأنما أبدّل قنوات التلفاز، أقف ثانية عند كل واحدة، ألتقط ومضات من أفلام أعلم أني شاهدتها.

هناك «جينيل»، ترقص حافية وسط الغرفة، تغني مع الأغنية التي أحبتّها كلتانا إلى أن كرهها الجميع.

هناك «بيتز» و«إيمي»، تُعدّان الدجاج وهما تتمازحتان

وتضحكان.

ها هو.. يحدق بي عبر الغرفة. العدسات المغبرة تغطي عينيه، كما لو أنه يعلم ما سنفعله لاحقًا.

- لا أذكر.

تردَّد صوتي في الغرفة الفارغة..

- لا شيء!

تركت «تينا» المدخل، وانتزعتني من مجلسي..

- لنأخذ جولة في المكان.

سحبتني إلى المطبخِ المفتوح، لا أكاد أعرفه على حالته هذه. الفرن قد أزيل، تاركًا مربعا من الأوراق والتراب وخيوطًا من الأوساخ. اختفت أيضًا أبواب الخزائن تاركة أرففها المكشوفة الخاوية لتلوثها مخلفات الفئران. لكن المغسلة ما زالت هناك. خرقَها الصدأ في أربعة مواضع. اتخذتُ حرفها لأرتكز عليه. قدماي ما زالتا مزعزعتين. بالكاد أحس بهما. وكأني أطفو.

قالت تينا:

- لا شيء؟

- لا.

إذن إلى القاعة، «تينا» تقودني، قبضتها القاسية تقرص لحم عضدي. هي تخطو وأنا أطفو فوق الأرض.

توقفنا لما وصلنا إلى غرفة سرير الطابقين؛ غرفة «بيتز». كانت خاوية، إلا من خرقة رمادية ملفوفة وسط الأرضية. لا ذكرى لهذه الغرفة عندي، لم تطأها قدمي قبل الليلة.

فلما لم أنبس ببنت شفه، سحبتني «تينا» إلى الغرفة التي كان يُفترض أن أشاركها مع«جينيل»، كما كنا في الكلية. أحد السريرين بقي، نُزعت عنه حشيته. قد أُبعدَ عن الحائط، ولم يبقَ منه إلا هيكل مرقط بالصدأ.

هذه الغرفة تثير الذكريات.. أذكر حديثي مع «جينيل» عن الجنس ونحن نجرّب الثياب. كانت الأمور لتصير إلى غير ما صارت إليه لو أني لم أجرّب الثوب الأبيض الذي أعارتني إياه، لو أنني أصررتُ على قضاء الليلة هنا، وليس في الغرفة آخر الردهة. حدجتني «تينا» بنظرة..

- أي شيء؟

- لا.

بدأتُ بالبكاء.. مجيئي إلى هنا مرة أخرى، إحياء التجربة، كان فوق طاقتي.

لم تُضع «تينا» وقتًا لتسحبني إلى الغرفة عبر القاعة.. المرتبة المائية قد اختفت بالطبع، ومعها كل شيء آخر. التفصيلة الوحيدة الملحوظة في الغرفة هي بقعة داكنة مليئة بالعفن فوق الأرضية، تمتد إلى الباب تحت أقدامنا، ومن ورائه عبر القاعة، وإلى آخر غرفة نوم.

غرفتي!

ترددتُ عند المدخل.. نافرة من الدخول.. لا أريد أن أُذكَّر بما فعلته فيها.. معه.. وما فعلته بعده. أسير كالمجنونة بين الأشجار، أقبض على تلك السكين. تاركة إياها هناك ما أن عدتُ إلى رشدي. فعليًا، تركتها في يده.

كل هذا خطئي.

وإن كان هو و«تينا» مَن قتلاهم، فالعبء يقع عليّ.

ومع أن الفرصة كانت أمامه، إلا أنه لم يقتلني. حرص على أن أحيا، بما وهبني من جروح سطحية جعلت «كول» و«فريمونت» يرتابان بي. نجوتُ بسبب ما فعله بي، ما تركته يفعله.

ممارستي للحب معه هي الشيء الوحيد الذي أنقذَ حياتي.

أعرفُ ذلك الآن.

عرفتُ ذلك من البداية.

لاحظت «تينا» أثرًا في وجهي، انقباضًا، إجفالًا..

- أتذكرتِ شيئًا جديدًا؟

- لا

كذبة. هناك شيئ جديد. شريحة من الذاكرة لم تكن موجودة من قبل.

أنا في هذه الغرفة، على الأرض. الماء يتسرب من تحت الباب المغلق، ينساب إليّ، ثم من حولي. يبلل شعري، وكتفي، وكل جسدي المتشنج من الألم والخوف. شخص يجلس إلى جانبي. أنين دموعه يتخلل أنفاسه المقطعة.

«ستكونين بخير. كلانا سنكون بخير».

على الجانب الآخر من الباب، صدرَ هسيس مرعب. تخطو قدم في الماء. قبالة الغرفة مباشرة.

ذكريات أخرى، ومضات خاطفة. طرقات على الباب، المقبض يهتز، ثم فتح عنيف. صوت الباب يصدم الحائط مدفوعًا إليه. وميض القمر على السكين اللامع بالحُمرة.

أصرخ..

ثم.

الآن.

اجتمعت الصرختان حتى لم أتبيَّن الماضية من الحاضرة. حين أمسكني أحدهم، بدأت الصياح والرفس والمقاومة. لا أعلم من! ولا متى! ولا ما يحدث لي!

«كوينسي».. صوت «تينا» قطع التداعيات..

- «كوينسي»، ماذا يحدث؟

حدقتُ فيها، راسخة في الحاضر. السكين في يدها تذكرني بأنه لا يمكنني أن أنكر.

أجبتُ:

- بدأتُ أتذكرا

الفصل 41

التفاصيل

أخيرًا

في ذاكرتي، أتذبذب على حافة الوعي، عيناي تفتحان وتغمضان، وكأنما أنا في حجرة مغلقة وشخص ما يعبث بالإضاءة. تمددتُ على ظهري، عسى أن تقل حدة الألم في طعنة كتفي، ولكنها لم تتحسن. النجوم تومض وتحوم حول رأسي، وأسمع الآخرين على الشرفة، يصرخون ويتدافعون للدخول.

«ماذا عن «كوين»؟»

قد تكون «إيمي»، صوتها حزين.

«ماذا عنها؟»

«إنها ميتة»،

أعرف ذلك الصوت، إنه بكل تأكيد «كريج». صُفق الباب الخلفي ليغلق بإحكام، أسمع تكات القفل، أريد أن أنظر، لكنني عاجزة، الألم يمزق كتفي عندما أحاولُ الالتفات برأسي، ألمُ مضنٍ كأنَّ في كتفي نارًا، والدم.. الكثير جدًا من الدم، يتدفق حينما يضرب قلبي المذعور بقوة.

كان هناك، ما زال يعبر العشبِ المتجمد نحو الكوخ، والعشب يخشخش تحت خطواته. تغيّر الصوت من خشخشة العشب إلى صرير الخشب حين وصل إلى الشرفة. داخل «كوخ الصنوبر» صرخَ شخص بجوار النافذة، بصوت مكتوم مع ارتداداته على الزجاج، ثم تهشمت النافذة.

سمعتُ نقرة أخرى، صرير الباب، صرخات من حناجر عدة، بينما يتجه أصحابها إلى عمق الكوخ، وتتلاشى.. عدا صرخة واحدة استمرت، «إيمي» مجددًا، كانت تصرخ وتصرخ عند عتبة الباب الذي صار الآن مفتوحًا، حتى بتِرت إحدى صرخاتها ولم تكتمل، وتبعتها حشرجة ضعيفة.

- وسكنت «إيمي».

- أئنُّ، وأغمضُ عيني.

وتنطفئ الأنوار مرة أخرى.

أفقتُ على يدين تمسكان ذراعَيَّ، وتحاولان حملي على الوقوف، استعرتْ نيران الألم في كتفي مع الحركة، فصرخت ألمًا وكُتمت صرختي مسرعةً إلى الصمت.

- صمتًا

همسَ شخصٌ ما، ففتحتُ عيني، لأرى «بيتز» عند أحد جانبيّ وعلى الآخر «رودني»، ويدا «بيتز» مصبوغتان بالدماء، كل ما تلمسه تترك عليه بصمة حمراء، إنني مُختفية بوجودهما، و«رودني» كذلك ملطخ بالدمٍ الذي سالَ على وجهه وكتفه، وثمة رباط متشرِب بالدم قد لفّ ساعده. قال هامسًا:

- هيا يا «كوين»، سنخرج من هنا

ألقيا ذراعيَّ على كتفيهما، غيرِ مباليَين بقدر الألم الذي يدفعني إلى الصراخ، ولكنني ابتلعتُ صرختي.

وبينما كنا نهم بالرحيل، لمحت «جينيل»، ملقاة حيث تركتها، مسجاة على جانبها، برأس متدل، وبعينين مفتوحتين على آخرهما، وأحد ذراعيها ممتد إلى الأمام فوق العشب المدمّى، كأنها تتوسل إليَّ كي أبقى.

لكننا غادرنا بدونها، عبَر ثلاثتنا إلى الكوخ. قامت «بيتز» مع «رودني» بكل الجهد، أما أنا فكنت محمولة معهما فحسب، واهنة بما نزفتُ من دماء، وأهذي من شدة الألم. كنت عاجزة تمامًا، حتى إنَّ «رودني» اضطرَّ إلى حملي على درجات الشرفة، والاثنان ماضيان في التهامس فوقي، بينما ينهضان ظهري من جديد.

هل هو هنا؟

أنا لا أراه..

أين ذهب؟

لا أعرف

هدأنا تمامًا وأنصتنا، فأنصتُّ أيضًا، لما سمعت غير ضوضاء الليل المعتادة، صراصير آخر الموسم، وطقطقة الأفرع الجافة، وهمس الأشباح من خلال أوراق الشجر المتساقطة، وعدا ذلك، فلا شيء إلا السكون.

ثم تحركنا ثانية، هذه المرة أسرع، نسحق شظايا الزجاج بالقرب من الباب، قبل تعثرنا عند الدخول إلى الكوخ. وراء الباب مباشرة كانت «إيمي»، منطرحة على الحائط، كأنها دمية بالية تخلّص منها أصحابها.. كانت حقًا تشبه الدمية، عيناها خاويتان كالأزرار البلاستيكية، وذراعاها مرتخيان بجانبها. همس «رودني» بصوت متهدج:

- لا تنظري.. هذا ليس حقيقيًا، لا شيء من هذا حقيقي.

تمنيتُ لو أصدقه، في الواقع كدتُ أفعل، لكننا خطونا في بركة من الدم اللزج، وانزلقت فيها، فأفلتت مني صرخة كتمَها «رودني» واضعاً يده على فمي، وهو يهز رأسه، ثم تحركنا ثانيةً إلى غرفة المعيشة، نحو النافذة بجوار الباب الأمامي. همستُ متسائلة:

- إلى أين نحن ذاهبون؟

همسَ «رودني»:

- بعيدًا قدر الإمكان عن هنا.

وقفنا ثلاثتنا عندَ النافذة نترقب.. ماذا؟ لا أدري.. حتى عرفتُ فجأة!

«كريج» كان في الخارج، يجري محنيَّ الجسد نحو سيارات الدفع الرباعي التي أحضرتنا إلى هنا، تحديدًا إلى السيارة التي تمَّ تخزين جميع هواتفنا المحمولة فيها. فتحَ «كريج» بابها ببطء، بيدين مرتجفتين، لكنه نكصَ على عقبيه حين أضاء النور الداخلي.

عادَ يدخلها، ويدير المحرك، وهنا صاحَ «رودني»:

- الآن!

فتحت «بيتز» الباب الأمامي بقوة، واندفعنا عبره، ليغمرنا ضوء المصابيح الأمامية، راميًا ظلالنا الضخمة على الجدار الأمامي للكوخ. التفتُّ ناظرة إليها، ثلاثة ظلال عملاقة طويلة خطرة.. انضمَّ إليها ظل رابع.. يحمل سكينًا يبلغ طوله على الحائط ثلاثة أقدام.

فجأة، ارتجَّ جسدي وهو يُجر نحو «كوخِ الصنوبر»، هناك المزيد من الصراخ.. من «بيتز».. ربما منِّي أيضًا.

داخل الكوخ، صفقَ «رودني» الباب بقوة، وأزاح المقعد المهترئ الضخم وراءه، بينما أسرعنا أنا و «بيتز» نحو النافذة، حيث مرت علينا أنوار الكشافات الأمامية لسيارة الدفع الرباعي، بينما ينعطف بها «كريج» في الممرِّ، فصاحت «بيتز»:

- إنه ذاهب! لقد غادرَ من دوننا!

لم تبتعد السيارة أكثر من عشرة أقدام، قبل أن تصطدم بجذع شجرة قيقب على حافة الطريق، فاهتزت الأوراق السائبة هاطلة على الزجاج الأمامي، وتصاعدَ الدخان من مقدمتها المنبعجة، قبل أن يقرقر المحرك ويعطب.

داخل السيارة، كان «كريج» منكفئًا على عجلة القيادة، وذقنه يضغط بوق النفير، مطلقًا ضوضاء اخترقت سكون الليل بنغمة رتيبة.

وبلمح البصر كان الظل الممسك بالسكين عند السيارة، يفتح بابها بقوة، ويجر «كريج» من المقعد الأمامي، فتوقفَ النفير، وعمَّ الصمت.

وبالرغم من اصطدامه بعجلة القيادة، فلم يزل «كريج» في وعيه، لكن بينما هو ينبطح على ركبتيه بجوار السيارة، لم يصدر أدنى صوت، بل كل ما كان يفعله هو التحديق أمامه بعينين تنطقان بالهلع.

التفتُ بعيدًا عن النافذة، وقد أصابني الدوار فجأة، فانزلقَ ظهري على الحائط، أشعر بأن الأرض ترتفع لتتلقّفني في منتصف طريقي للسقوط. وقبل أن يغرق كل شيء في الظلام ثانية، صرخ « كريج » أخيرًا.

فيما بعد..

لا أدري أيّ قدر من الوقت..

أنا على أرضية إحدى غرف النوم.. غرفتي.. تعرفتُ على اللحاف المعلق على الحائط. كان الماء يتسلل من تحت الباب، لا أعرف من أين يأتي، هل انفجرت ماسورة؟ أهو فيضان؟ كل ما أعرفه أنني مبتلة وأنزف، ومرعوبة أكثر مما ارتعبتُ طوال حياتي. عندما أطلقتُ أنيني قال «رودني»:

- ستكونين بخير.. كلانا سيصير بخير.

زحفَ ليجلس بجانبي، وقد ألقى على كتفيه أحد الألحفة، وهناك دماء على شعره. سألتهُ هامسة:

- أين «بيتز»؟

لم يجبني «رودني».

خارج الغرفة، كان كل شيء هادئًا.. حتى صراصير الليل.. حتى أوراق الأشجار.. لكن كان هناك صوت يقترب خلف الباب.. خطوات.

كانت بطيئة حذرة، تخوض في الماء في الردهة، كل خطوة تذكرني بممسحة أمي، وهي تنزلق على أرض المطبخ المبتلة.

بقبقة

بقبقة

توقفت الخطوات خلف الباب تمامًا، فنظرتْ إلى «رودني» بعينين حملتا سؤالًا لا يجرؤ لساني على نطقه: هل أقفلتَ الباب بالمفتاح؟

أومأ برأسه إيجابًا. واهتزَّ مقبض الباب.

ثم ضربَ شيء ما الباب بقوة، فقوّسه وتفسَّخ الخشب منه.. انتفضتُ هلعًا وقفزت واقفة على قدمي، بينما كان الباب ينفتح مهشَّمًا بضربة أخيرة، ورأيتُ السكين يبرق في الظلام..

صرخت..

أغمضتُ عينيّ..

اندفعَ السكين في أحشائي، شعرتُهُ بداخلي، طعنة حديدية نافذة. شهقتُ بنفس متقطع، من بين أسناني التي تكزّ من الألم، والسكين يُنزع، وأنا أرتمي أرضًا.

- «كوينسي»!.. لا!

صاحَ «رودني» يدفعني، ويلقي بجسده أمامي. لم أفتح عينيَّ، عجزت عن ذلك واختفى النور ليعم الظلام من حولي. كل ما كان بوسعي فعلهُ هو الإنصاتِ إلى حركة الشجار التي خرجت من الغرفة إلى الردهة. سمعتُ «رودني» يسبّ ويتعارك ويحشرج، ثم سمعتُ صرخة حبيسة.

ثم لا شيء...

وفيما بعد للمرة الثانية..

أفقتُ في الغرفة المبتلة؛ غرفتي.

أسدلَ الصمت ستائره على الكوخ، حتى على الصراصير والأشجار، كل شيء إمَّا مات أو هرب.. كل شيء ما عداي!

اعتدلتُ جالسة، والألم في بطني يغطي على آلام كتفي، وكلاهما ما يزال ينزف، ثوبي صار منقوعًا في الدم والمياه.. في الدم أكثر، فهو أكثر لزوجة.

لا أدري كيف استطعتُ أن أقف على قدمي، ولا كيف حملتني تلكما الساقان المهترئتان عبر البابِ المفتوح.. ولا كيف ظللت صامدة في الردهة، حتى بعدما لمحتُ «بيتز» ميتة في الحجرة الأخرى، محاطة بالسائل الذي تسرب من المرتبة المائية

التي مزّقتها السكين. «رودني» هو الآخر هناك في نهاية الردهة، تجنبتُ النظر إليه عندما خطوتُ فوق جثته، وهمستُ لنفسي:

- كل هذا ليس حقيقياً، لا شيء على الإطلاق من كل هذا حقيقي.

لم أرَ.. «هو»!.. حتى قطعتُ الطريق إلى غرفة المعيشة، ووقفت إلى جوار المدفأة، أرتعش من البرد، ومن فقدان دمي. أما «هو» فكان يحبو على أربعة أرجل بجوار «إيمي»، مثل كلب يتشمم جثة، متسائلًا إن كانت تصلح لوجبته.

أخرجَ أصواتًا عجيبة من حلقه، أنينًا خافتًا، إنَّ الكلب متألم.

ثم إنَّ «هو» لاحظَ وجودي، فأدار رأسه ليواجهني. وعلى الأرض بجواره كانت السكين سوداء وعليها دم طازج، قبض عليها ورفعها فوق رأسه.

- كنتُ مغادرًا، لكنني سمعتُ صراخًا، فعدتُ، ورأيت....

قالها وهو يتنفس بصعوبة بصوت متهدِّج.

لم أسمع الباقي لأنني أطلقتُ ساقيَّ للرياح واضعةً جلَّ جهدي في الركض، الفزع والألم ونيران الغضب بداخلي اختلطت جميعها كأنه تفاعل كيميائي يفور تحت جلدي، واستمريتُ في العدو.

خارج الكوخ.

نحو الغابة.

وصرخاتي تعلو متواصلةً طوال الطريق.

الفصل 42

كل الذكريات آبت دفعة واحدة. كأنها جحافل من (الزومبي) نهضت من الموت لتتشبث بي بأيدٍ مسلوخة، وأنا أحاول عراكها، فلا أستطيع، فأنا محاصرة، مرتبكة، متشنجة، بينما تعود ذكرى تلو الأخرى. كل تلك الأصوات والصور التي اختزنتُها بعيدًا طوال هذه المدة، عادت جميعها لتسطع في ذهني، ثابتة لا تتزعزع بينما يُعاد عرضها مرة وراء مرة، في حلقة لا نهائية..

«إيمي» وعينا الدمية الميتتين..

«كريج» وهو يُجَرُّ من السيارة..

«بيتز» و«رودني» وفزعُهما الملبوس ويأسهما.

لقد رأوا أكثر مما رأيت، لقد رأوا كل شيء.

ومع ذلك، فقد رأيتُ ما لم يروه، رأيته..«هو»!.. يحبو حول «إيمي»، يئنّ، يقبض على السكين ويرفعه. تلك الصورة ما انفكت تتكرر في خاطري، هناك شيء فيها غير مكتمل، شيء أستشعرهُ ولا أدركه تمامًا.

تحررتُ من قبضة «تينا»، واندفعت إلى الردهة، تدفعُ تلك الذكريات الملحّة ساقيَّ الواهنتين بإصرار، أنفاسي لاهثة، وقلبي يخفق في صدري بقوة.

لم أتوقف حتى صرت في غرفة المعيشة مجددًا. حيث بدأ كل شيء. وقفتُ في نفس المكان تمامًا، حيث وقفتُ منذ عقد من الزمن، أحدِّق في النقطة التي رأيتهُ فيها لمرة أخيرة. بدا كأنه ما يزال هناك متجمداً في المكان لعقدٍ كامل، أراه يرفع السكين في يده، أرى نظارته الملطخة، وخلف عدساتها عيناه الواسعتان، المصدومتان متسعتان في فزع.

مني!

لقد كان خائفًا مني!

لقد ظنَّ أنني سوف أؤذيه!

ظنَّ أنني قتلت الآخرين!

سقطتُ على ركبتيَّ، أشهق مستنشقة الهواء المغبرّ، وأسعلهُ، ومِن بين سُعالي المتقطع المرتجّ قلتُ:

- لم يكن هوا.. لم يكن الفاعل!

قفزتْ «تينا» نحوي، وقد خفضت السكين، وقد نسيتْها الآن. ركعتْ أمامي وقبضت على ذراعي بشدة.. بشدة تؤلم..

- أأنتِ متأكدة؟

لوَّن الأمل كلماتها.. أملٌ مرتجفٌ، متشكِّك، يُرثى له، وهي تصيح:

- قولي إنكِ متأكدة!

- بلى، متأكدة!

فهمتُ الآن لما نحن هنا.. لماذا سعتْ «تينا» إلى «ليزا» وإليَّ. أرادت مني أن أتذكر كل شيء، لتُبرِّئ اسم «چو» وتثبت براءته، وليعرف العالم لمرة واحدة أنه لم يقترف ذلك..

كان كل هذا لأجله..

لأجل «چو»!

قالت «تينا»:

- أردتُ أن آتي معه. أردتُ أن نهرب بعيدًا، معًا. لكنه رأى أن أبقى. حتى بعدما تبعتهُ إلى أسفل الردهة حتى ذلك الباب المكسور، قال إنه سيعود من أجلي، ولذا بقيت أنتظره. ثم أبلغوني بموته. قالوا إنه قتلَ حفنة من الصبية. لكنني كنت واثقة أنه لم يفعل ذلك.

قلتُ:

- لم أكن أعلم، أنا فعلًا ظننتهُ هو من فعلها.

- وإذًا مَن الذي فعلها؟ مَن الذي قتلهم؟

احتقنَ الشك كغصة في حلقي.. سعلتُ ثانية، في محاولة لطرده.

- شخصٌ ما غيره

- أنتِ؟.. أكنتِ أنت يا «كوين»؟

سألتني، ويعلم الله أنَّ لها كل الحق في هذا التفكير.. لقد نسيتُ الكثير، وهي قد رأتني في غضبي، كان هذا هدفها من كل ذلك، أن تستثيرني، تستفزني لترى ما أنا قادرة على فعله، ولم يخبْ ظنها..

- لا.. أقسم بأنني لم أكن أنا

- فمَن إذًا؟

هززتُ رأسي. نفَسي يضيق إنهاكًا..

- لا أعرف

لكنني أعرف.. على الأقل أعتقدُ أنني أعرف، فقد وافتني ذكرى جديدة. شاردة.. إنها ذكرى لي وأنا أركض في الغابة، أرى شيئًا آخر.

شخصًا آخر..

تقاطعني «تينا»:

- إنك تتذكرين شيئًا

أومأتُ.. أغلقتُ عيني.. أفكر.. أفكر حتى طنَّ رأسي..

ثم رأيتُها فجأة. مدوِّية كيوم حدوثها.. أنا أركض صارخة في الغابة، وذلك الفرع يلطم وجهي، ذلك الفرع يأبى إلا أن يلطمني في وجهي. أرى أضواء سيارة، وشبح رجل وسط سطوعها.

شرطي، أرى زيَّه الرسمي.

إنَّه مغطى بشيء داكن ورطب.. في ضوء القمر الخافت، يبدو كأنه ملطخ بزيت المحرك، ولكنني أعلم أنه ليس كذلك.

حتى وأنا أركض نحوه، كنتُ أعرف أن ملابسه الرسمية مغطاة بالدم.

دمي.. دم «چينيل».. دماء كل واحد منا.

لكنني فَزِعة للغاية، بشكل لم يمكِّن عقلي من التفكير الصائب، خاصة و «چو» خلفي في مكان ما في الغابة، يطاردني. وطعم شفتيه ما يزال على شفتي؛ فانطلقت مباشرة نحو الشرطي، وارتميتُ في صدره، ضاغطة ثوبي على زيِّه.

دماء على دماء.

وقلتُ لاهثة:

- جميعهم ماتوا.. كلهم ماتوا.. وهو ما يزال هنا.

برزَ «چو» لجأة من بين الأشجار، فسحبَ الشرطي مسدسه، وأطلقَ ثلاث رصاصات، اثنتان في صدره، ثم واحدة في رأسه، مدوية في ذاكرتي عالية، تمامًا كما كانت في الحقيقة.

سمعتُ طلقة رابعة..

أعلى من الذكرى..

مؤكد في الواقع..

دوَّت في الكوخ، يتردد صداها بين الجدران، منطلقة من جهة الباب المفتوح نحو «كوخ الصنوبر». بحضور وقوة ملأتا الغرفة.

ضربَ وجهي رذاذ من سائل دافئ.

صرختُ مذعورة عندما شعرتُ به، وعيناي تتسعان وأنا أرى «تينا» تتكوم على جانبها، رافعة إحدى يديها خلف رأسها وهي تصطدم بالأرض والسكين ينزلق من قبضتها، وبركة صغيرة من الدم تتسع حولها بسرعة.

لم تكن تتحرك، لم أكن متأكدة أصلًا أنها لم تزل حية.

هززتُها وناديتها:

- «تينا»!

أتت ضجة من رواق المدخل، شخص ما يتنفس.. نظرتُ، لأجد «كووب» يقف هناك، حتى في الظلام، أستطيع أن أميّز بريق عينيه الزرقاوين، وهو يخفض المسدس.

أومأ وهو يقول: «كوينسي»..

هناك دائمًا إيماءة!

الفصل 43

لاحظتُ الخاتم على الفور، خاتم الصف الذي يلبِسه في إصبع خاتم الزواج، هو مألوف لكن غريب، لقد رأيته عدة مرات حتى اعتدته، اعتدتُ كونه مسلَّم به من ضمن الأشياء التي أتحقق من «كووب» بها.

ولذا لم أميِّزه حين رأيتُ تلك الصورة في خزانة ملابس «ليزا ميلنر»، لم يكن وجه «كووب» في الصورة، لكنها فقط يده ملقاة على كتف «ليزا»، والخاتم في مكانه غير مرئي بوضوح، لكنه الآن واضح تمامًا، يضعه في نفس اليد التي تحمل سلاحه.

وعلى الرغم من أنه خفضَ مسدسه، إلا أن إصبعه لم يزل يرتعش على الزناد، وهو يسألني:

- هل أصابكِ مكروه؟

- لا

- جيد.. هذا جيد حقًا يا «كوينسي».

اقتربَ خطوة أخرى، ساقاه الطويلتان جعلتا خطوته تعادل خطوتين من خطوات الناس العاديين، خطوة أخرى وصار بجانبنا، يطلّ شاهقًا فوقنا أنا و«تينا»، أو ربما الآن فوقي أنا فقط، «تينا» قد ماتت على الأغلب. لا يمكنني الجزم.

ركلَ «كووب» السكين بغلظة، لتطير إلى ركن بعيد، حيث ابتلعها الظلام. ليس هناك منطق في محاولة الجري، فلم يرفع «كووب» إصبعه عن الزناد، وضغطة واحدة كفيلة بقتلي، بالضبط مثل «تينا». ناهيكَ عن كوني لا أثق أساسًا في قدرتي على الركض.. الغمّ، والأقراص التي تناولتُها، وثقل تذكُّر تلك الليلة، كل تلك العوامل تضافرت معًا لتشلّ قدرتي تمامًا.

قال «كووب»:

- في أول بضع سنوات، كنتُ دائمًا أتساءل: إلى أي مدى وصلت معرفتكِ عندما طلبتِ رؤيتي في المستشفى؟ في ذلك

اليوم، ظننتك تتلاعبين بي، وأنكِ تريدين أن أكون حاضرًا عندما تخبرينَ المحققين أنكِ تذكرتِ كل شيء. كدتُ ألّا أحضر.

- ولماذا أتيتَ؟

- لأنني اعتقدتُ أني أحبكِ، حتى آنذاك

ترنحتُ قليلًا، وقد أصابني التقزز بالدوار. عندما ملتُ كثيرًا إلى اليسار، شدَّ «كووب» إصبعه على الزناد، فأجبرتُ نفسي على التوقف عن الحركة.

سألته:

- كم عدد قتلاكَ؟.. قبل تلك الليلة؟

- ثلاثة.

أجابني بلا ذرة من تردد، بسلاسة قد يطلب بها قهوته. كنتُ آمل بهنيهة صمت على الأقل.

المرأة المخنوقة على جانب الطريق، والاثنان المخيِّمان اللذان طُعنا داخل خيمتهما. كلهم كانوا مذكورين في المقال الذي وجدته في منزل «ليزا». أظنها علمتْ بما جرى لهم.. أظنها ماتت بسبب ذلك.

- إنه مرض، يجب أن تدركي ذلك يا «كوينسي».. أنا لم أرغب أبدًا في فعل تلك الأشياء.

كنتُ أنشج.. عندما سالَ أنفي، لم يعنِني أن أمسح المخاط المتدلي منه، وسألته:

- فلماذا فعلتَها؟

- لقد قضيتُ عمري كله في تلك الغابات، أتسلقها، وأصطاد فيها، وأفعل أشياء كنت أصغر جدًا من أن أفعلها، لقد فقدتُ بتولتي فوق تلك الصخرة الضخمة على ذلك التل..

قالها ممتعضًا من الذكرى، كارهًا ذاته..

- كنتُ خجلًا مما فعلتهُ، خجلًا إلى درجة أن فكرت في كسر عنقها هناك، على نفس تلك الصخرة، لكيلا تخبر أحدا، لولا الخوف من أن يقبض عليّ، هذا ما منعني عنها.

هززتُ رأسي، ووضعت يدي على صدغيّ، مع كل كلمة كانت قطعة من قلبي تتكسر وتسقط.

- كفى، أرجوك!

لكنه استمرَّ يتحدث، وكلماته تحمل راحة الاعتراف..

- لكنني كنتُ فضوليًا.. فليُعِنني الرب.. اعتقدتُ أن الجندية ستخلّصني من تلك اللعنة.. وأن القتل من أجل وطني سيجعلني لا أشتهيه في غير ذلك. لكن لم يسر الأمر هكذا، كل ما رأيت من عبث هناك جعلَ حالتي تسوء أكثر فأكثر، ولم يمضِ وقت طويل بعدِ عودتي، حين وجدتني في الغابة ثانية. في سيارة معِ عاهرة تمتصني، في محاولة منها لأقلها إلى نيويورك. لم أكن خائفًا تلك المرة، فقد قتلت الحرب الخوف في نفسي، تلك المرة فعلتُها بكامل وعيي.

أبقيتُ وجهي خاويًا بلا تعبير، لا أرغب في إظهار الخوف والاشمئزاز اللذين يموجان في داخلي، لا أريده أن يعرف ما يدور في خلدي، لا أريد أن أغضبه.

أقسمتُ أني سأفعل ذلك مرة واحدة، ثم سأمحوه من تركيبتي. لكنني ظللت أعود إلى الغابة، عادة بسكينٍ معي. وعندما رأيتُ ذينِكَ المخيِّمين، علمتُ أن تلك النوبات لم تغادرني

- وماذا عن الآن؟

- إنني أحاول يا «كوينسي».. إنني أحاول بجدية حقيقية.

- لم تكن تحاول في تلك الليلة.

قلتُها وأنا أرتجف، متمنية أن أجرؤ على التحديقِ فيه، لأُريه إلى أي درجة أكرهه. لم يعد في قلبي بقية، لقد تحوّل إلى شظايا

أحدٌ من السكاكين.

ردَّ «كووبر»:

- كنتُ أختبر نفسي.. بالذهاب إلى هذا الكوخ، كان هذا لأختبر نفسي. أركن السيارة على الطريق، وأتمشى إلى هنا لألقي نظرة سريعة على النوافذ، في مزيج من الأمل والخوف من أن أرى شيئًا من شأنه أن يستدعي النوبة المرضية، ولم يكن هناك شيء أبدًا. إلى أن رأيتكِ.

شعرتُ أنه سيُغشى عليّ، صليتُ من أجل أن يحدث هذا. أردفَ قائلًا:

كان من المفترض أنني أبحث عن الفتى الذي هربَ من المستشفى النفسي، وبدلًا من ذلك أخذت في التجوال حول المكان، جاهزًا لاختبار آخر. عندها، وجدتك في الغابة.. تحملين السكين. لقد مررتِ بي، قريبة للغاية، لو مددتُ يدي كنت لألمسك، ولكنك كنتِ غاضبة جدًا فلم تلحظي. كنتِ تتأججين غضبًا يا «كوينسي».. والحزن يفترسكِ.. كان هذا جميلًا.

- لم أكن ذاهبة لأفعل ما ذهب بكَ الظن إليه، لقد رميتُ السكين.

قلتُ ذلك وأنا أتمنى أن يصدقني.. وأنا أتمنى أن أصدّق نفسي أيضًا يومًا ما.

- أعرف.. لقد راقبتكِ وأنتِ تفعلين، بمجرد أن ظهر.. ثم ذهبتِ، وذهبَ هو كذلك.. ولكن بقيت السكين.. وهكذا التقطتَها.

اقتربَ «كووب» خطوة أخرى، كفيلة بأن تتسلل رائحته إلى أنفي، خليط من العرق وعطر الحلاقة. صدمتني الرائحة بومضات من ذكرى ليلة الأمس.. رائحته الآن هي نفسها تمامًا وقتذاك!

- لم أقصد شيئًا من كل ما حدث يا «كوينسي»، عليكِ أن تصدقيني، كنت فقط أريد أن أرى إلى أين كنت متجهة بعلك

السكين، وأن أعرف ما الذي أغضبَ شخصًا رائعًا مثلكِ إلى ذلك الحد.

وهكذا ذهبتُ إلى الصخرة، ورأيتهما، وعرفت ما أحبطكِ. كانا كحيوانيْن قذرين، هذا ما ما كانا عليه، تعلمين ذلك.. إنهما حيوانان قذران يشخران، ويجب إخمادهما.

أرخَ «كووب» يده التي تحمل المسدس، وهو يُثني ويَفرد مرفقه، كأنما لم تعد لديه النيَّة أن يوجهه نحوي.

- لكنَّ صديقكِ ركض.. «كريج» كان هذا اسمه، صحيح؟. لم يكن بمقدوري تركهُ يفرّ يا «كوينسي»». فقط لم أستطع، وأنتِ كنتِ هناك، وكذلك أصدقاؤكِ.. وعندها علمتِ أن عليَّ التخلص منكم جميعًا

كنتُ أنوحُ الآن أكثر، ودموع العار والحزن والتشوش تُغرق وجهي، وأنا أصيح فيه:

- ولماذا لم تقتلني أنا الأخرى؟ لقد قتلتَ الآخرين، فلماذا تركتني؟

- لأنني علمتُ أنكِ كنتِ حالة خاصة..

كان يتحدث ببطء، كما لو أنه ما زال يهيم بي بعد كل هذه السنوات..

- لقد كنتُ محقًا، كان يجب أن تري نفسكِ وأنت تجرين عبر تلك الغابة يا «كوينسي»»، قوية، متحدية، وفوق ذلك كنتِ تركضين نحوي أنا، مطالبة أن أساعدكِ!

رماني بنظرة تُشرق بالإعجاب.. بالانبهار..

- لم يكن بإمكاني تجاهل ذلك

- حتى ولو كانت هناك فرصة لأن أتذكَّر كل شيء فجأة، وأنكَ أنتَ الفاعل؟

- أجل. حتى لو تذكرتِ، فقد علمتِ أنني خلقتُ منكِ «ليزا ميلنر» أخرى، «سامنثا بويد» أخرى..

- كنتَ تعرف من هما!

- أنا شرطي.. بالطبع عرفتُ.. الناجيات الأخيرات، أيُّ نساء قويات متحديات هنّ! وأنا خلقتُ واحدة. أنا! في قناعتي، فإنَّ هذا يغفر لي كل ما اقترفته. ولقد أقسمتُ ألّا يصيبكِ أي سوء أبدًا. لقد تأكدتُ من أنكِ ستظلين بحاجة إليّ دومًا حتى عندما بدا أنكِ تنجرفين بعيدًا عني.

في أول الأمر، لم أفهم ما يعنيه، ولكن حين حطَّ الإدراك على ذهني، وأثقلني حتى تكومتُ أكثر على الأرض.. قلتُ في وهن:

- الخطاب!.. أنتَ من كتبتَ ذلك الخطاب؟

- كان يجب عليّ ذلك.. كنتِ تبتعدين عني كثيرًا.

كانت هذه هي الحقيقة، كنتُ قد بدأت موقعي الإلكتروني، وانتقلت للعيشِ مع «چيف»، وبدأتُ أتحول أخيرًا إلى المرأة التي كنتُ دومًا أريد أن أكونها. ولهذا سافرَ «كووب» إلى «كوينسي» في «إلينوي»، ليرسل خطاب التهديد المطبوع ذاك، عالمًا أنني سأهرع إليه في غمضة عين، وقد فعلت.

تفتَّق ذهني عن سؤال، تفتّح كزهرة، خفتُ أن أطرحه، ولكن لا مفرَّ من أن أفعل:

- ماذا أيضًا فعلتَ؟ بعد تلك الليلة؟ هل كان هناك المزيد من الشر؟

- بل لقد صرتُ طيبًا.. تقريبًا.

بثَّت الكلمة الأخيرة الرجفة في أوصالي.. الكثير من الفزع يسكن تلك المقاطع الدقيقة.. أكملَ:

- كان الأمر شاقًا يا «كوينسي». مرت بي أوقات كنتُ أقترب فيها من الانزلاق، ولكنني كنت أتشبث بالتفكير بكِ، فأتمكن من كبح جماح نفسي. لم أكن لأخاطر بفقدكِ، أنتِ مَن جعلتني أسيطر على نفسي.

- و«ليزا»، ماذا عنها؟

رفع «كووب» رأسه، وبدا صادق الندم، وهو يجيب:

- كان هذا ضروريًا.

لأنَّ الشك ساورها في أمر ما، ربما بعد أن أتتها «تينا» تتقصَّى إجابات عن «كوخ الصنوبر». عندها بحثتْ «ليزا» في الأمر، لأنها كانت من تلك النوعية من الشخصيات التي تربط التفاصيل. وظلت تنظر في الأمر بعدما ذهبت «تينا»، ووجدت تلك المقالات عن الجرائم في الغابات، وكتبت بعض الرسائل، وجمعتها كقطع البازل، لتخرج بنتيجة أن «چو» لم يكن قادرًا بدنيًا على قتل كل هؤلاء في «كوخ الصنوبر».. لن يتمكن من شخص ضخم مثل «رودني» أو رياضي مثل «كريج»، بينما «كووب» هو الشخص الوحيد من بين الموجودين ليلتها القادر على مفاجأتهم والتغلب عليهم.

لهذا راسلتني «ليزا» عبر البريد الإلكتروني، قبل مقتلها مباشرة، لقد أرادت أن تحذرني من «كووب». سألته:

- كنتَ تعرفها، أليس كذلك؟.. لهذا دعتكَ إلى منزلها، وشربتَ معها، كانت تثق بكَ.

- لم تثق بي.. ليس في تلك الليلة، لقد كانت تحاول أن تجرَّني إلى الاعتراف.

- لكنها سبقَ ووثقت بكَ.

أفلتتْ منه إيماءة لا تكاد تُلحظ، وهو يقول:

- منذ سنين مضت.

- أكنتُما عاشقين؟

أومأ ثانية، إيماءة أكاد أشكّ في أنني رأيتُها. لم أتفاجأ، فكرتُ ثانية في الصورة التي وجدتُها في حجرة «ليزا»، في الطريقة التي كان ذراع «كووب» ملقى بها على كتفها، بتلقائية تشي بمدى قربهما وبسلاسة اللمسة بينهما

- متى؟

- بعدما حدثَ هنا بوقت قصير. لقد طلبتُ من «نانسي» أن تدبر لقاءنا، بمجرد أن أدركتُ أنني خلقتُ «ناجية أخيرة»، رغبت في مقابلة الباقيات. أردت أن أرى إذا ما كنَّ قويات مثلك.

كان يُضفي منطقًا جيدًا على الأمر بليِّ أعناق الحقائق، كأنني من بين كل الناس، يجب أن أفهم دوافعه في مقارنتنا ومفاضلتنا.

- كانت «ليزا» شخصية مميزة، أشهد لها بذلك، كل ما أرادته هو مساعدتكِ، لا يمكنني أن أحصي المرات التي سألتني فيها عنكِ، كيف تتأقلمين مع الحياة، وهل تحتاجين إلى مساعدة. إنني مستاء مما حدثَ لها، اهتمامها بكِ كان مذهلًا يا «كوينسي»». كان بها من النبل ما ليس في «سامنثا»».

حاولتُ ألّا أظهر صدمتي، لم أرد أن أعطي لـ «كووب» إحساسًا بالرضا، لكنه استشفَّ ذلك وابتسم ابتسامة باهتة، مفتخرًا بنفسه.

- نعم، قابلتُ «سامنثا بويد»، الحقيقية، وليست تلك التقليد الرخيص.

أشارَ بذقنه نحو جسد «تينا»، وزمَّ شفتيه، وللحظة بشعة ظننتهُ سيبصق عليها، فأغمضتُ عينيّ لأتجنب رؤيته وهو يفعل، وسألته:

- أكنتَ تعلم طوال هذا الوقت أنها ليست «سام»؟

- نعم.. لقد عرفت ذلك في اللحظة التي رأيتُ فيها صورتكما في الجريدة. هناك درجة من الشبه بالتأكيد، لكنني عرفت أنها لا يمكن أن تكون «سامنثا بويد» الحقيقية. ما لم أعرفه وقتها، هو ماذا أفعل حيال ذلك!

عادت ذاكرتي إلى الليلة الماضية، عندما عدتُ إلى المنزل ووجدت الاثنين معًا، استرجعتُ كيف كانت يد «كووب»

على رقبتها، قد تبدو مداعبة لها، وقد تكون إطباقًا عليها.. لقد كان ينوي قتل «تينا» أيضًا، ربما هناك في غرفة الضيوف.

- لماذا لم تخبرني؟

- لم أستطع. ليس دونَ أن أُعلمكِ أن «سامنثا بويد» الحقيقية ميتة.

تأوهتُ.. تضخَّم حزني ووجعي إلى درجة أنَّ إخفاءَهما لم يعد ممكنًا. ظللتُ أئنُّ، وأنيني يعلو محاولًا إيقاف اعترافات «كووب»، ولكنني سمعت ما يكفي بالفعل، لقد قتل «كووب» «سامنثا بويد» أيضًا، لم تختفِ عن الأعين، بل هو من محاها من الوجود. أئنُّ مستنكرة:

- لماذا؟

- أنها لم تكن مثلكِ يا «كوينسي»، لم تستحق أن تتذكرها نفس النفوس التي تتذكرك، لقد قطعتُ كل ذلك الطريق إلى تلك المدينة القذرة في «فلوريدا» فقط لرؤيتها، لما وجدت إلا نفايةً من الدهن المهترئ، لا شيء فيها من «سامنثا بويد» التي تصورتها، لم أستطع تصديق أنَّ هذه هي الفتاة التي نجت مما حدث في ذلك النزل. كانت فَزِعة، وخنوعة، ولا شيء فيها مثلكِ، كانت متلهفة إلى إرضائي. يا إلهي! كانت فعليًا ترمي بنفسها عليَّ. على الأقل كان لـ «ليزا» بعضٌ من التماسك.

فجأة، اتخذت كل قطعة موضعها، كعقد من الخرز نُظمت فيه كل خرزة تلوالأخرى ليكتمل التصميم في حلقة تامّة.

لقد ضاجعَ «كووب» ثلاثتنا، «سام»، «ليزا»، وأنا.

والآن ماتت منا اثنتان، وأنا الوحيدة التي بقيت حية!

استمريتُ في النواح، واعتصرتْ قبضة باردة صدري مستنزفة دموعي.

- إنها حق لم تسأل عنكِ.

قالها «كووب» كأنَّ ذلك مبرر كافٍ لموتها. أُكمل:

- «سامنثا بويد» الناجية الأخيرة مثلكِ، كان جلّ همها هو البقاء معي دونَ أن تكلف نفسها عناء السؤال عنكِ نهائيًا.

تساءلتُ في مرارة لاذعة كدموعي:

- وماذا عني يا «كووب»؟ هل كنتُ جيدة؟

أبعدَ مسدسه ووضعه ببطء في جرابه، ثم بدأ يقترب متجنبًا جسد «تينا»، ونزلَ على ركبتيه إلى حيث انهرتُ على الأرض، حتى صارت عيناه الزرقاوان تنظران مباشرة في عيني..

- لقد كنتِ رائعة!

- والآن؟

ارتجفتُ خشية أن يلمسني، نائية عن معرفة أي نوع من اللمسات ستكون.

- ما زال بإمكانكِ أن تكوني رائعة.. بإمكانكِ أن تنسي كل شيء عن تلك الليلة.. وعن هذه الليلة.. عن السنوات العشر الماضية. كنتِ قد نسيتها بالفعل، فليس عليكِ إلا أن تعودي إلى نسيانها.

وخزَ ساقي شيء على الأرض، شيء حاد.. سألته:

- لماذا لو لم أستطع؟

- ستفعلين.. سأساعدكِ لتفعلي.

خاطرتُ بلمحة بعيدة عن «كووب»، لأرى إن كان ما حزَّ ساقي هو مطواة، نفس المطواة التي سقطت من جيب «روكي رويز»، لقد احتفظت بها «تينا» من باب الأمان، والآن ها هي تدفع بها في طريقي، بشكل ما لم تزل حية تنظر نحوي بعين واحدة مدماة، والوشم يبزغ من كم سترتها، وعلى الرغم من أن الكلمة مقلوبة، إلا أنها واضحة:

- «صامدة»

- يمكننا الرحيل إلى أي مكان، نحن الاثنان فقط، ونبدأ حياة جديدة معًا.

كانت نبرته جادة للغاية، كما لو أنه يؤمن فعلًا أن هذا ممكن. ولكنه ليس كذلك، كلانا موقنان من هذا.

لكنني واصلتُ التمثيلية، أومأتُ، ببطء في البداية، ثم استجمعتُ سرعتي بينما يحني «كووب» ويلمس وجنتي، وقلتُ له:

- نعم، سأحبُّ ذلك.

همَس «كووب»:

- «كوينسي».. حلوتي الجميلة «كوينسي»

ثم أحاطَ عنقي بيديه، اللتين تضغطان برفق، محاولًا ألا يؤلمني بشدة. كان يبكي هو الآخر، وقد اختلطت دموعه بدموعي، بينما تضيق قبضتاه حول حلقي.

كان إبهامي يتحسس نصل المطواة، وينزلق على حرفه الحاد، و«كووب» مستمر في اعتصار عنقي، وإبهامه يتسلل فوق قصبتي الهوائية، ضاغطًا إياها، كان ما يزال يبكي، ويئن بالكلمات في فمي:

- «كوينسي».. الحلوة.. الحلوة «كوينسي».

أمسكتْ أصابعي بمقبض المطواة، وانقبضت حولها، وقد تقطعت أنفاسي، و«كووب» ما يزال يعتذر ويدفع باعتذاراته على شفتيّ هامسًا:

- أنا آسف

- رفعتُ المطواة.

«كووب» لم يزل يضغط، يقبِّل، ما زال يعتذر.

- أنا آسف جدًا جدًا.

توقعتُ أن جسد «كووب» سيستعصي، كما لو كان مخلوقًا مما هو أكثر من الجلد والأنسجة، لكن المطواة اخترقت جنبه بسهولة، فاجأته، حتى إنه تجمَّد على وضعه وهو يهتف:

- كوينسي!

كانت الصدمة جلية في تلك الكلمة الوحيدة.. صدمة، وشعور بالخيانة، وأظنني استشعرتُ لمحة من الانبهار.

لم تسقط يداه عن عنقي، حتى نزعتُ المطواة، وقذفَ الجرح بنافورة دماء لزجة وساخنة. حاول «كووب» أن يجذب نفسه بعيدًا، لكنني عاجلته بطعنة جديدة، هذه المرة في وسط بطنه، وأدرتُها في داخله، فتشنَّج جسده وتقيأ الدم قاذفًا إياه من فمه.

وضعَ يده على يدي، محاولًا إخراج النصل من أحشائه، فضغطتُ على أسناني، ونخرتُ المطواة مثبتة إياها مكانها، وعندما وهنت قبضته عليها، لففتُها لفة أخيرة.

همسَ ثانية:

- كوينسي

بينما يتغرغر الدم في حلقه، منحته إيماءة واحدة تأكدتُ أنه رآها قبل أن تنقلب عيناه إلى الأعلى. أردتُ له أن يعرف أنني لستُ مجرد صامدة ولا مجرد مقاتلة مثلما تخيَّل دائمًا أن أكون.

إنه من أبدَعني، معجونة من الدم والألم والنصال الحديدية الباردة.. أنا ناجية أخيرة قوية.

أربعة أشهر بعد «كوخ الصنوبر»

لم يكن الـ «بيج» لونٌ يليق بـ «تينا»، لقد طمسها، صار القماش وجلدها غير مميزين عن بعضهما. عدا شحوبها، فقد كانت تبدو بخير حال، نفس الجسد الممشوق، ونفس لغة الجسد الحادة، فقط شعرها كان مختلفًا، كان أقصر، باللون البني الداكن بدلًا من الأسود الحالك.

- ستبدين كشخص مختلف عندما تخرجين

قالت لها «كوينسي» فردت «تينا»:

- سنرى.. خمسة عشر شهرًا مدة طويلة.

كلتاهما تعلمان أنها ربما أقصر من ذلك.. أو ربما لا. كانت حالة غير اعتيادية، كل شيء ممكن. على الرغم من تفاجؤ «كوينسي» بطول العقوبة، إلا أنها لم تفاجئ «تينا». مذهل هو أسلوب الشرطة حين تريد أن تنال منك لادّعائك أنك شخص آخر. انتحال شخصية، سرقة هوية، أنواع متعددة من الاحتيال. كانت التهم الموجهة لـ «تينا» متنوعة وتغطي عدة ولايات، مما جعلَ «چيف» يحذِّرها من أنها قد تقضي ما قد يصل إلى عامين في السجن.

أملت «كوينسي» في مدة عقوبة أقل، فقد مرت «تينا» بما يكفيها، رغم أنها تقسم أن الأمر كان يستحق كل هذا العناء.

ربما بعضه يستحق فعلًا، على الأغلب الجزء الخاص بتبرئة اسم «چو هانين»، فقد تمَّ إعلان براءته للعالم كما أرادت طوال الوقت.

ولكنَّ «تينا» كادت أن تموت، بسبب ذلك الشخص الجديد الذي لم تعد «كوينسي» قادرة على التلفظ باسمه، والذي أخطأت رصاصته رئة «تينا» اليسرى ببضعة مليمترات، وأخطأت قلبها بأقل من ذلك. كان فقدانها للدم مقلقًا للأطباء، لكنها في المجمل تعافت جيدًا. وشُفيت بالضبط في

موعد إرسالها إلى السجن.

لم تكن المرة الأولى التي تقول لها فيها «كوينسي»:

- تعلمين أنه ليس عليكِ فعل ذلك، فقط قولي كلمتك، وسأعترف أنا بكل شيء.

تلفتت ناظرة حولها في غرفة الزيارة، التي كانت مزدحمة بالنساء الأخريات المرتديات اللون الـ «بيج» وضيوفهن، وهسيس الحوارات الذي ارتفع من الطاولات المجاورة بكل أشكال اللغة. ومن النافذة المغطاة بالقضبان، رأت «كوينسي» الثلج المتسخ ينجرف على ارتفاع السياج الأمني، حتى علق أعلى سلك بارز. لم تكن حقًا تدري كيف تتحمل «تينا» هذا المكان، رغم تأكيدها لها أنه ليس بهذا السوء، قائلة إنه يذكرها بـ «بلاكثورن».

- الأمر ليس كما لو أن اعترافكِ سيُخرجني من هنا أسرع، وعلاوة على ذلك، فقد كنتِ على حق، لقد جعلتكِ تفعلين ذلك لـ «روكي رويز»

أفاقَ «روكي» من غيبوبته، تقريبًا في ذات الوقت الذي أغمدت فيه «كوينسي» تلك المطواة في.. «هو».. لمرة أخيرة. كانت ذاكرته ضبابية، والسبب الرئيسي أنه كان منتشيًا بالمخدر أكثر مما سببه الضرب من أذى له، ولكنه أدركَ أنه هوجم. وضد إرادة «كوينسي» اعترفت «تينا» بأنها الفاعلة، ولم يدافع «روكي» ضد هذا الاعتراف، ولم تتقصَّ المحققة «هيرناندز» في الأمر أكثر من ذلك.

واقترحَ «جيف» صفقة إقرار بالذنب، وبموجبها تقضي «تينا» مدة عقوبة مشتركة لجريمتي الاعتداء والاحتيال في آن واحد.

قالت «كوينسي»:

- لم تُجبريني على فعل شيء... لقد كان قرارًا بمحض إرادتي

إلى هنا كان الكلام محقًا، لكن تداعيات ذلك القرار لم تكن محسوبة. سألت «تينا»:

- ألم يجدوا «سامنثا» الحقيقية بعد؟ لقد كنتُ أسأل الحراس عن الأخبار

- كلا

أجابتها كوينسي وهي ترفق الكلمة بطقطقة من لسانها. وأردفت:

- ما زالَ البحث جاريًا عن جثتها.

بمجرد أن ثبتَ أن «سامنثا بويد» الحقيقية قد قتلت، خرجت شرطة «فلوريدا» كلها في محاولة لاستعادة جثتها. قضت «كوينسي» أربعة الأشهر الماضية في متابعة الأخبار، بينما تبحث السلطات في المستنقعات والبرك الآسنة، وتحفر في أراضٍ خالية، ولكن «فلوريدا» ولاية كبيرة، وما هو إلا احتمالٌ ضئيل أن يعثروا عليها.

في النهاية خلصت «كوينسي» إلى أنه ربما هذا هو الأفضل. لحين العثور على جثة «سام» فستشعر أن هناك «ناجية أخيرة» أخرى في العالم غيرها. وأنها ليست «الناجية الأخيرة» الوحيدة.

سألت «تينا»:

- وماذا عن «چيف»؟ كيف حاله؟

فأجابتها «كوينسي»:

- ربما تتحدثين معه أكثر مما أفعل أنا.

- ربما.. في المرة القادمة التي سأحدِّثه فيها، سأخبره أنكِ ترسلين له التحية.

لكن «كوينسي» تعلم في قرارة نفسها أن هذا لن يُحسِّن من الوضع شيئًا. فقد أوضح «چيف» رأيه فيها بوضوح شديد، في تلك الليلة الطويلة الرهيبة، عندما اعترفت بكل آثامها. لقد دمَّرها أن تراه يتذبذب بين الحب والغضب والتعاطف والتقزز، إلى لحظة ما أمسكَ بها متوسلًا سببًا منطقيًا يشرح لماذا نامت مع «هو».

ولم تجد سبباً تقدمه.

ولذا قررتْ أن أفضل خيار لهما هو الانفصال. وحتى لو وجدَ «چيف» في نفسه مساحةً ليغفر لها، إلا أنهما لن يكونا الاختيار الأنسب لبعضهما، كان عليهما أن يريا ذلك من البداية.

ردَّت «كوينسي»:

- سيكون هذا لطيفًا، أخبريه أنني أتمنى له الخير.

كانت تعني ما قالت، «چيف» يحتاج فتاة طبيعية، وهي بحاجة إلى التركيز على أمور أخرى، مثل استعادة حالة موقعها الإلكتروني على سبيل البداية، التقليل من تناول الخمر، والتوقف عن «الزاناكس».

في اليوم التالي لرحيل «چيف»، وصلت أم «كوينسي»، قادمة في زيارة طويلة، فعلتا فيها كل ما كان عليهما أن تفعلاه منذ سنوات.. تحدثتا.. بكتا.. غفرتا.. معًا، ضغطتا السيفون على كل تلك الحبوب الزرقاء الصغيرة، والآن عندما تهفو إلى واحدة منها تتجرع بعض صودا العنب، محاولةً خداع مخها للتغلب على انسحاب الـ «زاناكس»، فأحيانًا تنجح، وأحيانًا لا.

قالت «تينا»:

- لقد قرأتُ حواركِ الطويل.

- أنا لم أقرأه، كيف كان؟

- لقد قدَّم «چوناه» عملًا متقنًا

بعد أحداث «كوخ الصنوبر» الجزء الثاني، أجرت «كوينسي» لقاءً واحدًا فقط لصالح «چوناه تومبسون». شعرت بأن هذا هو الشيء الصائب الذي تقدمه له، مقابل مساعدته لها، رغم طريقته الخاصة المبالغ بها.

كل منصات الأخبار الكبيرة من «ترنتون» إلى «طوكيو» التقطته بعدها. كل مراسليها أرادوا كلمة منها، ولأنها لم تعد

ترغب بالإدلاء بأية أحاديث أخرى، فقد استقروا بدلًا عنها على «چوناه»، الذي كان قادرًا على استثمار هذا الالتفات إليه ليصنع ضجة أكبر. وها قد بدأ العمل في «نيويورك تايمز» يوم الإثنين. وتمنَّت «كوينسي» أن يكونوا مستعدين له.

أخيرًا قالت:

- إنني سعيدة بأن الحوار كان جيدًا.

بدأت الغرفة تخلو حولهما، والزيارة على وشك الانتهاء، وأدركت «كوينسي» أنَّ عليها أن تغادر أيضًا، لكنَّ استفسارًا إضافيًا كان يلح في عقلها.

- هل شككتِ أنَّ «هو» كان المسؤول عما حدث في «كوخ الصنوبر»؟

ردَّت «تينا»، وهي تدرك تمامًا مَن الذي تشير إليه:

- لا.. كل ما علمتُه أنه لا يمكن أن يكون «چو».

- آسفة لأنني لمتُهُ كل تلك السنين.. آسفة لأنني سببتُ لكِ مثل هذا الألم.

- لا تعتذري، لقد أنقذتِ حياتي.

- وأنتِ أنقذتِ حياتي يا «تينا».

حدَّقتا في بعضهما بعضاً دون كلام، حتى أتى الحارس إلى الباب ينوِه إلى أنَّ الوقت قد حانَ للانصراف. عندما وقفت «كوينسي»، قالت «تينا»:

- أتظنين أنكِ ستعاودين الزيارة يومًا ما؟ فقط لإلقاء التحية عليّ؟

- لا أعرف.. هل تريدين أن آتي؟

ردَّت «تينا» وهي تهز كتفيها:

- لا أدري.

على الأقل كانتا صادقتين مع بعضهما بعضاً، كما كانتا دومًا،

حتى عندما كانتا تكذبان. ردَّت «كوينسي»:

- إذن أظن أن علينا أن ننتظر ونرى.

لاحَت شبه ابتسامة على شفتيّ «تينا» وهي تقول:

- سأكون بانتظارك يا فتاتي.

قادت «كوينسي» سيارتها المستأجرة عائدة إلى المدينة، ملتفتة بعينها من حين إلى آخر إلى الشمس الغاربة، المنعكسة على الثلوج المُزاحة على جانبي الطريق السريع. كان المشهد عبر النافذة أقل ما يقال عنه إنه محبط، صف ممل من مراكز التسوق والكنائس، وساحات السيارات المستعملة المزدحمة بالمركبات المرقطة بملح الطريق. إلا أن أحد المحالّ خطفَ انتباهها، واجهة محل فضية، محشورة بين مطعم بيتزا ووكالة سفريات مغلقة في عطلة نهاية الأسبوع. توهجت النافذة بإضاءات النيون على اللافتة، بلون وردي قرأتْ: (وشم)

بدون تفكير، انحرفت «كوينسي» إلى الساحة، وأغلقت السيارة، ودخلت. رنَّ جرس صغير معلق على الباب يعلن وصولها. وفي مكتب الاستقبال، استقبلتها امرأة ذات شفاه ياقوتية مكتنزة، وكوكبة من النجوم الوردية مرسومة على رقبتها. كان شعرها بنفس لون شعر «تينا» القديم. سألتها:

- هل يمكنني مساعدتكِ؟

- نعم، أعتقد أنه يمكنكِ.

بعد ساعة، كانت قد انتهت.. مؤلم، لكن ليس قدر ما توقعت «كوينسي».

سألتْها الفتاة ذات النجمات الوردية:

- هل أعجبكِ؟

لفَّت «كوينسي» ذراعها، لتفحص هذا النقش اليدوي.. ما زال الحبر عليها رطبًا ويلذعها، بلون داكن يناقض زغب معصمها، وبنقاط من الدم مكان وخز الإبرة تحدد كل حرف

كأضواء إفريز، ولكن مع هذا كانت الكلمة سهلة القراءة:

((صامدة))

- إنها مثالية.

قالتها «كوينسي» معجبة بالوشم. إنه الآن جزء منها، دائم مثل ندوبها.

كانت ما تزال تحدق فيه، عندما ظهرت الأخبار العاجلة على شاشة التلفاز في الصالون. في محاولة لتجاهل الألم منذ قليل أثناء حقن الحبر الأسود أسفل بشرتها، كانت ترمي نظرها نحوه. ولكنها كانت تركز مع الألم أكثر مما يعرض التلفاز. لكنها الآن تنتصب منتبهة.. تتجمد في مكانها أمام ما تراه، ومذيع الأخبار يعلن العثور على عدد من المراهقين مقتولين في منزل بـ «موديستو» بكاليفورنيا، مجموع القتلى تسعة.

هرعت «كوينسي» خارجة من صالون الوشم، عائدة بسرعة إلى المدينة، وبمجرد وصولها البيت، قضت الباقي من الليل في تقليب القنوات الإخبارية سعياً لمزيد من المعلومات عمَّا أسموه «المذبحة في موديستو». ثمانٍ من الضحايا كانوا في السنة النهائية من المدرسة الثانوية، يحضرون حفلًا أقامه الابن في غيابِ أبويه، والشخص الآخر كان عامل صيانة في مدرستهم، ظهرَ بلا مقدمات ومعه مقص حدائق مشحوذ. أما الناجية الوحيدة فكانت تبلغ من العمر ثمانية عشر عامًا، تُدعى «هايلي بيس»، واستطاعت الفرار بعد قتل الرجل الذي ذبحَ أصدقاءها.

لم يفاجئها ذكر أحد المذيعين لاسمها، فهذه أول حادثة من نوعها منذ «كوخ الصنوبر». وهكذا ظلَّ هاتفها يطنّ طوال الليل، بمكالمات ورسائل من المراسلين.

في الثالثة صباحًا أغلقت التلفاز، وفي الخامسة كانت في المطار، وعندما دقت الساعة السابعة، كانت تطير إلى «موديستو»، والألم في الوشم لم يزل ينبض في رسغها.

انتظرت «كوينسي» إقامة المؤتمر الصحفي، قبل أن تتسلل

إلى المستشفى. بالقرب من الأبواب الأمامية تحلّق المراسلون كطيور جارحة ترقب فريستها من تقارير الأطباء المشرفين على «هايلي» ووالديها. فلم يلاحظوها وهي تسرع نحو الداخل، متخفّية وراء نظارة شمسية مستديرة كأعين البوم، التقطتها من محل هدايا في المطار.

في الداخل، لم تقابلها مشكلة مع المرأة الحنون في الاستعلامات، والتي حدّثتها بلطف كي تعطيها رقم غرفة «هايلي».

- أنا ابنة عمتها، وصلتُ لتوي من نيويورك، وأتحرق لمقابلتها.

غرفة «هايلي» كانت معتمة، مهيبة، مكتظة بالورود، تشبه محراب كنيسة، كما لو كانت «هايلي» تحت حماية في ملاذ.

حين خطت «كوينسي» داخل الغرفة، كانت «هايلي» مستيقظة بالفعل، مستندة إلى كومة من الوسائد. كانت فتاة بسيطة المظهر، جميلة، ولكن ليست صارخة الجمال، بشعر حريري بني، وبأنف أنيق صغير، قد يسهل عدم ملاحظتها في الزحام.

لولا هاتان العينان.

إنهما ما جذبَ «كوينسي» لتدخل إلى عمق الحجرة.. عينان خضراوان لامعتان بلون الزمرد، تشعان بالقوة والذكاء، حتى وسط كل هذا الألم العميق، استشفّت «كوينسي» جزءًا صغيرًا من نفسها في هاتين العينين.. وكذلك في «تينا» أيضًا.

لقد كانتا متوهجتين.

سألتها بينما أخذت تقترب من الفراش:

- كيف تشعرين؟

- أتوجّع

قالتها بصوت متقطع قليلًا، من أثر خليط الإرهاق والمسكنات والحزن. أكملت:

- في كل مكان من جسدي.

قالت «كوينسي»:

- هذا متوقع.. لكنه سينتهي مع الوقت

كانت عينا «هايلي» لا تفارقان عينيها، وسألتْها:

- من أنتِ؟

- اسمي «كوينسي كاربنتر»

- ولمَ أنتِ هنا؟

أمسكتْ «كوينسي» بإحدى يديّ «هايلي» ضاغطة إياها برفق..

- أنا هنا.. لأعلّمكِ كيف تصبحين «الناجية الأخيرة».

((النهاية))

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook

شكر وتقدير

تأليف كتاب مسعًى فردي. أما نشر الكتاب -على النقيض- فهو رياضة جماعية، وأشعر أني ممتن لكوني جزءًا من فريق ينتشر في قارات العالم.

لزمَ الشكر لوكيلتي، «ميشيل براور»، التي ساعدَتني حماسها لـ «الفتيات الناجيات» على تحقيق رقم قياسي جديد في سرعة الكتابة، ولـ «تشيلسي هيلر» التي أوصلتْها إلى أيادي المحررين حول العالم، ولكل العاملين في مشاريع «كون و زاكري شوسترهارمزوورث». وشكرٌ خاص لـ «آني هوالج» في إدارة «فوليو» الأدبية، التي تولَّت أمر رداءة أول مسودة.

في «داتون»، يجب أن أشكر محررتي الرائعة المدهشة، «مايا زيف»، التي لا يكون العمل معها إلا متعة، و«مادلين نيوكوِست»، لحفاظها على سلاسة العملية، و«كريستوفر لين» لتصميمه الرائع للغلاف، و«رايتشل ماندك» لستر عيوبي اللغوية. شكرًا جزيلاً لكل العاملين مع الناشر البريطاني مؤسسة «إبوري»، وخاصة «إيملي ياو»، التي أبدتْ حماسها البيِّن لهذا الكتاب من أول البداية.

وأيضًا أدينُ بالشكر لزملائي المؤلفين «هيستر يانج»، و«كارلا نورتن»، و«صوفي ليتلفيلد» لختمهم بالموافقة على نسخة مُبكرة من الكتاب. دعمكم صنعَ الفارق.

أخيرًا، يجب أن أشكر كل أصدقائي وعائلتي الذين منحوني دعمهم المعنوي في الفترة الظلماء التي كتبت فيها «الفتيات الناجيات».. خاصة «سارة داتون»، عسى أن تحصل مخبوزاتك من بيوت الزنجبيل على أرفع الجوائز دائمًا.. كذلك أنتَ يا «مايك لفيو»، الشكر لا يفيكَ حقك، لم يكن أيٌّ من هذا ممكنًا إلا بقوتِكَ الهادئة وبإصراركَ الراسخ أن «نعم يمكنني فعلُها»، لذا فعلت، ولكَ كل الفضل في ذلك.

عن الكاتب

ترجع أصوله إلى ولاية بنسلفانيا، رايلي ساجر مؤلف ومحرر ومصمم جرافيك. يعيش رايلي الآن في برنستون، نيوجرسي.

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook